المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة



تأليف: دينيس سميث
ترجمة: علي أمين علي

الأجندة الخفية للعولمة

1672

الأجندة الخفية للعولمة

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر سنة ٢٠٠٦ بإشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

- العدد: 1672
- الأجندة الخفية للعولمة
- دينيس سميث
- على أمين على
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة كتاب:

GLOBALIZATION : 1st Edition

The Hidden Agenda

By: Dennis Smith

This edition is published by arrangement

with Polity Press Ltd, Cambridge

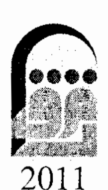
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤- ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

الأجندة الخفية للعولمة

تـألـيـف: ديـنـيـس سـمـيـث
ترجمـة: عـلـى أميـن عـلـى



2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سميث، دينيس

الأجندة الخفية للعولمة، تأليف: دينيس سميث، ترجمة: على أمين على

ط ١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١١

٣٧٦ ص، ٢٤ سم

١ -العالم - الأحوال السياسية

(أ) على، على أمين (مترجم)

(ب) العنوان ٣٢٠,٩٠٩

رقم الإيداع ١٦٦٦٨ / ٢٠١٠

الترقيم الدولى: I.S.B.N- 978 - 977- 704 - 253- 6

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

مقدمة المؤلف.. 7
قضايا محورية.. 11
مواثيق الحداثة.. 39
طرائق الإذلال.. 53
أطر العولمة.. 81
النزعة الإمبريالية.. 87
منطقة السوق.. 127
التحول إلى العالمية.. 159
الهروب.. 183
القبول.. 221
الرفض.. 255
الديمقراطية الراشدة أم الدولة المهيمنة؟.. 291



مقدمة المؤلف

ما مستقبل المجتمع العالمى فيما يتعلق بالدوافع القوية التى تنبثق عن العولمة؟ وما موقف الغرب فى عالم فقد فيه دور السيطرة والهيمنة؟ وما القوى الدافعة لتشكيل المجتمعات الداخلية في أورآسيا وأمريكا وإفريقيا؟ هذا الكتاب هو آخر قوائم الاستفسار المتمثلة فى هذه الأسئلة المطروحة لما يربو على ربع قرن من الزمان.

بدأ هذا الاستفسار كتاب Conflict and Compromise and Barrington Moore، وما تبعه The Chicago School وكتاب The Rise of Historical Sociology وكتاب Capitalist Democracy on Trial. وتتناول هذه الكتب دور الأفراد والجماعات في المجتمعات الأهلية والغرب. كما يركز كتاب Zygmunt Bawman: Propbet of postmodernity و NorbertElias and Modern Social Theory على انسجام المجتمعات الأهلية هياكل العولمة الدولية. والآن ومع كتاب (الأجندة الخفية للعولمة) يتم التعاطى مع تلك القضايا بتفصيل أكبر، ومن ثم التركيز على الدول القومية والجماعات والأفراد ضمن سياق أوسع.

أتوجه بالشكر والعرفان إلى إيفلين ليندنر (Human Dignity and Humiliation Studies) ويوهان غالتونغ (TRANSCEND) وهوانغ بينغ، ولى بى لين، ولوه هونغقوانغ، وشير شين، وقوانغ شىءا ومايكل هان، وتشنغ جينغ زهاو، وويهاو وما تشون هوا وزهاو بن وسان شيالونغ (Beijing) وجاو جيانغو وجيرن لين وفو يو دى وليمينج فان، وليمينغ فان قينغ وتشين مينغ فنغ وهونغ لين

ودونغى زانغ وزونغمينغ جى وزو يانبينغ (Jinan) ولى يومى ووانغ وى وتاو فيبا وتشانغ جينغ هوا وليو وزهاو (Shangha) وبيتر باهر ومايكل بوند (Hong Kong) وفلاديمير بانكراتيف وأناتولى خازانوف وإيلينا ملكومينا وأليكسى ديمشينكو وماريا كورنوستافيا وفلاديمير كولتيجن وبوريس سوسلاكافو وررودولف يانوفسكى وتيودور شانين وفاسيلى جوكوف وفلاديمير دوبرينكوف وررودولف يانوفسكس ولاريسا وروبان غالينا أوسادشيا (Moscow) وإيرا كتسنلسون وجاك سنايدر وآلان برينكلى وبوب كيرى وجانيت أبو لغد وأريستيد زولبيرغ ونيدها سرينيفاس وولف شايفر أرجوماند وباربرا تالترز وتشارلز تيلى (New York) وبروس ومازليش ونيفا غودوين وإليوت مورس ودومينيك ساشنماير وأكيرا إريا وسوزان روزفلت وليندا براونسون (Cambridge, Mass) وجى بى رووس وجان كارلس لاجرى وإيلونا أوستنر وإلزبيتا حلس ومارغريتا بيرتيلسون وياسمين سويسال وجيرى موسل وكابيتولينا دياز وآنا روتكيرش وألابيورنبريغ وإيلينا درافوميسلوفا (European Sociological Associatio) وآرى سيتاس وكارلوس فورتونا ودفورا كاليكن – فيشمان وسيد فريد التاس وسوجاتا باتل وجوليا إيفيتس وسوزان ماك دانيل بيرند هورنونغ وراكيل سوسا وتينا أويس وهنرى تونا داسارز تشيتى وبيرند هورنونغ (International Sociological Association) وأوسكار جونزاليس ومغربنا ماكلويد (Mexico city) وهينج آى يونغ وهابيبول هاج خوند كير وجنيفر جرمن (سنغافورة) وإيبى زيجى وفينو ريدى وراميش باروثرام وبريا ناريمسمولا وكوفين نايدو وأفاندا سينغ (جنوب أفريقيا) ودينيس أوهيرن وايون بروين وكلير هاكيت ومايك توملينسون وديفيد دونسيز (بلفاست) ونيلس برونسان ورون بريمفورس وكريستينا جارستن وغوران آرن وآبوستوليس بابا كوستاس (ستوكهولم) وربنر غروجندمان وسو رايت وجورجيوس فاروكساكس وهنرى ميللر (استون) وكانكاكس ليليداكس وسورندرا مونشى وتشايم

ماركولو وآبى بيترسون وروبرت فاين وزوجمنت بومان وباربرا مزتال وجون أورى وروث ليستـــر وتيـــريزا ويتـــاكر وروبرتو فرانزوسى وكذلك رعاة (Café Cuturel) فى (Wax Bar) ، نوتنجهام.

كما أضافت ماريا غورنوستيفا بعض التعليقات القيمة التى تتعلق بالفصول الرئيسية. وأود أيضًا أن أتوجه بالشكر والعرفان إلى زملائى بقسم العلوم الاجتماعية بجامعة لوبورو وإلى الموظفين الفنيين والعاملين بالإدارية والسكرتارية. وأنتهز الفرصة لأتقدم بالشكر إلى فيفيان داليوال لمساعدتها فى عمل الرسوم البيانية والجداول. ولا أنسى فى هذا المقام جميع أفراد أسرتى لدعمهم المستمر وتجلدهم بالصبر. وأشكر السادة القراء الذين لا أعرفهم ، وأشكر إيما لونجستاف بمطابع Polity Press، والمحرر روث ثاكيراى. وعلىَّ أن أتحمل كامل المسئولية عما قدمته فى هذا الكتاب وما تضمنه من أسماء أشخاص معروفة أو غير معروفة للتعليق على هذا الكتاب، يرجى زيارة الموقع الإلكترونى WWW.globalhelix.org

دينيس سميث

١

قضايا محورية

نُذُر الخطر

إذا لم تُغير العولمة اتجاهها وتطوى شراعها فإن الثمن المدفوع من صميم الحرية وحقوق الإنسان سيكون فادحًا، وإذا مضينا على النحو الذى نعيشه الآن فستزيد نذر الشر التى قد تفضى إلى نشوب حرب عالمية كبرى بحلول منتصف القرن، ومن ثمَّ فإن الأمر برمته منوط بهوية الرابح فى المعترك السياسى الذى تدور رحاه.

وليس الصراع الأنكى هو ما يدور بين الغرب و"الإرهاب"، بل إنه يدور داخل الغرب نفسه. فمن جانب، ثمة مؤيدون للديمقراطية الراشدة التى تثمر عن منافع جوهرية، منها الكرامة والحرية والإنصاف فى معاملة جميع المواطنين، وعلى الجانب الآخر، هناك أنصار للرأسمالية المتحررة التى تفرضها الدولة المهيمنة ضانة بفوائدها على الكثيرين. ولاشك أن محصلة هذا الصراع ستشكل صورة العالم لما بقى من القرن الحادى والعشرين.

إلى أى مدى سيذهب الاتحاد الأوروبى مدافعًا عن التزامه التاريخى بالجمع بين استجلاب الرخاء ومظاهره والوصول إلى جوهرٍ راسخٍ لحقوق الإنسان التى تهتم أيما اهتمام بالفقراء والمحرومين؟ وحتام يتسامح مع عزم الولايات المتحدة نشر "منطق السوق" الغاشم فى أرجاء المعمورة دون اكتراث لرغبات الآخرين، بمن فيهم حلفاؤها الأقدمون؟ وكم تستغرق أوروبا من وقت لبناء قوتها العسكرية بالقوة التى تعادل قدراتها الاقتصادية الهائلة؟ وهل سيجد الاتحاد الأوروبى والولايات المتحدة أنفسهم فى نهاية المطاف متدخلين فى جوانب متعادية فى

صراعات مسلحة؟ أهو أمر غير معقول؟ لنذكر أنه كان من غير المعقول أيضًا أن نرى أوروبا فى خضم عدوان عسكرى بين فرنسا وألمانيا، بل ينسحب التفكير ذاته على عالم بدون الاتحاد السوفييتى، واعتناق الصين الفكر الرأسمالى.

وعندما يكون الانقسام سيد الموقف فى الغرب، ما الدروس المتمخضة عن صراعاته الداخلية لتتلقفها شعوب العالم الهائجة المائجة حيثما كانت فى حواضر أوروبا وآسيا وأمريكا وأفريقيا؟ ولا يخفى أن تلك الشعوب هى صاحبة الكلمة فى مستقبل يشاركوننا فيه، فإذا استسلمت الديمقراطية الراشدة فى الغرب أمام الرأسمالية المتحررة والدولة المهيمنة؛ فهذا نذير برسالة مفادها: فروا من صفوف الحملان إلى صفوف الذئاب، استأسدوا على الآخرين، وتلكم كانت عقيدة هتلر.

إذا حُرِم أهل حواضر الدنيا خير الديمقراطية الرشيدة، واستذلهم منطق السوق العالمية، فالمآل بهم حتمًا إلى تغرير يتبعون به ذئابًا جددا من فصيلة هتلر مبشرين بجدوى منطق الانتقام، كما حدث ذلك من قبل. وإذا تكرر مجددًا فسنكون على شفا حرب عالمية ثالثة أحد أطرافها الولايات المتحدة التى تخشى ذل الانهيار الحضارى واستقواء جيرانها المتزايد فى أوروبا وآسيا.

إن فهم خبيئة المستقبل يعنى – ما لم نحل دون وقوعه – النظر إلى الأجندة العامة للعولمة بهدف استجلاء المعطيات والآليات التى تشكِّل بنود هذه الأجندة الخفية.

قضايا حساسة

ما تحمله الأجندة العامة للعولمة بادٍ للعيان، ذلك أنها تركز على فرص السوق والمصالح الاقتصادية والاستفادة من الموارد المادية الأساسية. ومن المعلوم أن مزايا الاستثمار الأجنبى المباشر كثيرًا ما تتردد على الألسن، ومثلها العقوبات "الصحية" التى فرضتها جهات متعددة الأطراف، مثل صندوق النقد الدولى. كما

نسمع كثيرًا عن التنافس على مصادر الطاقة مثل النفط والغاز، والمكائد التى تحاك لحرمان المنافسين على الصعيدين السياسى والجغرافى من الاستفادة من هذه المصادر. من جانب آخر، تحتفى الصحافة الغربية لوهلة بالثورات السياسية التى باتت توصف بالثورات "البرتقالية"، أما الهجوم على مركز التجارة العالمى فى ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١ (أحداث ٩/١١)، فقد آذن بإضافة بند آخر إلى تلك الأجندة: ألا وهو "الحرب على الإرهاب".

تُخفى هذه الأجندة العامة فى طياتها أجندة خفية للعولمة، وتلكم البنود تتلاقى بصورة أو بأخرى مع كم غفير من المصالح الراسخة التى كثيرًا ما يُجهر بها على بساط البحث. وثمة خمسة بنود فى ثنايا الأجندة الخفية بين الحاضر وحتى عام ٢٠٣٥، وبيانها كالتالى:

١. كيف ستواكب الولايات المتحدة وغيرها من القوى العظمى هذا الانهيار النسبى الوشيك فى النفوذ العالمى لأمريكا؟
٢. كيف ستدار الحوكمة العالمية عندما يذوى النفوذ الأمريكى؟
٣. بعد ظفر الرأسمالية فى النهاية، فما هو نوع النظام الرأسمالى السياسى الذى ستكون له الهيمنة؟ وما الطرف الذى سيخدم هذا النظام مصالحه، وكيف؟
٤. ما الآفاق العالمية المستقبلية لإيجاد منظومة تصون حقوق الإنسان بدعم من الاتحاد الأوروبى مع تأكيده على قوة الحقوق الاجتماعية؟
٥. مع ازدياد انتقال السكان للحضر، بله الحديث عن تمدُّن نصف سكان العالم حاليًا والتوقعات التى تشير إلى تمدُّن نصف سكان الدول النامية بحلول عام ٢٠٣٠، كيف يتسنى لهذه الكتل البشرية حديثة العهد

بالتمدن الاندماج فى الأنظمة السياسية والاجتماعية العالمية، وما القوة السياسية التى ستتولى القياد؟

على مدار العقود القليلة المقبلة، سيُماط اللثام عن الأجندة الخفية للعولمة لتتكشَّف عما هى عليه الآن، وعندما تصبح أسئلتها المحورية ظاهرة لكل شخص، فإننا قد نجدها عندئذٍ مجابة برياح لا تشتهيها السفن. وعلى ذلك، إذا أردنا اقتناص الفرصة لنضمن لمصالحنا الاحترام لا التجاهل، لابد من التعاطى مع تلك المصالح بميزان العقل البنّاء وبروح ناقدة. ولابد كذلك من الاعتراف بوجود الأجندة الخفية للعولمة، علاوة على اكتساب فهم أرحب لمفهوم العولمة وطبيعة عملياتها.

يعرض هذا الكتاب "منحنى ثلاثيًا" للعمليات التاريخية التى تشكِّل الأجندة الخفية للعولمة، التى إن استمرت على دربها الحالى فلابد لنا أن نتوقع عواقب وخيمة مدمرة إبان انتصاف هذا القرن.

طوفان العولمة

تكشَّف مدلول العولمة خلال حقبة الثمانينيات من القرن المنصرم، واستغرق الأمر بعض الوقت حتى تسامع الناس بها، ولم يدأب الناس على الإشارة إلى العولمة خلال الحقبة المذكورة أو إعداد مراجع بشأنها، بيد أن العقد الأخير من القرن ذاته شهد تحولا فى هذا الصدد من رذاذ إلى تيار قوى ثم إلى طوفان جارف؛ ذلك أن أهل الصحافة والأعمال والسياسة والفكر اغتنموا المصطلح الوافد إلى ساحات التعامل بين بنى البشر وجعلوه مفهومًا دائم الحضور فى خطاباتهم. وشاع الحديث عن "العولمة" بسرعة، (انظر الشكل التوضيحى ١-١[١]) لنجد أنفسنا أمام منحنى تعبيرى ذى تسارع رهيب كموجة بحر عاتية، وهى صورة تعكس الطريقة التى تعاطى بها العالم مع العولمة لاسيما العالم الغربى.

ساد انطباع خلال العقد الأخير من القرن الماضى مفاده أن العولمة باتت أشبه بتسابق أمواج الطوفان إلى الشاطئ، حاملة معها نذر التغيير سواءً أحببناه أم كرهناه. وبدا عالم العولمة محفوفًا بالمخاطر مائعًا بلا شكل خارجًا عن السيطرة[٢]، وشهدنا دلائل ذلك فى كل مكان:

- حركة المال السريعة على المستوى العالمى بسرعة من وإلى عملات قومية مختلفة؛ مما سبب انهيارًا اقتصاديًا فى أعقابه.
- بحث الشركات متعددة الجنسيات بلا هوادة عن مصادر جديدة للطاقة، والمواد الخام النادرة والعمالة الرخيصة المرنة حيثما وجدت تلك المصادر والمواد، ثم الارتحال بلا تردد وبسرعة إذا رأت بديلا أفضل فى مكان آخر.
- تدمير الوظائف بفعل تكنولوجيا المعلومات، واختراق دروع الحماية من كل نوع، وإهدار القديم لإيجاد مكان للجديد.
- فقدان المواطنين الثقة فى حكم الموظفين والفنيين، وإرغامهم على مواجهة مخاطر لم يروا لها وجودًا.
- تصميم مجموعات على الهجرة من الدول الفقيرة إلى الغرب؛ آملين فى درجة أعلى على سلم الرخاء الاقتصادى.
- التدافع المختلط بين مختلف الثقافات والجنسيات والعرقيات، وما يتمخض عن ذلك من خوف وتمزق وصراع.

اقرأ على سبيل المثال كتابات أنتونى جيتر عن العالم المارق، وزيجمنت بومان عن المدنية المائعة، ومانويل كاسيلز عن عصر المعلومات، وألريخ بيك عن مجتمع المخاطر، وصامويل هنتينجتون عن صراع الحضارات، وتوماس فريدمان عن الهياج المتعولم المفضى إلى "قطيع مساق إلكترونيًا" من المستثمرين العالميين[٣].

ساعدت هذه المواضيع على تعقل كيفية *مواجهتنا* للعولمة أثناء التسعينيات وحتى العقد الذى نعيشه من القرن الجديد، لاسيما فى الغرب. وهؤلاء المؤلفون قدموا شيئين: أولاً، لقد استقرءوا شعورنا بالقلق والغضب والاضطراب والضعف وحاجتنا للشعور بالأمان. ثانيًا، قدموا لنا مفاهيم منظمة تربط هذه المشاعر باتجاهات أساسية متنوعة، أى ما يتمثل فى تراجع السيطرة وتزايد السرعة وزيادة الميوعة والأهمية المتزايدة لتكنولوجيا المعلومات، وزيادة الوعى بالمخاطر المحدقة، واضمحلال الغرب وإحياء ثقافة السوق، وما إلى ذلك.

وقد قدمت لنا هذه الأعمال مفردات تصف حالتنا، وحددت العوامل التى قد ننحى عليها باللائمة، كما قدمت رؤية مستقبلية نافذة للعالم الذى نعيش فيه. غير أننا الآن بحاجة إلى أكثر من ذلك بمراحل، إذ نحتاج إلى خريطة وبوصلة وأسلوب للانتقاء من السبل الممكنة فى الارتحال بين جنبات هذا العالم، كما أننا بحاجة لاستشراف آفاق تربو على الحاضر، لا استشراف المستقبل فحسب بل استقراء الماضى أيضًا.

إن استشـــراف المستـــقبل واستقراء المـــاضى يكشفان أن العولمة ما هى إلا عملية تاريخية معقدة طويلة تجمع قارات الدنيا فى نسيج واحد. إنها نتاج ثقافى وسياسى وتقنى واقتصادى تشكلت ملامحه على امتداد قرون طوال، فتاريخها قد يعود إلى عصر الفايكينج بل إلى عصور وأحقاب سابقة عليه[٤].

كما تميط اللثام عن حقيقة مفادها أنه على امتداد أغلب تلك القرون كانت المشاريع أو التجارة سفير العولمة فى انتظار مطية إلى العصر، وما كان هذا السفير فى محل الموجه إلا لمامًا وما كان بدور القائد إلا قليلاً[٥]. علاوة على ذلك، فإن الولايات المتحدة – من منظور تاريخى – كانت "رائدة العولمة" لوهلة قصيرة فقط، بل إن المرحلة الأمريكية من العولمة تجنح باتجاه الأفول خلال العقود القليلة القادمة.

لماذا التاريخ؟

المنظور التاريخى بالغ الأهمية، وليس من قبيل الرفاهية الفكرية، فنحن نستخدم هذا المنظور فى حياتنا اليومية لاتخاذ قرارات وتقييمات مهمة فى حياتنا. ومن هذا القبيل: هل يمكننا شراء مركبة إلا بالنظر إلى سجل أدائها؟ هل يمكننا تعيين موظف دون السؤال عن مهنته السابقة؟ أو هل نسكن مع شخص فى منزل دون أن نعرف شيئًا عن حياته السالفة؟

نحن معطيات تاريخنا، فنحن نتاج عمليات التطور الشخصى. علاوة على ذلك، أصبحنا أنماطًا خاصة من الكبار والمواطنين والمستهلكين والشخصيات الثقافية نظرًا لتأثير جماعات ومؤسسات شتى، مثل (الأسرة والعرق والبلد والدين والمذاهب الجماعية)، التى تخضع هى الأخرى لعمليات من التطور.

لكن ثمة مخاطر، من بينها اختلاق أساطير عن الماضى وانطباعات خاطئة عن الحاضر وتفكير وردى عن المستقبل. ولنتجنب ذلك نحتاج إلى التحلى بالمعرفة الذاتية والشك الصحى واعتماد معايير قوية للاستدلال، والرغبة فى النظر إلى أنواع مختلفة من الأدلة قدر الإمكان والانفتاح على أفكار الآخرين والاستعداد لتغيير عقولنا إذا كان المنطق والاستدلال يدعوان لذلك.

وينسحب الأمر ذاته على تحليل العولمة، فبتطبيق هذا الاتجاه نكتشف من خلال التحليل التجريبى أنها عملية تاريخية اجتماعية معقدة شديدة التشابك مع عمليات أخرى، تحركها آليات مميزة تكشف أعمالها عن نفسها من خلال جذور ضاربة فى أعماق التاريخ. واكتشاف هذه الأشياء عن العولمة يعطينا فرصة أكبر لإدراك مكاننا الحقيقى فى هذه العملية، وما الخيارات المستقبلية المتاحة لنا.

ما العولمة؟

تعنى العولمة الانصهار التدريجى للعلاقات بين المجموعات والمجتمعات حتى تلتقى العلاقات فى النهاية من أدنى العالم إلى أقصاه على اختلاف اتجاهاته. وقد أصبحت هذه العلاقات أكثر عمقًا وكثافة وتعقيدًا وحركةً على مدار قرون طوال. فكيف تشكلت هذه العملية التاريخية الطويلة؟ وما أنواع التشبيك والهرمية التى تمخضت عنها؟

إن المغامرات التعولمية (المفضية إلى العولمة)، التى خاضها المستكشفون والانتهازيون ومبرمو الاتفاقات تتمخض عن شبكات واسعة النطاق مرتخية الأطراف من العلاقات الاجتماعية، وهذه الشبكات عرضة للتصدع والتفسخ كلما زادت تعقيدًا واتساعًا. بيد أن الشبكات تنجو من مأزق التوسع السريع باستحداث مواقع للمراقبة والتحكم الهرمى، وهذا الدور منوط ولا شك بالعواصم الاستعمارية، وعلى شاكلتها تمضى مؤسسات أخرى مثل صندوق النقد الدولى ومنظمة التجارة العالمية.

ثمة مدلولان لكلمة "العولمة" هما:

- الكيفية التى تصبح بها القوى والآليات الثقافية والسياسية والعسكرية والتقنية والاقتصادية "*عالمية*" الطابع، أى أن تكون بيد مؤسسات على المستوى العالمى، فى حقبة تاريخية.
- الكيفية التى تتمخض بها المصالح والمؤسسات على المستوى العالمى عن الضغط على من هُمْ دون خطورة الموقف، لاسيما الحكومات الوطنية ومواطنيها، مقيدةً حرية تلك الحكومات إزاء التصرف بل تملى عليهم كيفية العمل فى بعض المجالات.

إن "التعولم" طريقة للحد من طابع "المحلية"، فعلى مر الأزمان تعلم القرويون التطلع إلى المدن الكبرى التى تزايد شعور قاطنيها بجاذبية الوجه الحضرى بصبغته الوطنية، تلكم المدن التى تكشفت الحقائق أمام قاطنيها يومًا بعد آخر بأن رأس المال وأوساط الائتمان والسوق فى جلها أوساط منخرطة فى دوائر عالمية[٦]. وفى الوقت نفسه، أحنت الأسر المحلية الحاكمة ظهورها لحكام الدول القومية التى وجدت نفسها جزءًا من إمبراطوريات تشتت أطرافها فى قارات المعمورة[٧].

ولطالما انسحب رداء "المحلية" شيئًا فشيئًا عن القوى والآليات المجتمعية منذ نشأة المجتمعات البشرية رغم حدوث ذلك دون صراع، بل وُجِد توتر مستمر بين الضغوط المحلية للاستيطان والدفاع عن الوطن من ناحية، والضغوط المعارضة للتوسع خارج نطاق المحلية وضم المزيد من الأراضى والاستحواذ على المزيد من الموارد وإقامة نطاق تحكم أكبر يمكن من خلاله استطلاع الحيز المضموم والسيطرة عليه من ناحية أخرى.

كادت هذه الضغوط الأخيرة أن تسود بعد انتكاسات متكررة؛ ذلك أن تراجع طابع المحلية لمصلحة طابع العالمية قد حدث فى خطوتين متتاليتين، وخطوة للوراء كاندفاع موجات البحر وانحسارها عند ظهور المد.

لكن المد تحول إلى طوفان جارف فى تسعينيات القرن المنصرم، لماذا؟ لأن بنية التحكم الهرمية التى تتولى التوجيه والتقييد لموجات المد العالمى عانت من أزمة مدمرة، والسد المنيع الذى كان يحول دون الفيضان آل إلى زوال، ونقصد بذلك انهيار الاتحاد السوفييتى أو الكتلة السوفييتية ... ذلك الحدث الذى آذن بأفول النجم الأخير للحلم الاستعمارى القديم، كان نهاية الإمبراطوريات كشكل جديد من الحكم المتمتع بمقومات الحياة.

نهاية الإمبراطوريات

نعنى بالإمبراطورية وجود هرمية عسكرية سياسية، الغرض منها إعلاء سمو الفرد أو الأسرة الحاكمة أو مجموعة أو أمة متوجة على عرشها، وفى المقابل دونية كل ما عداها. كانت الإمبراطوريات جزءًا من العولمة منذ أن عرفها الزمان، فقد أضفت عليها ملامح التنظيم والغطاء السياسى والشرعية اللازمة لعولمة المغامرات والمشاريع التى يخوضها المحاربون والدبلوماسيون والتجار والمبشرون والمصلحون والانتهازيون على اختلاف مشاربهم، ثم تلاشت كل هذه المشارب بانبلاج فجر الديمقراطية والمواطنة وحقوق الإنسان مدعومة بقوة الولايات المتحدة.

كان انهيار الاتحاد السوفييتى عام ١٩٨٩، نهاية لعمل عواصم أوروبا الاستعمارية المتغطرسة، التى بدأت عندما دمرت أسلحة الأمريكان الأسطول الإسبانى عام ١٨٩٨. والحق أن الأمر استغرق قرنًا من الزمان لتعلم مدريد وبرلين وفيينا وإسطنبول ولندن وباريس وموسكو باستحالة استقرار النزعة الاستعمارية المطلقة ودوامها فى عصر الديمقراطية.

كان هذا درسًا قاسيًا؛ فالنزعة الاستعمارية تأبى الاضمحلال والزوال، ومن ثم مازالت تتوهج فى واشنطن التى تدفع الآن ثمن سطوة هذه النزعة، لاسيما فى العراق.

من أهم الأسئلة التى طُرحت فى القرن العشرين: ما النظام العالمى الذى سيخلف الإمبراطوريات الأوروبية؟ وكان من الأجوبة: تأسيس الأمم المتحدة مع إقرار ميثاقها عام ١٩٤٥، ومع ذلك صعُب على عالمنا إذواء طرقه القديمة.

خلف الإمبراطوريات الأوروبية أثناء الحرب الباردة إمبراطوريتان عالميتان كبيرتان، إحداهما فى موسكو والأخرى فى واشنطن، فقد شغلت هاتان القوتان بمقوماتهما السياسية والعسكرية الفراغ الذى خلفته الإمبراطوريات الأوروبية القديمة، بيد أنهما ورثتا آفات تلك الإمبراطوريات ممثلة فى محاولة الجمع بين

الحكم المطلق أو التأكيد من الوسط الحاكم إلى الوسط المحكوم بدعوى المساواة والتحرر والديمقراطية.

وقد كانت إمبراطوريتا الحرب الباردة أكبر من الإمبراطوريات الأوروبية القديمة غير القادرة، وحاولتا أن تكونا أكثر منطقية وتنظيمًا، فلطالما سعتا إلى إثبــات حضوريهما فى أعين العالم بالاستعراض بالأعمال المثالية، لكن المفارقة ها هنا تجلت فى أن هذا التوجه جعلهما أكثر عرضة من الإمبراطوريات السابقة للأثر السياسى الناجم عن أوجه التناقض فى البنية المحتوية للنظام، وهو أثر كانت معطياته بادية للعيان، لاسيما فى صورة الحركات التحريرية وأعمال القمع (كما فى فيتنام وأفغانستان).

واليوم، تلاشت الإمبراطورية الروسية العالمية وخرجت الإمبراطورية الأمريكية وحيدة بلا منافس من رحم النسل الإمبراطورى القديم.

وقد كان انهيار حائط برلين وتفسخ الاتحاد السوفييتى عاملين حاسمين فى تكسيح كيان الإمبراطورية؛ مما أبقى "البطل" الأمريكى وحيدًا بين أنقاض الإمبراطوريات. ونجم عن ذلك فراغ سياسى كبير ومفاجئ فى أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى، وقد تضافرت هذه العوامل وأطلقت قوى كبيرة، وأرسلت رأس المال والسلع والثقافات والأشخاص إلى جميع أنحاء العالم عابرة بل محطمة كل الحدود فى كل القارات.

كانت هذه مرحلة انتقالية ضمن عملية العولمة. فى السابق أُرغم التدفق الاقتصادى والديموغرافى ليأخذ مساره من خلال وحول الاهتمامات الإستراتيجية العالمية للحكومة والقوات المسلحة. لكن فى التسعينيات "تحررت" حركة رأس المال والعمال عالميًا وأُعطيت فرصة جديدة للحياة. وقد استُغِلت هذه الوقائع قدر المستطاع، لاسيما فى الاتحاد السوفييتى السابق ودول الكتلة السوفييتية القديمة.

ما وراء السوق

حتى نفهم العولمة لابد أن ننظر فيما وراء السوق آخذين فى الاعتبار ثلاثة أمور:

١. من الناحية التاريخية، تحركت العولمة – على القدر ذاته بل بمقدار أكبر أحيانًا – بدافع من تمجيد الآلهة وتعظيم الحكام والسعى وراء الفرص التجارية.

٢. أدت العولمة إلى تشريد البشر أو إقصائهم على نحو يولِّد فيهم الإحساس بالاستباحة والسخط.

٣. نموذج الساعين وراء الربح المُقدمين على اختيارات منطقية تخص مصالحهم المادية قد أصبح نموذجًا منقوصًا كأداة لفهم الطريقة التى يشارك بها الأفراد فى العولمة. وقد حركهم أيضًا كيفية تأثير أعمال الآخرين على شعورهم بذاتهم ومكانهم فى المجتمع، وكيفية شعورهم إزاء هذه الاعتبارات.

بالأخذ بمنظور تاريخى للأحداث، مصحوبًا برؤية شاملة لكيفية تصرف الأفراد كما أسلفنا، يمكننا الآن النظر فى ثلاث عمليات تاريخية اجتماعية تشكِّل الأجندة الخفية للعولمة. هذه العمليات الثلاث هى العولمة واثنتان أخريان شديدتا الارتباط بها: إحداهما من تشكيل فعاليات الإذلال(٨)، والثانية تركز على تنظيم الحداثة (انظر المربع ١–١)، وسنتناول هاتين العمليتين بالتحليل والشرح لما بقى من هذا الفصل.

المنحنى الثلاثى

كل عملية من هذه العمليات التاريخية الاجتماعية الثلاث سالفة الذكر لها منطقها الداخلى الواضح، ومن الممكن إصدار تعميمات تجريبية على المعايير

المميَّزة التى تدور كل عملية من العمليات الثلاث فى فلكها، وهى على الترتيب: أطر العولمة، وأنماط الرد على الإذلال، ومواثيق الحداثة.

والعلاقات بين العمليات الثلاث قريبة أيضًا، وبالمثال يتضح المقال، فالعولمة سبب رئيسى فى الإذلال بالنسبة للكثيرين، كما أن مواثيق الحداثة (ميثاق الشرف وميثاق حقوق الإنسان أو مزيج من هذا وذاك) لها تأثير عظيم فى أنماط استقبال الإذلال وفهمه، علمًا بأن بعض جوانب العولمة، مثل النزعة الاستعمارية، تحركها رغبة المشتغلين ببناء الإمبراطوريات هربًا من الإذلال فى عقر دورهم وفرضًا للهيمنة على الآخرين.

الجدول ١-١ العمليات والدوافع والمتغيرات

العمليات	الدوافع	المتغيرات
العولمة	السعى نحو • النفوذ • المكانة • العائد	أطر العولمة: النزعة الإمبريالية منطق السوق حالة التحول إلى العالمية
تنظيم الحداثة	السعى لتنظيم • المنافسة الاجتماعية • معاملة الضعفاء • الوصول إلى المنافع الاجتماعية	مواثيق الحداثة: ميثاق الشرف ميثاق حقوق الإنسان مزيج من المواثيق
فعاليات	فرض	أنماط الرد على الإذلال:

الإذلال	• الإخضاع • النفي • الإبعاد	الهروب ← دوائر الخوف القبول ← دوائر التضحية الرفض ← دوائر الانتقام

أما الاستعمار فقد تقوضت جُل أصوله واجتث من جذوره بانتشار ميثاق حقوق الإنسان.

ونظرًا لآليات الاستجابة من هذا النوع بين العولمة وتنظيم الحداثة وفعاليات الإذلال، يمكننا معالجة هذه العمليات التاريخية الاجتماعية المتداخلة باعتبارها منحنى ثلاثيًا (انظر المربع ١-٢). ولا شك أن فهم هذا المنحنى سيساعدنا فى استجلاء بعض الاستجابات الممكنة على الأسئلة المطروحة حول الأجندة الخفية للعولمة، مما يعنى الإبحار فى الماضى للوصول إلى رؤية أوضح للحاضر واستشرافٍ أفضل للمستقبل.

العملية الأولى: العولمة

تتمثل فعاليات العولمة وقواها المحركة الكبرى فى السعى وراء القوة والمنزلة والربح فضلاً عن الرغبة فى ضمان البقاء. ولما كان الفائزون ينقضون على الخاسرين مستحوذين على أصولهم ومقدراتهم، وفى ظل ازدياد توسع الشبكات الإنسانية وزيادة تعقيدها.

الجدول (١ – ٢) المنحنى الثلاثى

أطر العولمة

النزعة الإمبريالية

منطق السوق

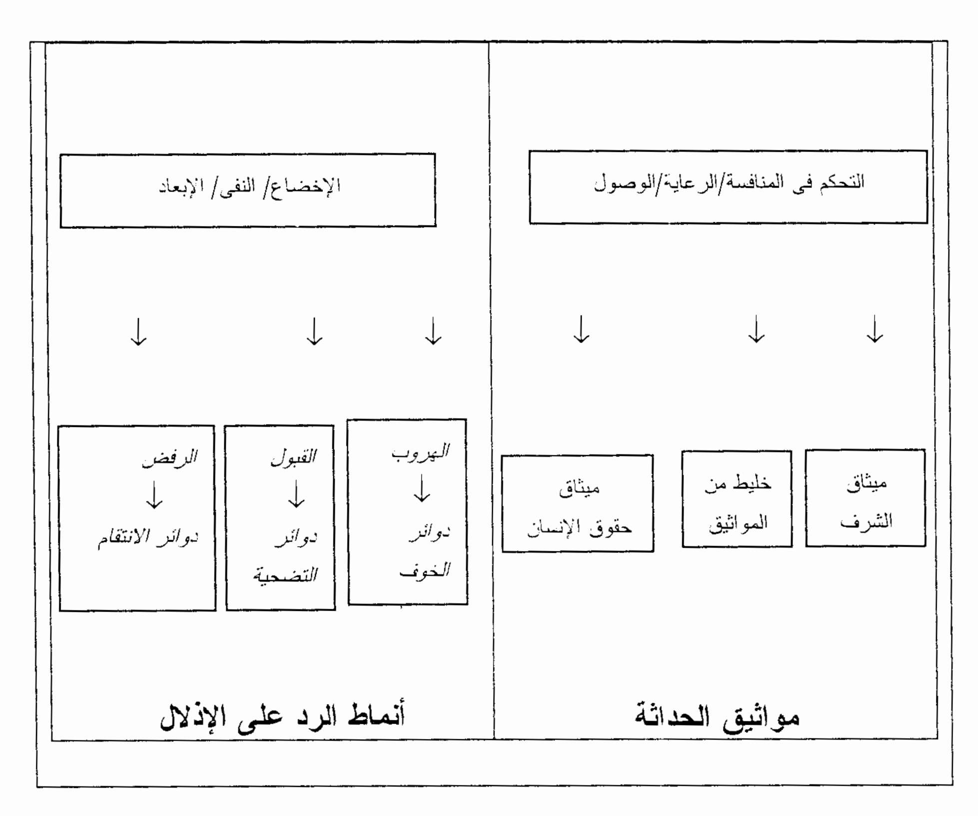
حالة التحول إلى العالمية

السعى لتحقيق السلطة/المكانة/العائد

العولمة

تنظيم الحداثة

فعاليات الإذلال



وعندما تتصدر المراقبة ونفوذ الحكم الأجندة؛ تتطور الهرميات الحاكمة بدورها لتكتسى مجالاتها وميادينها طابع العالمية فى نهاية المطاف.

تُخلف العولمة ضحايا ومنتصرين، وهناك من يكون قدرهم المصاب لا بالأموات ولا بالمنتصرين، وهؤلاء يندرجون ضمن ضحايا النزعة الاستعمارية. أما من هم فى معرض استقبال الدافع إلى الهيمنة والتدمير فمرغمون على الخضوع أمام أسيادهم الغرباء، فهم يفقدون أصولهم وشعورهم بالاستقلالية، ويرون دمار منازلهم وضياع مستقبلهم. ويلى هؤلاء ضحايا منطق السوق الذين تحولوا إلى خاسرين وفقًا لقوانين لعبة لم يطلبوا المشاركة فيها. وأخيرًا، ثمة ضحايا مُغرَّبون للحالة الحضرية، تلكم الفئة التى اقتلعتها التحولات السياسية الاجتماعية، وتُركت وقد تقطعت بها السبل بين القديم والحديث، عرضة للشعور بالتحرر والذل فى

الوقت نفسه: التحرر من حيث ضعف القيود على تصرفاتهم، والذل من حيث فقد النصير لشعورهم بالهوية والقيمة.

ويمكن تقسيم الفترة منذ عام ١٦٠٠ إلى ثلاثة أطوار تاريخية هى:

١. الاستعمارية الأوروبية. وقد بلغت هذه المرحلة نهايتها أثناء العقود التى تلت نهاية الحرب العالمية الثانية، وعندما تداخلت مع المرحلة الثانية.

٢. الاستعمارية العالمية. أثارت مواجهة الحرب الباردة "الكتلة الشيوعية" بزعامة روسيا "والعالم الحر" بزعامة أمريكا ضد بعضهما البعض. وبحلول التسعينيات لم تبق إلا الإمبراطورية الأمريكية بالرغم من إحداق صراع داخلى عميق بها، لاسيما بين أوروبا والولايات المتحدة. وقد شهد هذا الطور بدوره تداخلاً مع المرحلة الثالثة.

٣. تعدد القطبية العالمية. يوشك عالم القطب الواحد الذى تهيمن عليه أمريكا أن ينتهى، ففى العقد الأول من القرن الحادى والعشرين بدأت المرحلة الثالثة فى التشكل مع تزايد استقلالية الاتحاد الأوروبى، ونهوض الصين، وتجدد اليابان، وانبعاث روسيا، وظهور الهند بالتزامن مع المؤشرات الواضحة للإعياء الأمريكى مع الاشمئزاز من دورها الحالى "كحاكم للعالم".

العملية الثانية: تنظيم الحداثة

ثمة حاجة إلى فهم العولمة وتقييمها من حيث قدرتها على تحسين أو تضييع فرص أغلبية سكان العالم فى أن ينعموا بحياة كريمة وهادئة فى المستقبل المنظور. وهذا يعنى استكشاف مدى تداخل عملية العولمة مع التفاعل القائم بين ميثاقين فى منظومة الحداثة هما: ميثاق الشرف وميثاق حقوق الإنسان.

لفت أليكس دوتوكوفيل الأنظار إلى هذه القضية فى إطار طرحه فى كتابه "الديمقراطية فى أمريكا" (توكوفيل، ١٩٦٨)[٩]، المكتوب فى ثلاثينيات القرن الماضى، فقد استشرف مستقبلاً أصبح فيه الأرستقراطيون من أمثاله – مدفوعين بدافع من ميثاق الشرف ذى الطابع الهرمى القوى – مضطرين إلى الرضا بمقعد خلفى إن بقى لهم وجود أصلاً فى الدول الديمقراطية التى أعلت شأن المساواة وتطلعت إلى مواطنة ذات أحكام عامة على الجميع. وبنهاية القرن التاسع عشر، تعاطى فريدريك نيتشه بشدة ضد ما أطلق عليه اسم "أخلاق العبيد" وطالب بعودة القيم الأرستقراطية المميزة لميثاق الشرف، والتى قصد بها قبول القوة والفَخَار والإبداع لأفراد بارزين مستعدين لأخذ ما يريدون وأن يكونوا كما يختارون.

يركز ميثاق الحداثة على ثلاثة أمور: التنافس الاجتماعى وتوفير الرعاية والحماية والتحكم فى الاستفادة من المنافع الثقافية والاجتماعية التى ترتقى بالحياة. ولدى التعامل مع هذه المعطيات نجد أن ميثاق الشرف يثمن القوة: أى القدرة على تعظيم رصيدك فى العالم والقدرة على تحطيم أعدائك. إنه ذو طابع خاص مفاده: "أنا أعتنى بنفسى، ونحن نعتنى بأنفسنا". وعلى النقيض، فإن ميثاق حقوق الإنسان يحترم الاحتياجات ويذيع الطلب بتساوى استفادة بنى البشر من أسباب الحياة الكريمة، وبذلك نجده ذا طابع عام: "الاعتراف باحتياجاتى، ونحن نعتنى بالجميع".

كلا الميثاقين يتسم "بالحداثة"، فهذا واقع وليس قولاً تقييما، وليس مبرمجًا على التلاشى من تلقاء نفسه. غير أن كليهما حاضران بقوة ومترابطان ارتباطًا وثيقًا فى معظم المجتمعات. ولهذا الموقف جذوره التاريخية:

١. أحرز ميثاق حقوق الإنسان تقدمًا حاسمًا مع انتشار الدول القومية الحديثة التى اتخذت من الأمثلة الدستورية نموذجًا يُحتذى، به، كما أسست له الجمهورية الأمريكية (بعد عام ١٧٧٦) وفرنسا (بعد عام ١٧٨٩). وكانت الدول الديمقراطية ذات السيادة من أقوى المدافعين عن هذا الميثاق.

٢. رغم ذلك، أدت العولمة منذ الثمانينيات إلى تقويض قوة تلك الدول القومية وسيادتها تقويضًا عنيفاً؛ الأمر الذى يهدد تقدم ميثاق حقوق الإنسان من خلال إضعاف حاميه الرئيسى.

٣. فى الوقت ذاته، يظل ميثاق الشرف قويًا على الصعيدين القومى والعالمى.

ومن الناحية العملية، تحيا معظم المجتمعات بمزيج براجماتى من الميثاقين، لذا ثمة أسئلة مهمة هى: أى مزيج سيعم وأى ميثاق سيسود؟ إن نطاق العمل الحاسم هو المدينة، والمجتمع العالمى يتمدَّن بسرعة فائقة، فماذا يريد ساكنوه؟ وما الذى يُحتمل حصولهم عليه؟ وكيف سيتفاعلون؟

العملية الثالثة: فعاليات الإذلال

ثمة باعث مهم على الحركة هو المرور بتجربة الإذلال، علمًا بأن العولمة لا تتمخض عن الإذلال دومًا، وليست كل صور الإذلال – بطبيعة الحال – ولا حتى جلها مرتبطة مباشرة بالعولمة(١٠).

ورغم ذلك، فإن منطق السوق والنزعة الاستعمارية وحالة التمدن تعتبر مولدات قوية للإذلال والاستباحة والسخط بين العديد ممن يشغلون مقاعد المستقبلين.

والإذلال يعنى الإرغام على المرور بتجربة التشريد أو الإقصاء من مكان يعتقد المشرد ارتباطه به، ويعنى الحرمان من الاعتراف والأمن والحرية والقدرة على التصرف بمحض الإرادة التى اعتادها المرء أو يعتقد فى أحقيته بها.

وثمة ثلاثة أنواع من الإذلال، فهناك ذل الاحتلال الذى ينتزع الحرية السابقة ويرغمك على التبعية، وهناك ذل النبذ الذى يرغمك على التراجع فى منظومة هرمية، وهناك أيضًا ذل الإقصاء الذى يحرمك العضوية فى مجموعة أو هرمية اجتماعية أو شبكة ترى أحقيتك فى الانتماء إليها.

وعادة ما يكون رد الفعل المبدئى للذل السخط والرضا على الكراهة بشىء لا سبيل إلى منعه. غير أنه فى أعقاب الصدمة الأولى تبرز احتمالية تنطوى على ثلاث استجابات أخرى ممكنة هى: الهروب أو القبول أو الرفض، وكل منها قد تثير فى بعض الحالات أحقابًا أخرى من الإذلال. وكما سأبين لاحقًا، يؤدى الهروب عادة إلى دوائر من الخوف، أما القبول فيسفر عن دوائر الوقوع ضحية للإذلال، فيما يؤدى الرفض إلى دوائر الانتقام.

الدوافع الثلاثة

خلاصة القول إن مستقبل المجتمع العالمى فى القرن الحادى والعشرين قيد التشكيل بفعل العلاقات بين ثلاثة دوافع قوية تنبثق كلها من العولمة كما صاغتها النزعة الاستعمارية ومنطق السوق والحالة الحضرية؛ وتؤدى فعاليات الإذلال ممثلة فى الغزو والنبذ والإقصاء إلى ردود أفعال، هى الهروب والقبول والرفض، ومن شأن هذه الردود إثارة دوائر من الخوف والتسليم بوضع الضحية والانتقام، وتنظيم الحداثة من خلال ميثاق الشرف أو ميثاق حقوق الإنسان أو مزيج من الاثنين. وفى إطار كل واحدة من هذه العمليات التاريخية الاجتماعية الثلاث يمكننا سبر أغوار بعض "الأخبار".

العولمة

تزايدت الأهمية النسبية لمنطق السوق فى النصف الثانى من القرن المنصرم لاسيما منذ عام ١٩٨٩. وفى غضون القرن ذاته أدى ذيوع ميثاق حقوق الإنسان إلى تقويض النزعة الاستعمارية تقويضًا عنيفًا، لكنها تخوض فى هذا الصدد معركة مستميتة متشبثة بروح الحياة.

وفى الوقت نفسه، فإن حالة التمدُّن أو الحضرية غير المستقرة كانت تستجمع قواها منذ القرن السادس عشر، وعزز من وجودها فى بادئ الأمر القلق المرتبط بالوجود الحضرى، لكنها اليوم تستعيد قواها بتضاؤل قدرة الدول القومية على احتواء حياتنا وتنظيمها فى ظل انسحاب النفوذ لأعلى الهرمية نحو المستوى العالمى.

فعاليات الإذلال

حمل التاريخ تحولين طويلى المدى، فانتشار الفكر المعنى بحقوق الإنسان وما استتبعه من اتجاهات تنشد التعميم والمساواة (وُلِدنا جميعًا متساوين) يعنى حدوث زيادة فى الحساسية تجاه الإذلال الإقصائى، لاسيما المتمثل فى الحرمان من الحقوق. ومن المعلوم أن الشعوب أو المجموعات أو الأفراد من ضحايا الغزو والنبذ أكثر ميلاً من ذى قبل صوب الصدوع بالشكوى لأطراف ثالثة "على سبيل المثال الأمم المتحدة ومحاكم القضاء أو المحاكم ذات القضايا الخاصة) جراء التعرض للإقصاء الجائر للحرمان من الحقوق الواجب احترامها.

أما التحول الثانى طويل المدى يتمثل فى أن رد الفعل بالهروب من الإذلال ما عاد ممكنًا كما كان فى السابق، وتلكم قصة قديمة تتكرر فصولها اليوم على مستوى أعلى مجتمعيًا، ففى بدايات أوروبا الحديثة وجد الفلاحون الفارون من نير الاستعباد فى المزارع إلى أرض "الحرية" فى المدينة أنفسهم خاضعين لألوان جديدة من التنظيم القسرى فى معظمه، وتقوم على إنفاذه السلطات المدنية. وانتاب أصحاب الممتلكات فى المدينة مخاوف عميقة من إنزال العنف والجريمة والمرض عليهم على يد العاطلين والمتشردين والشحاذين والدهماء من المتسكعين المنهمرين على أبواب المدينة. عندئذٍ بُذلت جهود مضنية لضبط سكان الحضر بنهاية القرن السادس عشر، ومن ذلك على سبيل المثال فرض حظر التجوال، وضبط التشرد والعمالة القسرية والترحيلات، وكذلك الالتزام والإلزام بالمنزل والسجن والإصلاحية

ومناطق الحجر. وفى بعض الدول، أدى فرض التعليم الإلزامى إلى تعزيز أسس الانضباط على المستويين الاجتماعى والسياسى(١١).

وفى أزمان أقرب لزماننا، لاقى نسل المهاجرين والمستوطنين – الذين تركوا بلادهم القديمة ونزحوا إلى الخارج لبناء حيوات جديدة فى العديد من "الأراضى الموعودة" فى مستوطنات أعالى البحار بأمريكا وأفريقيا وغيرها – مفاجأة صاعقة، ذلك أن العالم القديم الذى تركه أسلافهم قد تحول بدوره واتبعهم، وأجبرهم على الرجوع إلى قبضته التى لا فكاك منها. واستُرجِع هؤلاء الهاربون المنتظرون إلى قيود الاتكال المتبادل عالميًا، والعولمة لا ترضى عن الساعين إلى النزول عن الدرب.

ومع تزايد استبعاد أسلوب الهروب، فإن الاختيارات الأساسية التى تواجه الذين تعنى العولمة لهم الإذلال تتمثل فى أحد أمرين: إما قبول وإما رفض مضطهديهم و/أو الأنظمة التى توقع عليهم الظلم والقمع. وأكثر الناس لا يريدون اتخاذ هذه القرارات، بل إن أكثرهم يجدون أنفسهم نازلين إلى هاوية الإذعان المشوب بالارتباك والسخط، أى نمط "معلق" ليس بالقبول الفعلى ولا بالرفض الإيجابى، وقد أصبح هذا النمط من رد الفعل ذائعًا منتشرًا.

تنظيم الحداثة

شهد القرنان الماضيان تقدمًا ثابتًا فى تأثير ميثاق حقوق الإنسان، الذى قوض فكر الإمبراطوريات وتماسك أطرافها، وفى عام ١٩٨٩، انهار النظام الإمبريالى الأوروبى، فيما بقيت الإمبراطورية الصينية فى مكان آخر من العالم بفضل سبب واحد هو التحول الذاتى إلى أمة يحكمها أبناء سلالة الهان، وهذا إنجاز فريد.

ظلت الدول القومية حامى ميثاق حقوق الإنسان، وكان لحكوماتها السلطة والقدرة التنظيمية لتطبيقها من خلال أنظمتها القضائية. وقد ورث الاتحاد الأوروبى هذا الدور بالرغم من اعتماده الكبير على الحكومات القومية المكونة له، وهى الكيانات التى تنهض بدور المنفذ.

بيد أن تأثير ميثاق حقوق الإنسان أصبح الآن فى خطر؛ والسبب أن مفهوميَّ السيادة والنفوذ العملى للحكومات القومية قد تقوضا بفعل العولمة خلال النصف الثانى من القرن الماضى. وإذا لم تهب الدول القومية لدعم حقوق الإنسان دعمًا قويًا كسابق عهدها، فلمن هذه المهمة؟

وبإضعاف حاميها الأقدم ممثلاً فى الدولة القومية، أضحت المجموعات – التى تشعر بالدونية أو الإقصاء من جانب الآخرين – فى حال تدفعهم لتنفيذ القانون بأيديهم، أى أنهم غُرِّر بهم لاستخدام القوة تحقيقًا لمصالحهم على حساب الآخرين. وفى هذا نقطة تحول للوراء نحو ميثاق الشرف ومضمـــونه الأساسى: إما أن تَذِل أو أن تُذَل. وإذا لم يصبح الحكم الإقليمى العالمى أو الحكم العالمى قويًا بالقدر الكافى لتوفير الحماية والدعم لميثاق حقوق الإنسان، فمن المحتمل أن يزيد ميثاق الشرف من حضوره.

وعلى أى حال، لا يبدو أن رؤية توكوفيلى فى كتابه "الديمقراطية فى أمريكا" (١٩٦٨) بأن ميثاق حقوق الإنسان الذى يقتلع ميثاق الشرف من أصوله قد تحققت. والسؤال الذى يطرح نفسه: أى مزيج بين الميثاقين سيكون له الأثر الأكبر فى إيجاد نظام عالمى يحيا فيه الناس حياة كريمة فى مجتمعات كريمة؟

الاتجاهات والدوائر

ثمة نوعان من التحليل فى هذا الكتاب، أحدهما معنىٌّ بالعمليات الاجتماعية طويلة المدى مثل:

- النفوذ المتزايد لمنطق السوق.
- الانتشار المتزايد لحالة التمدن.
- البقاء غير المتوازن وغير المرغوب فيه للقوى الاستعمارية.
- زيادة الوعى العام بإذلال الإقصاء.
- تضاؤل رد فعل الهروب من الإذلال.
- ظهور ميثاق حقوق الإنسان متبوع بتجدد قوة ميثاق الشرف.
- التحول من عالم أحادى القطبية تحكمه الولايات المتحدة إلى عالم متعدد الأقطاب تحظى فيه الصين والاتحاد الأوروبى بتأثير أكبر.
- التحرك بعيدًا عن عالم يعيش أغلب أفراده فى مناطق ريفية إلى آخر يعيش أغلبية سكانه فى المدن.

أما لب التحليل الآخر فيتمثل فى استبيان حركة الآليات الاجتماعية التى تنطوى عليها جوانب المنحنى الثلاثى وكيفية تداخلها وترابطها مع بعضها البعض، وهذه الآليات ستخضع للتمحيص من خلال أسلوب يعيد للأذهان فى بعض جوانبه مضمون الدائرة التأويلية[١٢]، وهذا يعنى فى المقام الأول الانتقال هنا وهناك بين الأجزاء والكل المعقد لاستيضاح معناه أو سبر أغوار عمله.

عند مفترق الطرق

على مدار العقدين أو الثلاثة القادمة – وليس لأكثر من ذلك – سيمسك الغرب بزمام العالم بلا منازع. وإذا أسلم الغرب، فى غضون هذه الفترة، رأسه للرأسمالية المتحررة التى تحميها الدولة الأمريكية المهيمنة؛ فإن الغرب سيدفع الثمن بعد ذلك.

وعندما ترتخى قبضة أمريكا على الأحداث، فإن ميزان القوى العالمية سيعاد توزيعه على مراكز متعددة، عندما تنهض آسيا وتصبح أمريكا اللاتينية أكثر استقلالاً، وعندما تختار أوروبا لنفسها دربًا مستقلاً؛ فإن سياسة المدينة الكبيرة ستكون فى المقدمة فى كل قارة، أى سياسة طالب المدرسة الثانوية المحبط، والمذعور المعووز، وساكن العشوائيات الساعى للانتقام.

وقد علَّمت الولايات المتحدة نخبة أوساط الأعمال فى هذه البلاد أن الرأسمالية تعنى الحرية، ولكن ما مدلول هذه الكلمة عندما تفقد واشنطن قبضتها على الزمام؟ والأهم من ذلك، فإن الذين يحتشدون فى شوارع المدن قد تعلموا من أمريكا أن الحكومة القوية العازمة يمكن أن تستغل قوتها العسكرية وقوات الشرطة فى حماية أى مصالح تريد حمايتها، وأن تشيطن أى شخص يقف فى طريقها أو أن تبطش به. وبالشكل الحالى، سيكون هذا هو الموضوع الرئيسى للسياسة الدولية والداخلية حتى النصف الأول من القرن الحادى والعشرين، ليس اكتمالاً سلميًا للرأسمالية العالمية بل تدمير عنيف للأعداء سعيًا وراء الموارد المادية النادرة. ولن يوجد بعد ذلك فائزون على المدى البعيد، وبالطبع ليس "الظالم القديم"، وهو الغرب. وربما كان هناك سيناريو آخر أفضل، ذلك القائم على الديمقراطية السليمة. ويشمل هذا الحكمة العملية المكتسبة من أثرياء الغرب فى القرنين التاسع عشر والعشرين عند التعامل مع عامليهم الداخليين فى المناطق الصناعية الحضرية. لقد تعلم الأثرياء بشق الأنفس، من خلال حربين عالميتين، أن الكتل الحضرية تمثل خطورة بالغة إذا لم يوفر لها المأكل والتعليم والرعاية والاحترام. وقد تحقق هذا، أو على الأقل تحقق جزء منه، من خلال نظم الرفاهية القومية. والآن لابد من حدوث شىء مشابه على الصعيد العالمى من خلال تزايد التعاون الدولى وتعزيز أسس الحوكمة على المستوى العالمى. لنبتعد عن التعلم بشق الأنفس مجددًا، وعلى الغرب أن يتولى الصدارة.

يرى بعض الناس أن فكرة إنفاق الضرائب على شعوب العالم فكرة غير معقولة وغير مقبولة على الإطلاق. لكن إلى أى مدى يرون البديل المحتمل معقولاً ومقبـــولاً، علمًا بـــأن هـــذا البديل مـــا هو إلا عالمية الحرب والمرض والمجاعة والفوضى، ولا يخفى أنها فى مجملها عوامل تشكل تهديدًا للحياة وقيم الحرية والبحث عن السعادة؟

تنظيم الكتاب

بعد هذه المقدمة سنبحث الدروب الثلاثة للمنحنى الثلاثى فى فصول متتابعة انتقالاً من مواثيق الحداثة، وهى ميثاق الشرف وميثاق حقوق الإنسان (فى الفصل الثاني) إلى طرائق الإذلال (فى الفصل الثالث) ثم إلى أطر العولمة (فى الفصل الرابع). وسنعرج بين الفينة والأخرى على السياق الأكبر تذكيرًا به، ذلكم السياق الذى يشكل كل ما سبق أركانًا فيه. وبذلك سنصل إلى فهم أفضل لطبيعة العمليات الاجتماعية التى تكمن فيها العولمة وما الأمور التى فى موضع الخطر بالنسبة للدول والمواطنين. أما بقية الكتاب فيجدد اكتشاف المنحنى الثلاثى، وهذه المرة بعمق أكبر وترتيب عكسى.

سنركز فى الفصول الثلاثة التالية على البواعث العالمية الثلاثة للإذلال، التى ذكرناها بالفعل، وهى: النزعة الإمبريالية (الفصل الخامس)، ومنطق السوق (الفصل السادس) و التحول إلى العالمية (الفصل السابع)، وسيلى ذلك تناول الطرق الثلاثة لرد الفعل وهى: الهروب (الفصل الثامن)، القبول (الفصل التاسع) والرفض (الفصل العاشر).

وبمعنى آخر، سننظر – فى الفصول من الخامس إلى العاشر – فى الآليات التاريخية الاجتماعية التى ينطوى عليها مفهوم العولمة وعمليات الإذلال، وسنتطرق بين الحين والآخر إلى ما فات لمعرفة كيفية إسهام هذه الآليات فى تشكيل الصورة

الأكبر لما نرى. وفى الفصل الختامى سننظر فى التفاعل النشط بين ميثاق الشرف وميثاق حقوق الإنسان، ولا غرو فهما ميثاقا الحداثة. وهذا الفصل يربط بين أطراف المناقشة وينظر فى ملابسات تحليل الكتاب للأجندة الخفية للعولمة.



٢

مواثيق الحداثة

فى الفصول الثلاثة التالية، سنستعرض الأضلاع الثلاثة للمنحنى معرجين على ميثاق الحداثة، وأنواع الإذلال وأطر العولمة بما يتيح لنا تكوين صورة غاية فى التعقيد فى ثلاث مراحل بدءا بتناول ميثاق الشرف وميثاق حقوق الإنسان بالتحليل والمقارنة فى هذا الفصل، مرورًا بمدى تداخل الميثاقين والتعرض للإذلال والتفاعل معه فى (الفصل الثالث)، وانتهاء بموجز يوضح مدى ارتباط الإذلال بصلب تجربة العولمة (الفصل الرابع).

نتناول الآن ميثاق الحداثة، علمًا بأن الموجز الموضح فى الجدول (٢ – ١) يعرض للضلعين الآخرين للمنحنى الثلاثى الذى يرتبط به الميثاقان المذكوران ارتباطًا وثيقًا.

الانتقام

فى الحقيقة، وقبل الدخول فى تفاصيل ميثاق الحداثة، علينا أن نعرج سريعًا على العولمة والإذلال، وأن نبحث حادثة الحادى عشر من سبتمبر.

لقد كان حادث تفجير بُرجى مركز التجارة العالمى فى نيويورك باعثًا على ترويج مفهوم واشنطن للعولمة التجارية التى تدعمها القوة العسكرية والسياسية لبلاد العم سام، كما كانت الحادثة نفسها انتهاكًا مقصودًا ومتعمدا لحرمة المعبد

الأمريكى. بدأ هذا الهجوم فى تمام الساعة ٨:٤٥ صباحًا بالتوقيت المحلى، عندما ضربت الطائرة الأولى بقيادة محمد عطا البرج الشمالى، واستمر حتى الساعة ١٠:٢٩ صباحًا، لحين انهيار البرج الثانى.

الجدول ٢ – ١ : ما المقصود بالعولمة والإذلال؟	
العولمة	**الإذلال**
العولمة عملية واسعة النطاق طويلة الأجل تهدف إلى: • الربط بين المجموعات والمجتمعات ربطًا وثيقًا وموسعًا يتسم بالتعقيد والحركة. • النضال بغية تحصيل المزايا وتجنب التكاليف واغتنام فرص النظام فى إطار تلك الروابط. • استيعاب حقيقة مفادها أن التأثير والمبادرة – فى إطار الشبكات الاجتماعية والتسلسل الهرمى – يميل إلى التحول إلى العالمية والعالمية الإقليمية على المدى الطويل.	يتأتى الإذلال فى الحالات التالية: • تعرض الناس لمعطيات الخضوع إلى الإزاحة و/أو الإقصاء الجبرى. • الإزاحة و/أو الإقصاء ينبعثان ممن يعتقدون "بحقهم" فى هذا الأمر وهم ضمن مجموعة أو شبكة أو تسلسل هرمى يرون "انتماءهم" إليها. • هذه العملية محط أنظار من كابدوا هذا الهجوم المؤلم المدمر، وكذلك هويتهم واهتماماتهم التى لا يمكن منعها أو تجاهلها.

استغرق تشييد مركز التجارة العالمى(١) نحوًا من نصف عقد، فيما حل به الدمار الماحق فى غضون مائة دقيقة(٢).

تمثل الغرض من هجوم ٩/١١ فى إذلال الولايات المتحدة الأمريكية، ولسنا بحاجة لتخمين ذلك الأمر، فلدينا خطاب ألقاه أسامة بن لادن(٣) وأذاعته قناة الجزيرة بتاريخ ٧ أكتوبر ٢٠٠١، قال فيه:

فها هى أمريكا!، قد أصابها الله - سبحانه وتعالى - فى مقتلٍ مِنْ مقاتلها!، فدمر أعظم مبانيها! فلله الحمد والمنَّة. وها هى أمريكا قد امتلأت رعبًا!، مِنْ شمالها إلى جنوبها ومِنْ شرقها إلى غربها، فلله الحمد والمنَّة. وما تذوقه أمريكا اليوم هو شىء يسيرٌ مما ذقناه منذ عشرات السنين!، فإنَّ أمتنا منذ بضعٍ وثمانين عامًا تذوق هذا الذل وتذوق هذه المهانة!، فيُقتل أبناؤها وتسفك دماؤها ويعتدى على مقدساتها وتحكم بغير ما أنزل الله!، ولا سامع ولا مجيب!...

مليون طفل مِنَ الأطفال الأبرياء يُقتلون إلى هذه اللحظة التى أتحدث فيها!، يُقتلون فى العراق! بلا ذنْبٍ جنَوْهُ ولا نسمع مُنْكرًا، ولا نسمع فتوى مِنْ علماء السَّلاطين!.. وفى هذه الأيام؛ تدخل الدبابات والمجنزرات اليهودية!، لتعيث فى فِلَسْطِينَ فسادًا، فى جنِين وفى رَامَ الله وفى رَفَح وفى بَيْتِ جَالاَ، وغيرها مِنْ أراضى الإسلام، ولا نسمع مَنْ يرفعُ صوتًا أو يحرِّكُ ساكنًا!

فإذا جاءَ السيفُ! بعد ثمانين عامًا على أمريكا، ظهرَ واشرأبَّ النفاق برأسه! يتحسر ويتحسف على هؤلاء القتلة!، الذين عبثوا بدماء وأعراض ومقدسات المسلمين!، فهؤلاء

أقلّ ما يقال فيهم أنهم فسقةٌ! اتبعوا الباطل، نصروا الجزّار على الضَّحيِّة!، نصروا الظَّالم على الطفل البرىء!، فحسبنا الله عليهم، وأرانا الله – سبحانه وتعالى – فيهم ما يستحقون!(٤).

أشار ابن لادن إلى "ثمانين عاما من الظلم" حيث فقد المسلمون فى الحرب العالمية الأولى تمثالهم الضخم وحاميهم الأكبر ... الإمبراطورية العثمانية فى تركيا. لقد احتل الصليبيون الغربيون الإمبراطورية بعد عمر ناهز ستة قرون، غير أن الإمبراطورية المضمحلة قد تمكنت فى ذروتها من مواجهة القوى المسيحية العظمى مثل إسبانيا. ولمدة أربعة قرون حتى أوائل القرن العشرين كان السلطان التركى الحاكم هو خليفة المسلمين، قائد الأمة التى هى جماعة المؤمنين(٥).

وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى، تفككت الإمبراطورية العثمانية بفعل الحكومات الغربية التى حرصت على التحكم فى الطرق الرئيسية للتجارة والدفاع عن مواردها، مثل البترول الذى كانت اكتشافاته فى مهدها فى بلاد فارس (إيران). ومن ثمَّ، تحدث ابن لادن عن أشخاص أحسوا كما لو أنهم فى نُزُل دارت عليه دوائر الغزاة فزلزلوا قواعده وحطموا أبوابه مثخنين الطعن والتدمير فيه متخذين من نزلائه أُسارى عز عليهم الفكاك.

إن حديث ابن لادن فى ذروة حادثة ٩/١١ يتمحور فى نقاط ثلاث، هى:

١. لفت الأنظار إلى عدم الرضا باستكانة المسلمين، لاسيما فى فلسطين والعراق والسعودية.

٢. الانتقام من الغرب، لاسيما الولايات المتحدة؛ فقد بدأ الحديث عن مهاجمة رموز الحضارة الأمريكية، وتدنيس "أقداسها" وإذاقة الأمريكيين علقم الرعب الذى تجرعه المسلمون فى الشرق الأوسط منذ أمد بعيد.

٣. معاقبة الغرب بالنيابة عن الله لظلم المسلمين فى كل مكان.

التاريخ والإذلال

يرى نظام القاعدة فى الولايات المتحدة وريث التراث الصليبى على امتداد تاريخه الناطق بالمجاهدة للهيمنة على الإسلام وتقويض أسسه. لكن أنى لهم التوصل إلى هذه النتيجة؟ إذ ما علاقة الصليبيين بالأمر؟

كانت الحملات الصليبية نشاطًا مشروعًا للأرستقراطيين الإقطاعيين فى المسيحية إبَّان العصور الوسطى، مستندين إلى حجة مفادها ما يلى: لابد من الحفاظ على الأماكن المقدسة فى فلسطين من "الملحدين" الإسلاميين. وكان المسيحيون فى أوروبا بحاجة للدفاع عن أنفسهم ضد الأتراك المعتدين. ومن ثم، كان لابد أن تؤيد كتيبة المقاتلين والطبقة الأرستقراطية البيزنطيين الخانعين المشمولين بحمايتهم[٦].

كانت الحملات الصليبية سبيلاً لتعزيز مظاهر السؤدد والشرف فى أوساط أسر الفوارس التى حازت الشرف بإظهار القدرة على إذلال الآخرين وإباء الإذلال على أنفسهم، تلكم الأسر التى باشرت أفعالاً وأتت أحداثًا فى هذا الصدد، مثل أسر الآخرين عارضين الافتداء أو التعذيب حتى الموت أو الاسترقاق، وكذا الاستيلاء على أراضيهم ونسائهم وعبيدهم، وإهانة الواقعين فى الأسر بكل السبل الممكنة. كان ذلك ميثاق الشرف السائغ السائد فى كثير من المجتمعات آنذاك، بما فيها المجتمعات الإسلامية، وقد استمر لقرون مديدة ولم يكن مقتصرًا على الحملات الصليبية أو مجموعات الفرسان المسيحيين.

وبعيدا عن العدوان الدينى وطلب الأوسمة، فإن البعد الثالث للحملات الصليبية تمثَّل فى البحث عن الفرص التجارية، وهو العمل الذى تخصص فيه أهل البندقية (فينيسيا)[٧].

وظل هذا الحكم الصليبى فى ذروته حتى جاءت الغزوات الإسبانية فى أمريكا اللاتينية واستمرت طوال فترة الإصلاح الدينى والفترة المناهضة لها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر من تاريخ أوروبا. وفى ذلك الوقت، انقلب

المسيحيون الكاثوليك والبروتستانت على بعضهم البعض بالقدر ذاته من الشراسة التى كان عليها آباؤهم فى التعامل مع الأتراك.(٨)

إن استخدام ابن لادن مصطلح " الصليبيين" مشيرًا إلى الولايات المتحدة مقبول ظاهريًا من ثلاثة جوانب على الأقل:

١. امتلاء الحياة السياسية الأمريكية بالأعمال العدوانية، أو المتغطرسة على أقل تقدير، وهيمنة الحالة الدينية الماثلة بقوة فى شخصية الرئيس جورج دبليو بوش وحكومته.

٢. الإطاحة التدريجية المدروسة بتمثال صدام حسين فى التاسع من أبريل عام ٢٠٠٣، والتمثيل الإعلامى بالرئيس العراقى الأسير وجثث أبنائه، والسلوك المهين من الشرطة الأمريكية فى سجن أبو غريب كما طالعتنا به المشاهد المتلفزة، فكل هذه نماذج من الإذلال المفروض بعد أن دانت الأحداث لميثاق الشرف البائد: " انظر كيف نذل المتكبر".

٣. التعاطى المدروس والتوثيق الجيد والإطار الضيق للاستثمار والعقود التجارية فى العراق.

لكن هذا الطرح ما هو إلا نصف القصة.

الشرف وحقوق الإنسان

من الناحية العملية، فإن السياستين اللتين يمكن للرئيس الأمريكى أن يقدمهما للجمهور الأمريكى هما: الدفاع عن الوطن (وهذا واضح من البداية)، ونشر الديمقراطية فى الخارج، مادام هذا لا يكلف الأمريكيين ثمنًا باهظًا و/أو طالما بدا هذا مهمًا فى الدفاع عن الوطن.

وبنظرة تقليدية نجد أن المهمة الحضارية لأمريكا ليست خارجية وليست لتحسين العالم الخارجي فى المقام الأول، بل تتجلى فى اجتذاب ذلك العالم الخارجى صوب الولايات المتحدة متى أراد إذا كان لديه ما تأخذه أمريكا نظير التحسين المنشود. تلكم كانت البداية الأمريكية قبل أى شىء، كما تصوره الأسطورة الرسمية: إن مصير الناس محدد بالهروب من فساد العالم القديم للحصول على حياة نقية ومريحة لأنفسهم عبر المحيط الأطلنطى. وبمعنى آخر، تؤدى أمريكا واجبها تجاه العالم كله بصورتها المتمثلة فى "مدينة فوق تل" ونموذج لما يجب أن يكون عليه المجتمع الديمقراطى السوى الملتزم بالقانون غير المفلت لزمام الدين.

تعود جذور التدين فى الولايات المتحدة إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر، وهى وريثة عصر التنوير والإصلاح الدينى، أى أنها تمثل مجتمعا معاديًا بشدة لمبادئ الأرستقراطية والحكم المطلق، ملتزمًا بفكرة المنطقيين الآخذين بمبادئ العقلانية أخذًا حرًا على الصعيدين التجارى والحكومى. وفى عام ١٧٧٦، أسس قادة الثورة الأمريكية للحق فى حكم أنفسهم على مبدأين: الأول عدم مشروعية الإمبراطوريات، وهو التعبير الأكبر لميثاق الشرف؛ ومن ثمَّ، لم يكن لجورج الثالث حق فى فرض ضرائب عليهم دون إذنهم. أما المبدأ الثانى فكان ضرورة قيام المجتمع السياسى على فكرة الحقوق العامة، وبناءً عليه، بدا من الممكن تأسيس الجمهورية الأمريكية على أكتاف المواطنين الأحرار.

ولمدة قرن ونصف القرن، منذ عصر الحرب الأهلية الأمريكية، بررت الحكومة الاتحادية فى واشنطن حروبها الكبرى بأنها تدافع عن حرية المواطنين ضد عملاء الظلم. وكان جُل جنودها ومناصريها على استعداد لقبول هذا التأويل. وفى النهاية، هاجر مؤيدوهم السابقون إلى الولايات المتحدة مشدوهين بفكرة التحرر من ملاك الأراضى الجائرين والأنظمة السياسية المنغلقة التى خلفوها وراءهم فى قارات أكثر فسادًا وضعفًا وتخلفًا.

يدعى ابن لادن أن الباعث الوحيد للولايات المتحدة فيما تأتيه هو السعى للهيمنة الإمبريالية والرغبة فى فرض الذل على الآخرين كمؤشر لمكانتها القومية المتفردة. وهذا الاتجاه قائم بالفعل فى الحياة السياسية الأمريكية غير أنه يواجه قوتين شديدتين مناقضتين هما: الالتزام بميثاق حقوق الإنسان (الذى يعترض عليه ابن لادن)، والرغبة فى الهروب من العالم القديم "الفاسد" بدلاً من الاندماج فيه.

بيد أن ابن لادن نجح فى توجيه الحكومة الأمريكية للعمل وفقًا لنمط من صنيعه، ذلك أنه جعل الأمريكيين يلعبون لعبة من اختياره لا من اختيارهم. وفى أعقاب أحداث ٩/١١، فعل جورج دبليو بوش ما فعله أسامة بن لادن، إذ صب تهديداته على أي حكومة لا تسانده فى حربه على الآخر. وأعلن الخصمان أن هذه ستكون معركة بدون أطراف ثالثة. وما وُجِد سوى طرفين اثنين: الجانب الحق وهو حزب الله الذى يمثل جانب الخير، والجانب الظالم وهو حزب الشيطان الذى يمثل جانب الشر. ودعا ابن لادن أن تُصب لعنة الله على "المنافقين" المنحطين الذين آثروا البقاء على الحياد، فيما أعلنها بوش للعالم قائلاً: "كل دولة، فى المنطقة، لابد أن تقرر الآن ... إما أن تكون معنا، وإلا فهى مع الإرهابيين"[٩].

بعث طرفا الحرب – ابن لادن وبوش – فى أعقاب أحداث ٩/١١، برسالة مفادها: "نحن من بيده الأمر، افعلوا ما نريد وإلا فأنتم الخاسرون. انضموا إلينا أو تذوقون العناء". تلكم لهجة عصابات شيكاغو فى عشرينيات القرن المنصرم. لقد جددت روح النظام الإقطاعى فى أوروبا الوسطى عندما وجد البيزنطيون وتجار الحضر والفرسان الذين لا أرض لهم أن أفضل طريقة للبقاء هى قبول "الحماية" من أقرب طاغية فى المنطقة.

ميثاقان

دفعت صدمة أحداث ٩/١١ البيت الأبيض إلى أن يعتنق لغة ميثاق الشرف ومنطقه، وهى الطريقة القديمة للتفكير التى ظهرت، من الناحية التاريخية، قبل

الحــديث عــن حقــوق الإنسان بفترة طويلة، ومفادها: إما أن تَذِل أو أن تُذل (انظر الجدول ٢ - ٢).

يقول ميثاق الشرف: "لأننى قوى، فإننى أكون وأستطيع، إذا أردت ..."

وجاء فى ميثاق حقوق الإنسان: "لأننى إنسان، أحتاج ولابد أن ..."

الجدول ٢ - ٢ مواثيق الحداثة: الشرف وحقوق الإنسان	
يُعرف ميثاق الشرف على أنه فرد أو مجموعة "شريفة":	يُعرف ميثاق حقوق الإنسان على أنه مطلب فردى أو جماعى بالامتلاك:
القدرة على الدخول والبقاء وإنجاز المهام فى الصراع الاجتماعى، على سبيل المثال:	الحق فى الدخول وحسن المعاملة فى المنافسة الاجتماعية، على سبيل المثال:
(١) القدرة على إذلال الآخرين عن طريق إلحاق الضرر بهم إما عن طريق إضعافهم أو تدميرهم. (٢) القدرة على إذلال الآخرين عن طريق تركيعهم وإذلالهم. (٣) القدرة على الدفاع عن أنفسهم ضد إذلال الآخرين لهم.	(١) الحق فى الدخول فى المنافسة الاجتماعية والمعاملة العادلة فى إطار المواطنة القانونية العالمية والسياسية (الحقوق القانونية والسياسية) (٢) الحق فــى التمكين داخل الصراع من خلال المواطنة الاجتماعية الشاملة، مثل الرعاية الصحية والتعليم (إتاحة الحقوق الاجتماعية)
القدرات فيما يتعلق بإتاحة أو حجب الرعاية والحماية، على سبيل المثال:	الحقوق المتعلقة بإتاحة الرعاية والحماية، على سبيل المثال:
القدرة على حماية، أو باختيارهم، التخلى عن و/أو استبدال الأشياء "الخاصة بهم" والناس، من بينهم الزوجات والأطفال	ضمان تحقيق الحد الأدنى من معايير اللياقة من قبل الجميع عن طريق فرض واجب العناية

والرعايا والعبيد. القدرة على إتاحة أو حجب فوائد تحسين الحياة، على سبيل المثال:	(١) على جميع أصحاب العمل ومقدمى الخدمات، (٢) خاصة فيما يتعلق بهؤلاء العجزة و/أو المحرومين (مؤقتا أو بشكل دائم)، ونتيجة لذلك؛ عدم القدرة على المشاركة على نحو فعال فى هذا الصراع (الحقوق الاجتماعية المحمية، واجب الرعاية). الحقوق فيما يتعلق بتعزيز فوائد الحياة، وعلى سبيل المثال:
القدرة على منح الفوائد الفردية والجماعية للرعايا والعبيد والأسرى والضحايا أو عدم القيام بذلك وفقا للخيار الحر للفرد أو المجموعة 'الشريفة'.	حق كل شخص فى السماح له بالتطوير ككائن بشرى مشارك بصورة خلاقة فى كثير من جوانب المجتمع الحضارية قدر الإمكان أو حسب الرغبة (حق تطوير الذات).

يرتبط ميثاق الشرف، من الناحية التاريخية، بالمجتمعات القبلية والأسرة الحاكمة، أى بالمجتمعات التى تتنافس فيها التجمعات الأسرية المختلفة أو السلالات مع بعضها البعض. إنه الميثاق الذى يثير روح الخصومة والتنافس، ويرتبط ارتباطًا وثيقًا بالقبائل والطبقات الأرستقراطية، بيد أن تأثيره ناجع يشمل جميع مناحى الحياة الحديثة.

أما ميثاق حقوق الإنسان فله مرجعية تاريخية معقدة. فمن ناحية، ربما نشأ أصله فى الديانات العامة القائمة على التوحيد، تلك الديانات التى تدعو إلى تساوى جميع البشر أمام قدرة الله. ومن ناحية أخرى، وهى زيادة ترابط القوى الاجتماعية:

- الدولة البيروقراطية المركزية، المتحررة من التحكم الأرستقراطى.

- الطبقة الصناعية والتجارية النشطة.
- الطبقة المدنية العاملة، ودائمًا ما يدعمها المهاجرون من كل ساكنى الريف.
- الممارسون المتخصصون (مثل الأطباء، والمحامين، والمهندسين، والمعماريين والمفتشين وهلم جرا)، وهم أصحاب الهوية المهنية المرتكزة على الأداء الفعال الموجه من أجل "تفعيل الأشياء".

وقد حاول الحكام المركزيون نزع السلاح وإذواء نبل المحاربين بعاداتهم العنيفة. وادعت الدولة احتكار الحق فى استخدام القوة، ولما نفذت هذا المطلب تمكنت من تجريم الصراع المسلح بين رعاياهم. فكانت المبارزة، على سبيل المثال، محظورة حظرًا تلقائيًا بحكم القانون. وعلى ذلك، جعلت الدولة من نفسها المحرك الشرعى لإخضاع الآخرين فى المجتمع، وفرض العقوبات على من ينتهك قانون الحكومة أو يعارض الحاكم.

وعندما أصبح المجتمع ذا صبغة مدنية وصناعية، تعلم العمال المدنيون كيف يساومون مستخدميهم وقادتهم السياسيين. وبعد صراعات دامية، أبرمت الاتفاقيات وشكلت جزءًا من القانون المعمول به.

اكتسب هؤلاء الأشخاص نظير تعاونهم بعض الحقوق القانونية والسياسية والاجتماعية، واكتسبوا صفة المواطنة وزادت مظلة المواطنة اتساعًا بصفة تدريجية.

كان لابد من إدارة هذه الحقوق وتوجيهها؛ وهو ما استلزم بناء بعض المؤسسات وإدارتها وتوسيع مظلتها، ومن ذلك المدارس والمستشفيات وأقسام التخطيط والبرلمانات والمحاكم القضائية. وأدى هذا بدوره إلى مزيد من العمالة والنفوذ لأصحاب المهن الذين اكتسبوا اهتماما ملحوظًا فى شأن المواطنة وميثاق حقوق الإنسان.

وعندما وجدت الحكومات أن المجتمعات الحضرية والصناعية تخوض حروبًا ضد مجتمعات أخرى من النوع ذاته؛ رسخت لديها الحاجة إلى عدد وافر من الجنود اللائقين المتعلمين المنضبطين المحفزين، جُلهم من الفقراء. ومعلوم أن اكتساب تعاونهم كان على شاكلة وعد بتوسيع مظلة المواطنة واتساع نطاق العمل بميثاق حقوق الإنسان(١٠).

ينطوى ميثاق الشرف وميثاق حقوق الإنسان على موضوعات متشابهة (انظر الجدول ٢-٢):

- الصراع أو التنافس من أجل البقاء والتفوق فى المجتمع.
- تقديم الرعاية والحماية.
- إمكانية الاستفادة من مزايا للارتقاء بمستوى الحياة (مثل الثقافة العالية والسفر وأوقات الراحة والترفيه).

يتعـــامل ميثاق الشرف مع هذه الموضوعات من حيث قدرة الجماعة القوية أو الفرد (الرجل عادة) على كسب حروبه، أو إذلال من يهزمهم أو حماية الممتلكات التى اكتسبها أو التصرف فيها إذا أراد، وتثقيف نفسه وما يدخل فى ملكه إذا شاء أيضًا.

وعلى النقيض من ذلك، يركز ميثاق حقوق الإنسان على حق جميع الرعايا فى المشاركة فى المنافسة الاجتماعية بأنصبة متساوية، مما يعنى أن لكل شخص حقًا يخوله له التدريب المناسب والدعم القوى وفقًا لظروفه الخاصة. وينبغى لكل شخص، لاسيما العاجزين عن المشاركة أو المعوقين داخل المجتمع أن ينتفعوا بواجب الرعاية المقدمة من أرباب الأعمال ومقدمى الخدمات، بما فى ذلك الدولة، ويتاح لهم الوصول إلى هذه المزايا التى تمكنهم من تطوير أنفسهم(١١).

تخيل كيف يبدو ميثاق حقوق الإنسان لمنتج فرسانى كامل من ميثاق الشرف: "يا له من نظام! كل شخص مهما كانت درجته أو منزلته يعامل كما لو كان فارسًا انتصر على أقرانه واكتسب مزية المعاملة كند مساوٍ من أفراد المجتمع المستقلين الآخرين. وبناءً عليه، فإن جميع هؤلاء المبتدئين بحاجة إلى تدريب خاص (على حسابنا، دون شك) لإعدادهم لخوض المعركة.

وإذا فشلوا، ستستمر عنايتنا بهم كسيدة القصر ... تريد أن تحافظ على أناقتها ونظامها الغذائى وتعليمها وتسليتها. وهم يرتقبون كل هذا كحق لهم!. وهذه الأفكار التى عبرنا عنها بألفاظ عصرية مختلفة، من الممكن أن تُسمع فى أى مقهى أو حانة.

* * *

فى هذا الفصل:

قمنا بتحليل أحداث ٩/١١ كعمل انتقامى من ذل سابق، ورأينا كيف كان رد الفعل الأمريكى مغلفًا بإطار من ميثاق الشرف، على النقيض من ميثاق حقوق الإنسان كسبل بديلة لمعالجة التبارز الاجتماعى، وتقديم الرعاية والحماية فضلاً عن التحكم فى الوصول إلى مزايا الارتقاء بالحياة؛ ولاحظنا أن كلا الميثاقين له موقعه فى الحياة السياسية الأمريكية.



٣

طرائق الإذلال

نعرج الآن على الضلع الثانى للمنحنى الثلاثى، وسنستشف من خلاله مدى عمق تجربة الإذلال من حيث طرائق إتيانها بفعل ميثاق الحداثة الذى هو محل تشكيلها.

ما المقصود بالإذلال؟

يحـــدث الإذلال عنـــدما يُجبـــر شخص أو جماعة أو مجتمع على الرحيل أو الإقصاء من مكان يرون حقهم بالبقاء فيه والأمور فى مجراها الطبيعى، شاعرين فى ذلك بألم ساحق واعتداء ماحق. وبكلمات أخرى، يشعر الناس بالإذلال عندما يُرغمون أو يُقصون عن مكان ما يعتقدون "بأحقيتهم فيه" داخل فئة أو شبكة أو طبقة يشعرون "بالانتماء" لها شعورًا لا يتجاوزون فيه حد الإنصاف.

وقد يكتسى الترحيل أو الإقصاء ثوب العنف مخلفًا إصابات بدينة، إلا أن الألم الذى يخلفه الإذلال ليس جسديًا، إنما يحس به الطرف الواقع تحت وطأته كونهم على دراية بالتباين بين مدى اعتقادهم باستحقاقهم المعاملة بتقدير واحترام، وبين واقع المعاملة الذى يشهدون.

هذا مفهوم "معاصر" مميز للإذلال، وإذا قلبنا صفحات التاريخ بالقدر الكافى لوجدنا له معنى آخر، ففى هذا المعنى القديم لا يعنى الإذلال الترحيل أو الإقصاء

الجبرى فحسب، بل يُضاف إلى ذلك التواضع. وبمعنى آخر، قد يختار إنسان أن ينحدر من مكانة "مرتفعة" ليشاطر من يعيشون فى "القاع" حياتهم (كملك يتجول بين رعاياه فى ثياب رجل فقير، كما يرد فى الحكايات الشعبية القديمة، أو كنزول المسيح بين البشر فى الأسطورة المسيحية)، أو أن يعْمد شخص إلى استيضاع نفسه (على سبيل المثال) مذكرًا نفسه أن جميع البشر صاغرون أمام عظمة الطبيعة أو الإله أو المجتمع.

يحمل مصطلح "الإذلال" فى استخدامه القديم الرسالة التالية: "من تظن نفسك؟ إنك أقل أهمية مما تعتقد. لابد لك من النزول من عليائك لتكون فى مكانك". وسيكون رد المتأثرين بذلك إما أن تأخذه العزة بالإثم، أو أن يشكر مذكِّره بحلم. وبمعنى آخر، يتضمن مصطلح "الإذلال" معانى القبول والرفض – من جانب المنوط بهم التواضع – "للرسالة" التى مفادها أن عملية التواضع لا غنى عنها. ومن الوارد أن يوجه الفرد أو الفئة أو المجتمع "الرسالة" لنفسه، على سبيل المثال، على غرار عملية التحول الدينى.

فى المقابل، يعنى مصطلح "الإذلال" فى استخدامه المعاصر الترحيل أو الإقصاء الجبرى المصحوب بالسخط العارم دون الشكر الحالم. ويرتبط انتشار هذا المعنى الأضيق لمصطلح "الإذلال" ارتباطًا وثيقًا بانتشار ميثاق حقوق الإنسان الذى يؤكد على مبدأ المساواة وعدم قبول فكرة أن "الدونية"، المفضية للخضوع والتبعية، قد تكون سلوكًا حميدًا. بيد أن الشعور بالمساواة بين المواطنين قد يتعايش مع الشعور بالخضوع للإله. ومن ثم فإننا نجد، على سبيل المثال، أن المعنى القديم للإذلال كان حيًا وسائغًا عام ١٨٦٣، فى الولايات المتحدة.

وفى خضم الحرب الأهلية الأمريكية أعلن الرئيس أبراهام لنكولن "يوم الذل القومى، صيام وصلاة"، وشمل إعلانه فكرة مفادها أنه ما دامت "الدول مثل الأفراد تخضع للعقوبات وعوامل التطهير فى هذا العالم، أفلا يجدر بنا الخوف من أن فاجعة الحرب الأهلية – التى تدمر الأرض فى الوقت الحالى – قد لا تكون سوى

عقاب أصابنا بسبب خطايانا الكثيرة، لتصل بنا إلى الغاية المنشودة فى الإصلاح القومى كشعب واحد؟" واستطرد قائلاً "إن الأمريكيين، الذين انتشوا بنجاح غير منقطع، قد أصبحوا مكتفيين ذاتيًا اكتفاء زائدًا لا يشعرون معه بضرورة التكفير عن الذنب والحفاظ على النعمة، وأصابهم الكبر فلم يصلوا للرب الذى خلقنا! ومن ثم يجب علينا أن نتذلل خاضعين للقوة التى أقدمنا على عصيانها وأن نعترف بخطايانا الوطنية وأن ندعو طلبًا للرحمة والغفران."(١)

أما المعنى الحديث لمصطلح "الإذلال" فهو أكثر تحديدًا، ويتجلى ذلك للناظر فى "يوم الذل الوطنى"، الذى أقامته الصين فى ١٨ سبتمبر / أيلول ٢٠٠٥، فى الذكرى السنوية لغزو اليابان إقليم منشوريا عام ١٩٣١.(٢) وفى هذه الحالة، فإن الذل الوطنى لا يشير إلى فترة من المحاسبة التراكمية للنفس، بل إلى انتهاك سافر وعنيف وغير مقبول للحقوق على يد دولة أخرى.

ومن الآن فصاعدًا فإن كلمة "الإذلال" ستستخدم فى هذا الكتاب بمعناها المعاصر.

ما الذى يذلنا؟

إننا جميعًا عرضة للإذلال، فقد نُحرم من أشياء نعتقد أنها ضرورية لوجودنا، ومن أشياء لا نقبل العيش بدونها. ويعتمد وجود هذه الأشياء إلى حد كبير على مشاركة الآخرين، علمًا بأن هذه المشاركة قد تُسحَب منا على غير إرادتنا. ولاشك أننا عرضة أيضًا لأوجه الضعف الجسدى وقوى الطبيعة، إلا أن الفكرة الأساسية تكمن فى اعتمادنا على أشخاص أو أشياء أو عمليات خارج أو أبعد من رغباتنا ومقاصدنا. وعندما تفشل هذه العلاقات القائمة على الاعتمادية فى تقديم الدعم أو التحقق من شعورنا الأساسى بكينونتنا وكيفية تكيُّفنا فى المجتمع؛ فإن النتيجة المحتملة هى الشعور بالإذلال.

ويعد فقد واحد أو أكثر من العوامل التالية مؤشرًا قويًا بأنك فى حالة من الإذلال:

الحرية غياب قيود مكروهة أو غير معقولة لممارسة السلطة، أى حضور القدرة لديك لفعل ما تريده بالكيفية التى تراها.

السلطة القدرة على إنفاذ الإرادة الشخصية من خلال الفعل (والقول)، والاختيار وتفعيل الاختيار.

الأمن الحماية من تبعات ظروف الإذلال التى تحد من القدرة على ممارسة السلطة بفعالية تكفى لتلبية احتياجاتك ورغباتك.

الاعتراف اعتراف الآخرين وتعاملهم بجدية مع قدراتك واحتياجاتك وشعورهم بالرغبة و/أو الالتزام بغية الاستجابة على نحو يحترم هويتك واهتماماتك.

انعدام الحرية

ترى "أمارتيا سن" أنه للتغلب على الشعور بالحرمان والعوز والظلم، يجب على المجتمع أن يخضع لعوامل التطور وتعزيز الاقتصاد والركائز السياسية والمجتمع المدنى بطريقة تجعل الحياة أكثر إقناعًا وإرضاء للجميع. وإذا أراد المجتمع الحياة، فلابد من إحراز الحرية، فتلكم ضرورة جوهرية وليست خيارًا أخلاقيًا فحسب، بل هى وسيلة وغاية للتطور والتقدم. وتتزايد "قدرات" الأشخاص على تطوير أنفسهم ومجتمعاتهم تزايدًا هائلاً عندما يكتسبون خمسة أمور: "(١)الحريات السياسية، (٢) التسهيلات الاقتصادية، (٣) الفرص الاجتماعية، (٤) ضمانات الشفافية (٥) الأمن الوقائى" (سن ١٩٩٩، ١٠). وهذا اتجاه حاضر بقوة فى تقارير التنمية البشرية المنشورة فى مطبوعات الأمم المتحدة.

أما "مارتا نوسباوم" فوضعت قائمتها الخاصة بشأن "القدرات الوظيفية البشرية المركزية" الضرورية مستندة إلى بحث مقارن بين الثقافات، وتشمل القدرة على حياة متوسطة الأجل، والتمتع بالصحة والسلامة البدنية، واستخدام الحواس والتصور والفكر، والتعبير عن سلسلة كاملة من المشاعر، والانشغال بالتفكير العملى، وتوطيد العلاقات مع الآخرين فى إطار احترام الذات وانتفاء الإذلال، وإظهار الاهتمام بالأحياء الأخرى وعالم الطبيعة، وكذلك الترفيه، والقدرة على التحكم فى البيئة المحيطة على الصعيدين المادى والسياسى (نوسباوم ٢٠٠٠، نوسباوم ٢٠٠١، نوسباوم ٢٠٠٦).

يحدد كل من سن ونوسباوم "أطر" الحرية بالتأكيد على محال وجود الحرية للناس وكذلك القواعد والموارد اللازمة التى تساعدهم فى تحقيق ذلك. وبالروح ذاتها قدم "ديفيد هيلد" مخططًا تفصيليًا بشأن "الحكم العالمى" فى إطار نظام ديمقراطى عالمى، محددًا فى ذلك سبعة محاور "لمواقع السلطة" فيما يخص النفس والرفاهية والثقافة والمؤسسات المدنية والاقتصاد والعنف المنظم والمؤسسات القانونية (هيلد، ١٩٩٥)(٣). إن مفهوم القدرة يحدد السبل التى يتعين المضى فيها، لكن من أين تُحَصَّل الطاقة البشرية المحركة اللازمة لخوض غمار تلك السبل؟

انعدام السلطة

يوضح "ميشيل فوكو" الطاقة المطلوبة لممارسة السلطة المثمرة، فهو يرغب فى العمل المقرون بالفهم. ورغم ذلك، فإن عمله يخامره شك مطلق فى جميع المؤسسات الحديثة؛ إذ يرى أن ممارساتهم المتنوعة تنطوى على إذلال أصيل فى طبيعتها ولا يمكن "تحسينها" تحسينًا ملحوظًا (فوكو ١٩٦٧، فوكو ١٩٧٣، فوكو ١٩٧٨، سميث ٢٠٠١، ٩٣- ١١٣) (٤). أما العمل الإبداعى الوحيد فى هذا الصدد فهو الهروب منها أو رفضها. وفى برنامج للسلطة أكثر تفاؤلاً، أوضحت "مارى

كالدور" خمسة أنواع من المجتمعات المدنية، بما يشمل الملابسات العالمية، مضيــفة أن المجتمــع المــدنى العــالمى يُعنى فى المقام الأول بإضفاء "المدنية" أو الديمقراطية على العولمة، بشأن العملية التى يمكن للجماعات والحركات والأفراد أن يطالبوا من خلالها بمبدأ قانونى وعدالة شاملة وتمكين عالمى (كالدور ٢٠٠٣، ١٢)(٥).

وباستقــراء رأى آخر، تــرى "حنــا أرندت" أن أكثــر البشر المعاصرين لا يناسبهم العيش فى عالم خالٍ من الإذلال. فلقد دأبوا على أن يُملى عليهم ما يقومون به أو يفكرون فيه، وترى كذلك أن "توماس هوبز" كان محقًا فى توقعه هذا الموقف فى منتصف القرن السابع عشر؛ ذلك أنه تمكن من تحديد السمات النفسية الأساسية للنمط الجديد للشخصية غير النشطة التى تقبل التكيف تمامًا مع المجتمع المعاصر بمنظومته السياسية الطاغية، بمعنى أن "الفقير الوديع" الذى ليس له حق فى أن يثور على الظلم والذى – بغض النظر عن النضال من أجل القوة – يخضع لأى حكومة حالية ولا يثور حتى عندما يقع أعز أصدقائه ضحية بريئة لسبب غير مفهوم. (أرندت ١٩٧٦، ١٤٦).

ويبدو أن أرندت أكثر تفاؤلا من فوكو بشأن إمكانية تحسين الأوضاع، فهى تُعول على وجود فترات ثورية "ميلادية" فى أوقات الانهيار الاجتماعى، حينها يتسنى للبعض خوض الإثارة والمردود الناجم عن التعاون مع الآخرين بروح التضامن والحوار المفتوح، غارسين بذلك بذرة جديدة لمجتمع أفضل(٦). أما "زيجمونت بومان" فقد رأى لوهلة أن الروح التى بحثت عنها أرندت ممكنة الوجود على الساحة الشعبية العامة بقيادة المفكرين المستنيرين. وفى الآونة الأخيرة، قام بالبحث عن مؤشرات وامضة لتضامن بشرى حقيقى بين "الأنا" و"الآخر"، أى أن مساحات التفاعل البشرية غير المشوبة بالإذلال ممكنة الحدوث، علمًا بأنه يترتب على ذلك نتائج ممكنة إحداها احتمال اتساع نطاق تلك المساحات والتقائها ببعضها بمرور الوقت.

انعدام الأمن

يحدد "بيتر سينغر" المواقع الرئيسية للسلطة فى درجة أعلى كثيرًا فى النظام السياسى الاجتماعى مما هى عليه الحال بالنسبة للفرد المواطن، فهو ينشد مستقبلا يحمل صورة فعالة للحكم العالمى، ويتصور المجتمع العالمى "مجتمعًا عالميًا محتملاً له سلطته التشريعية المنتخبة انتخابًا مباشرًا، ربما تحدوه خطى التطور البطيء على نهج الاتحاد الأوروبى" (سينغر ٢٠٠٤، ١٩٩).

يستطرد سينغر فى شرح بعض المبادئ الأخلاقية التى ينبغى أن توجه أفعالنا فى عالم العولمة، فعلى سبيل المثال، لا يجب أن نستخدم أكثر من نصيبنا المحسوب بدقة للفرد؛ لقدرة البيئة المحيطة المحدودة على امتصاص التلوث.[٧] وينبنى العنصر الأكبر من هذا الاتجاه على الحاجة إلى توفير الأمان للضعفاء والمستضعفين والمهمشين. ويشير سينغر إلى لجنة الحكومة الكندية للتدخل وسيادة الدولة التى صـــدر تقـــريرها لعام ٢٠٠١، تحت عنوان مسئولية الحماية[٨]. ويتطلع سينغـــر إلى وقت تتمكن فيه الأمم المتحدة من العمل بصفتها "حامى التقرير السابق".

يضيف عمل "بارينغتون مور" قوة لهذا الموقف العالمى كما يتضح من مبدئه – المبين فى كتابه "Injustice" (*انتفاء العدالة*) (١٩٧٨) – أن أعضاء أى نظام يحق لهم أن يتوقعوا توقعًا مشروعًا مفاده أن تمارس الحكومة "سلطة رشيدة"، بمعنى الإعلان المقنع عن أن قراراتها قائمة على الاستغلال الأمثل للوسائل المتاحة لتحسين مستوى الرفاهية للمواطنين المتأثرين بهذه القرارات[٩].

انعدام الاعتراف

"بارينغتون مور" – وكذلك "إدوارد تومسون"[١٠] – من العلماء التجريبيين الذين استشهد بهم "أكسيل هونيث" فى عمله المعنى بمبدأ الاعتراف (هونيث ١٩٩٦).

وبالاستناد إلى آراء "هيغل" و"ميد" و"وينيكوت" وغيرهم، يكشف هونيث التداخل بين حاجة الأفراد فى حال السعى إلى تحقيق ذاتهم كبشر والطريقة التى تنمو بها علاقات التقدير المتبادل داخل المجتمع. ويفرق الرجل بين العلاقات الأساسية[١١] والعلاقات القانونية والعلاقات داخل "مجتمع القيم": فالعلاقات الأساسية (داخل الأسرة) تولد الصداقة والحب الذى يغذى الثقة بالنفس، أما العلاقات القانونية (داخل الدولة) فتولد الحقوق التى تدعم احترام الذات، وأما العلاقات داخل "مجتمع القيم" (المجتمع القومى والعالمى) فتولد "التضامن" الذى يعزز تقدير الذات المرتبط بشغل منصب اجتماعى معين.

أصاب هونيث فى التأكيد على الطابع الاجتماعى والتواصلى للثقة بالنفس واحترام الذات وتقديرها[١٢]. وليس هو الوحيد فى تركيزه على ذلك الاعتراف،[١٣] بل إن "أفيشاى مارجليت" (١٩٩٦) يرى أنه يتعين على مؤسسات المجتمع السليم عدم رفض أى شخص من المجتمع الإنسانى: فلا يجب أن يحرم أفراد المجتمع من آدميتهم أو تقليص قدرتهم على التحكم فى حياتهم الخاصة أو تجريدهم من هويتهم الثقافية أو كرامتهم؛ فذلكم المؤشر الخارجى لاحترامهم الداخلى لذاتهم، أى أنه لا يجب أن تذل المجتمعات أفرادها[١٤].

يبحث "جوناثان جلوفر" عن سبل لبناء قاعدة أخلاقية مقبولة تقوم على التعويض النفسى الواقعى للأشخاص كما هم، ومن الناحية الواقعية، كما ينبغى أن يكونوا. وعلى غرار بومان، يدرك جوناثان أن قدرة الفرد على التضامن مع الآخرين والاعتراف بهويتهم الأخلاقية من الممكن أن تتآكل تحت ظروف معينة. ويركز بومان على البيروقراطية[١٥]، فيما يركز جلوفر تركيزًا أكبر على الكفاح المسلح وصراع "القبلية" (جلوفر ٢٠٠١، ١٣٣) وتعطشها للانتقام. وتفيد رسالته بضرورة استخدام العقل والتصور لتجنب الوقوع فى فخ المعتقدات الباطلة ومناخ الرعب.

أما "ريتشارد سينيت" فيطرح مواضيع ذات صلة، زاعمًا أن "عدم المساواة بين الطبقات والأجناس يُصعِّب مهمة الأشخاص فى التعامل مع بعضهم باحترام"، ويتأمل كيفية تقليل قوة الذات ... من شأن الآخرين، وتعجز عن التكيف بين الثقة فى النفس واحترام الآخرين والكيفية التى بها تُشكل القوى الاجتماعية الخبرات الشخصية" (سينيت ٢٠٠٤، ٧-٤٦).

أوجه الغموض والصراع والخداع

تحتوى هذه القائمة على أوجه الغموض والصراعات الداخلية الكامنة، وتوضح الحيلة الأيديولوجية الخفية. وجدير بالذكر أن نوضح ما يلى:

- الأشخاص الذين يتمتعون بحالة من الحرية لا يملكون بالضرورة الموارد والمهارات والمعرفة اللازمة لممارسة السلطة بطرق تعزز مصالحهم أو تدعم إحساسًا مرضيًا بالهوية - فالأحرار قد يعوزهم ما يحتاجون للهروب من الفقر، على سبيل المثال.
- من الصعوبة بمكان أن نجمع بين درجات عالية من الأمان ودرجات عالية من الحرية، لاسيما عندما يُفرض الأمن من خلال المراقبة الشاملة والتنظيم والتحكم - فقد تعنى زيادة الأمان تضاؤل الحرية، فيما قد تعنى زيادة الحرية تضاؤل الأمن.
- الذين ينشدون الاعتراف لأنفسهم من الممكن أن يحرصوا على حرمان الآخرين منه.

من الممكن مواجهة أوجه الغموض والصراع والخداع المحتملة هذه إذا ما تم التعرف عليها، فهى تتجلى فى صور شتى فى ميثاق الشرف وميثاق حقوق الإنسان كما أوضحنا فى الفصل السابق.

الأشخاص الناجحون وفقًا لأحكام بميثاق الشرف يظهرون قدرتهم الذاتية على ممارسة السلطة والتمتع بالحرية والمطالبة بالاعتراف من الآخرين وحماية مصالحهم الشخصية بالقوة. وهم يفعلون ذلك عن طريق *إضعاف قدرة الآخرين* (أعداؤهم وضحاياهم) لفعل الشيء نفسه. أما فئة المنتصرين بشرف و"أصحاب الأمر والنهى" المتألقين فيمكنهم الاعتماد على بصيرتهم فى الاعتراف بمصالح المنهزمين على أيديهم، إما بمنح الحرية لبعضهم أو بإسباغ الموارد عليهم (مثل المال والأرض والسلاح) ، وهى الموارد اللازمة لممارسة قدر محدود من السلطة. وقد يقرروا تقديم نوع من الحماية الخاصة لمن يفضلونهم. وبالرغم من ذلك، فقد يختارون عدم القيام بمثل هذه الأشياء.

يسهم الظل الخفى لميثاق الشرف وسط مجتمعات حقوق الإنسان فى توضيح ما يلى:

- كيف أن قوة النفس تقلل من قوى الآخرين (سينيت ١٩٩٩).
- كيف أن قوة القبلية تعلى هامتها فى ميادين المعركة (جلوفر ٢٠٠١).
- كيف أن الحافز على الإذلال فى المجتمع الراشد المنشود قد يدوم.
- كيف أن المجتمعات التى تترسخ فيها الحقوق القانونية وتعزز الاحترام الشامل للذات قد تمتلك أنظمة لسياسة اجتماعية يُنتَقص فيها من قدر جماعات أو أدوار أو مهن بصفة منتظمة فى وسائل الإعلام والثقافة الشعبية (هونيث ١٩٩٦).

تحمل مالا يستطاع

كما أوضحنا وبينّا من قبل أن الإخضاع والإذلال يتأتّى عندما تغيب شمس الضروريات الإنسانية مثل السلطة والحرية والأمان والاعتراف بالوجود، ويجد

هؤلاء الناس أنفسهم فى نهاية المطاف وهم يُبعدون عن أماكنهم التى يفترض أن يكونوا فيها كما أنهم يرون أنهم أحق بالوجود فيها. إنهم يظهرون بصورة مزرية قولاً أو فعلاً أو عملاً، حيث لا يمكنهم أن يكونوا بالصورة التى يرونها لأنفسهم. والإذلال هو الشعور بمرارة الإبعاد أو الإقصاء أو القهر أو الإخضاع الجائر وغير المبرر أو المقبول.(١٦) وعادة ما يكون ذلك الإقصاء القهرى أو الإبعاد متبوعًا بالغضب أو الاستياء من جانب الضحية التى تكون بحاجة للاحتواء أو امتصاص الغضب أو إطلاق السراح أو البدء من جديد بطريقة ما. ويتسبب هذا الشعور بالاستياء فى إيجاد مخزون كبير للطاقة التى يسعى القادة السياسيون والعسكريون لاستغلالها لتحقيق أغراضهم. وهذا السبب فى صيرورة "الإذلال" أكثر قابلية للانفجار من الاستغلال أو الهيمنة أو الانعزال "المجرد".

وقبل كل شيء، هناك تساؤل مطروح: ما هى المعاناة التى تنشأ عن الإذلال؟ وأقصد بالمعاناة تأويل المفاهيم التى تحدث فى إطار العلاقات الاجتماعية. وتتأثر هذه العملية بطرق خاصة من الفهم والتفكير المتداخل مع ثقافات ولغات خاصة.(١٧) وحيث إن الثقافات مختلفة، فعلى غرارها تكون السبل الخاصة التى بها نشعر وندرك ونعانى من الإذلال. وبالرغم من ذلك، فإن الذين يعانون من الإذلال لديهم شعورهم الخاص رغم ما يعانونه من تعقد وغموض للأسباب الآتية:

- مَنْ يكونون.
- ماذا يحدث لهم.
- مَنْ أو ما الذى يسبب لهم ذلك الشعور بالازدراء.
- مدى تأثير ذلك على قدرتهم المجتمعية أو الجماعية حتى يعيشوا حياتهم بالكيفية التى اعتادوا عليها، والطريقة التى يرغبون فيها ويقدرونها ويتوقعونها.

الإذلال هو عملية تقع فى إطار العلاقات الاجتماعية، وليس بداهة شعورًا ينتاب الجسد والعقل". فمن ناحية، يوصف عمل أو حدث بأنه مذل بقدر تصوره أو تأويله فى أذهان أشخاص أو جماعات بعينها. وعلى الجانب الآخر، هذه المعاناة من الإذلال بمثابة حدث وحالة داخل شبكة من العلاقات الاجتماعية بحيث تؤثر على مدى تطور هذه العلاقات.

ومن وجهة نظر الضحية أو المشاهد المتعاطف، فإن رد الفعل الطبيعى للشعور بالإذلال، هو إصدار تعليقات مثل "إنها إهانة" أو "لم نعد نطيق ذلك" أو "مستحيل" أو "لقد طفح الكيل". والرسالة الأساسية هى أن الشىء الذى يتم "لم يعد مقبولاً". ومن الناحية العملية، فإن الناس ربما اضطروا للإذعان للوضع غير المقبول بيد أن رفضهم الشديد لهذا الوضع يشير بقوة إلى حدوث شىء مذل.

ونعنى "بغير المقبول" هنا أكثر من شىء. أولاً، يمكن أن يكون شىء ما غير مقبول إذا كان من يحكم عليه يرى أنه يخل بمبدأ العدالة فى المجتمع. على سبيل المثال، إنكار المواطنة أو حقوق الإنسان العامة. وبالرغم من ذلك، ما هى التداعيات التى من الممكن أن تحدث إذا كان الأشخاص الذين يقومون بالعمل أو الذين يتحملون أعباءه أو الذين يشاهدونه لا يؤمنون بمبدأ المواطنة أو حقوق الإنسان العامة؟ لنفرض حدوث فعل فى مكان لا يوجد به مبدأ مشترك للعدالة أو القانون يمكن لأى شخص أن ينشده وهو على ثقة أن الآخرين سيفهمونه أو يعترفون بوجوده.

وفى هذه الحالات، يمكن أن يصف الضحايا الفعل بأنه مذل، وهذه حقيقة يمكن لأى فرد – لديه القدرة على التضامن من وجهة نظره – أن يفهمها. ويعتبر الفعل مذلاً إذا كان ينتهك بشدة أو يتعارض مع المطالب التى يقدمها أفراد أو جماعات أو مجتمعات بأعينها بشأن ماهيتهم وكيفية التكيف معهم. على سبيل المثال، من قبيل الإذلال عندما ترفض جماعة من أصحاب الدخول الكبيرة ادعاء

الأفراد الأصليين أن لهم الأهلية فى شغل موقع معين، (مثل الوجود القبلى فى سهول أمريكا الشمالية)، والذى يضفى عليهم هوية خاصة واهتمامات محددة.

وفى مثل هذا الموقف، يكون من غير المعقول لتلك الأطراف المعنية ("الضحايا") أن يقبلوا رأى الذين يريدون أن يقضوا عليهم، وفى الوقت نفسه يريدون الحفاظ على هويتهم القائمة، متشابكة كما هى مع طريقة معينة للحياة. وبناءً عليه، فإن مصطلح "غير المقبول" له مدلولان ممكنان، هما:

- عدم إمكانية التصالح مع أى انتهاك أو إخلال بالمبدأ الذى يحكم العلاقات الاجتماعية وهو المناخ الذى تحدث فيه الأعمال أو الأحداث المفضية للإذلال.
- و/أو عدم إمكانية التصالح مع شعور الطرف المستذل بهويتهم وقيمتهم ومصالحهم.

إن الأمور تصبح من التعقيد بمكان عندما يرتكز القانون الحاكم فى مجتمع أو إقليم عالمى على مبادئ المواطنة وحقوق الإنسان فى حين تتبنى جماعات بعينها ميثاق الشرف الخاص بها والذى يتعارض مع المواطنة وحقوق الإنسان فى أوجه أساسية. وفى هذه الحالات، من الضرورة – وإن كان من الصعوبة من الناحية التصورية – لأولئك الذين يتمسكون بالقانون الحاكم أن يعترفوا أنهم من الممكن أن يتعاملوا مع جماعة ليست "مخطئة" فحسب، كما يرونها، بل جماعة تشعر بالذل بسبب جهود "الدخلاء" لانتهاك طريقتهم الخاصة. وبالرغم من ذلك، قلما يقف ميثاق الشرف ندًا لميثاق حقوق الإنسان، إذ إن معظم المجتمعات تعمل بمزيج يجمع بين الاثنين، وتكون المطالبة باحترام الآخرين لحقك الخاص من ميثاق الشرف هى مطالبة بميثاق عالمى لحقوق الإنسان.

يمكننا التمييز بين ثلاثة أنواع من الإذلال (انظر الجدول ٣ - ١). أحد هذه الأنواع هو إذلال الفتوحات. ويقع هذا النوع من الإذلال عند السيطرة على شخص أو فئة أو مؤسسة أو مجتمع لديه درجة كبيرة نسبيًا من الحكم الذاتى (بالحرية واللغة التقليدية) من قبل شخص أو جماعة أو مؤسسة أو مجتمع آخر، مع إجبار الطرف الذى تم اجتياحه على الإذعان للطرف الفاتح، إنه - إذا جاز التعبير - مغلوب على أمره. وتتشكل الهرمية الطبقية مع وجود الفاتح على قمة البناء الهرمى. ويحدث هذا، على سبيل المثال، عند نجاح الغزو العسكرى، عندما ينجح المالك الإقطاعى فى تحويل من يهزمهم إلى مجرد تابعين أو عند تحول الأسرى إلى عبيد(١٨).

وكم هو شعور مبغض ومنفر للغاية أن تكون تلك المعاملة هى نهاية المطاف. ويرى إلياس كانيت، أن أى أمر يصدره الحاكم ويكون مصحوبًا باستياء شديد هو: "كل أمر يترك أثرًا مؤلمًا فى نفس الشخص الذى يُرغم على تنفيذه" (كانيت ١٩٧٣، ٦٧). ويتحول هذا إلى شعور قاس بالاستياء والذى لا يمكن التغلب عليه إلا بالارتداد إلى وضع السلطة.

الجدول ٣ - ١ الأنواع الثلاثة للإذلال
إذلال الفتوحات
إذلال الإبعاد
إذلال النفى

أو بمعنى آخر، فإن الرغبة فى الثورة لمقاومة الإذلال متأصلة فى جميع الطبقات(١٩). والإذلال، فى واقعه، مصدر أصيل للطاقة الاجتماعية: "إن ما يبعث البشر على الإنجاز هو الرغبة العميقة للتخلص من الأوامر المفروضة عليهم".

ومتغير آخر لإذلال الفتوحات يكمن فى غزو الجماعة للفرد. على سبيل المثال، فى كثير من المجتمعات يعانى المجندون الجدد فى القوات المسلحة والشرطة من تجارب مذلة، غالبًا ما تأخذ شكل الطقوس، والتى تنبئ الآتى الجديد بـــرسالة مفادها: "سوف تتعلم أن تفكر على طريقتنا، ستتعرف على هذه الجماعة، أو ستعانى منها".

ومن جانبه يصف فيكتور تيرنر، عالم الإنسانيات، المجتمعات القبلية فيعرفها بأنها هى تلك المجتمعات التى يضعف فيها الشعور بالهرمية على نحو مؤقت بين الحين والآخر فيقوى الشعور بالانتماء لجماعة متحدة (تيرنر ١٩٦٩). وعندما تهدأ "نعرة" الدرجات العالية والمنخفضة، فإنها تسمح لكافة أعضاء القبيلة أن يشعروا بالانخراط التام فى جماعة شاملة يشاركون فيها الشعور بالتضامن مع جميع أعضاء المجتمع الآخرين، وتلك هى لحظات "القوة[٢٠] التى تمارس فيها طقوس انتقال السلطة خاصة التحضير لمنصب الحاكم الجديد. وفى غضون هذه الطقوس، فإن الحاكم الجديد يعتنق (بحذق) اتجاهًا ينطوى على قدر كبير من الإذلال عندما يخضع هو لانتقاد لاذع أو حين يواجه عنفًا.[٢١]

النـــوع الثـــانى من الإذلال هو إذلال النفى. ويحدث هذا عند إرغام شخص أو جماعة أو مؤسسة أو مجتمع على النزول لوضع متدنٍ داخل الشكل الهرمى القائم ضد إرادتهم وبطريقة تصطدم بإدراكهم الخاص لهويتهم ومصالحهم الاجتماعية. وتحمل تجربة الإذلال فى طياتها حتمًا تصور "رفض" النفى بالرغم من أنه فى بعض الحالات ربمـــا وجد الضحايا أنفسهم فى نهاية المطاف يقبلون، أو على الأقل، يخضعون له. ربما كان المثال الأحدث على الصعيدين الجغرافى والسياسى للنفى هو الإطاحة بالإمبراطوريات الأوروبية، التى أُرغم حكامها القدامى على قبول القيادة العالمية للولايات المتحدة. وقد كانت هذه الإمبراطوريات، فى ذروتها، مسئولة عن فرض إذلال النفى على الملوك، والأمراء والرؤساء فى جميع أنحاء العالم. وعلى غرار إذلال الاحتلال، فإن إذلال النفى يولّد شعورًا قاسيًا بالاستياء[٢٢].

أما النوع الثالث من الإذلال فهو إذلال الإبعاد[٢٣]. وفى هذه الحالة، فإن الذين يقع عليهم الإبعاد يرغمون على الحرمان أو الرفض من العضوية ضمن جماعات بعينها أو طبقات أو شبكات يرون أحقيتهم فى الانتماء إليها. وتشمل الأمثلة الحرمان من المشاركة الكنسية للزنادقة من قبل الكنيسة، وطرد الأقليات العرقية الدينية من بعض المناطق بعينها، طرد أى دبلوماسى من السفارات الأجنبية يُتهم بالتجسس ويعلن أنه "شخص غير مرغوب فيه"، وشن حملات لإقصاء أو إبعاد الجماعات المنبوذة مثل يهود ألمانيا (فى حكم هتلر) والإقطاعيين الروس أتباع القيصر أو من يسمون أثرياء الريف (فى حكم ستالين).

ومن المفارقات، أن يكون الشعور بالإبعاد هو شعور الأغلبية. ويرى مارى دوجلاس فى كتابه "الرموز الطبيعية" (١٩٧٠)، أن هذه الحالة تنبع من مواقف فئة قوية لكنها جماعة ضعيفة. وهذه الفئة لا تضم مجتمعات تعتمد على ما يسمى "بكبير العائلة" كما هو الحال فى ميلانسيا[٢٤] فحسب، بل تضم كذلك المجتمعات الصناعية المدنية الحديثة التى "يرى فيها الرجال العالم محايدًا من المنظور الأخلاقى، ونظامًا فنيًا لاستثمار مواهبهم الخاصة"[٢٥]. وفى هذا العالم الحديث شديد التنافس، فإن الفائز يأخذ كل شيء، أما الخاسر فلا يربح إلا القليل. وكما وصف دوجلاس، فإن الشعور بالإبعاد أو المهانة أو الشعور بعدم القيمة هو شعور عادى فى نظام الفئة القوية.[٢٦]

وفى نهاية الأمر، ثمة ما يطلق عليه "إذلال التعزيز". وهذا النوع بمثابة ظل لأنواع الإذلال الثلاثة التى تقدم الحديث عنها. ويقع هذا النوع من إذلال التعزيز عندما يظهر سلوك مهين إزاء المستذلين، وتذكيرهم بمكانتهم الصاغرة فى نظر الآخرين. وقد ينطوى هذا على استغلال المصطلحات المهينة النمطية لوصف أجناس أو شعوب أو ديانات بعينها أو فيما يخص بعض الجماعات كالنساء أو كبار السن. وتشمل نماذج أخرى توجيه الضربات والإهانات لمن هم فى وضع أدنى

مثل العبيد والخدم، والتلاعب المقصود بلغة الجسد لنقل الاشمئزاز حيال من هم فى طبقة أدنى أو المنبوذين، والانتهاك المتعمد للحرية الشخصية كتعبير عن الازدراء السافر للطبقة "الأدنى" أو "الخارجية".

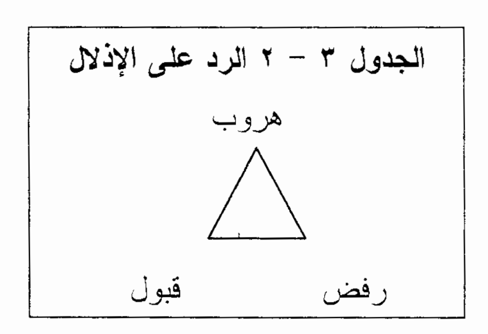
الهروب والقبول والرفض

قد يؤدى الإذلال إلـــى دمـــار شامـــل لمن يعانونه. وبالرغم من ذلك، فإنه لا يزيل الأهلية والقدرة على رد الفعل. لكن ما هو رد الفعل الأمثل؟

وقع أحد أشهر التصورات لذل الإبعاد فى القصيدة الملحمية لجون ميلتون بعنوان "الفردوس المفقود"، المنشورة لأول مرة فى عام ١٦٦٧، مع طبعة مراجعة عام ١٦٧٤ (ميلتون ٢٠٠٤). وتبدأ القصة مع الطرد القهرى للشيطان وأتباعه من الجنة. وبعد وصف هذا الحدث المذهل، يأخذنا ميلتون إلى حالة من الارتباك، إلى حوار الملاك الساقط أو الشيطان مع أتباعه، حيث يتباحث الشيطان وأتباعه ماذا يفعلون حيال إذلالهم على يد الله تعالى. وفى الكتاب الثانى، يرى الشيطان مولوش أن الملاك الساقط أو الشيطان وأتباعه يجب أن يرفضوا مصيرهم وأن يصارعوا من أجل العودة إلى الجنة مرة أخرى إذ إنه لا يوجد ما هو أسوأ من البقاء فى الجحيم، واللعنة بعد وجودهم المبارك فى الجنة. أما الشيطان بيليال فإنه يتبنى وجهة نظر مناقضة، فهو يرى أن محاولة العودة سوف تجعل الأشياء تؤول إلى الأسوأ وهو يرى أنه من الأفضل قبول الواقع كما هو لأن مصيرهم محتوم ومُقدَّر. إنه متفائل ويحدوه الأمل فى أن يخف غضب الإله فى وقت ما، وأن يفقد الاهتمام بهم ولا يعاقبهم. أما الشيطان بليزبوب فيعرض رد فعل آخر. إنه يقول: "لا تنزعج سواء بقبول أو رفض الظروف المذلة التى وضعنا الإله فيها، بل، لابد من أن نهرب من الجحيم ونجد إمبراطورية جديدة صالحة لأن نسيطر عليها، ولا نرجع

إلى السماء بل نبقى فى البقعة المشاع من الأرض والتى يحيا عليها نوع جديد من الكائنات يسمى "الإنسان".

وبناء عليه، فثمة ثلاثة ردود أفعال محتملة لتحدى الإذلال، هى: الرفض (مولوش)، والقبول (بيليال) والهروب (بيلزبوب). وللعلم، فقد دعم الشيطان استراتيجية الهروب(٢٧).



الهروب

أول رد فعل ممكن هو *محاولة الهروب* من الموقف المخزى المذل. وقد يشعر الهاربون بأنهم وُلدوا من جديد بعد هروبهم، لكنهم فى الوقت نفسه يألمون من الجراح ويصيبهم الخوف جراء شعورهم بالذل الذى تجرعوا مرارته فى الماضى. إن محاولة الهروب، وما يستتبعها، قد تنجح فى بعض الأحيان. بمعنى أن ضحايا الإذلال المجروحين "المولودين من جديد" قد ينجحون فى تأسيس مكان آمن خاص بهم، وإذا فعلوا ذلك، قد ينجحوا فى بناء الثقة فى العلاقات التى يعتمدون عليها من أجل معيشة آمنة ومستقرة غير مذلة ولا مستذلة. بيد أن هذا يمثل تحديًا صعبًا.

مكمن الخطورة فى أن هؤلاء الضحايا المجروحين، عند قيامهم بالهروب، سيتزايد الخوف عندهم. وقد يجنحون للمبالغة فى المخاطر التى تتمخض عنها البيئة

المحيطة، بحيث يصير "القلق" ديدنهم ويبحثون عن أعذار لقيامهم بأعمال عدائية ضد من يخافون منه. علاوة على ذلك، فقد يقومون بشن هجمات غير مسبوقة لتفادى الخطر المتصور. وتكمن المشكلة فى أن ضحايا هذه الهجمات من المرجح أن يتذمروا وأن يقوموا بهجوم مضاد. وفى واقع الأمر، فإن الأعمال العدائية من هذا القبيل قد تسفر حتمًا عن وهرات دفاعية محرجة. وإذا تمكن المعتدون من الخلاص بأنفسهم، فقد ينسحبوا مرة أخرى إلى مقرهم الآمن الخاص حتى تستثير مستويات الخوف الكامن دورة أخرى من دوائر الخوف فنرى الذين يسعون للهروب من الإذلال وهم يفرضونه على الآخرين.

القبول

أما رد الفعل الثانى هو محاولة قبول الأعمال المذلة فى إطار العلاقة مع السعى لتأويل تلك الأفعال على أنها غير مذلة. والطريقة الشائعة لعمل ذلك تتمثل فى التعرف على قيم الطرف المذل. على سبيل المثال، بلعب دور *التائب النادم* يمكن تجنب دور الضحية. وفى هذه الحالة، فإن التائبين ربما حاولوا تحويل إذلالهم إلى عار وخزى بالاعتراف بالمسئولية عمَّا حدث لهم. إنهم يقولون: "لقد تعدينا ونستحق أن نُلقن درسًا، ونحن الآن على حافة الرجاء أن تقبلونا مرة أخرى، حتى مع إدراكنا أن منزلتنا عرضة للانحطاط من الآن فصاعدًا". وفى هذه الحالة فإن المحصلة المفضلة، من حيث الأطراف المعنية بالإذلال أو ضحايا الإذلال، هى التكامل من جديد داخل الجماعة أو الطبقة. إنهم يريدون أيضًا أن يحصلوا على دعم أولئك المسئولين عن إذلالهم فى تحسين سلوكهم واتجاهاتهم وفهمهم.

وبالرغم من ذلك، فعلى فرض أن المعذبين يعتقدون أن ضحاياهم مهانون من جذورهم؛ ففى هذه الحالة فإن شعور الضحايا المستمر بالخنوع ولوم الذات سيؤكد بلا شك تصور المنتهكين بعدم قيمة واستحقاق الضحايا، وسيتم تجاهل ادعاء

هؤلاء الضحايا بحقهم فى المعاملة الإنسانية، ومن ثم تكون النتيجة المحتملة هى سلسلة من الافتراس تكرر الإذلال.

الرفض

ويبقى رد الفعل الثالث وهو محاولة رفض الأعمال المذلة، وربما يكون ذلك الرفض موجهًا لشخص أو لجماعة أو لمؤسسة أو لمجتمع مارس الإذلال. والقضية فى هذه الحالة تتمثل فى الحد من تأثير الإذلال على الضحايا المستهدفين. وقد يأخذ الإذلال شكل المقاومة الإيجابية أو السلبية و/أو البحث عن انتقام مشبع. ومن المحتمل أن تكون الاستراتيجية الناجحة للمقاومة إحدى الاستراتيجيات التى يوزع بها الطرف المستذَل موارده بشكل أكثر فعالية بجهد محكم وموجه وبعناية للقيام بعمل شيئين، هما: أولاً الحد من التدمير الذى ينتج عن الشعور بالإذلال. والثانى هو المحافظة ورعاية قدرته على التصرف بشكل مستقل وبطريقة فعالة سعيًا لتحقيق أهدافه.

وفى حالة رد الفعل بالرفض للإذلال، من المحتمل أن تنبعث دائرة الانتقام. وتستمر هذه الدوائر عندما يرفض أحد أطراف العلاقة المذلة جدارة واستحقاق الطرف الآخر حقه فى العيش فى المكان الذى يريده، بل فى بعض الأحيان، يتعدى الأمر إلى حقه فى الوجود. وتمضى أعمال الانتقام لأن كل طرف يرى مبررًا لهجماته بينما يرى الطرف الآخر معتديًا ولا مبرر لأفعاله.

المعايير المتغيرة للإذلال

فى عام ١٥٥٠، كما كان الحال قبل قرون، كان الحكام الناجحون يُخشى جانبهم، ويعرفهم القريب والبعيد، وينالون الإعجاب؛ وذلك لقدرتهم على إذلال من حولهم، فى الداخل والخارج. وقد مارسوا تلك السلطة بطرق شتى، منها على سبيل

المثال: تنفيذ أحكام الإعدام على الملأ. وكانت مظاهر العظمة هذه متوقعة ومستساغة. وإذا انتقلنا إلى مستوى اجتماعى أدنى، نجد السادة يضربون خادميهم وعبيدهم ويصبون عليهم وابلاً من الإهانات اللفظية وهم يرون أن ذلك أمر طبيعى.

لقد استطاعت المجتمعات القبلية، والممالك التى ترى أنها "مكلفة من السماء"، والإمبراطوريات المستبدة والحكومات الأرستقراطية المتغطرسة أن تطور مواثيق الشرف لديها، إذ إن الشرف عندهم يعنى الاستقلال والسيادة[٢٨] والأداء الفعال، وهى مقومات توجب لها الاعتراف بالوجود والاحترام والقبول من جانب الدول الأقوى والدول المساوية والتابعة. ويكون الأشخاص المتمتعون بالشرف أو القبلية أو الجماعة قادرين على ملء المكانة المناسبة فى المجتمع مستعينين بأسلوبهم وموظفين فى سبيل ذلك مواردهم الخاصة، وهم يعيدون استخدام الموارد ويوسعون نطاقها من خلال الثقة والقوة والإقدام والشجاعة، وهذه الصفات يثبتها عمليًا النصر والفتح وفى الصراع خاصة فى المعارك[٢٩].

ويعود ميثاق الشرف الأساسى إلى قرون قديمة مضت ولايزال يحيا بين ظهرانينا ولكن بصور وأشكال تختلف من مكان لآخر، فهو يبرر العبودية والمذابح والزواج القسرى وفرض العبودية المنزلية على المرأة. والجوائز والفتوحات التى يقدرها ذلك الميثاق تتمثل فى الاستيلاء على الأشخاص الآخرين وممتلكاتهم بما فى ذلك الأراضى، والمساكن وقطعان الرعى. ويتم تعزيز ميثاق الشرف بعدة طرق: من خلال تدمير الأشخاص الآخرين وممتلكاتهم أو من خلال الاستيلاء على ممتلكاتهم وجعل المالكين القدامى ينحنون أمامك أو من خلال جعل الآخرين يعانون من الألم والتدنى أو من خلال جعلهم يتلاشون ويهربون وهم فى غاية الخوف والرعب.

والتفنن فى الأداء فى مجال الشرف، كالعداءات، والمبارزات، والحملات العسكرية مثلاً، يكون الهدف منه دائمًا هو إذلال الخاسرين. ولننظر مثلاً إلى معاملة جيش الدولة العثمانية لمارك أنطونيو براجادينو، حاكم فاماجوستا فى قبرص، عندما وقعت هذه المدينة بعد فترة حصار طويلة عام ١٥٧١:

"لقد ضُربت أعناق ضباط براجادينو ورقاب أعوانه أمام عينيه وسالت أنهار الدم لتروى الأرض الجافة تحت قدميه، ثم جىء به فجُدعت أنفه أمام الناس وقُطعت أذناه وكأنه أحد المجرمين من العامة...وبعد أداء الصلاة يوم الجمعة بتاريخ ١٧ أغسطس، جُمع الجيش العثمانى الذى حاصر المدينة، وأُحضر براجادينو أمامهم جاثيًا على يديه وركبتيه وقد وُضع على ظهره ما يوضع على ظهور الحمير من أطقم، ووضع فى فمه لجام. ثم وضعت سلتان من التراب ثقيلتان على ظهره بلغتا من الثقل الحد الذى خر تحته براجادينو. واستمر ذلك حتى الصباح ثم اقتيد بعدها على أعين قوى الجيش بين الخيام وهو يزحف للأمام تارة وللخلف تارة ويسىء إليه معظم الجنود. وكلما أتوا به على خيمة القادة العثمانيين كانوا يرغمونه على السجود وأكل حفنة من التراب. (بعد ذلك) رُبط إلى أحد الصوارى أمام كل أفراد جيشه المنهزم ليصبح أحد العبيد العبرة.. (ثم بعد ذلك) أُخذ إلى السوق وربط إلى موضع الجلد أمام أعين الناس كافة ليشهد سكان فاماجوستا طريقة إذلاله.

ولنطرح جانبًا التفاصيل الدموية لتقطيع جلده ولحمه وهو لايزال على قيد الحياة، ووضع القش تحت جلده وحشو جسده به، وبعد ذلك أخذ الجنود براجادينو على حصانه وطافوا به فى أنحاء فاماجوستا، ثم تُرك معلقًا على طرف صارية شراع لأسابيع، بعدها وضع فى عرض سجن العبيد فى القسطنطينية "كتحذير شفوى لمن تسول له نفسه أن يقاوم أو يتمرد" (فيتركروفت ٢٠٠٤، ٢٢).

وقد عانى العبيد، وهم جنود براجادينو السابقون، جميعًا من هذا المصير المحتوم للأسرى فى مجتمعات يحكمها ميثاق الشرف. وكانت تلك رسالة فئة أدنى من المجتمع وهى الفئة العاملة المرغمة على العمل الشاق المهين. لقد واجه ميجيل كيرفانتس، مؤلف كتاب "دون كيشوت" (١٦٠٥)، الذى حارب مع الفئة الفائزة فى معركة ليبانتو بعد انتهاء الحصار المضروب على فاماجوستا بفترة قليلة، معاناة شخصية كواحد من العبيد. وفى أعقاب النجاح المسيحى فى ليبانتو، دارت الدائرة،

وانتقم أنصار براجادينو للذل الذى تعرضوا له، وحاق بالجانب المهزوم ما سبق وأن فعلوه من قبل من إذلال لعدوهم(٣٠).

وقد تغير معنى الإذلال تمامًا منذ تلك الأيام، ونشأت معايير جديدة ترتكز على مبادئ حقوق الإنسان والمواطنة العامة، ولاقت رواجًا واسع النطاق من قبل الثورة الأمريكية عام ١٧٧٦، والثورة الفرنسية عام ١٧٨٩. وأصبحت أعمال الوحشية والعنف التى كانت توصف من قبل "بالشرف" توصف الآن "بالمذلة". وبحلول عام ١٩٥٠، وفرت كثير من الحكومات لشعوبها مزايا الرفاهية، أو بمعنى آخر، كانوا يأخذون على عاتقهم مهمة ضمان الحقوق الاجتماعية والسياسية والقانونية لمواطنيهم بغرض منعهم من التعرض لمعاناة سلسلة طويلة من الظروف المذلة التى تسفر عن الفقر والجهل.

وبناء على هذا المعيار الجديد، فإن إذلال الآخرين، ثم إرجاعهم للصورة "اللائقة" التى يرون فيها أنفسهم، كان مسموحًا به فى الظروف المناسبة باستخدام الأساليب الملائمة، غير الإذلال، الذى ينطوى على إهانة الآدمية. ويمثل هذا تغييرًا جذريًا فيما يتعلق بميثاق الشرف. إن ثقافة الشرف تفكر بشكل رأسى، فهى تسعى إلى تحقيق الهرمية. وعندما كانت تدخل القبائل والأسر الحاكمة فى النزاعات الطائفية، كان كل واحد منهم يناضل من أجل أن يكون صاحب الأمر والنهى ويطرح المنافسين أرضًا. فإذا ظهر ملك من الملوك وأرغم "أقرانه" القدامى على قبول وضع التابعين، وأن يكونوا أعضاء فى أرستقراطية "مسالمة"، فإنه يتوق إلى ميدان الشرف. إنهم يدخلون فى معارك ضارية يطحن فيها بعضهم بعضا باستمرار، والكل يبغى أن تكون له اليـــد العـــليا ويرغم خصومه على الخضوع أو حتى الطرد(٣١).

وعلى النقيض، فإن ميثاق حقوق الإنسان يفكر أفقيًا، ويسعى إلى تحقيق المساواة، إذ إن كل فرد وكل كائن حى عاقل من حقه أن ينتمى إلى مجتمع منظم بالكيفية التى يتسنى له من خلالها أن ينعم بالاستقلالية والكفاءة والأداء الفعال. وهذا

يعنى التأكد من أن جميع المواطنين يحصلون على حظهم من المعرفة والمهارات والموارد المادية اللازمة لهم. ويعنى أيضا وجود هيئة قوية مثل الدولة لضمان أن كل مواطن يعامل بإنصاف وعدالة فى هذه الميادين، وأن الكل يلقى الاحترام المتكافئ.

ميثاق الشرف مازال حيًا بيننا

من الناحية الظاهرية، يبدو أن انتشار ميثاق حقوق الإنسان وثقافة المواطنة كما لو كانت طريقة فعالة لتقويض الإذلال. بيد أن التأثير الشديد الذى تمخضت عنه ثقافة ميثاق الشرف كانت، من الناحية التاريخية، فى بعض المواقف السياسية الفعلية، القوة التى تملى ردود "الفكر السليم" على السؤال المطروح بشأن من له الأهلية والعقل ومن ثم يُخول الحقوق الكاملة للمواطنة من الناحية العملية.

وماذا عن النساء؟ وماذا عن العبيد والعبيد المحررين؟ وماذا عن من فقدوا حقهم فى التعبير، رجالاً ونساءً، ممن يصفهم الغرب دومًا بالخاسرين؟ ماذا عن رعايا الاستعمار؟ ماذا عن الخاسرين فى الصراعات العسكرية والسياسية؟ بمعنى آخر، ماذا عن أعضاء تلك الفئات التى عادة ما تكون ضحايا الإذلال فى مجتمعات الشرف؟

عندما ينضم المدخل والتوسع فى المواطنة إلى الأطروحات السياسية، فإن ذلك يحث أصحاب المصالح فى نظام ميثاق الشرف القديم على معاملة الجماعات التى استذلها النظام فى "الأيام الخوالى" على أنهم طبقة أدنى ومهانة وغير لائقة؛ ومن ثم، لا تستحق المواطنة. وبناء على ذلك، ففى كثير من الأحيان، لا يُعطى النساء، والعبيد، والعتقاء، ومن ليس لديهم أى ممتلكات، والرعايا المحتلون، والرعايا المحررون، إلا القليل من حقوق المواطنة أو قد يُحرمون من الحقوق الأساسية. علاوة على ذلك، فإن مبدأ "المعارضة البرلمانية الرسمية" بطىء التطور

فى الدول التى تطبق الديمقراطية من جهة واحدة مــع تقــاليد عــرقية صــارمة أو شرف الأسرة الحاكمة. وفى نهاية الأمر، لماذا نعطى مكافآت (بمعنى آخر، حقوقا سياسية) للخاسرين المستذلين؟

ماذا يجرى عندما يقرر أولئك الذين يسيطرون على الدولة فى المجتمعات المحكومة بتقليد صارم من الشرف تقديم المواطنة أو توسيع منظورها؟ ثمة معارضة شديدة، كما حدث، على سبيل المثال، فى دول أوروبا القومية وأمريكا الشمالية وأمريكا اللاتينية فى غضون القرن التاسع عشر، وفى أنحاء شتى من العالم فى غضون القرن العشرين، حيث ظهرت صراعات داخلية بشأن هذه القضايا. وأكبر مثال على ذلك الحرب الأهلية الأمريكية. وتمضى هذه الصراعات لتؤثر على كثير من حياة الشعوب فى أيامنا الحالية.

إن الوعد بتطبيق حقوق الإنسان ينتقل بسرعة أكبر من التطبيق العملى للمواطنة. وينجم عن هذا تبعات ظاهرة التناقض. ويسمع الناس داخل مجتمع الشرف الوعود بالتحرير الوشيك؛ مما يؤثر على تضخيم المعاناة من الإذلال. إن الضربات لا تصير أعنف، بل تصير أقل قبولاً. وبالرغم من ذلك، ففى الأعوام القليلة الأولى من القرن الحادى والعشرين، نجد أن المعيار الجديد لم يكتسح القديم. إنهما يتعايشان معًا، جنبًا إلى جنب: ميثاق الشرف القديم، الذى يعترف بصلاحية إذلال الآخرين كسبيل لإرساء مصداقية سياسية واجتماعية وشخصية، وميثاق حقوق الإنسان الجديد، الذى يُعلم الجميع أن كل الناس لابد لهم من أن يطمحوا فى أن يحيوا حياة هادئة وألا يصيروا ضحايا للأحداث والظروف التى من الممكن تجنبها أو تخفيفها.

والنموذج المأساوى الأخير للتزاوج النسبى بين الميثاقين ما حدث فى العراق بعد الاحتلال الأمريكى فى عام ٢٠٠٣. فمن ناحية، كان هناك الكثيرون الذين يتحدثون عن الحرية والتأثير المتحرر للسوق الحرة، وكذلك الجهود المضنية لإرساء قانون جديد يقوم على مبادئ الديمقراطية البرلمانية. وعلى الجانب الآخر،

تنهمك الجماعات القبلية المحلية والعرقية والدينية فى صراعات دامية مع بعضها البعض وفقًا لممارسات العصر القديم من ميثاق الشرف.

ويعتبر العراق بعيدا كل البعد عن التداخل بين القانونين. ربما يوضح أى مجتمع من الغرب أو من غير الغرب حالة التداخل هذه، ولنضع فى اعتبارنا النقاط الآتية:

١. الإعلام السطحى كثيرًا ما يقلل من شأن الشخصيات المرموقة فى المجالات السياسية والرياضية والفنية. من الممكن التقليل من شأن المدرسين والعاملين فى المجتمع وأرباب المهن الأخرى "للصعود على أكتافهم". وقد يندلع العداء ضد فئات شتى توصف بأنها من "الدخلاء" مثل "طلاب اللجوء السياسى". كل هذه صور من الإذلال المنصب بناء على تقاليد ميثاق الشرف.
٢. الخطاب الرياضى يحث المشجعين على أن يجدوا السرور فى "ذبح" منافسيهم.
٣. بعض المذاهب الدينية تتمتع بوجود قادة شعبيين ممن يؤكدون "غضب الله" ويحرضون أتباعهم على إذلال أعدائهم فى سبيل الله.
٤. استمرت عقوبة الإعدام فى الولايات المتحدة، وقد أخذت فى بعض الأحيان شكل الإعدام على الملأ، عندما كان يُسمح للحاضرين من المعنيين (مثل أقارب ضحايا القتل) أن يجلسوا فى غرفة مجاورة ويشاهدوا.
٥. تمضى الدول فى معاملة أعدائها بطريقة مشابهة لما فعله الجيش العثمانى مع برجادينو. صحيح أنهم لم يحولوهم إلى دمى محشوة بالقش، لكنهم ابتكروا أنماطًا من الإهانة والإذلال لخصومهم فى الصحف المحلية.

وفى المجمل، فإن ميثاق الشرف وميثاق حقوق الإنسان هما الإطاران الرئيسيان اللذان يستخدمهما الناس لتسويغ ما تفعله الحياة بهم. وفى الوقت الحالى فإن الميثاقين كلاهما فعَّال ويتعايشان فى صور شتى من التوافق البرجماتى. وهذا النوع من التوافق الذى نصنعه بينهما يؤدى دورًا حاسمًا سواء استحق العالم العيش فيه فى القرن الحادى والعشرين أم لا.

فى هذا الفصل:

فرقنا بين المعانى القديمة والحديثة للإذلال، وبحثنا الدور الذى قام به نقص الحرية والسلطة والأمن والاعتراف بالوجود، ونظرنا فى الشعور الذى يتركه الإذلال فى نفوس ضحاياه، وقارنا بين ثلاثة أنواع من الإذلال (الاحتلال، والنفى، والإقصاء)، ونظرنا فى ثلاثة أنواع من ردود الأفعال، هى (الهروب والقبول والرفض)، واستطردنا الحديث عن تداعيات ميثاقى الشرف وحقوق الإنسان من أجل فهم الإذلال.

٤

أطر العولمة

نستعرض الآن الضلع الثالث فى المنحنى الثلاثى، حيث نبدأ فى بحث إمكانية أن تتمخض العولمة عن شعور قوى بالإذلال.

العولمة كإمبراطورية وسوق وعالم لأناس شتى

على مدار العقود الأربعة السابقة ثمة تغيرات جذرية فى عملية العولمة[١]، فبحلول عام ١٥٥٠، كان الاستعمار الأوروبى يلقى بجذوره ويزيد من انتشاره، ولم تكن الإمبراطورية الإسبانية ولا البرتغالية "محض" مشروعات تجارية، بل كانت الممالك الاستعمارية أنصابًا لها بريقها، تقف شاهدة للملوك الذين فتحوا تلك الممالك بالقوة والشرف، وتمجِّد فى الوقت نفسه قادة الجيوش الذين ارتكبوا أعمالاً دامية من احتلال أراض جديدة، ودافعوا عن مغانمهم، وأمثال هؤلاء الرجال، إن لم يكونوا من النبلاء، كانوا يسعون لنيل الألقاب والمنازل الرفيعة.

وسرعان ما توسعت الإمبراطورية الأوروبية فى آسيا وأمريكا وأفريقيا وكذلك فى أوروبا نفسها، وكانت تنتهج الحكم المطلق، تمامًا كما كان يفعل السادة الأرستقراطيون فى إدارة أراضيهم وباقى ممتلكاتهم. ومن جانبهم أكد السادة المستعمرون على التحكم الكامل فى الأراضى والموارد، بما فى ذلك السكان الأصليين الذين اعتبروهم أدنى درجة من أن يعاملوا معاملة آدمية. وظهرت المقولة الشهيرة، "التجارة تتبع الراية". وبحلول القرن الثامن عشر اكتسبت

مشروعات ضخمة مثل شركة الهند الشرقية نفوذاً هائلاً،[٢] وبالرغم من ذلك، كان لزامًا على السوق أن تعمل فى إطار الحدود الصارمة التى وضعتها الطبقات الاجتماعية المتشددة والسلطة السياسية المتسلطة.

بحلول عام ١٩٥٠، انهارت العديد من الإمبراطوريات وما تبقى كان على حافة الهاوية، وفى نهاية المطاف، لم تتمكن الإمبراطوريات من احتواء الصراعات الجارية بين المبادئ المتعارضة: مبادئ الفئة الحاكمة من ملاك الأراضى، بما فيها الطبقة المالكة والقيادات العسكرية، ومبادئ المواطنة وحقوق الإنسان. وبحلول أوائل القرن العشرين، أصبحت مبادئ المواطنة وحقوق الإنسان أكثر فعالية فى "عُقر دار" الإمبراطوريات – فى فرنسا وبريطانيا والنمسا وروسيا وتركيا وغيرها.

أدت هذه الأفكار "الحديثة" إلى تحويل الجنود العاديين فى الجيوش الاستعمارية إلى أن يكونوا ناقمين على قادتهم، وفى الوقت نفسه، شرعت الشعوب الرازحة تحت الاستعمار فى تنظيم جبهة للدفاع عن حقوقهم كشعوب "سجينة" أو "موءودة". ولم تقف معاناة تلك الشعوب عند حد الشعور بالإذلال فحسب أو الشعور بالمعاناة التقليدية للخاسرين فى معركة للأسبقية تحت النظام الحاكم بميثاق الشرف القديم، وإنما أدركت تلك الشعوب أنها محرومة من الاعتراف بها كأعضاء تنتمى للجنس البشرى، وأنه آن لها أن تتحرر ويطلق سراحها.

لهذه الأسباب كان الاستعمار أول أكبر مولد عالمى للإذلال. ولم تلبث الإمبراطوريات حتى ضعف الترابط الداخلى الموجود بينها نتيجة الانهيار السياسى الناجم عن هذه المشاعر، والذى عززه تنامى "الوعى السياسى"، الذى تمثل فى الخطاب السياسى الذى دعا تلك الشعوب إلى الاعتراض والثورة والتزام المقاطعة. وتهاوت أنجم الإمبراطوريات بعد أن ضعفت، ولم تعد لديها القدرة على مقاومة الضغوط الخارجية التى فرضتها الحروب.

وقد شهد النصف الثانى من القرن العشرين انهيار قوى الإمبريالية الأوروبية، وشهد أيضًا التأكيد العدوانى على قيم السوق متمثلاً فى مركز التجارة العالمى. وقد تزامن هذا مع النهوض العالمى للولايات المتحدة، *وأصبحت السوق العالمية هى المولد الثانى للإذلال*. وفى هذا السياق وُجه العديد من الانتقادات للمشروعات العالمية العملاقة و"إجماع واشنطن" بوصفها آليات جديدة للافتراس والتقليل من شأن الحكومات والعمال والمستهلكين فى أنحاء العالم. وكان الاتهام الموجه هو أن الشركات العالمية العملاقة تملى شروطها الخاصة على "الشركاء" المحليين فى الدول الغنية بالموارد المثقلة بالديون فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. ويؤكد النقاد أن المشروعات التجارية تأخذ ما تريده، وتتحمل أدنى مسئولية عن الآثار الاجتماعية الناجمة عن اقتحامها على المدى البعيد وتهدد بالانسحاب فى حالة حدوث أى مشاكل.

ومن الطبيعى ألا يوافق الجميع على هذا التقييم، فهناك من يدافع عن التجارة العالمية والتمويل دفاعًا مستميتًا، على غرار الدفاع عن الاستعمار فى أيام السيادة البريطانية على الهند. إن مؤيدى التوسع فى السوق العالمية يشيدون به كعامل جوهرى فى التحرير، ولنمرح قليلاً مع وجهة النظر "الرسمية" التى تقول: إن الحرية والانفتاح تأتيان بالسوق، وإن السوق تأتى بالمزيد من الحرية والانفتاح. وهنا نستعرض، مثلاً، نموذج مايك مور،[٣] مدير عام منظمة التجارة العالمية:

العولمة ليست مفهومًا جديدًا، فوجودها سابق على وجود الحكم البريطانى للعالم، وتراجعه عنه، إنما الجديد هو ما وصل إليه سيل المعلومات من ضخامة، فجميعنا يعرف ذلك، إذ إننا لا نتعامل مع تبعات أعمالنا التجارية بشكل سنوى أو فصلى، بل بشكل يومى، بل كل ساعة، وأحيانًا كل دقيقة. لقد تحول العالم إلى قرية صغيرة، ومكان أكثر شفافية وديمقراطية منه عندما وصل حكم توليب إلى ذروته فى أمستردام فى القرن السابع عشر[٤].

ومع ذلك، فإن الحرية تصير أكثر تعقيدًا منها حينذاك. وليست المسألة مجرد تحول من خنوع للمستعمر إلى هيمنة المستهلك. وهذا يأخذنا إلى المولد الثالث للإذلال: تكاليف تعايش الإنسان مع المخاطر والغموض التى تفرضها حالة "التذبذب" العالمى. وأعنى " بالعالمى" حالة تشترك فيها ثقافات وديانات وأعراق وجنسيات شتى فى نفس البعد الاجتماعى دون أى هرمية قائمة أو مجموعة من الحدود تفصل بينهم. فلا يبين أى منهم هو "الأفضل" ولا أى منهم هو الذى يحكم.

لقد فرض التحرر من الخضوع الاستعمارى ثمنًا نفسيًا وعاطفيًا فادحًا على المتحررين. ففى الأيام السالفة من الحكم الاستعمارى، عندما واجه السكان الأصليون القمع كأساس يومى على أيدى أناس يمثلون القوى الاستعمارية، كان للحياة هدف واضح: فكان الخاضعون تحت الاستعمار يعانون الاضطهاد ويطالبون بالحرية، وعليه فكل شخص يعرف من يكون وماذا يريد.

ولم يكد الناس يتحررون من الجور الاستعمارى حتى واجهوا ما هو أشد، متمثلاً فى التوترات والصعوبات التى أسفر عنها الوجود العالمى "المتحرر" والذى تتعارض وتلتبس فيه القيمة والهوية. ولكى نكون أكثر تحديدًا، نستطيع القول بأن تلك الشعوب المستعمرة وجدت أنها بينما كانت تواجه ظلم المستعمر، استطاع المستعمر أن يسرب للمجتمع أفكارًا وممارسات جديدة، لتقف وتتحدى الأنماط القديمة.

وبمجرد التخلص من الطاغية المستعمر، اتجه المتحررون للبحث عن ماضيهم فوجدوه سرابًا. وعندما يمضى الطاغية والقضية التى تدافع عنها، فمن الصعوبة بمكان أن يصل الأشخاص إلى حالة ذاتية مترابطة أو أن يعيشوا بطريقة أخلاقية مرضية. ويمكن وصف هذا الموقف باستبدال الإذلال[ه].

لقد كان لهذا البحث منعطف مثير للاهتمام. لقد كان للاستعمارية عودة، بالرغم من تبرم آخر المستفيدين منها، وهم الأمريكان، بها، فالولايات المتحدة لها

تراث مناهض للإمبريالية بشكل كبير: فعلى الرغم من أن الولايات المتحدة أسهمت بشكل جوهرى فى منع بريطانيا وفرنسا من إعادة إنشاء الإمبراطوريات بعد عام ١٩٤٥، نجد أن قادة الولايات المتحدة شاركوا فى الهجوم على السويس عام ١٩٥٦.

وبالرغم من ذلك، فإن خلفاء هؤلاء القادة فى البيت الأبيض والبنتاجون مضوا فى استخدام المواجهات المسلحة تمامًا كالمستعمرين القدامى، وأدل مثال على ذلك ما حدث فى أواخر الستينيات وبداية السبعينيات فى فيتنام، تلك المستعمرة الفرنسية القديمة، وأحدث من ذلك ما حدث مرتين فى العراق، وهو البلد الذى طالما رفرف عليه العلم البريطانى. إن لب الإمبريالية يكمن فى الاستخدام المنظم للقوة لحمل الناس على أن يقوموا بما تريد لهم أن يقوموا به. وفى نهاية المطاف تكون معاملة الناس بعنف واستهتار كأنهم مواشى أو جنس أدنى، مهما كانت الأسباب الأيديولوجية أو البواعث الأخلاقية.

لقد كان التحالف الإسرائيلى الأمريكى وحربان فى العراق، هى الهدية لعناصر اليأس بين أنصار العالمية الذين تعذبهم أفكارهم وأخلاقهم، خاصة فى الشرق الأوسط.[٦] وهذه النماذج الإمبريالية هى التى مهدت الطريق أمام من يهاجمون الغرب لتفجير العداء الكامن منذ الحرب العالمية الأولى وربما من قبلها. وقد تمخضت العودة إلى العرف عن إرجاع الشعور المهشم بالذات للأهالى المستذلين. وقد قدمت الأشكال الدينية المتطرفة والمتعصبة دعمًا عاطفيًا وأيديولوجيا، أدى إلى إقناع البعض أن يتبعوا السبيل نحو نهاية عنيفة.

* * *

استعرضنا فى هذا الفصل:

الأطر الثلاثة للعولمة التى تتمثل فى الدافع الإمبريالى ومنطق السوق والحالة العالمية، ولاحظنا أنه بالرغم من أن إقصاء أوروبا عن الساحة السياسية العالمية بدا وكأنه نهاية الإمبراطوريات، عادت الإمبريالية بعد سنوات الحرب الباردة وأتاحت فرصًا سياسية جديدة لضحايا حالة التحول إلى العالمية.

يكشف الجزء التالى من الكتاب النقاب عن موضوعاته بعمق أكبر. إننا فى نقطة تحول النقاش. فلقد استعرضنا المنحنى الثلاثى من اتجاه واحد، وهو: مواثيق الحداثة (الشرف/حقوق الإنسان) --> طرائق الإذلال --> أطر العولمة. وفى الجزء المتبقى من الكتاب نكرر هذه الجولة من الناحية العكسية، أى: أطر العولمة --> طرائق الإذلال--> مواثيق الحداثة (الشرف/حقوق الإنسان). وقد بدأنا بالبحث فى النزوع للعولمة المسفرة عن أوضاع وخبرات مذلة.

٥

النزعة الإمبريالية

نقصد بالنزعة الإمبريالية السعى الحثيث لأن تكون صاحب الأمر والنهى، وصاحب حق ممارسة السلطة المطلقة والتربع على أعلى قمة فى البناء الهرمى السياسى والاجتماعى. ومن معانيها أيضًا أن تبدى للجميع أنك تعرف طريقك تمامًا. وباختصار تعنى النزعة الإمبريالية أنك مستعد لإذلال الآخرين وبوسعك القيام بذلك.

الرئيس بوش والملك حمورابى

وجَّه الرئيس جورج دبليو بوش خطابًا للشعب الأمريكى والعالم قبيل غزو العراق فى مارس عام ٢٠٠٣، قال فيه:[١]

> "إن السبيل الوحيد للحد من مخاطر الحرب وإيقافها هو أن نواجهها بكامل قوتنا وقدرتنا العسكرية، ونحن نستطيع عمل ذلك؛ لأنه إذا بقى صدام حسين فى السلطة؛ فسيظل عدوًا يتربص بنا حتى النهاية... وعندما يحاول الأعداء مهاجمة بلادنا، فإنهم بذلك يصرفون وجوهنا تجاه الرعب، ويبدلوننا بعد أمننا خوفًا، وأقول لهم لن تنجحوا فى الوصول إلى هذا

الهدف، فلن يمكن لأعمالكم أن تبدّل مسار هذا البلد، ولا أن تزعزع عزمه أبدًا. إننا شعب مسالم – لكننا لسنا شعبًا ضعيفًا، ولن يرعبنا أبدًا هؤلاء المرتزقة القتلة، وإذا تجرأ أعداؤنا علينا، فإنهم ومن عاونوهم سيدفعون الثمن غاليًا.

ولأننا من يدعم العدالة فى هذا العالم، فإننا لن نتخلى أبدًا عن الوفاء بالتزاماتنا لبلدنا، فهذا شرف لنا؛ ولذا، وعلى عكس ما يفعله صدام حسين؛ نرى أن الشعب العراقى يستحق أن ينال حريته، فهو شعب قادر على ذلك، وسترون كيف أن ذلك الشعب بمسالمته وحكمه الذاتى سيكون قدوة لشعوب منطقة الشرق الأوسط بعد رحيل الطاغية. .... طاب مساؤكم، وليبارك الله بلادنا".

بنظرة محللة لهذا الخطاب، نستطيع أن نرى الرئيس بوش يقول لأعدائه: بوسعى إذلالكم، إذ إنه يتمسك بالعرف القديم. وبما أن الحديث عن العراق (بلاد ما بين النهرين القديمة)، فلنستمع إلى كلمات حمورابى فى وصيته، وهو الملك الذى حكم الجزء الأكبر من بلاد ما بين النهرين أو بلاد الحضارة السامرية. لقد كُتبت هذه الكلمات منذ ما يقرب من أربعة آلاف سنة، سنة ١٧٧٠ قبل الميلاد، يقول حمورابى:

أنا الملك المتكامل حمورابى

وهبنى الإله إنليل للبشرية

ولم أعتكف واضعًا يدى فى مخبئى

لقد أسست مدائن العطاء وكسرت قيود الاضطهاد

ووهبت للشعب الضوء والحياة والنعيم

بالسلاح الذى وهبنى الإله زبابا والآلهة عشتار

والرؤية التى أنعم بها إله الهمة ايا

وحكمة مردوخ

قضيت على كل أنواع المقاومة والأعداء شمالاً وجنوبًا

كل هذا فعلته حبًا للوطن

لقد أسكنت رعيتى فى بيوت ومدن آمنة

وكل من حاول التصدى لهم وقفت أنا فى وجهه

أنا موكل من قبل الآلهة

هكذا أنا

الراعى الذى رعى وقدم الخلاص وكانت عصاه دومًا مستقيمة

وظلى ممدود فى كل أرجاء مدينتى

احتضنت شعب سومر وآكد؛

وبمساعدة آلهة الحماية كنت معيلاً لهم فى السلام

وقد خبأتهم فى داخل نفسى

لا يأخذ القوى حق الضعيف ولا حق الأرامل والأيتام

ها هو حمورابى يربط ذاته بالسماء، ويرى فى نفسه روح الآلهة وله من السلطة والجبروت فى الأرض ما للآلهة فى السماء، فهو يستمد إلهامه وسلطته من الإله مردوخ، أعظم معبود فى بلاد بابل، وها هو فى الوقت نفسه يذكِّر شعبه أنه حمورابى صاحب المنة والنعمة والأمن والأمان. وهنا نجد أن الرسالة التى يرسلها الحاكم إلى شعبه مفادها:

- لقد أنعمت علىَّ الآلهة بنعمها.
- وأنا، بدورى، أنعم على الشعب البابلى.
- إننى أنا حاكمكم ولابد أن أكون كذلك.
- وأنتم لابد لكم من طاعتى وأن تقدموا لى فروض الولاء.

وإذا ما قارنا بين ما قاله بوش وبين ما قاله حمورابى، نجد أن حمورابى يبين فى خطابه أنه موكل من قبل أعظم إله وهو مردوخ؛ لتنفيذ مشيئته على الأرض؛ فهو حاكم بأمر المعبود الأعظم، أما بوش فنجد فى خطابه أنه يعبر عن نفسه بصيغة الجمع (نحن)، مشيرًا بها إلى الشعب الأمريكى بقوته وحكمته، ذلك الشعب الذى اختار بوش رئيسًا له ليعبر عن إرادة الشعب نفسه.

وإذا ما أعملنا الفكر والدرس فى لب خطاب بوش سنجد أن الخطاب يعبر عن نفس رسالة حمورابى:

- بوسعى قتلكم ولكنى سأحميكم إذا أذعنتم لأوامرى وقوانينى.
- إننى حكيم وقادر وبصير.
- سأقدم العدل لكل من يستحقه وأعاقب الأعداء الأشرار.

وفى الولايات المتحدة، قام بدور الإله مردوخ، إله آخر هو ديموس – أى الشعب الأمريكى نفسه. فعندما يبارك الرب على أمريكا، فكأنه يطلب من الشعب الأمريكى ويعطيه السلطة أن يعمل نيابة عن الرب فى عالم أرحب مستعيناً بظل الرب، أى الدولة الأمريكية نفسها.

من الناحية النظرية والعملية أيضًا نرى أن الرأى العام الأمريكى دائمًا يحكم على قادته من السياسيين، فإذا فشلوا فى الاختبار، فإنه لا يلقى لهم بالاً، لكن ترى هل يكون ذلك الحكم سديدًا؟ خاصة إذا عرفنا أن وسائل الإعلام هى صاحبة اليد العليا فى تشكيل ذلك الرأى العام، وهذا مربط الفرس. إذا رجعنا إلى بلاد ما بين

النهرين القديمة، سنجد أن كهنة مردوخ هم من ينفذون مشيئته وأوامره، أما فى أمريكا الحديثة، فإن خدام مردوخ ينفذون مشيئة ديموس(٢). لقد كانت الأوضاع فى عهد حمورابى شبيهة إلى حد كبير بما نحن عليه الآن، فقد كان الملك يقرب إليه الكهنة ويرضيهم ويسيطر عليهم إما بقوة شخصيته أو بسيفه أو بذهبه؛ وما هذا إلا ليصبغ عليه الكهنة صفة الألوهية، وأنه يلقب باسم الإله الأعظم، ومن ثم لا يمكن لمثل هذا الملك الملهم أن ينطق إلا حكمة ورشدًا، ولا يهدى قومه إلا إلى سبيل الرشاد. وما أشبه تلك العلاقة بين الملك والكهان بالعلاقة الآن بين الحاكم ووسائل الإعلام، فهى العلاقة ذاتها لا فرق فيها.

الرعب والرعاية

نواصل مع خطاب حمورابى ونتوقف عند الصورة التى رسمها لنفسه، وهى صورة الراعى(٣)، تلك الصورة التى تجسد معنىً يجب أن يسترعى انتباهنا. ألا تلاحظ أن من صنع الإمبراطوريات أو فتحها هم قادة القبائل البدوية؟ ومعروف أن البدو من ضمن أنشطتهم رعاية الماشية أو الرعى بشكل عام، فهم رعاة الشاه، والخيل، والجمال، وإذا ما عدنا إلى أسطورة تكوين الإمبراطورية الرومانية، سنجد أن مؤسسى الإمبراطورية – حسب ما ورد فى الأسطورة – هما الأخوان رومالوس وريموس وقد كانا من الرعاة.

وسواء بسواء الدولة والرعاة، فكلاهما مصدر الرعب والرعاية معًا: فعندما يتعلق الأمر بالرعية، يصد الراعى أى هجوم ويذود عن رعيته. لذا نجد الرعاة مسلحين كما لو كانوا ذاهبين إلى معركة، وما ذاك إلا للذود عن حيواناتهم أو الدفاع عن أنفسهم وصد أى محاولة افتراس، ولعلنا نذكر ما ورد فى كتاب "العهد الجديد" وذلك الملاك الذى هبط على الرعاة ليلاً وهم يحرسون قطعانهم، لقد كان هذا الملاك محظوظًا إذ لم يقطع الرعاة أجنحته.

وقبل تسطير (أو ظهور) ما يعرف بحقوق الإنسان بفترة طويلة، كان الحكام يتباهون بقدرتهم على إذلال الآخرين، بمن فيهم رعاياهم، وبقدرتهم على حماية أنفسهم ورعاياهم من الإذلال. والدولة فى المقام الأول أشبه ما تكون بالوحش البحرى المذكور فى العهد القديم باسم لوياثان على أنه "ملك على كل بنى الكبرياء" (سفر أيوب ٣٤ : ٤١، انظر أيضًا هوبيس ١٩٩٦، ٢٨٤)، فالدولة غالبة على أى من رعاياها، وهى بذلك ترهب من تحت سلطتها من البشر. وفى المقام الثانى نرى الدولة تطبق الدرس المستفاد عمليًا إذ ترى أن الرعية يسهل قيادها إذا ما تحقق لها نوع من التوازن بين ما يُفرض عليهم من أنماط الإذلال، وبين ما يحصلون عليه من حقوق ومزايا يشعرون بها ويلمسونها فى ظل الدولة. ليس بالسلام والنظام فحسب ولكن بإتاحة الفرصة لتلبية الرغبات الإنسانية الطبيعية مثل الرغبة فى الحصول على الترف والنعيم. لذا، إذا ما عدنا إلى رسالة حمورابى، نجده يذكِّر رعاياه بأنه لم يكتف بأن "أسكنهم فى بيوت ومدن آمنة" بل هو أيضًا من "جلب إلى أرضهم النعيم".

البناء الهرمى للطبقات والإذلال

لقد مر التاريخ السياسى للبشرية بوقت لم يكن مطروحًا فيه على أولويات أى شخص مسألة علاقة الحاكم برعيته، فمعظم التاريخ الإنسانى عبارة عن أقوام أو جماعات شتى جمعتهم أهداف الصيد والعيش ليس إلا، وكل فرد يعتمد على باقى أفراد قومه أو جماعته، ولم يكن هنالك حكام إلا ما كان من حكم القوم لجميع أفراده[٤].

فى مثل هذه المجتمعات الأولية، كان الإذلال يتمثل فى بعض ممارسات الجماعة ككل تجاه بعض أفرادها كقتل أو إبعاد بعض أفراد الجماعة، وكانت مثل هذه الممارسات بمثابة ما نسميه الآن الخيار "النووى"، وذلك عندما كانت تفشل

وسائل التأديب فى إرجاع "المارقين" من أفراد الجماعة إلى وحدة الصف.[٥] ومع زيادة التقدم التكنولوجى، خاصة فى التقنيات المتعلقة بالرى، مثل أدوات الحفر والمحراث والعجلات واستخدام الحيوانات فى الجر والسحب، أصبحت الجماعات الإنسانية قادرة على تكوين مخزون مادى؛ مما زاد من احتمالات التخصص ونشوء التجارة بين الجماعات؛ ومن ثم تطوير هياكل البنية الاجتماعية والسياسية.

وبالتدريج استقرت تلك المجتمعات على أراضٍ خاصة بهم، وتمايزت المجتمعات إلى أسر وعائلات وجدت نفسها مرتبطة بمساحات محددة من الأرض، وتابعة، فى حالات كثيرة، لإرادة بعض أسيادها، وأصبحت الفلاحة مرادفة لفقد الحرية. وهنا أصبح للإذلال مكان، بل صار الإذلال شيئًا طبيعيا مثله مثل الأنواء الموسمية. لكن تُرى هل تحولت كل جماعات الصيد إلى المصيرنفسه؟ بالطبع لا، فبعض الجماعات تحولت إلى قبائل بدوية مرتحلة، ترتحل طلبًا للخصب لرعى أنعامها. كما أسهمت الزراعة والرعى فى إيجاد وفرة كبيرة من الغذاء، لعدد من البشر وقتها كان قليلاً. وهنا تغير أمران: الأول هو زيادة الفائض، وهو المقدار المتبقى من الغذاء بعد إطعام كل فرد، والثانى أنه أصبح من السهل تخزين هذا الفائض[٦]، كالغلال مثلاً فقد كانت تُخزن فى صوامع خاصة بها، أو تترك كما هى مثل قطيع من الماشية.

هذا الفائض كان سببًا للقتال من أجل الحصول عليه، ففى المجتمعات القبلية كان ذلك فى شكل سرقة البهائم، وبالتالى كانت هناك حالة من العداء تستدعى الانتقام من السارق، والانتقام يولد الانتقام، حتى صارت كل القبائل أو الأسر الحاكمة لا تعرف منهم من الجانى ومن البرىء.

ومع ذلك، فعندما قيد أصحاب المصالح المزارعين فى الأرض التى يزرعونها، وأصبح من الصعب، بل من المستحيل، على المزارعين الهروب من محل عملهم فى الأرض، زادت أرباح أصحاب المصالح الطموحين؛ فأصبح بإمكانهم التحكم فى الفائض؛ واستغلاله فى تكوين نفوذهم الخاص لتحقيق مصالحهم فى المجتمع.

وهنا نلاحظ كيف أن الزراعة أسهمت فى تكوين البناء الطبقى فى المجتمع، وميزت المجتمع إلى قوى يهيمن على الفقير والضعيف. وساعد البناء الهرمى بدوره هو الآخر فى انتشار الزراعة، وأجبر العديد من جماعات الصيد أو أبناء القبائل البدوية على المشاركة فى هذا النشاط ولو كرقيق أو عبيد، وهنا قد يسأل سائل: مَنْ هذا الذى يتبوأ طواعية تلك المنزلة الوضيعة فى أنظمة غير عادلة؟ والإجابة تكمن فى أن هياكل البناء الهرمى الاجتماعى تُفرض بالقوة.

ويرتبط البناء الهرمى بالإذلال ارتباطًا وثيقًا، والدليل على ذلك ما أورده المؤرخ والفيلسوف ابن خلدون(٧) فى مقدمته الشهيرة من نقد للإذلال الناجم عن البناء الهرمى فى المجتمع الذى نعم أفراده من قبل بالأخوة القبلية والمساواة فى كل الأحوال، فها هو ابن خلدون منذ أربعة عشر قرنًا، يذكر أمثلة عديدة وأحوالاً شتى يشرح من خلالها ويدلل على كيفية طروق الخلل للدولة عندما تتلاشى العصبية القبلية التى تجمع بين الحاكم وأبناء القبيلة، وما هذا إلا بسبب الترف الذى تنعم به السلطة وكذلك ما ينتابها من طغيان وفساد، وفى هذا السياق كتب يقول:

> "فإذا جاءت الدولةَ طبيعةُ المُلك من الترف وجدع أنوف أهل العصبية، كان أول ما يجدع أنوفَ عشيرته وذوى قرباه المقاسمون له فى اسم الملك، فيستبد فى جدع أنوفهم بما بلغ من سوادهم لمكانهم من الملك والعز والغَلَب.... ثم يصير القهر آخرًا إلى القتل لما يحصل من مرض قلوبهم عند رسوخ الملك لصاحب الأمر فيقلب غيرته منهم إلى الخوف على ملكه، فيأخذهم بالقتل والإهانة وسلب النعمة والترف الذى تعودوا الكثير منه." (مقدمة ابن خلدون، ١٩٨١، ٢٠٧)

وفى رأى ابن خلدون، فإن النتيجة النهائية هى إضعاف العامل الموحد لشعور الجماعة أو ما أسماه العصبية القبلية، ومن ثم تكون المحصلة النهائية هى الخلل المؤدى إلى شيخوخة الدولة ووفاتها. ولعل أبلغ مثال شاهد على ما قاله ابن خلدون فيما يخص رؤيته بالنسبة للعصبية القبلية ثم انقلاب الحاكم وتعطشه للدماء واعتبـــار أهل قبيلته أعداء، فى عصرنا الآن هو حال دولة العراق قبل مجيء صدام حسين، وأثناء حكمه، وبعد زوال حكمه.

وإذا تركنا الشرق وذهبنا إلى الغرب، نجد ما كتبه هوبيس فى كتابه "لوياثان" وما كتبه جون ميلتون فى كتابه "الفردوس المفقود". حيث يدور محور الكتابين حول أساس واحد، وإن تباينت الأفكار فيهما. فقد كانت مسألة الطبقية العلمانية هى أساس الكتابين، أما الأفكار فكانت الانصياع لتلك الطبقية أو مقاومتها. وإذا نظرنا إلى الكاتبين، هوبيس وميلتون، نجد أنهما خاضا معًا الحرب الأهلية الإنجليزية، لكن كلاً منهما كان ندا لصاحبه، فقد كان هوبيس يناصر الطرف الملكى ويحارب فى صفه، بينما كان ميلتون يناصر أوليفر كرومويل والقوى البرلمانية ويحارب فى صفهما، والعجيب فى الأمر أن هوبيس وميلتون قد ولجا باب الكتابة عندما ذاق كل منهما طعم الهزيمة.[٨] والذى شغل بال كل منهما، كان سؤالاً مشتركًا، وهو كيف يتسنى لأصحاب الفكر من الناس أن ينجوا بأنفسهم (هوبيس) أو يُخلصوا أرواحهم (ميلتون) وهم يعيشون فى عالم تتنازع فيه الفوضى والطغيان لرسم ملامحه؟ وكم الذل والقهر الذى يمكن أن يحتمله هؤلاء الناس مقابل مقدار المكاسب التى يحققها لهم البناء الهـــرمى السيـــاسي؟ فبـــالنسبة لميلتـــون أجاب عن السؤال بأن الناس لا يطيقون ذرعا تحمل الذل أو القهر كثيرًا مهما كانت المكاسب، على عكس إجابة هوبيس، إذ يرى أن الناس قد يطيقون تحمل الكثير من الذل والقهر لتحقيق تلك المكاسب.

يرى ميلتون أن بقاء المجتمع تحت حكم ملك فاسد وملحد وبطانة سوء هو أمر دونه الموت. وليس هذا الرأى بغريب على ميلتون خاصة عندما نعرف أنه

كان ينتمى للجمهوريين وكان حرًا "لا سيد له"[٩] ومن ثم كان تعاطفه الأكبر مع كل عقل ثائر، ذلك العقل الذى يرى هوبيس ضرورة السيطرة عليه. وتتبدى وجهة نظر ميلتون فى كتابه "الفردوس المفقود" عندما يتكلم عن الشيطان، ويعتبره المتمرد الرائع الذى قال لا فى وجه من قالوا نعم، وخاض غمار المغامرة فى طريقه إلى الفردوس المفقود. أما هوبيس فيرى أن ذلك الشيطان بكل ما لديه من سمات تميزه كان سبب الآلام الأبدية فى الأرض قبل أن يُخلق له لوياثان، فالشيطان فى رأى هوبيس أراد أن يميز نفسه فى غرور، وأن يتمرد ويخرج عن النظام لينال التبجيل والشرف، وقد ساقه إلى ذلك طمعه، ونزعة الشر بداخله، فهو يحاول أن يرسم لنفسه سبيلاً بالقوة والحيلة[١٠].

ويرى ميلتون أن البشر لا يمكن أن يكونوا تحت إمرة حاكم إلا إذا تحقق فى حكمه ما يلى:

- أن يكون على رأس ذلك الحكم المسيح المُخلص الذى تجسدت فيه الإنسانية كلها عندما نزل إلى الأرض ليتحمل عن البشرية كلها آلام الذل والقهر.
- أن يكون ذلك الحكم أو الملكوت الأرضى تحت إمرة الصالحين الموهوبين فى الدولة الذين يحققون الخير للجميع.
- أن يكون ذلك الحكم لا مركزيًا فى بنائه السياسى.

فإذا تحقق ذلك، يكون حكمًا بلا قهر أو إذلال للمحكومين.

أما هوبيس فكان له أولويات أخرى، ووضع تصورًا ذهنيًا لنوع مختلف تمامًا للحكم، إذ إن الحكم لديه يجب أن يحقق ما يلى:

- أن يكون على رأس ذلك الحكم حاكم يستطيع أن يفرض القهر والإذلال على من هم تحته، ومن ثم يجبر الرعية كلها على السلوك المسالم.

- أن تكون الرعية كلها مجموعة فى شخص الحاكم باعتبار أنهم يوافقونه وأنه يتكلم باسمهم وبالنيابة عنهم، حتى وإن كان يمارس قهرهم وإذلالهم.
- أن يفرض الحاكم، وينبغى له ذلك، بموجب الحكمة والعقل، قانونًا طبيعيًا، يتيح للرعية أن يحيا كل منهم حياته على النحو الذى يحقق الترف والسعادة، مع علمهم بأن من يرفض الانصياع لذلك القانون يكون بمثابة المتمرد الذى يحمل المجتمع بأسره على الردة إلى حالة التناحر والصراع.

ومن ثمَّ، وفقًا لما كتبه هوبيس، يجب أن تتهيأ الرعية لقبول ذل وقهر الحاكم لينعموا بالسلم واحتمالية الترف والنعيم.

وعلى النقيض من ذلك، وبعد مرور قرابة القرنين من الزمان على ميلتون وهوبيس، وفى الثمانينيات من القرن التاسع عشر، خرج فريدريك نيتشه بأفكاره وكتاباته، إذ تناول مسألة القهر والإذلال برؤيته عن الحقبة التى سبقته، إذ كان يرى أن الأرستقراطيين أو أسياد المجتمع، كان إذلال الناس يمثل لهم متعة وسعادة دون أدنى شعور بالذنب تجاه ما يقترفون، فقد كان ذلك السلوك هو الروح التى تعبر عن الحضارة الراقية: وقد عبر عن هذا بقوله "منذ عهد ليس ببعيد، لم يخل عرس ملكى أو احتفال عام دون أن يكون هناك مشاهد إعدام أو تعذيب أو حرق أناس أحياء حتى الموت، فبغير هذه المظاهر لا تكتمل بهجة الحدث.... فمشاهدة المعاناة كانت مصدر بهجة، أما أن تكون سببًا فى معاناة غيرك فهى السعادة بعينها. (نيتشه ١٩٥٦، ١٩٨).

فقد سوَّلت الأرستقراطية فى أذهان أصحابها أن كل ما يأتيه السادة من أفعال، أيا كانت هذه الأفعال، ومهما كانت قاسية، فهى أفعال "نبيلة" (وبالتالى أفعال "صالحة") وما ذاك إلا لأنها أفعال صدرت من السادة[١١]. وفى ملاحظاته، رأى نيتشه، وهو يأسف لذلك، أن الديمقراطية كانت معولاً لهدم المجتمع؛ إذ كتب يقول:

"إن زمن الآلهة قد ولى، والبقاء لقيمة الأخلاق". وكان من ضمن نتائج هذا الرأى "ثورة العبيد الأخلاقية" التى أجج نارها الشعور العام بالاستياء تجاه السادة النبلاء.[١٢] وقيمة أخلاق العبيد هى التى بشرت بالمساواة والسلم[١٣].

ونطالع النتيجة التى وصل إليها إلياس كانيتى من دراسته للبنية العميقة للجماعات الإنسانية، وقد نُشرت هذه الدراسة فى بادئ الأمر باللغة الألمانية عام ١٩٦٠، إذ يقول كانيتى: "إن أى إنسان يريد أن يحكم غيره من البشر لابد له أولاً من أن يستذل تلك المجموعة التى يريد أن يحكمها، وأن يُزين لهم ويغريهم بحقوقهم وقدرتهم على المقاومة؛ حتى تتلاشى قواهم أمامه وتسهل عليه قيادتهم كما تُقاد قطعان الماشية" (كانيتى ١٩٧٣، ٢٤٥) "مثل هذا النوع من الحكام قد يصل إلى غاية النشوى التى نشعر بها ونحن نستعلى على جماعة دنيا من البشر، وفى أنفسنا قناعة أننا من طبقة أو جماعة أعلى".[١٤]

مسرح الإمبراطورية

عند الوصول إلى قمة الهرم الإمبريالى، يجد المرء نشوى فى ممارسة "الإمبراطورية"، ونقصد بكلمة إمبراطورية أى ذلك الشعور بالنشوى فرحًا للانتصار فى الفتوحات، وإصدار الأوامر للطرف المهزوم والسيادة عليه، بل التخلص منه بكلمة واحد، وإجمال ذلك الشعور بأن المرء يستطيع أن يظهر قدرته على تحقيق وممارسة الهيمنة على كل شيء. وفى هذا السياق نطالع ما كتبه "ثورشتاين فيبلين" فى كتابه نظرية الطبقة المُترفة (١٨٩٩)، حيث يحدد الشعور بنشوى النصر والسيادة، ويقول إن هذا الشعور هو جوهر الرأسمالية الحديثة، وتوجد علاقة بينها وبين روح فرسان العصور الوسطى التواقة للمعارك والقتال (فيبلين ١٩٧٠)[١٥].

وفى روما القديمة، نجد أن لقب إمبراطور يُطلق على الحاكم الذى ينتصر قادته العسكريون فى كل معاركهم، وفى زمن الإمبراطور الرومانى فيسباسيان كان لقب الإمبراطور يُطلق على سيد الإمبراطورية الرومانية الأول[١٦]، وكما هو معروف لدى الجميع، أن الأسرى لدى الجيش الرومانى كانوا يُساقون إلى روما لعرضهم أمام الجماهير لإظهار قوة انتصار القادة العسكريين فى معاركهم، وهنا يتضح أن انتصار القادة يعنى إذلال الأسرى الذين كان يُذبح الكثير منهم فى مختلف المناسبات "الترفيهية"، ومن ينجو منهم من الذبح يصبح قنًا أو رقيقًا.

ومن هذا المنطلق، نجد أن الإمبريالية هى بمثابة خشبة المسرح التى يستعرض عليها الحكام والقادة نماذج للأعمال التى تُظهر غلبتهم وقدرتهم على أداء تلك الأعمال، فبناة الإمبراطوريات يقهرون ويستذلون غيرهم، أحيانًا بإظهار القوة المفرطة، وأحيانًا أخرى بالإغراء، أى سياسة العصا والجزرة، وما ذاك إلا لصبغ أنفسهم بصبغة العظمة. ومثل هذه الممالك أو الإمبراطوريات تتكون عندما يتمكن قوم من غلبة آخرين وفتح أراضيهم، وفرض إرادة الفاتح وأوامره على المهزوم رغم مقاومته، والتخلص من المهزوم متى يشاء الفاتح، ووضع المهزوم حيث يرى الفاتح لا حيث يرى المهزوم.

مسرح الإمبراطورية يُعرض على خشبته استعلاء الحاكم أو الشعب أو القائد أو الأمة أو العرق الذى يملك هذا المسرح، ويرجع عمر ذلك المسرح إلى آلاف السنين إلى عصر حمورابى وما قبل حمورابى. ولعل مسرح النظام النازى كان صورة حديثة لذلك المسرح القديم[١٧].

مقاتلون وتجار ومستوطنون ومواطنون

لقد اتخذت النزعة الإمبريالية أشكالاً عدة، فقد ظهرت فى شكل ممالك إمبراطورية، وفى شكل مجتمعات استيطانية، وفى شكل دولتين إمبراطوريتين، هما الأوروبية والعالمية.

إذا كانت الإمبراطورية، باعتبار أصل نشأتها، هى النجاح فى الغزو وفتح أراض جديدة، فإن الإمبراطورية الرومانية هى أوضح وأنقى مثال على ذلك، ولمَّا كان الحال كذلك، فإن التوسع العسكرى كان هو الميدان الذى يثبت فيه رجال الحرب، ممن ينتمون للأسر الغنية والأسر ذات النفوذ، طموحهم وجدارتهم، وكان الاستغلال الأمثل للقادة العسكريين يعضد المكانة الاجتماعية والسياسية للمالك التى يخدمها هؤلاء القادة، ويُعلى من شأن القادة أنفسهم، ويُعلى كذلك مكانة الإمبراطور نفسه، وكم من هؤلاء القادة المنتصرين تاقت نفسه الطامحة لأن يصبح إمبراطور روما.

وقد عبَّرت الممالك الإمبراطورية عن نزعتها "التوسعية" وبسط سلطانها على كل أرض تستطيع الوصول إليها منطلقةً من وطن حصين ركين، ووسيلة هذا "التوسع" هى ذلك الجندى الذى يُحكم قبضته ليوجه الضربة، ثم يفتحها ليمسك بالمغنم، إنها الوسيلة العسكرية متمثلة فى جندى "على ظهر حصانه" أو فى عربته الحربية.

وعمليًا نرى أن المحارب أفسح لنفسه مجالاً لأنشطة أخرى فضلاً عن نشاطه الأصلى، ولنأخذ مثلاً على ذلك المملكة الإمبريالية الإسبانية وتوسعها فى أمريكا إبان القرن السادس عشر. فقد كانت الكنيسة متعطشة لأرواح جديدة تعبر الأطلنطى إلى إخوانهم الذين سبقوهم من الرهبان الفرانسيسكان إلى العاصمة المكسيكية بعد خمس سنوات مضت على فتح هيرنان كورتيز لإمبراطورية الآزتيك فى عام ١٥١٩، واستمرت المصالح الدينية تدمج نفسها فى النسيج الإمبريالى الأوروبى على مدى القرون التى تلت القرن السادس عشر(١٨).

ولعلنا جميعًا نعرف أن العديد من الفاتحين الإسبان كانوا النواة التى كونت ما يُعرف الآن باسم *منطقة هيدالجو*(١٩)، تلك المنطقة التى تكونت على أيدى هؤلاء

الفاتحين وتمست باسمهم. ويتألف هؤلاء من مجموعة النبلاء أو الوجهاء ممن حرصوا على توظيف مهاراتهم العسكرية للحصول على الغنى وامتلاك إقطاعيات، فقد كان لديهم طموح أرستقراطى، وكان كل ما يحتاجونه هو إيراد من النوع الأرستقراطى؛ لذا استخدموا العمالة من العبيد للتنقيب عن الذهب والفضة لأن هذين المعدنين، على حسب ظنهم، كانا أسرع وأسهل الطرق لتعاظم الثروة. بعد تلك المرحلة، تغير السبيل إلى الزراعة وتربية الحيوانات، فكانت المزارع أو الحظائر الكبرى طريقًا آخر لإضفاء صبغة الملكية الخاصة على الأراضى التى وضعوا أيديهم عليها، وكان معنى ذلك البقاء فى المستعمرة لمباشرة المشاريع الكبرى التى قاموا بها، خاصة إذا كانت تلك المشاريع هى المصدر الأساسى للدخل، وعندما ساد ذلك التوجه، صار هناك مشروع إمبريالى جديد على مسرح الإمبريالية.

المجتمعات الاستيطانية

المجتمعـــات الاستيطـــانية تختلف عن الممالك الإمبراطورية اختلافًا كبيرًا، إذ إن الممالك الإمبراطورية، كما أوضحنا، توجه مشروعها الاستعمارى أو الإمبريالى إلى الخارج انطلاقًا من وطن حصين ركين، أما المجتمعات الاستيطانية فهى عبارة عن إقامة وطن جديد خارج البلاد التى يقيم فيها أفراد هذه المجتمعات، ومثال ذلك مستوطنو البوير فى جنوب إفريقيا، وكذلك المستوطنون البروتستانت فى أيرلندا الشمالية، والمستوطنون الإنجليز فى أمريكا الشمالية، والمستوطنون اليهود الذين أقاموا دولة إسرائيل.

هذه النوعية جديرة جدًا بالاهتمام[٢٠]، إذ إن تأسيس وطن جديد أمر مرعب وخطير؛ لأن الرواد أو الطليعة التى تسعى لتكوين الوطن عادة ما تجد نفسها تتحرك دون مرجعية، ويكون "قيادها لنفسها"، بالإضافة إلى الدعم الاقتصادى

والسياسى لنواياها أمام المقاومة التى تلقاها من أصحاب الأرض التى تستوطنها تلك الطليعة. ترى ما الذى يحمل أى شخص على خوض تلك المغامرة؟ لعل أحد البواعث على هذا هو اليأس، والرغبة فى الفرار من واقع غير محتمل. وهناك باعث آخر هو الرغبة القوية فى تكوين مجتمع يعكس وجهة نظر المستوطنين ورؤيتهم الخاصة للعالم كيف يكون، وتكيفهم مع ذلك العالم، بمعنى أن المستوطنين يريدون عالمًا يستطيعون تشكيله والهيمنة عليه. وربما تكون هناك بواعث أخرى، أو أسباب أو دوافع، لكن يظل هذان الباعثان، الرغبة فى الهروب، والرغبة فى الهيمنة، هما الأهم والأكبر، كما سنثبت فيما بعد. ومع ذلك يظل لدينا نوعان آخران من المشاريع الإمبريالية جديرين بالدراسة.

إمبراطوريات الدول القومية الأوروبية

بحلول أواخر القرن التاسع عشر، شاركت دول كثيرة بأسهم فى المشروع الاستعمارى الأوروبى، وقد عكست طريقة إدارة تلك الإمبراطوريات ذلك النوع من توازن القوى السياسية والاجتماعية داخل "مقار" مجتمعات تلك الإمبراطوريات، ومعلوم أن تلك المجتمعات تأثرت أيما تأثر بالثورات التكنولوجية والتنظيمية التى حدثت بفعل النمو الصناعى الكبير فى المدن الرئيسية التى اجتذبت إليها سكان الريف والحضر معًا، وكان لزامًا على الجميع أن يتعايش مع التوابع المضطربة التى أحدثتها النزعات القومية والديمقراطية التى عمَّت أوروبا، وسارت على نهج الثورتين الأمريكية والفرنسية، وتجاوزت أوروبا لتضرب بجذورها فى قارات أخرى.

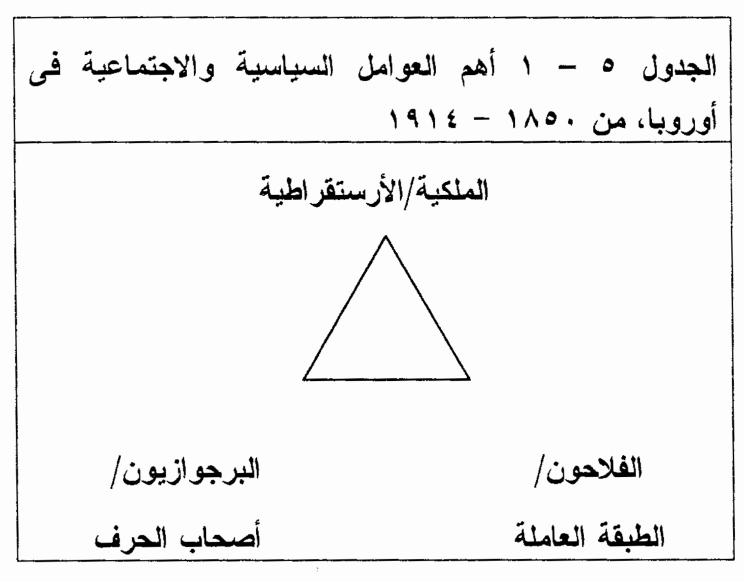
وفى داخل كل مجتمع من تلك المجتمعات، كانت ثمة مجابهة من أجل النفوذ بين المصالح الصناعية المتنامية الداعية للتحضر والمصالح الزراعية الآخذة فى التراجع. وقد كان للإمبراطوريات دورها الفعال فى هذا الصراع، فعلى سبيل

المثال، نرى أن المنزلة الاجتماعية والسلطة والدوائر القضائية كانت تستند إلى كم الحيازة الإمبريالية، وكان ذلك عاملاً مهمًا فى المجتمعات التى كوَّن فيها الفلاحون الدوائر العسكرية كجنود، بينما كان القادة من النبلاء أو الوجهاء، أو على الأقل كانت المجتمعات سائرة على مثل هذا النهج.

وبالنظر فى تلك المجتمعات نرى أن الأسر ذات الممتلكات كانت تضخ أموالها فى شريان الأعمال التجارية الاستعمارية. فمثل تلك الأعمال كان لها عظيم الربح، وإن انطوت على مخاطرة، وذلك باستغلال الأجناس "الأدنى"، خاصة إذا كان أى اعتراض من الشعوب "الدنيا" أو أى رغبة لهم فى التحرر تخمدها القوة العسكرية. وإذا رجعنا إلى الوطن، حيث مقر المجتمع، نرى الصراعات بين رأس المال والعمالة فى المدن الصناعية يطفئ نارَها العزفُ على وتر الوطنية، والتأكيد على ولاء كل من العامل وصاحب العمل للراية التى ترفرف بكل فخر واعتزاز على ما تملكه الإمبراطورية من مستعمرات فى كل مكان فى العالم.

وقد قامت الإمبراطوريات الأوروبية على نوع من التوازن بين كل من الطموح، والتوسع فى حيازة وتملك أراضٍ جديدة ومصالح الطبقة العاملة والمصالح التجارية (انظر الجدول ٥ – ١). وكانت المحصلة النهائية هى استحالة الجمع عمليًا بين الإمبريالية والمواطنة الديموقراطية. ومع الوقت، وجدت الحكومات الأوروبية نفسها مُجبرة على منح مواطنيها الحقوق المدنية، والسياسية والاجتماعية؛ وبالتالى، تحولت الممالك الإمبراطورية التجارية إلى "إمبراطوريات الدول القومية الأوروبية"، بمعنى أن المجتمعات متمثلة فى دولها، مثل بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا وغيرهم، زادت تدريجيًا من نطاق حقوق المواطنة الممنوحة لمواطنيها، بينما تحاول فى الوقت نفسه الحفاظ قدر الإمكان على أنظمة الحكم الشمولى فى المستعمرات التابعة لها.

الجدول ٥ – ١ أهم العوامل السياسية والاجتماعية فى أوروبا، من ١٨٥٠ – ١٩١٤



ونلاحظ هنا أن الإمبراطوريات الإقليمية تلك قد قامت على أساسين متناقضين، الأساس الأول هو فكرة الإمبراطورية التى تعنى الشمولية، و"الرغبة" فى فرض الهيمنة الكاملة، وإيجاد البون بين السادة والتابعين، والهوة السحيقة بينهما، والأساس الثانى، والذى يتناقض مع الأساس الأول، هو أن الدولة القومية تقوم على فكرة المواطنة، التى تعنى "الرغبة" فى المساواة. فالمواطن هو الشخص الذى يتمتع بحقوقه أينما كان، تلك الحقوق تضمنها الدولة، بينما رعية الإمبراطورية هى الشخص الذى تقتصر مهمته فى الحياة على الخدمة، وتقديم الخنوع المطلق والطاعة الكاملة. ومن ثم لا يمكن أن يكون المواطن رعية فى الوقت نفسه. فأى الأمرين له الأولوية؟ الإجابة على هذا التساؤل صاغها مداد العنف الذى ساد فى الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية.

كان من الصعب جدًا على المواطن فى الدولة القائمة أو من يُفترض أن يكون مواطنًا فى الدولة التى ستقوم أن يكون فى الوقت نفسه أحد رعايا المملكة الإمبريالية، فثمة مجاهدون سياسيون على استعداد لتوضيح أوجه التناقض وتذكير الشعب بالقهر والإذلال الذى ذاقوه: هناك مثلاً غاندى فى الهند، ومايكل كولينز فى

أيرلندا،[٢١] وعمليًا، استطاع ذلك النوع من الجهاد السياسى أن يدوم لفترة فى الهند وأيرلندا وفى غيرهما، ربما دام نصف قرن أو ما يقرب من نصف قرن، لكن فى نهاية الأمر تحول هذا الجهاد السياسى إلى صراع دموى.

لقد كانت إمبراطورية الدولة القومية نوعًا من "التهجين" السياسى، ولم تكن نظامًا خالصًا يستطيع أن يعيش ما شاء من الحياة، بل وجودها كهجين جعل لها فترة حياة محدودة، وجعلها مُلكًا عقيمًا لا يتعدى بالحياة إلى فترات أخرى، وإن كان تاريخ موتها أو مدة حياتها ليسا بالوضوح الكافى. لكننا نستطيع القول بأن إمبراطوريات الدولة القومية فى أوروبا كُتب عليها الفناء بمجرد ميلادها، فسبب موتها محمول فى تركيبها الأصلى، ولقد تهاوت بالفعل شيئًا فشيئًا، بعد الحرب العالمية الأولى، لكنها بُعثت من جديد فى هيئة أشد غرابة من ذى قبل.

إمبراطوريات الدول القومية العالمية

بعد عام ١٩٤٥، تمخضت الحرب الباردة عن إمبراطوريتين تواجه إحداهما الأخرى. من ناحية كانت الإمبراطورية السوفييتية حيث بسطت موسكو سلطانها على إمبراطوريات العالم القديم التى انهارت فى عام ١٩١٨. ولم يكتف نظام ستالين بالسيطرة على ما كان يُعرف باسم الإمبراطورية الروسية فى أوروبا الشرقية، بل فرض تأثيره على تلك المساحة من أوروبا التى كانت تحت الهيمنة الألمانية، والنمساوية، والمجرية والعثمانية، فكل تلك الإمبراطوريات تداعت وتفتتت بفعل الحرب العالمية الأولى. ولمدة من الزمان، كان المدقق فى الأمر يحسب أن تأثير تلك الإمبراطورية الجديدة قد امتد ليشمل أعظم إمبراطورية فى آسيا، ألا وهى الصين، تلك الإمبراطورية التى تمكنت أيما تمكن من التحول من إمبراطورية إلى دولة قومية.

ومن ناحية أخرى، وفى الوقت نفسه، تمكنت واشنطن من أن تحل محل الإمبراطوريات القديمة التى وصلت إليها أوروبا بحرًا وأسستها. وقبل ذلك، وفى القرن التاسع عشر، كانت حكومة الولايات المتحدة وطئت تحت سيطرتها أمريكا اللاتينية، التى كانت يومًا ما تحت السيطرة الإسبانية والبرتغالية. وبعد عام ١٩٤٥، بدأت الولايات المتحدة تزحف نحو المناطق التى كانت تظن بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا وبلجيكا، أنها تحت سيطرتها، مثل أفريقيا، والشرق الأوسط، والصين الهندية[٢٢].

وقد اختلفت إمبراطوريات الدول القومية العالمية عن إمبراطوريات الدول القومية الأوروبية فى ثلاثة أوجه:

١. معظم الدول المنتمية إلى كل من الإمبراطوريتين (السوفييتية والأمريكية)، وليس مجتمعات الدول، كانت تمثل دولاً ديمقراطية مستقلة لها حقوق المواطنة الخاصة بها، أو كانت دولاً "تحت الانتداب" وستتحول إلى النظام الديمقراطى، أى أنها كانت إمبراطوريات ناشئة عن دول قومية.
٢. تحول مركز الثقل بعيدًا عن غرب أوروبا نحو الشرق (موسكو) والغرب (واشنطن).
٣. بدلاً من إمبراطورية واحدة كبيرة (بريطانيا) ومعها إمبراطوريات متوسطة أو أصغر، كانت هناك إمبراطوريتان كبيرتان (الأمريكية والروسية).

كيفية طروق الخلل إلى الإمبراطوريات الحديثة

لكى نجمل الأمر دون إسهاب، نستطيع القول إن الإمبريالية متمثلة فى إمبراطوريات الدول القومية استطاعت أن تعبر أوروبا وتاريخ العالم الحديث على مدى القرن الماضى على موجتين كبيرتين:

- الموجة الأولى تتمثل فى إمبراطوريات الدول القومية الأوروبية، التى وصلت ذروتها فى أواخر القرن التاسع عشر قبل انهيارها أثناء وبعد الحرب العالمية الأولى.
- الموجة الثانية تتمثل فى إمبراطوريات الدول القومية العالمية، التى وصلت ذروتها فى منتصف الستينيات من القرن العشرين قبل أن تفقد نفوذها فى التسعينيات من القرن نفسه ومطلع القرن الواحد والعشرين.

وبعد أن وصلت هذه الإمبراطوريات إلى ذروتها، مرت هاتان الموجتان بثلاث مراحل: هى احتدام التنافس بين الإمبراطوريات، والانهيار الجزئى للنظام، والصراع على البقاء. ولنبدأ بإمبراطوريات الدول القومية الأوروبية.

المرحلة الأولى: احتدام التنافس بين الإمبراطوريات (١٨٩٨ ـ ١٩١٧)

فى عام ١٨٩٨، تلقت الإمبريالية الأوروبية صفعة قوية على وجه مكانتها الرفيعة عندما تمكن الأمريكان من تدمير الأسطول الإسبانى، وقد تكرر الأمر نفسه بعد سبع سنوات لكن مع الإمبراطورية الروسية عندما تمكن الجيش اليابانى من إنزال الهزيمة بالأسطول الروسى فى بور آرثر (كوريا). فى ذلك الوقت كانت المنافسة العسكرية بين الإمبراطوريات القوية، خاصة البريطانية والألمانية، أشد ما تكون احتدامًا. وسرعان ما بدأت روح التمرد تدب فى أوصال الإمبراطورية البريطانية، خاصة فى جنوب إفريقيا، وأيرلندا، والهند. وبدأت الإمبراطورية البريطانية تذوق من كأس النكبات المذلة، والتى كان أكثرها ضراوة معركة غاليبولى عام ١٩١٥ [٢٣].

المرحلة الثانية: الانهيار الجزئى للنظام (١٩١٧ ـ ١٩٣١)

بنهاية الحرب العالمية الأولى تهشمت الإمبراطوريات العظمى فى القارة الأوروبية بعواصمها فى موسكو وبرلين وفيينا والقسطنطينية. وظلت الإمبراطورية البريطانية متماسكة، بل ربما أكثر من ذى قبل، ففى واقع الأمر، زاد حجمها بعد

أن ضمت إلى ممتلكاتها ما تبقى من الإمبراطورية العثمانية، بما فيها بلاد ما بين النهرين (العراق) [٢٤]. وإبان العشرينيات من القرن العشرين لم يكن هنالك أكبر من الإمبراطورية البريطانية، ولم يكن هناك من ينافسها، فقد بسطت سلطانها على خُمس سكان العالم، وهى ما تساوى تقريبًا النسبة نفسها التى حكمتها الحكومة الصينية فى بداية القرن الحادى والعشرين.

وقد أسفرت معاهدة فيرساى (١٩١٩م) بعد الحرب العالمية الأولى عن تصدر الإمبراطورية البريطانية فى الوضع القيادى. فأين كان منافسوها؟

١. دُمرت الإمبراطورية الألمانية.

٢. تمزقت الإمبراطورية الروسية بسبب الثورة والحرب الأهلية.

٣. بيدت الإمبراطورية العثمانية.

٤. كانت الولايات المتحدة أقل عداء من حالها قبل أربعين عامًا، وكانت معنية فى المقام الأول بشئونها الداخلية.

وبالرغم من انفراد الإمبراطورية البريطانية وحدها بالظهور على الصعيد العالمى، كان لزامًا عليها أن تتأقلم مع حالة التمرد الموجودة. وكان ثمة مقاومة لحكمها فى أيرلندا والعراق والهند وتزايد الاضطراب فى كل الدول التابعة "للتاج البريطانى". وقد حصلت كندا ونيوزيلندا وأستراليا واتحاد جنوب إفريقيا ودولة أيرلندا الحرة على "الاستقلال" رسميًا عام ١٩٣١[٢٥].

ولم تقف هذه الصعوبات الداخلية عائقًا أمام تقدم الإمبراطورية البريطانية، ففى العشرينيات من القرن العشرين كان الأمير إدوارد، أمير مقاطعة ويلز (ونطلق عليه فيما بعد إدوارد الثامن)، أشهر رجل فى العالم، يطوف بالعالم باستمرار فى زيارات ملكية علنية فى نيوزيلندا وجنوب أفريقيا وكينيا وأوغندا والهند وجامبيا وجولد كوست ونيجيريا وغيرها، وكان الغرض من تلك الزيارات هو الإبقاء على

الحماس والولاء والاحترام للمبدأ والحكم الاستعمارى داخل الإمبراطورية البريطانية وفى البلاد التابعة للتاج البريطانى.

المرحلة الثالثة: الصراع على البقاء (١٩٣١ – ١٩٦٥)

وبحلول منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين زادت قوة كل من ألمانيا وروسيا بشكل سريع، وفى عشرين عامًا وجدت الإمبراطورية البريطانية نفسها تخوض قتالاً عنيفًا يهدد صميم بقائها. وقد تمخضت الحرب العالمية الثانية عن حالة من الضعف والإنهاك للمملكة المتحدة، وعدم قدرتها على مقاومة مطالب مستعمراتها بالاستقلال، وعلى مدار عقدين من الزمان بعد الانتصار الذى تحقق فى عام ١٩٤٥، حصلت الهند على استقلالها، وتحررت المستعمرات الأفريقية وباتت أبهة وعظمة الإمبراطورية البريطانية أثرًا بعد عين. وأصبح النصر والأمجاد التى تحققت فى عامى ١٩١٨ – ١٩١٩سرابًا ليس له وجود.

الجدول ٥ – ٢ مراحل الانهيار الاستعماري			
	المرحلة الأولى	المرحلة الثانية	المرحلة الثالثة
السمات الجوهرية لكل مرحلة	احتدام التنافس بين الإمبراطوريات القلاقل داخل الإمبراطوريات	الانهيار الجزئي للبناء الاستعماري تظل إمبراطورية وحيدة فقط مهيمنة بالرغم من القلاقل داخل الإمبراطورية	التنافس و/أو التفاوض بشأن مَنْ يخلف مَنْ فى قيادة النظام العالمى، ويحدث هذا فى الإطار العالمى الذى يسفر عنه الوجود المستمر لبقايا الإمبراطورية
إمبراطوريات الدول القومية الأوروبية	١٨٩٨ – ١٩١٧	١٩١٧ – ١٩٣١	١٩٣١ – ١٩٦٥
إمبراطوريات الدول القومية العالمية:	١٩٨٩ – ٢٠٠١	١٩٦٥ – ١٩٨٩	٢٠٠١ – ٢٠٣٥

الكفاح من أجل العودة

إبان الثلث الأوسط من القرن العشرين ظهرت الإمبراطورية البريطانية فى إطار عالمى مناسب ومرجعية مستقرة بينما كانت المعارك دائرة بين خلفائها المرتقبين فى ألمانيا وروسيا والولايات المتحدة [٢٦].

وكان كل من المتنافسين على القيادة العالمية يحاول أن يبث فى مؤيديه روح الكراهية للنظام العالمى البريطانى، إذ حاول كل متنافس أن يرسخ فى نفوس المؤيدين المفاهيم التالية:

- أنهم خضعوا للإذلال على يد أسيادهم القدامى.

- لابد أن يثوروا ويقاتلوا بعنف من أجل الاستقلال.
- إذا انصاعوا لتلك المفاهيم فإنهم سيكونون على موعد مع مستقبل مشرق ينتظرهم.

فى ألمانيا بنى النازيون مذهبهم على أفكار جوبينو ونيتشه، التى جمعت بين رجعية العرق وسقوط الأرستقراطية فى أوروبا، وقد جمعت الأيديولوجية النازية بين حقارة الجنس أو العرق وبين سقوط الأرستقراطية؛ ونتج عن ذلك تعظيم الجنس الآرى واعتباره سيد أجناس البشر. ولم لا وقد كانت الحرب العالمية الأولى قهرا وذلا للأرستقراطية الألمانية، التى أُجبرت مع القيصر على الانعزال وترك الحياة السياسية. وهناك وجهة نظر ترى أن فرض العزلة رفع العبء من على كاهل الشعب الألمانى. لكن كان لهتلر رأى آخر، فقد ألهم الشعب الألمانى بدروس مفادها أن الاستسلام فى عام ١٩١٨، ومعاهدة فرساى فى العام الذى تلاه ما هما إلا إذلال لا يمكن قبوله أبدًا، فهما لم يكونا إذلالاً للطبقة الأرستقراطية فقط، بل قهر وإذلال لكل ألمانى يغار على وطنه[٢٧].

لقد أجج هتلر نار الكرامة والعصبية لدى الجماهير الألمانية عندما أخبرهم أنهم جماهير يمثلون صلب الأمة الألمانية وروحها، وأن الإذلال والقهر لهم فيه نصيب وافـــر، ومن حقهم الانتقام لكرامتهم التى أُهدرت، فهم ليسوا مجرد تابعين لا قيمة لهم، بل على العكس هم جماهير ألمانيا من الجنس الآرى سيد أجناس البشر، ومن حقهم أن يطالبوا بأن يكونوا سادة العالم.

وفى الوقت نفسه ، فى روسيا، كان هناك لينين وأنصاره من البلشفيين الذين دأبوا على أن تكون السيادة للعمال، موحدين بين الفلاحين وبين العمال تحت شعار اشتراكية الدولة. والكل يسير نحو الشيوعية الحقيقية تحت قيادة الحزب. وبمجرد أن وصل لينين للسلطة لم يفتأ يُذكر الشعب الروسى "بالاضطهاد، والقهر والإذلال والعذاب والعبودية" التى عانوا منها تحت الحكم القيصرى[٢٨]. وكان أعضاء

الحزب الشيوعى يحلمون مع لينين بالمدينة الفاضلة أو يوتوبيا المستقبل عندما تسيطر الطبقة العاملة على العالم بأسره.

فى نهاية كل ذلك، تفوقت الولايات المتحدة، سوق الرأسمالية.[٢٩] وكان أبطال المشهد السياسى والاجتماعى هم رجال الأعمال، الذين نجحوا فى تكوين ثروات خاصة طائلة ومؤسسات عملاقة.

على مدى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين حدث أمران جعلا من التجربة الأمريكية كيانًا يقف على الخط نفسه مع التجربتين السوفييتية والنازية. الأمر الأول، هو العقد الاجتماعى الجديد "New Deal"، الذى جعل من الدولة الأمريكية دولة فاعلة فى مواجهة موجة الكساد العالمى، فقد استخدمت الدولة عائدات الضرائب لحماية نظام الأعمال التجارية القائم من السوق نفسه من خلال التأكيد على وجود عمل لدى أفراد الشعب، ووجود أموال لدى المستهلكين. والأمر الثانى هو ما حدث أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية، ألا وهو الديمقراطية الرأسمالية، ذلك النظام الأمريكى للتجارة والحكم معًا، والذى بدأ فى تكوين دور عالمى له وفرض وجهة نظره. وكان لتقديم مشروع مارشال إلى أوروبا، وإعادة إعمار اليابان جبريًا دورهما فى إعادة تشكيل العالم بحيث يكون بيئة آمنة للتبادل العالمى للتجارة والأموال.

وثمة سبيل آخر تبنى به القادة الأمريكان نهجًا مشابهًا لنهج نظرائهم فى ألمانيا وروسيا، فكما فعل الألمان والروس، شجع السياسيون فى الولايات المتحدة شعوب العالم على إدراك مدى عمق الإذلال الذى كانوا يتعرضون له والسعى وراء مستقبل مشرق من خلال اتباع ما تقدمه لهم أمريكا. وواقع الأمر أن الأمريكان يستخدمون تلك الاستراتيجية منذ زمن بعيد، فمنذ عام ١٨٨٦، أخذ تمثال الحرية يستقطب "المنبوذين" فى العالم "والجماهير المكبوتة التواقة لتنفس نسائم الحرية"، فأمريكا، كما أخبرت شعوب العالم، "هى أم الغرباء"[٣٠] التى تمد يد العون والتحرير للمقهورين والمنفيين فى كل مكان.

وقبل مرور ربع قرن على إنشاء تمثال الحرية، جاء الإعلان الأمريكى بتحرير العبيد فى عام ١٨٦١، الذى كان خطوة محسوبة خطَّاها الشمال ليثير السخط داخل الجنوب ومن ثم يفت من عضده ويوهى قدرته على المقاومة فى غمار الحرب الأهلية الدائرة بين الشمال والجنوب الأمريكيين.[٣١] وقد تبنت الولايات المتحدة السياسة نفسها فى أوروبا عندما أصدرت إعلان تحرير عبيد لكن بشكل آخر دولى، فجاء إعلان "المبادئ الأربعة عشر" التى أعلنها الرئيس الأمريكى وودرو ويلسون فى خطابه عام ١٩١٨، وعرفت باسم "مبادئ ويلسون الأربعة عشر"، ثم تلاه إعلان الرئيس فرانكلين روزفيلت، المعروف باسم إعلان "الحريات الأربع" عام ١٩٤١. وما كان إعلان ويلسون إلا لرعاية مشاعر السخط والاستياء فى نفوس الشعوب المستعمرة فى أوروبا وذلك من خلال إسقاطاته عن الحرية والعدالة. أما روزفيلت فقد "عولم" الرسالة نفسها ، فقد كانت دعوته للتحرر من الطغيان موجهة نحو الشعبين الألمانى، واليابانى، لكن فى الوقت نفسه سدد رميته إلى قلب العدو الإمبريالى فى أوروبا الغربية، وكانت الرسالة مصاغة بدقة، وكانت خطوة محسوبة أيضًا لتلقى استحسانًا لدى الملايين من رعايا المستعمرات الرازحين تحت القهر والإذلال[٣٢].

سنوات الحرب الباردة وما بعدها

بحلول عام ١٩٤٥، اقتصر الصراع على خلافة الإمبراطورية البريطانية على قوتين، موسكو، وواشنطن، فكلاهما أعلن الأفكار التى تؤيد المساواة بين البشر وأعلنا عداءهما للاستعمارية. وعندما قامت بريطانيا وفرنسا، فى تحالف سرى مع إسرائيل، بغزو مصر عام ١٩٥٦، على أمل الإطاحة بالرئيس جمال عبد الناصر واستعادة السيطرة على قناة السويس، كانت الولايات المتحدة على ثقة من أن المستعمرين الأوروبيين سيواجهون توبيخًا قاسيًا من الأمم المتحدة. وقد أتاح الغزو الروسى للمجر فى العام نفسه فرصة أخرى للولايات المتحدة أن تقدم نفسها فى صورة المتحدث الصالح المفتخر بأفعاله ومبادئه للدول المستعمرة الرازحة تحت

القهر والإذلال، وللمستعمرات وكذلك للمستعمرات السابقة فى كل مكان. حينذاك كان بإمكان الأمريكان النظر حولهم بدرجة من الرضا لا تقل عن نظرة البريطانيين لأنفسهم فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر.

بيد أن الحرب الباردة تمخضت عن موجة ثانية من بناء الإمبراطوريات[٣٣]، فكانت إمبراطورية "العالم الحر" وإمبراطورية "الكتلة الشيوعية"، وهاتان الإمبراطوريتان الجديدتان كانتا تستخدمان نفس الشعارات التى سادت فى الغرب فى تلك الفترة، وكانتا إمبراطوريتين عالميتين (وليستا مجرد إمبراطورية أوروبية). وهذا يطرح سؤالاً واضحًا، وهو: هل هذه الموجة الثانية ستمر بالمراحل الثلاث كسابقتها؟ ثمة دلائل تفيد بأنها ستكون كذلك (انظر الجدول ٥ – ٢).

المرحلة الأولى: احتدام التنافس بين الإمبراطوريتين (١٩٦٥ - ١٩٨٩)

بحلول الستينيات من القرن العشرين حقق الاتحاد السوفييتى تكافؤاً نسبيًا مع الولايات المتحدة فى بعض ميادين القوة العسكرية[٣٤]. ومن أواخر الستينيات وصاعدًا، كانت ثمة حدة فى التنافس بين الجانبين، أشبه إلى حد ما بالتنافس الذى كان بين البريطانيين والألمان قبل الحرب العالمية الأولى. وقد مارس الأمريكان والروس كلاهما لعبة الإذلال، وحاول كل طرف أن يُشعر نظيره بعدم أهليته أو قدرته على التنافس وإظهار قسوته أمام العالم. ولعل الإرباك الذى حاق بأمريكا فى حربها مع فيتنام ضد الصين وروسيا، استطاعت أن تجعل دائرته تدور على موسكو عندما ورطتها فى غزو أفغانستان[٣٥].

ولم يمض زمن طويل إلا وتكرر ما حدث لإمبراطوريات الدول القومية الأوروبية قبل الحرب العالمية الأولى، فقد واجه كل من الكتلة السوفييتية والإمبراطورية الأمريكية التمرد نفسه لكن كل على حسب ظروفه الداخلية. ففى الغرب، تصادفت الحركات التحررية فى إفريقيا مع تصاعد احتجاجات الأمريكان

من أصل إفريقى أو الأمريكان السود على العنصرية، ولم تكد تهدأ هذه الاحتجاجات حتى جاءت احتجاجات الطلبة على حرب فيتنام والمواجهة الدموية لهذه الاحتجاجات، ثم ما أتبع ذلك من تصاعد الحركات النسائية، والضربة القاصمة المتمثلة فى ارتفاع أسعار النفط الذى فرضته منظمة الأوبك، ثم تكوين اتحاد المصنعين (كارتيل) غير الغربيين. أما الاتحاد السوفييتى فقد واجه المد الدينى الذى كان له دوره فى حشد المقاومة ضد المد الشيوعى، ولم يكن المجاهدون الأفغان هم وحدهم الذين يمثلون ذلك المد الدينى، بل كان هناك اتحاد عمال السفن فى حركة التضامن البولندى.

المرحلة الثانية: الانهيار الجزئى للنظام (١٩٨٩-٢٠٠١)

لم يكن الغرب سببًا مباشرًا فى انهيار حاجز برلين وتفكك الاتحاد السوفييتى. إن انهيار الاتحاد السوفييتى كان مفاجأة غير متوقعة مثل استسلام ألمانيا فى عام ١٩١٨. وكانت تداعياته معقدة ومازالت غامضة. وبالرغم من ذلك، وأيًا كانت هذه التداعيات، فإن الولايات المتحدة كانت هى المستفيد الوحيد من انتهاء الحرب الباردة، كما استفادت بريطانيا عام ١٩١٨، عندما أبحر الأسطول الألمانى فى المياه البريطانية عند مصب نهر الفورث[٣٦].

وكما فعلت الإمبراطورية البريطانية فى العشرينيات من القرن العشرين، فقد وقفت الولايات المتحدة بمفردها فى التسعينيات من القرن نفسه، منفردة فى الأفق، فأين ذهب منافسوها؟

١. انهار الاتحاد السوفييتى.

٢. مزقت اليابان نفسها بسبب الصراع السياسى ولم تعد تمثل تهديدًا اقتصاديًا كما كان حالها فى السبعينيات وأغلب فترة الثمانينيات.

٣. أثبت الاتحاد الأوروبى عدم قدرته على التعامل مع الحرب الأهلية الخطيرة فى يوغوسلافيا السابقة على حدودها الجنوبية الشرقية ومن ثم كان لابد من الاعتماد على المساعدة الأمريكية.

٤. كانت الصين أقل عداءً مما كانت عليه قبل أربعين عامًا، وكان شغلها الشاغل منصبًا على شئونها الداخلية.

وقد وجهت الحكومة الأمريكية أول ضربة للعراق (١٩٩١) وقامت بدورها كاملاً فى حرب كوسوفو (١٩٩٩)، كما لو كانت تستعرض قوتها فى حلبة الصراع، فقد كان الجنود الأمريكان بعتادهم العسكرى أشبه بأفراد فريق هارليم جلوبيتروتز لكرة السلة فى جولة عالمية، يستعرضون قدراتهم لنيل إعجاب جمهورهم من الأجانب.

ومع ذلك، فكما كانت بريطانيا تعانى من الحروب، كان على الولايات المتحدة، بعد عام ١٩٨٩، التأقلم مع مشكلة الشعوب "التابعة" داخل إمبراطوريتها. وفى مطلع التسعينيات من القرن العشرين، كانت معاهدة ماسترخت مؤشرًا لرغبة زعماء أوروبا فى أن يكون الاتحاد الأوروبى - الذى كان قويًا، وأشبه بدولة على حده ومستقلاً - لديه القدرة على أن يكون ندًا لأمريكا. وقد أزيح النقاب عن الخلافات التى كانت بين الدول الأوروبية الكبرى مع السياسة الخارجية للولايات المتحدة عندما عارضت ألمانيا وفرنسا الغزو الأمريكى للعراق[٣٧].

وكانت الروح الاستقلالية الأوروبية نتيجة مصادفة تؤكد أنه على مدار أربعة عقود بعد عام ١٩٤٥، فإن الولايات المتحدة كانت الإمبراطور القوى الكريم داخل "العالم الحر". وبموجب هذا الدور أرسلت بمشروع مارشال إلى أوروبا

الغربية لمساعدتها وأجبرت القوى فى أوروبا الغربية على الدخول فى تعاون اقتصادى. وكانت واشنطن صاحبة ضربة البداية التى أسفرت عن ظهور الاتحاد الأوروبى، وكان الأمريكان أيضًا هم من قاموا بإعادة بناء الكيان الاقتصادى والسياسى فى اليابان حتّى أصبحت اليابان ديمقراطية رأسمالية حديثة مزدهرة[٣٨].

الجدول ٥ – ٣ انهيار الأنظمة الإمبريالية: الصراع على البقاء		
المرحلة الثالثة	١٩٣١-١٩٦٥	٣٥-٢٠٠١
انهيار النظام الاستعمارى	إمبراطوريات الدول القومية الأوروبية	إمبراطوريات الدول القومية العالمية
القوة الإمبريالية الباقية:	بريطانيا	الولايات المتحدة
الخلفاء المحتملون	الولايات المتحدة وألمانيا وروسيا واليابان	الصين والاتحاد الأوروبى واليابان والهند
المارد المكافح:	الصين	روسيا

هذا لم يكن من باب الإيثار، فقد استطاع الاقتصاد الأمريكى أن يتجنب الانهيار الأليم فى فترة ما بعد الحرب عن طريق دعمه لأعماله التجارية الخارجية فيما يتعلق بالتجارة والاستثمار. فقد أرادت الولايات المتحدة لتلك الاستثمارات أن تظل فى مأمن، وأن يظل رجال التجارة يعملون فى بيئة آمنة هادئة.

بعد عام ١٩٤٥، قامت الولايات المتحدة "بأمركة" الكثير من دول العالم، فقد أصبحت الأعمال المتزايدة فى الميدان الاجتماعى، أكثر احترامًا وتخصصًا. كما زادت المدارس التجارية التى تعمل بالنظام الأمريكى فى كل مكان، وسرعان ما تعلم الشريك التجارى الأوروبى والآسيوى من الأمريكان، وساعدهم فى ذلك ارتفاع موجة مد الترف والرخاء الذى شهدته حقبة الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، فقد نمت اقتصادياتهم وأصبحت حكوماتهم أكثر قوة ونفوذًا.

المرحلة الثالثة: الصراع على البقاء (٢٠٠١ – ٢٠٣٥)

نشهد الآن فى زماننا الراهن الاتحاد الأوروبى واليابان يتسابقان فى المضمار نفسه مع الصين، وها هى الهند تلحق بركب التقدم بسرعة عالية، ومن ثم لم تعد الولايات المتحدة صاحبة الهيمنة الاقتصادية على العالم.

من الممكن أن يكون للولايات المتحدة تأثير عميق على الاقتصاد العالمى وعلى مصير اقتصاديات عدد من الدول القومية الأخرى، فعلى سبيل المثال، تمتلك الولايات المتحدة حق الاعتراض أو الفيتو فى المؤسسات الدولية التى قامت بصياغتها وتشكيلها مثل صندوق النقد الدولى، والبنك الدولى، ومنظمة التجارة العالمية ومنظمة الأمم المتحدة، وفى الوقت نفسه لا نجد للولايات المتحدة التأثير الفعال نفسه فى منظمات أخرى مهمة، مثل، الاتحاد الأوروبى، ومنظمة الآسيان ومنظمة الأوبك[٣٩]، وهنا نجد أن التراجع التدريجى فى السيطرة المؤسسية يعوضه تزايد التأثير فى الشركات العالمية غير الأمريكية، فإذا نظرنا إلى أعلى مائة شركة عالمية نجدها تمتلك ٢٤٥٣ بليون دولار فى صورة أصول أجنبية، وذلك حسب تقارير عام ٢٠٠٠، ونجد أيضًا أن ٢٨% فقط من هذه الأصول فى أيد أمريكية[٤٠].

لا شك أن السبب وراء قوة الولايات المتحدة عسكريًا وتفوقها فى هذا الميدان هو ثراؤها الذى يمكنها من دفع قيمة التقنيات والمهارات اللازمة والتى دائمًا تحرص على وجودها لضمان أمنها. ومع ذلك، هناك دول كبرى أخرى تتحرك صوب ذات الهدف، فالاتحاد الأوروبى، والصين، واليابان، والهند كل منهم الآن أكثر ثراءً مما كان عليه عام ١٩٤٥، وكذلك روسيا تستفيد الآن من عائدات بيع الغاز والنفط. وهذه الدول بدأت تشعر بدرجة من عدم الأمان؛ فحتى عام ١٩٨٩، كان الثبات النووى بفعل الحرب الباردة بمثابة ضمانة للأمن العالمى[٤١]، أما الآن وبعد مرور عقد ونصف العقد على انتهاء الحرب الباردة، نجد مناخ العلاقات الدولية يتأثر جدًا بما يلى:

- الخوف المتزايد من الإرهاب.
- انتشار الأسلحة النووية.
- التداعيات المثيرة للاضطراب فى أوروبا وآسيا لانهيار الاتحاد السوفييتى.
- الانقسامات بين القوات الغربية حول الحرب على العراق عام ٢٠٠٣ وآثار تلك الانقسامات.
- القلق حيال تنامى قوة الصين وإثباتها لوجودها.

فإذا تعمق هذا القلق فى وجدان الدول، وأصبحت العلاقات بين الدول غير واضحة المعالم وتأتى على غير المتوقع، عندئذٍ يكون من الطبيعى لملائمة الوضع أن تشرع القوى الاقتصادية الكبرى فى العالم في بناء قوتها العسكرية، وقد يحدث ذلك سريعًا، خاصة إذا أُرهــب المــواطن ليقبل الزيادة فى الضريبة، فإذا حدث، أو دعنا نقول عند حدوث ذلك، فلن يصبح العالم أحادى القطب كما كان بعد عام ١٩٨٩، بل ستتعدد أقطاب العالم لاسيما اقتصاديًا وعسكريًا.

عندما يتمايز شكل القوى العالمية فى الثلث الأول من القرن الواحد والعشرين، ويصبح من السهل دراسته وتأمله وإسقاطه على التاريخ، فستكون تلك القوى أشبه ما تكون بالقوى فى الثلث الثانى من القرن العشرين أو بمعنى آخر ستكون عبارة عن:

- نظام إمبريالى شبه منهار، مع استمرار بقاء الإمبراطورية المهيمنة على الرغم من المشاكل الناجمة عن الانشقاق الداخلى.
- مجموعة من المتنافسين الأقوياء يحملون أفكارًا متباينة بشأن الكيفية التى يجب أن يُدار بها العالم.
- العملاق المناضل الذى يسعى لإعادة بناء نفسه واسترجاع قوته[٤٢].

نحن الآن مازلنا فى خضم الحرب على الإرهاب. والعنصر الأساسى فى الاستراتيجية التى يعتنقها الغرب هو إظهار قدرته على إذلال أكبر أعدائه، تلك القدرة التى تفوق بكثير قدرة الأعداء على إذلال الغرب، ورد الفعل هذا يوضح القلق الذى ينتاب الإمبراطورية التى تخشى فقدان هيبتها وترى تضخم قوة أعدائها(٤٣).

والخطر المحتمل يكمن فى أن العقود التالية قد تشهد مرة أخرى ما حدث فى ثلاثينيات القرن العشرين من تنافس على الزعامة العالمية، مما يجعل المتنافسين يعملون على إلهاب مشاعر المؤيدين بما يلى:

- أنهم كانوا خاضعين لإذلال من قبل أسيادهم القدامى.
- لابد أن يثوروا ويقاتلوا بعنف من أجل الاستقلال.
- إذا انصاعوا لتلك المفاهيم فإنهم سيكونون على موعد مع مستقبل مشرق ينتظرهم(٤٤).

ثقافة الاستياء

لا تبدو المؤشرات مبشرة بأى حال، فقد كان "النجاح" الأكبر لابن لادن متمثلاً فى تحويل الحراك السياسى الداخلى فى الشرق الأوسط إلى حراك على المستوى العالمى. فمنذ عام ٢٠٠١، كانت العلاقات الدولية، أو بمعنى آخر، سياسات المجتمع العالمى، لا تخرج عن إطار الإذلال والاستياء والانتقام، وظهر هذا من خلال الهجوم على المعذبين، ثم الاستعداد لرد الضربة. و كان السماح بحدوث هذا تحركًا سيئًا، كان الغرب فى غنى عنه. أما تداعيات استمرار هذه الحالة فتتمثل على المدى البعيد فى تقويض مصداقية جميع السلطات السياسية، وفى واقع الأمر، فقد كانت هذه العملية مطبقة فى وقت من الأوقات. ولننظر إلى

ما فعله المتنافسون على زعامة العالم من الفاشية والشيوعية والرأسمالية وتوجيههم المستمر لسكان العالم قاطبة نحو الشعور بالإذلال والاستياء إبان القرن العشرين، ليس فقط توجيههم للمسلمين الذين شعروا بأنهم بلا مأوى فى أعقاب انهيار الإمبراطورية العثمانية ونهاية الخلافة بعد الحرب العالمية الأولى، ولكن توجيههم لكل إنسان.

وعلى مدار الأجيال القليلة الماضية، فإن جميع القوى المتنافسة على خلافة الإمبريالية الأوروبية وعدوا أتباعهم بحياة أفضل، فقد كان ديدنهم واحدًا، ألا وهو لكى تحصلوا على الحياة الكريمة، يجب أن تطيح الشعوب بمن يستذلها ويقهرها. وقد كان سمت القرن العشرين هو خليط من الأمل والكراهية تجرعته الشعوب بكميات كبيرة فى حربين طاحنتين ملتهبتين، وحرب أخرى باردة وما كان بينهم من فترات توجس وخيفة. ونحن الآن نعايش تبعات تلك الجرعات التى تجرعها العالم من ذلك الخليط.

وعلى مدى السنوات القليلة الماضية، كان هذا الخليط أكثر تطايرًا من ذى قبل، ففى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن العشرين، تزامنت "ثورة الطلاب" فى الغرب مع الثورة الثقافية فى الصين، ومن ثم، كان لدى الشباب الحرية فى التعبير عن آرائهم سواء كان ذلك فى تعبيرهم عن استيائهم من معلميهم أو من البيروقراطية، أو من السياسيين. وفى أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات من القرن العشرين، عززت الانتفاضات الشعبية فى إيران وأفغانستان وبولندا مكانة المؤسسات الدينية، ووجهت رسالة فحواها أن التعبير الجازم عن الإيمان كان له فاعلية التصويت نفسها لصالح الأحزاب السياسية إذا لم يكن أكثر فاعلية، ذلك الإيمان الذى أخذ فى الانهيار لدى الغرب برمته. وفى الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين كان الترويج للسوق على أشده باعتبارها بديلاً أعلى أداءً من القطاع العام الذى رُوِّج له على أنه يعج بالفساد وعدم المرونة.

ونتيجة لهذا القرن من السخط المدعوم، تبدو جميع السلطات حينئذ غير شرعية وقاسية وأهون من ذى قبل. لماذا لاقت جنازة البابا يوحنا بولوس الثانى فى روما والمتوفى فى أبريل عام ٢٠٠٥، هذا الاهتمام الإعلامى الكبير؟ لماذا حضر أكثر من مائتى رئيس دولة ورؤساء وزارات وممثلين ملكيين؟[٤٥] لقد كان أحد أهم الدوافع الباعثة لحضور هؤلاء هو أنهم وجدوا فى ذلك الحدث فرصة سانحة لغسيل أنفسهم فى رحاب موجات المرجعية التى تنهمر من الفاتيكان، لقد كانوا على أمل أن يكون لهم جزء من تلك المرجعية، لقد طمعوا فى حظ من الهالة البابوية.

وإذا ما قارنا المرجعية الدينية بالسلطة السياسية، فإننا نجد أن الأخيرة قد اكتسبت وضعًا مختلفًا، رديئًا وليس حسنًا. إنه عرضة لهجمتين فى آن واحد، وهما:

- من وجهة نظر "اليسار" فإن السلطة السياسية قد أغفلت حق المواطن فى الرعاية، ولم تقم بمسئوليتها تجاه حماية المواطن من الإذلال الذى يمكن تجنبه.
- من وجهة نظر "اليمين" الليبرالى الجديد، فإن السلطة السياسية فرضت نفسها على الشعب، وعرَّضت المواطن للإذلال.

لقد أصبح للدولة المركزية والحكومة المحلية نوع من الهالة التى تحيط بشخصية شريف نوتنجهام فى أسطورة روبين هود، ذلك النوع الذى يحملك على افتراض السوء فى كل شىء. فشريف نوتنجهام، على حسب ما فى أسطورة روبين هود، هو العدو اللدود لروبين هود، هذا البطل الشعبى فى العصور الوسطى الذى تناقلت حكاياته من جيل إلى جيل بأشكال عدة، تبدأ من الأغانى والحكايات الشعبية والقصائد وتنتهى بأفلام والت ديزنى.

وفى واقع الأمر، فإن اثنين من الأساطير فى العصور الوسطى تجسدان الصراعات والمآزق فى جوهر العولمة. الأولى حكاية روبين هود وشريف

نوتنجهام. والأخرى هى قصة "عازف المزمار ذى الحلة المرقعة" أو (Pied Piper)، الذى استطاع بمزماره أن يخلِّص بلدة هاملين من الجرذان، ثم حنث أهل البلدة فى وعدهم له ولم يعطوه مكافأته، فعاد لينتقم منهم وجذب بعزفه على المزمار أطفال البلدة وتخلص منهم فى كهف بعيد.

فى أسطورة روبين هود، نرى شريف نوتنجهام يجسد شخصية المستبد المرفوض الذى يفرض نفسه على الشعبيين البسطاء، وهو يستمد سلطته وقوته من الحكام النورمانديين، والغزاة الفرنسيين الذين أحكموا قبضتهم على الشعب الإنجليزى فى عهد ويليام الفاتح. وعلى غرار السادة الفرنسيين، نجد شريف نوتنجهام قد فرض نفسه من أعلى دون أن يطلب منه أحد ذلك التدخل، فهو لم يكن ذلك الشريف "الصالح" الذى حكت عنه أسطورة الغرب القديم (Wild West)، ذلك الشريف الذى يراعى الأمن ومصالح الناس فى منطقته، بل على العكس كان شريف نوتنجهام صورة للشريف "الشرير": يملؤه الطمع فى جمعه للضرائب، يحكم الناس بلا قلب، موظف فاسد لحكومة مستبدة لا تعنيها مصلحة الشعب.

والآن وبعد أن مرت عقود طويلة تعلمت شعوب العالم كيف يشعرون باليأس والاستياء. فمن الذى يُلام على ما صارت إليه أحوال هؤلاء؟ لنصغ إلى الإجابة التى تأتينا من الخطاب السياسى المعاصر الذى يرشح لنا اثنين لنلوم عليهما:

- الأعمال التجارية الكبرى، التى تشبه عازف المزمار ذا الحلة المرقعة، الذى يحكم قبضته على ضحاياه، ويستغلهم، ويسرق أنفس ما يملكونه، ويخرب مجتمعاتهم وتركاتهم ولا يتحمل أى مسئولية عن هذا الدمار الذى يسببه.
- الحكومة الكبرى، والتى تشبه شريف نوتنجهام، الذى يفرض بوحشية إرادة إمبراطور الشر الكريه، الذى يستوفى حين يأخذ ويشح حين يعطى.

• وفى أيام الحرب الباردة، كان من الممكن سماع هذا الحوار التالى باستمرار، والذى نسقطه هنا على شخصيتى عازف المزمار ذى الحلة المرقعة وشريف نوتنجهام:

من واشنطن إلى موسكو: إنكم إمبراطورية الشر، تفرضون إرادتكم الطاغية على الآخرين، ترسلون شريف نوتنجهام البغيض بحراسة مسلحة لصب الرعب على المواطنين أينما استطعتم الوصول، وترغمونهم على دفع الإتاوة.

من موسكو إلى واشنطن: هراء. فى الحقيقة، إنكم متآمرون عالميون، ترسلون عازف المزمار ذا الحلة المرقعة بألاعيبه وحيله السحرية لإغراء وخداع الشعوب أينما استطعتم الوصول، وتستغلون تلك الشعوب لتنفيذ أغراضكم.

من واشنطن إلى موسكو: هراء. أنتم أصحاب إمبراطورية الشر...(الخ).

القوة وراء هذه الاتهامات – "أنتم عازف المزمار ذو الحلة المرقعة المستغل"، و"أنتم شريف نوتنجهام الفاسد" – قد تلاشت عندما واجهت الاتهام المضاد. فقد واجه التياران بعضهما البعض؛ مما أسفر عن الحد من قوتيهما. ومنذ عام ١٩٨٩، بدأ التياران كلاهما فى الهبوب من الاتجاه نفسه. وكلاهما كان موجهًا ضد الولايات المتحدة، التى توصف الآن بأنها خليط من عازف المزمار ذى الحلة المرقعة متمثلاً فى ما كان يُسمى مركز التجارة العالمى، وشريف نوتنجهام الرابض فى البنتاجون. وقد سدد المهاجمون يوم ٩/١١ رمية مباشرة مصيبة لكلا الرمزين.

والآن أوجدت الولايات المتحدة، بوصفها شريف نوتنجهام العالمى الوحيد المتفرد بذلك المنصب، روبين هود عالمى اسمه أسامة بن لادن، فتنظيم القاعدة لم ينشأ من لا شيء، بل ترجع أصول نشأته إلى الحرب الأفغانية مع روسيا، عندما قامت وكالة الاستخبارات الأمريكية بإمداد المجاهدين الإسلاميين بالسلاح ليقاوموا ويهزموا عدوهم، وبهذا ضخت دماء القوة والعنفوان فى شرايين كل من أسامة بن لادن

ومحمد عمر اللذين أسسا فيما بعد تنظيم القاعدة ونظام طالبان. وبات واضحًا أن الولايات المتحدة لم تكن تتوقع أن هذا الوحش الذى سنت أسنانه بيدها سيأتى يوما ليفترسها.

ومن وجهة نظر شريف نوتنجهام والذين يأوون خلف جدران قلعته، فإن روبين هود إرهابى، ومع ذلك، فإن روبين هود يحظى بحماية من الحشود خلف الجدران، لأن تلك الحشود تشك فى عازفى المزامير ذوى الحلل المرقعة الذين يحاولون تنويم الحشود وتسييرها، أما روبين هود الذى يؤدى الدور السرى للحشود خلف الجدار مسألة مختلفة تمامًا.

* * *

استعرضنا فى هذا الفصل:

الأدوار التى قام بها الرعب والرعاية فى عمل الدولة، قديمًا وحديثًا؛ ولاحظنا التداخل بين الحاكم والكهنة (أو وسائل الإعلام)، كما استعرضنا العلاقة بين الذل والطبقية (مع الإشارة إلى كتابات ابن خلدون وميلتون وهوبيس ونيتشه وكانيتى)، واستطردنا إلى الحديث عن مسرح الإمبراطورية، وميزنا بين الممالك الإمبراطورية، والمجتمعات الاستيطانية، وإمبراطوريات الدول الإقليمية الأوروبية، وإمبراطوريات الدول الإقليمية العالمية، وأوضحنا حلقة الربط بين انهيار وسقوط نوعى الإمبراطوريتين، وذكرنا أن ثقافة الاستياء من السلطة السياسية قد ظهرت فى القرن العشرين، ولاحظنا أن هذا كان جزءًا من نمط أكثر شمولية للعداء تجاه الحكومة الكبرى (شريف نوتنجهام) والتجارة الكبرى (عازف المزمار ذى الحلة المرقعة).

فأين نحن الآن فى عرضنا لموضوع الكتاب؟ إننا نتجه إلى دائرة ثانية من المنحنى الثلاثى، وهذه المرة بترتيب عكسى، وأكثر تأنيًا، وبعمق أكبر. لقد أتممنا بحثنا بشأن النزعة الإمبريالية ونحن على وشك البحث فى المولد الثانى للذل الذى تحركه ديناميكية العولمة، والمسمى: منطق السوق.

٦

منطق السوق

فى عز الظهيرة

انتهينا فى الفصل السابق بتشبيه الولايات المتحدة بشريف نوتنجهام، ولكن هل يروق هذا التشبيه للجميع؟ نبدأ هذا الفصل بالإجابة على هذا السؤال، بالطبع ستكون الإجابة بالنفى، إذ إن ذلك التشبيه لم يحظ بترحيب وقبول الجميع. ولعل أبرز الرافضين لهذا التشبيه المحلل السياسى الأمريكى روبرت كيجان، صاحب كتاب "الفردوس والقوة" (الصادر عام ٢٠٠٣)، الذى يرى فيه أن الولايات المتحدة منطلقة من روح المسئولية وإنكار الذات، تأخذ على عاتقها مهمة الشرطى العالمى الذى يقوم على رعاية العالم وصونه عن التخبط والانفلات حتى يتسنى للأحرار الكرام أن يحيوا فى عالم يليق بهم. ومن هذا المنطلق تكوَّنت فى ذهن كيجان صورة لشريف المدينة، تلك الصورة هى نفسها التى صورها المخرج فريد زينيمان فى فيلمه "*High Noon*" أو (فى عز الظهيرة) عام ١٩٥٢، وقام بدور البطولة فيه الممثل غارى كوبر والممثلة غريس كيلى. وفى هذا الفيلم جسَّد كوبر شخصية "ويل كين"، الذى أراد ترك عمله كشريف للمدينة والعيش فى أمان. بيد أن ميلر وأفراد عصابته الأشقياء يظهرون على الساحة للانتقام وقتل شريف المدينة "ويل كين"، الذى يُغيِّر رأيه وبدلاً من الهروب طلبًا للنجاة، يتصدى بنفسه لتلك العصابة معتقدًا أن ذلك هو السبيل الوحيد لضمان تحقيق الأمان، ومن ثم ينعم الناس بالعيش فى جو من الديمقراطية يقوم على الاحترام المتبادل.

ورغم هذا الهدف النبيل، لم يشأ أى من سكان المدينة مساعدة "ويل كين"، بل على العكس لم يحرك أهل المدينة ساكنًا أمام ما يقوم به أفراد العصابة من عمليات نهب وسرقة، وبقى أهل المدينة ساكتين وعصابة ميلر تخرب عليهم حياتهم. وكان الشريف هو البطل الذى يخوض وحده فى تلك المهمة الدموية ويتصدى للأشرار الذين يُرهبون المدينة. وبعد إتمامه المهمة يرحل، مثله مثل أى بطل من أبطال رعاة البقر، ونرى فى المشهد الختامى "ويل كين" راحلاً بينما الشمس آخذة فى الأفول. من وجهة نظر كيجان، ينطبق هذا المشهد الدرامى على الولايات المتحدة التى يجسد دورها فى الفيلم "ويل كين" شريف المدينة، بينما عصابة ميلر تجسد الإرهاب الإسلامى، والمدينة هى العالم. أما أوروبا فدورها تجسده شخصية "إيمى"، زوجة "ويل كين "الحالمة التى تؤمن، وفقًا لمعتقداتها الدينية، أن تجنب العنف واجب مهما تكلف ذلك من ثمن، وكذلك شخصية النادل ساقى الخمر الذى يقدم الشراب لكل من يجلس أمامه على الطاولة صالحًا كان أو شريرًا، ثم إذا سمع صوت طلقات الرصاص من حوله يتوارى متخذًا من الطاولة ذاتها ملجأ يختبئ تحته من الطلقات المتطايرة من حوله.

للوهلة الأولى نجد أن مثل هذا القياس المنطقى والتشبيه الذى صاغه كيجان مقبولاً فى ظاهره، لكن إذا أعملنا فيه الفكر، يتغير الرأى تمامًا. فبالنسبة لكيجان، نراه لم يفهم فحوى رسالة الفيلم كما ينبغى، إذ إن الرسالة التى يريد الفيلم أن ينقلها للمشاهد ليست أن السواد الأعظم من الناس إمـــا مثاليين مترفعين عن المشاركة، أو جبناء مداهنين يريدون بطلاً ليحميهم ويسيرون فى ركب شجاعته الفطرية ومُثله العليا النبيلة. ليست تلك هى رسالة الفيلم، وإنما الرسالة الحقيقية للفيلم هى أن المجتمع بأسره عليه واجب جماعى وهو رعاية كل أفراد المجتمع، وإذا توانى المجتمع عن هذا الواجب، فإن النتيجة هى انتشار العنف والظلم، وعلى ذلك نجد أن سلوك الشريف كان جزءًا من المشكلة، ولم يكن جزءًا من الحل:

- لماذا لم يرحل الشريف وآثر البقاء لمواجهة عصابة ميلر؟ من أجل الدفاع عن شرفه الشخصى.
- كيف تعامل مع الموقف؟ بعنف.
- ماذا فعل عندما انتهى العنف؟ رحل.
- ما الفرق الذى أحدثه حيال المشكلة الأساسية التى تتمثل فى إقامة مجتمع آمن تُحترم فيه الحقوق الإنسانية لكل فرد؟ لا شيء يُذكر.

وحتى إذا أقنعك رأى كيجان وتصوره لأمريكا "كشرطى عالمى" فى غاية النبل وإنكار الذات، ألا يجعلك الاحتلال الأمريكى للعراق تشك فى قدرة هذا "الشرطى" على تحقيق الهدف النبيل.

لكن تُرى ما هى نوايا ذلك "الشرطى العالمى"؟ يجيبنا على هذا التساؤل توماس بارنيت، الذى يعمل خبيرًا بالكلية البحرية الأمريكية، حين يتكلم عن الهدف الاستراتيجى العام فيقول إنه التأكد من "تدفق العمالة، والطاقة، والمال، والأمن جميعًا وبسلاسة تامة من بقاع الأرض الغنية بتلك الموارد، إلى البقاع الأخرى التى تندر فيها تلك الموارد (بارنيت ٢٠٠٤، ١٩٨). ونوضح هذا الكلام بمثال، عندما تقوم الولايات المتحدة باستثمار القوى العاملة ورأس المال والأسلحة فى عملية "تصدير الأمن "إلى العراق، فهى بذلك تزيد من فرص تمكنها من النفط العراقى.

فالشرطى العالمى هو الحرفى الذى يأتى ليصلح شيئًا ما لابد من إصلاحه، ثم يمضى لحال سبيله. ففى العراق، على سبيل المثال، يتحقق "السيناريو الأفضل عندما "تقوم أمريكا بجعل قوة الاحتلال دولية... وتنجح فى أن تجعل جهاز السيطرة السياسية إقليميًا بمعنى أن تستدعى قوات العالم للاحتلال، وتدير أمريكا وحدها المسرح السياسى ...

بعد ذلك تعمل الولايات المتحدة على جذب الاستثمارات الأجنبية المباشرة إلى العراق، وتترك الباقى للجماهير العراقية المتعلمة ولأصحاب الكفاءة". وبصورة أكثر وضوحًا، يأتى الحرفى الأمريكى ليصلح الأمن المعطوب – فيضمن سلامة التجارة وحقوق الامتلاك ومن ثم تصبح السوق آمنةً وتتدفق الاستثمارات– ثم يمضى ذلك الحرفى إلى حال سبيله.

وهنا نجد بارنيت يُعبِّر عن عقيدة ثابتة لدى الإدارة الأمريكية رسختها عام ٢٠٠٠، تقوم على أن السوق هى الطريق الممهد لنيل الحرية، فعندما يتحرر المجتمع (أى عندما تهيمن السوق)، يصبح لدى أفراده أهم المقومات اللازمة للتمتع بحقوق الإنسان.

لكن، وعلى فرض أن حقوق الإنسان تستحق ما يُبذل من أجلها، تُرى ما الذى يترتب عليها من مزايا؟ ثمة إجابة من ضمن الإجابات تقول بأن تلك الحقوق تبرر وتجسد الأمل فى أن يتمكن البشر من عيش حياة كريمة، أو بمعنى آخر:

- يجب استثناء كل أنواع المعاناة والقهر والإذلال التى يمكن تجنبها.
- لابد من ضمان توافر وتقديم الحماية والدعم من الآخرين عندما تصبح سبل الحياة الكريمة للفرد أو المؤسسة أو المجتمع فى خطر أو عندما تتعرض تلك السبل للخراب.

إذا سلمنا بصحة أن هذه المعايير المطروحة لها منطقها، فهل من المنطقى أيضًا أن نفترض أنه عند فرض حقوق الإنسان على تعاملات السوق، والحفاظ على الملكية الشخصية تكون بذلك الولايات المتحدة قد ضمنت لكل أفراد المجتمع حياة كريمة وضمنت لهم الحماية فى الوقت نفسه؟

أعتقد أننا لا ينبغى أن نجيب على هذا التساؤل ولا أن نسلم بصحة هذا الفرض دون أن نرجع إلى ما حدث فى الولايات المتحدة يوم الاثنين الموافق ٢٩

من أغسطس عام ٢٠٠٥، ذلك الحدث هو إعصار كاترينا، الذى كان بمثابة هجوم جوى آخر بعد حوالى أربع سنوات من هجوم الحادى عشر من سبتمبر.

إعصار كاترينا

فى الحادى عشر من سبتمبر هاجم مختطفو الطائرتين برجى التجارة فى نيويورك، وهما البرجان اللذان وقفا دليلاً على عنفوان التجارة والاقتصاد الأمريكيين. أما إعصار كاترينا فلم يضرب الأماكن الغنية بل على العكس، ضرب الأحياء والضياع التى يسكنها الفقراء فى مدينة نيو أورليانز، تلك المدينة التى قُدِّر لها أن تقع جغرافيتها منخفضة عن سطح البحر. وعندما بدأت نوات الإعصار لم يتمكن آلاف من سكان المدينة من الخروج منها، فاحتمى بعضهم تحت قبة استاد سوبردوم، وهو استاد رياضى كبير فى وسط المدينة، وبعض السكان لم يتمكنوا من الخروج من منازلهم، وفى يوم الثلاثاء الموافق ٣٠ من أغسطس، انهار سد قناة تصريف مياه النهر المعروفة باسم (*17th Street Canal*)، وتحولت المياه المحتجزة خلف السد إلى فيضان لم يلبث حتى أغرق ٨٠% من مساحة المدينة تحت مياهه وبالطبع هرعت وسائل الإعلام العالمية إلى مكان الحدث. والمفارقة التى نريد لفت النظر إليها هى أن تلك الكارثة المروعة أشارت كل الدلائل منذ زمن إلى حتمية حدوثها[١].

فى اليوم التالى، أى الأربعاء ٣١ من أغسطس، كان ثمة ما يقرب من ٢٥,٠٠٠ شخص ممن احتموا تحت قبة استاد سوبردوم بلا مأكل أو مشرب أو مرافق، وسادت بينهم حالة من العنف والذعر، أما الآلاف الباقين من أهالى المدينة التى أصابها الفيضان فقد تشتتوا شراذم بلا رقابة شرطية أو أى نوع من أنواع الدعم. ولم تسلم المحال التجارية من موجات النهب التى استهدفت الحصول على السلع الأساسية، وبين حين وآخر كان دوى الطلقات النارية يُسمع من قريب

ومن بعيد، ولعل أبرز حوادث إطلاق النار وأكبرها أثرًا ما حدث يوم الخميس عندما جاءت طائرة مروحية لتنقل المحتمين فى استاد سوبردوم إلى مكان أكثر أمنًا، وتعرضت لإطلاق نار مما تسبب فى تعليق عمليات الإنقاذ وقتها.

فى يوم ٣٠ من أغسطس، كانت كارثة نيو أورليانز، عنوانًا رئيسيًا فى كل وسائل الإعلام على مستوى العالم، وقد أدرك الجميع حجم الكارثة قبل أن تدركه الهيئات الحكومية بثلاثة أيام كاملة، فقد انهار السد يوم الثلاثاء، لكن لم تصل النجدة اللازمة لمدينة نيو أورليانز إلا يوم الجمعة، فى ذلك اليوم فقط وجد الغذاء، والماء، والدواء، وجدت كذلك قوات الشرطة والدفاع المدنى فى مدينة نيو أورليانز.

ولعل أبلغ من وصف الحالة التى كانت عليها مدينة نيو أورليانز هو قائد الحرس الوطنى فى ولاية لويزيانا، المشرف على عمل القوات المشتركة، وذلك فى التصريح الذى أدلى به لمجلة (*Army Times*) يوم الجمعة، والذى جاء فيه: "إن المدينة تبدو وكأنها نموذج مصغر من الصومال"[٢]. وقد رأينا جميعًا فى مختلف وسائل الإعلام لقطات يظهر فيها الجنود من الشرطة والجيش فى عمليات الإنقاذ وهم يوجهون فوهات أسلحتهم نحو أهالى المدينة ويطلبون منهم رفع أيديهم أو الانبطاح أرضًا وكأن هؤلاء الأهالى مجرمون أو لصوص، وليسوا ضحايا كارثة طبيعية. فى مثل هذه الأحوال، كما نقلت المشاهد، يشعر الجميع، جنودًا كانوا أو ضحايا، بالخوف والريبة والاحتقار.

ومن آثار الإعصار أيضًا ما حدث من انعكاس على أسعار النفط فى العالم، وذلك لأن معظم معامل التكرير فى المدينة قد توقفت عن العمل؛ نظرًا لما حل بالمدينة من خراب. لقد كان الإعصار حدثًا عالميًا هو الآخر. وكان رد فعل الحكومة الأمريكية تجاه هذا الحدث صادمًا للعالم بأسره الذى لم يكن يتوقع مثل هذا الرد الذى جمع بين غرور العظمة والعجز وعدم الاكتراث بالآخرين. إن ما سببه ذلك التصرف من "الصدمة والرعب معًا" لدى المراقبين الدوليين، فاق بكثير ما تسببت فيه القنابل الذكية التى سقطت على بغداد[٣].

لم يكن أحد فى العالم كله يتوقع ذلك المشهد العام الذى اتصف بالرعونة للحياة الداخلية الأمريكية، التى انكشفت سوأتها أمام العالم فى سبتمبر عام ٢٠٠٥. لقد كان الوضع أشبه بأسرة يتصايح أفرادها عراكًا فتفتح نوافذ بيتها ليسمع ويرى العالم كيف يعيش أفراد تلك الأسرة فى ذلك البيت.

منطق السوق

لقد كشف إعصار كاترينا عن وجود صراع متأصل بين نوعين مختلفين لفهم المقصود بحقوق الإنسان داخل المجتمع الأمريكى. الفهم الأول يجوز أن نسميه "واجب الرعاية"، وهو الروح العامة التى جعلت أهالى نيو أورليانز المنكوبين يتوقعون بداهة أن الغوث والإنقاذ فى طريقه إليهم، أليس ذلك واجب الدولة؟ أما الفهم الثانى فهو منطق السوق، الذى آن الأوان أن نتناوله بشىء من التفصيل حتى نستبين معناه فتتراءى لنا الصورة كاملة.

نعنى بمنطق السوق التتابع المنطقى التالى:

- أن حيازة ملكية خاصة هو السبيل الأمثل أمام الناس لإتاحة أقصى ما يمكن من فرص فى البقاء والراحة، وتمكينهم من أن يحيوا حياة طيبة كاملة الحقوق.
- من ليس لديه فى حيازته ممتلكات خاصة، فلن يتمتع بالحقوق الكاملة وسيكون فى موقف مذل، ومن المنطقى أن نتوقع من مثل هؤلاء محاولتهم الخروج من هذا الموقف بأى وسيلة متاحة لديهم.
- السوق هى التى تولد الثروة والقدرة على حيازة الأملاك، ويجب أن تظل هذه السوق مفتوحَة أمام كل الموهوبين.

- تولِّد السوق الثروة على نحو فعَّال عندما يكون لدى الناس الحرية فى متابعة خططهم الرامية للربح والاستطراد فى تلك الخطط، فكل فرد يفكر كيف يحقق لنفسه الربح دون النظر لغيره، لكن كل هذا فى إطار القانون.
- والقانون، قبل كل شيء، يجب أن يحمى حق أصحاب الممتلكات فى أن يتمتعوا بممتلكاتهم على النحو الذى يحبون.
- وفى السوق، تتدفق الثروات للأشخاص الأكثر نشاطًا ودهاءً، وهذا هو الإنصاف، حيث إنهم، بكدهم ونشاطهم، يستحقون أن تذهب إليهم تلك الثروات.
- والفقراء فقراء لأنهم يفتقرون للطاقة، والدهاء، وبُعد النظر، وحُسن التدبير، وكلها أمور لازمة لمن يريد أن يشارك بحصته فى السوق.
- هنا تكون المهمة المناسبة للحكومة أن تحول بين الفقراء الساخطين وبين سعيهم لتدمير مؤسسات السوق أو سرقة الثروة من أصحابها الذين اكتسبوها، مع استحقاقهم، من السوق.
- إذن لابد من حماية الثروة الموجودة سواء فى المنازل أو فى المنشآت التجارية من خلال تحقيق الانضباط الأمنى الصارم وإتاحة ما يكفى من السجون.
- ولابد من بذل الجهود واستخدام كل الوسائل الشرعية لتقويض مصداقية وفعالية المشروعات ذات الطابع "الاشتراكى"، بما فى ذلك برامج الترف المكلفة التى تضر بمصلحة السوق؛ إذ إنها تخلق نوعًا من المواقف والتوجهات الخاطئة، وتُرسِّخ لدى الناس عادة الاعتماد على الدولة فى كل شيء.

وفيما يتعلق بالتكامل بين الحرية والسلطة والأمن والاعتراف بالوجود الذى طرحناه فى الفصل الثالث، فإن منطق السوق يقوم بأمرين هما:

١. أنه يؤكد ويشدد على توفير حرية السوق لأى شخص (أى توفير الحق فى الشراء إذا وُجد المال) أكثر من توفير الأمن للفقراء والضعفاء (حق الحصول على الدعم والحماية فى حالة عدم وجود المال لممارسة حرية السوق).

٢. أنه يحدد النظام السياسى والاجتماعى على أنه مجموعة من الآليات لتشجيع سلطة (خاصة سلطة تكوين الأعمال التجارية) بعض الأفراد والشركات الخاصة، بدلاً من أن يكون سبيلاً للاعتراف بالحقوق الاجتماعية لمن يعيشون على هامش المجتمع.

وهذا النمط من التفكير يعنى أن الفقراء يُشفق عليهم، ويُخشى جانبهم فى آن واحد. ففى الجنوب، الذى ضربه إعصار كاترينا، كانت الآثار التاريخية للعبودية سببًا فى تصاعد حدة الموقف ورسم المشهد المأساوى الذى تكلمنا عنه آنفًا، فإرث هذه المنطقة التاريخى هو التمييز العنصرى بين الأمريكان السود والبيض، إذ إن الأمريكى الأسود أقل "إنسانية" من الأمريكى الأبيض: نعم فالأسود خُلق ليكون محل استياء ومصدر خطر، ولم تكتمل إنسانيته ليتساوى مع غيره من البيض. ولدى السود أيضًا انطباعاتهم عن البيض بأنهم قساة القلب باردو المشاعر، ومن ثم تقل إنسانيتهم أيضًا لذلك.

وللمعرفة يجب القول بأن مدينة نيو أورليانز تنتمى إلى الجنوب القديم، ومعظم سكانها من الأمريكان السود[٤]. ولنتابع ما حدث بعد الإعصار، فقد تم إخلاء العديد من الناجين إلى مدينة هوستون فى ولاية تكساس، وهى جزء من الجنوب الجديد أى المترف، وللمصادفة، هذه المدينة يقع على أرضها منزل بوش الأب وزوجته باربرا. وبين الجنوب القديم والجنوب الجديد مواطن اختلاف ومواطن تشابه. فعندما انتهى الاسترقاق، خلف وراءه عنصرية متأصلة كانت اللبنة لنظام طبقى صارم فى ولايات زراعة القطن. ولعل العبودية أو الاسترقاق كانت أهم مظاهر ميثاق الشرف الذى لا تزال بنوده راسخة فى تكساس والجنوب الجديد[٥].

وبمجرد انتشار خبر إخلاء أهالى المدن المنكوبة إلى مدينة هوستون، زاد الإقبال على شراء الأسلحة، فقد تولَّد الخوف لدى متوسطى الثراء، أما علية القوم الأثرياء أتى تصرفهم مشابهًا لتصرف رجال البلاط الملكى فى فرساى فى أواخر القرن الثامن عشر، وكانوا إذا تكلموا عن القرويين من المناطق المجاورة لهم، جاء كلامهم مشوبًا بلهجة مفعمة بمزيج من اللامبالاة والخوف فى آن واحد، ويا لتكرار التاريخ، عندما جسد أحد سكان مدينة هوستون البارزين، ودون أن يقصد، دور مارى أنطوانيت(٦).

ولكى نفهم جيدًا موقف مدينة نيو أورليانز، يجب أن نعرف أن تلك المدينة- مدينة الفقراء السود التى أعادت الديمقراطيين إلى مجلس النواب الأمريكي- لم تكن على قمة أولويات الإدارة الفيدرالية التى عنيت فى المقام الأول بمصالح الأثرياء، وهم البيض الذين صوَّتوا للجمهوريين. وعلى أى حال، فإن منطق السوق، الذى تدعمه العنصرية، يقدم لنا تفسيرًا لسبب المشاكل التى وقع فيها أهالى نيو أورليانز والصعاب التى واجهوها للتخلص من هذه المشاكل: لأنهم - بمنتهى الوضوح -لم يكن لديهم ما يؤهلهم لنيل حالة أفضل.

وقد فرض منطق السوق أن تكون مهمة الشرطة فى مدينة نيو أورليانز وهمها الأكبر عندما ضرب الإعصار المدينة، هو حماية المشاريع التجارية ورؤوس الأموال من السرقة سواء كانت السرقة لسد الرمق، أو لمجرد السرقة. والمنطق نفســه هــو الــذى أعفى الأثرياء من توجيه اللوم إليهم على ما حدث من إذلال أو معاناة للفقراء، فالكارثة التى حدثت لم يكن للأثرياء يد فيها ولم تكن بسبب خطأ اقترفوه، فلماذا يُلامون؟

أما أهالى مدينة نيو أورليانز فكان لهم رأى آخر، فقد كان لديهم شعور قوى بأن واجب الرعاية لم تقم به حكومتهم كما هو منتظر منها، وليس أدل على ذلك مما ذكره آرون بورسارد، رئيس أساقفة أبرشية جيفرسون، واصفًا أن ما حدث فى أعقاب الإعصار كان "نقطة سوداء فى تاريخ الولايات المتحدة، إذ جسَّد ذلك أحد أسوأ مظاهر تخلى الحكومة الأمريكية عن واجباتها داخل أراضيها"[٧].

ولم يكن ذلك الموقف فرديًا، بل على العكس كان ذلك هو الشعور العام داخل المدينة كما أشرنا، ويدل أيضًا على هذا الطرح ما جاء فى الخطاب المفتوح إلى الرئيس بوش يوم الأحد ٤ سبتمبر، الذى كتبه محرر جريدة (*Times-Picayune*)، التى تصدر فى مدينة نيو أورليانز، من أن الحكومة قد غضَّت الطرف تمامًا عن المدينة وحقوق أهلها، هؤلاء الذين كان يجب على الحكومة أن تمد لهم يد الإنقاذ، وهم يستحقون ذلك، ولكنها تركت الكثير منهم يستغيثون إلى أن قضوا نحبهم دون أن ينقذهم أحد، وبات ذلك وصمة عار على جبين تلك الحكومة[8].

وفى اليوم نفسه نقلت الصحيفة عن رئيس مجلس مدينة نيو أورليانز استنكاره ولومه على المدن المجاورة، مثل مدينة باتون روج، رفضها إيواء النازحين من نيو أورليانز. وفى الوقت نفسه، وجَّه عمدة نيو أورليانز، راى ناجين، انتقاداته لأبرشية جيفرسون المجاورة؛ لمنعها الناس من الدخول إليها فى محاولة منهم للهروب من الفيضان بعد أن عبروا الجسر إلى الأرض المرتفعة عن سطح البحر- الضواحى التى يسكنها البيض- طلبًا للنجاة، وذكر العمدة فى انتقاداته، أن الفارين من الفيضان عندما وصلوا إلى حدود الأبرشية، استقبلهم الحراس بالبنادق وكلاب الحراسة مبررين موقفهم بأنهم يحمون الأبرشية، وكان تعليق العمدة ناجين على ذلك هو أن "هناك من الناس من يرى أن للجدران، والسيارات، والذهب، قيمة أكبر من قيمة حياة البشر."[٩]

قليل من الإحصائيات قد يساعدنا فى توضيح سبب استياء العمدة من هذا المثال الواضح للفصل الطبقى والعنصرى الذى صب الأغنياء المترفون وابل عذابه على الفقراء السود المبتلين وهم يواجهون أزمة تضعهم على حافة الموت. وها هى الإحصائيات، يتساوى تقريبًا عدد سكان أبرشية أورليانز (بمن فيهم معظم سكان وسط مدينة نيو أورليانز)، وعدد سكان أبرشية جيفرسون (وهى جزء من الضواحى المتمدنة فى مدينة أورليانز)، فكل من الأبرشيتين يضم حوالى نصف مليون نسمة. ونجد أن ٧٠% من سكان أبرشية جيفرسون من البيض وأن ٦٠% من السكان يمتلكون بيوتًا خاصة. أما أبرشية أورليانز نجد أن ٧٠% من سكانها من السود، وأن أقل من ٥٠% من السكان يمتلكون بيوتًا خاصة. وتبلغ نسبة الفقر فى أبرشية جيفرسون ١٣,٧%، أما فى أبرشية أورليانز، نجد أن نسبة الفقر تصل إلى ٢٧,٩%[١٠].

بين الشرف وحقوق الإنسان

إن الصراع بين واجب الرعاية ومنطق السوق ليس مقصورًا على الولايات المتحدة وحدها، بل قد نجده فى أماكن أخرى من العالم، إلا أن ذلك الصراع يتخذ لنفسه وضعًا خاصًا فى الولايات المتحدة لسببين هما:

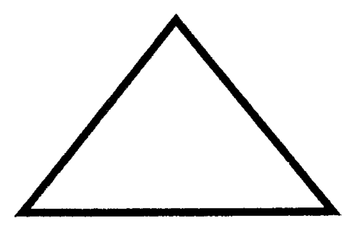
- المكانة الثقافية والسياسية الخاصة التى تحتلها السوق فى المجتمع الأمريكى.
- بقايا عنفوان وقوة الشكل العنصرى لميثاق الشرف المتوارث من عهد العبودية والاسترقاق فى أمريكا.

وحتى نفهم الطريقة التى يعمل بها منطق السوق، ليس فى الولايات المتحدة فحسب بل فى كل مكان، علينا أن نبدأ بتذكر ما سبق وأن شرحناه من الطريقتين العامتين لتناول الإذلال (انظر الجدول ٦ – ١).

التناول الأول هو قبول الإذلال بكل أشكاله المختلفة كواحد من لزوم الحياة، وهذا هو منطق ميثاق الشرف. وفى هذا الإطار، نجد العالم يحكمه من لديه القدرة على إذلال الآخرين، بينما يعانى من هم فى القاع من مرارة الاستضعاف فى الأرض بالإضافة إلى علقم الإذلال. أما أفراد الطبقة الوسطى فى الهرم الاجتماعى، نجدهم يعانون الإذلال المفروض عليهم ممن هم فوقهم، وهم أنفسهم، أى الطبقة الوسطى، يمارسون الإذلال على من دونهم ممن هم تحتهم فى الهرم الاجتماعى. وهذا النمط كان بمثابة ميثاق الجنوب القديم العنصرى، حيث كانت "الطبقة الوسطى" هى الفقراء من البيض.

ونجد أيضًا أن ميثاق الشرف ينسحب على المجتمعات الطائفية كما هو الحال فى العراق، حيث تعكف الطائفة الحاكمة، خاصة طائفة المسلمين السُنَّة فى عهد صدام حسين، على نفى أو استبعاد أبناء الطوائف الأخرى قدر الإمكان (خاصة طائفة الشيعة أو الطائفة الكردية). وفى الوقت نفسه، نجد بجانب هذا الإذلال "الرأسى" أو الهرمى المتجه من أعلى إلى أسفل، ثمة حدوث متكرر لإذلال "أفقى" أى الإذلال الذى تمارسه الجماعات الكبرى المتناحرة، عرقية كانت أو دينية.

أما التناول العام الآخر للإذلال فيتمثل فى "حظره" واتخاذ جميع الإجراءات الممكنة للقضاء عليه. وهذا هو نهج ميثاق حقوق الإنسان، الذى يتضمن على رأس صيغته الناضجة "واجب الرعاية" العام، الذى يقدمه المجتمع لأفراده. ونعنى بواجب الرعاية فى هذا السياق، فكرة أن يكون المجتمع مسئولاً عن فعل كل ما هو ممكن للحد من أو تقليل أو استئصال الحرمان الاجتماعى، ونعنى بالحرمان الاجتماعى الظروف التى تؤدى إلى حرمان الأفراد أو الجماعات داخل المجتمع من حياة كريمة. والحياة الكريمة هى أن يشعر كل فرد أنه يُعامل باحترام وتتاح له الفرص للحصول على التعليم اللازم والوظيفة والدخل المناسبين.

الجدول ٦ – ١ منطق السوق: بين الشرف وحقوق الإنسان	
منطق السوق (خليط من ميثاق الشرف وميثاق حقوق الإنسان)	
	
ميثاق الشرف (إمَّا أن تَذل أو أن تُذَل)	ميثاق حقوق الإنسان (واجب الرعاية: القضاء على كل ما يمكن تجنبه من الإذلال)

وإذا كانوا عاجزين، وليس بسبب تقاعس منهم، عن المشاركة فى المجتمع بهذه الكيفية، لابد من حمايتهم من معاناة العنت والشظف. وحرمان أى شخص من هذه الوسائل والفرص، وهو مستحق لها، سواء كان هذا الحرمان سياسة مقصودة، أو بسبب التجاهل سواء عن عمد أو عن جهل، فإن ذلك يعنى فرض الإذلال على ذلك المحروم.

الآن وفى كثير من المجتمعات فى مختلف أنحاء العالم، يسود إما التناول الأول أو التناول الثانى، بالرغم من أن التناول الثانى عـادة مـا يضمن حضورًا فعالاً. ولنأخذ على سبيل المثال، الاتحاد الأوروبى، حيث نجد أن ميثاق حقوق الإنسان، بصورته الأكثر نضجًا، كان له السيطرة لسنين عديدة. أما إذا نظرنا إلى الجزء الأكبر من قارة آسيا، نجد أن ميثاق الشرف كان له الحضور الأقوى والأغلب، وهذا الحضور لم يكن إلا لارتباط ميثاق الشرف ارتباطًا وثيقًا بما تبقى من آثار الأسر الحاكمة، وكذلك صدارة وأهمية العصبية الدينية أو العرقية.

وقد كانت جميع هذه البلدان، على مدى العقدين الماضيين، تحت حصار من الولايات المتحدة والمنظمات الدولية الملتزمة بتحقيق "إجماع واشنطن"، الذين طلبوا مـــن تلك الدول أن تطبق، باسم العولمة، تناولاً ثالثًا غير الاثنين المذكورين آنفًا، ألا وهو منطق السوق.

وكما رأينا، فإن منطق السوق لا يمكن تحديد هويته، فلا هو مندرج تحت ميثاق الشرف ولا هو مندرج تحت ميثاق حقوق الإنسان، بل واقع الأمر أن منطق السوق قد رُسمت ملامحه الأساسية بخليط من ألوان كلا الميثاقين إذ نراه:

- يشبه ميثاق الشرف، فى كونه يقبل الذل حقيقة واقعة.
- يشبه توجهات حقوق الإنسان، فى كونه يتبنى الفكرة التى تقول إن كل إنسان له الحق فى أن يحيا حياة كريمة ولابد أن يكون حرًا.
- يشبه ميثاق الشرف، فى كونه ينظر إلى الحياة كصراع يكون الفائز فيه هو الذى يعرف كيف يعتنى بنفسه[١١].
- يشبه ميثاق حقوق الإنسان، فى كونه يريد محو العنف من العلاقات الإنسانية قدر الإمكان.

ومن الناحية العملية، ففى بعض الأحيان يرتبط منطق السوق بميثاق الشرف ارتباطًا وثيقًا أكثر مما يشير إليه هذا المجمل. أو بمعنى آخر، فإن الملكية الخاصة ربما تستغل سلطتها، بمنتهى الوضوح، لحبس مثيرى الشغب، وإخضاعهم لحالة الإذلال البيِّن. وكذلك، قد يُسمح بدرجة من العنف أو التهديد تحت شعار حماية الملكية الخاصة[١٢]. وفى أشكاله المتناقضة، يظهر منطق السوق تارة فى ثوب ميثاق الشرف، وتارة أخرى فى ثوب ميثاق حقوق الإنسان[١٣].

وتبقى الناحية الفريدة للولايات المتحدة فى السنوات الأولى من القرن الحادى والعشرين، خلافًا للمجتمعات الأخرى، فإن منطق السوق قد "ابتلع" تقاليد حقوق الإنسان وتقاليد الشرف على حد سواء. وقد حدث هذا إبان الربع الأخير من القرن، وتحولت العنصرية الصريحة فى الجنوب القديم إلى عنصرية خفية.

وكذلك الحال بالنسبة لواجب الرعاية الذى تجسده تقاليد "العقد الجديد". ويستهدف الجمهوريون والديمقراطيون الضواحى التى يسكنها البيض، ويتفق الحزبان الجمهورى والديمقراطى على ضرورة الحفاظ على الضرائب منخفضة، وضرورة الحفاظ على المشروعات التجارية مزدهرة، وضرورة الحفاظ كذلك على الحكومة أقل نفوذًا وتدخلاً. ولم يعد لمنطق السوق أى منافسين. وبهذا تكون الولايات المتحدة قد وضعت نفسها فى مأزق يصعب عليها الخروج منه، فى الوقت الراهن على الأقل[١٤].

داخل سيارة الليكزس

يقف فى هذا المأزق الذى أشرنا إليه توًّا توماس فريدمان، وهذا الرجل بالنسبة لقراء مجلة (*New York Times*) نيويورك تايمز، يُعد نافذة أمريكا التى يطلون منها على العالم. إنه ينظر إلى هذا العالم، وكأنه ينظر من خلال نافذة سيارة ليكزس، وهى السيارة التى ترمز إلى كل ما هو عالمى وحديث. وتمرق السيارة بين مزارع الزيتون، وترمز مزارع الزيتون إلى كل ما هو محلى وتقليدى، وتلك المزارع يتوقع فريدمان أنه سيأتى يوم وتستولى الشركات العالمية عليها، وتقتلع جذورها، أو تحوّلها إلى حدائق زيتون للتنزه.

وفى كتابه "السيارة ليكزس وشجر الزيتون" (٢٠٠٠)، يقارن فريدمان بين ديناميكية المجتمعات مثل الولايات المتحدة التى، على حد قوله، تلتزم بتطبيق مبادئ العولمة بحذافيرها ومنطق السوق، وبين التقاعس والمقاومة الموجودين فى الشعوب

التى تفضل ألا تخرج عما ألفته وتريد الزيتون من شجرته الأصلية. ويرى فريدمان أن العولمة قوة لا يمكن مقاومتها فهى تفرض نظامًا قاسيًا لكنه نبيل الغرض حَسن الخاتمة يجنى ثماره المجتمع بأسره. وفى رأيه، فإن لسان حال الولايات المتحدة يقول بأن رأسمالها الحقيقى يتمثل فى: تنوع السكان، وأسواق رأسمالية ناجحة، ولوائح تجارية تضمن الشفافية، والديمقراطية، وأسواق عمل مرنة، والتسامح الثقافى، والموقف الإيجابى تجاه الإبداع والمخاطرة، والعزم على طلب العلا فى كل شىء.

ويرى فريدمان أن كل العالم خلا الولايات المتحدة لا يملك سوى أن يقتفى أثر التفوق الأمريكى والسير فى ركابه. ولفعل ذلك، ينصح فريدمان، جميع الدول أن تتوافق مع سرعة اتخاذ القرار والتغيير، وأن تتقبل السوق والتقنيات الحديثة كقوى للهدم البنّاء، وأن تحصّل جميع المعارف المتاحة، وأن يكون لها بصمتها الواضحة كدولة، وأن تتم جميع معاملاتها فى إطار من الانفتاح والشفافية، وعندما يتحقق ذلك، تندمج الدولة بكل سهولة فى عالم العولمة، الذى تتمزق فيه جميع الحواجز التى تحول دون ترابط دول ذلك العالم. إن العولمة تحوّل الأعداء إلى منافسين، وترغم المشروعات التجارية على اللامركزية، وترحب على نحو ديمقراطى بأى شخص لديه المعلومات الكافية والتمويل وأساسيات التقنية.

ورؤية فريدمان لمنطق السوق تربط الفوضى الاقتصادية بالتحول الديمقراطى السياسى، وتُوجد علاقة بين هذين الأمرين وبين العقلانية التى تسود آفاق العلوم والتقنية والحكم. وسنتعرض لهذا العمل فيما يلى. فنلاحظ أنه جزء من أسطول صغير من التحليل يبحر فى الاتجاه المتفائل نفسه[١٥].

من جانبه وصل فرانسيس فوكوياما إلى استنتاج يتوافق إلى حد كبير مع ما وصل إليه فريدمان ولكن من طريق أكثر تعقيدًا وعقلانية. ففى كتابه "نهاية التاريخ وخاتم البشر" (١٩٩٢)، يفرغ فوكوياما مساحة أكبر للعلوم الطبيعية والتقنية التى

تعتبر أساس التفوق العسكرى للدول المتقدمة، وتعتبر أيضًا السبب فى تعاظم الثروات وتراكمها، وتتيح إمكانية إشباع الكثير والكثير من رغبات البشر. ولمَّا كانت جميع الدول تطمح فى نفس المزايا والتفوق، كان لزامًا عليها أن تقوم بتطوير المؤسسات الفعالة التى تشكل الوعى العقلانى باعتباره الموجد والمفكر فى العلوم الطبيعية ومحقق التقنية ومُنفِّذها، وكان لزامًا عليها أيضًا، أن تتحلى بنفس صفات الدول المتقدمة من حيث كونها دولاً: متمدنة، وصناعية، ورأسمالية، وقائمة على العلوم الطبيعية.

فالعلوم الطبيعية، كما يقول فوكوياما، تؤدى إلى الرأسمالية "بيد أن ليس ثمة سبب يحتمه الاقتصاد يجعل الحرية السياسية ثمرة أكيدة للتصنيع المتقدم (فوكوياما ١٩٩٢، ١١). ولتوضيح هذا نجده يرجع إلى هيجل، الذى يتبع اعتقاد أفلاطون الذى يرى أن كل إنسان لديه "رغبة قوية فى أن يعترف به الآخرون ويقدرونه[١٦]، وإذا حُرم الإنسان من هذا الاعتراف يشعر بالغضب، وإذا فشل الإنسان فى أن يعيش وفقًا لمعاييره الخاصة يشعر بالخزى. ويرى هيجل أن مثل هذه الرغبات والعواطف هى المحرك الأساسى لعملية التاريخ"[١٧]. وهنا تتداخل رؤية فوكوياما مع الحالة التى قدمها هونيث ومارجريت وسينيت من نواحٍ شتى، (انظر الفصل الثالث). وبالرغم من ذلك، فإن تحليل فوكوياما يبدو أكثر تفاؤلاً من غيره.

يتبع فوكوياما تحليل هيجل للتاريخ بوصفه معركة من أجل نيل المنزلة الاجتماعية التى كانت سببًا فى بادئ الأمر فى تقسيم المجتمع إلى سادة وعبيد ومن ثم أدت إلى حالة من السخط، فالعبيد لا يريدون العبودية، والسادة يريدون أن يعترف بهم السادة الآخرون، إذ إنهم لم يكونوا فى حاجة إلى اعتراف العبيد الذين لم تكن إنسانيتهم قد اكتملت بعد. وهذه الإشكالية من التناقض لم يأت أحد بحل لها مثلما أتت به الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية.

وكـــان الحـــال بالنسبة للـــدولة أن تمنح الحقوق إلى جميع أفراد المجتمع، أو بمعنى آخر، الديمقراطية. وعلى ساحة الصراع العالمى فقد يسفر هذا عن انهيار الإمبراطوريات والاعتراف بحقوق الدول القومية. وقد وصلت هذه العملية إلى ذروتها مع انهيار الاتحاد السوفييتى. وهكذا، كما يرى فوكوياما، منذ أن تم إشباع رغبات القوة التى تحرك التاريخ، فقد وصلت ثقافتنا العالمية الحقيقية إلى الغاية النهائية للتاريخ[١٨]، وهى أن يحل التحرر محل الإذلال[١٩].

الزيتون المر

يختلف كثير من المحللين مع فريدمان وفوكوياما، إذ يصعب عليهم الاقتناع بأن منطق السوق يستطيع أن يجعل الأمور تسير فى نصابها الصحيح، نحو تحقيق الشفافية والرخاء والعقلانية والحرية، ويصعب عليهم أيضًا أن يصدقوا أن اللعبة قد انتهت أو حتى اتضحت قواعدها[٢٠].

بل على العكس تمامًا، فهم يقفون فى الصف المعارض، وحجتهم أن العالم أصبح أكثر خطورة وغير آمن، وأن العمالة تمر بما مرت به العمالة البرازيلية (بيك ١٩٩٩، ١٦١) من فقد للحقوق[٢١]، وها هى الصيغة التقليدية لعقود العمل بين صاحب العمل والموظف تتبدل، ولم يعد العمل الجاد والتفانى فيه سبيلاً للأمن والحياة المترفة، وبات عامة الناس يشعرون وكأنهم لا حامى لهم من المخاطر التى تنطوى عليها العلوم والتقنية والتجارة بل والحكم، فلم يعد هناك أحد بمعزل عن هذه المخاطر، والكل يشعر أنه سيصبح ضحية لكل ما يدور من حوله، وما يلوح فى الأفق بالنسبة لهم هو الإذلال وليس الحرية.

الجدول ٢ - ٦ بعض التكاليف الممكنة والمنافع للمنطق العالمي للسوق

	سياسية	التكاليف الممكنة	اقتصادية	
بالنسبة للحكام والقادة	الإذلال وفقد ماء الوجه		الفساد	بالنسبة للحكام والقادة
		المنافع المحتملة تقنيات جديدة وظائف جديدة سوق عمل مرنة سوق رأسمالية ناجحة شفافية التشريعات التجارية ديمقراطية إبداع تغير اجتماعى سريع حرية		
	الشعور بالاستياء والرغبة فى الانتقام		فقد حقوق العمل وتزايد المخاطر	
بالنسبة لعامة الناس	سياسية		اقتصادية	بالنسبة لعامة الناس

كيف يتسنى لك الموازنة بين المكاسب فى الإنتاجية الاقتصادية وتكاليف الإهانة السياسية؟ وبهذا الخصوص كتب جوزيف توفى يقول[٢٢]:

على مستوى البشر أو الدول، فإن أكثر الصراعات حدة هى تلك التى تقوم من أجل نيل الفخر والمنزلة والوضع الاجتماعى. لقد فقدت روسيا إمبراطوريتها، وسواء كانت ديمقراطية أو لا، فربما تسترجعها يومًا ما.... أما الصين فتذكر ماضيها التليد عندما كانت "مملكة آسيا الوسطى"، التى استذلها الغرب أولاً، ثم استذلتها الإمبريالية اليابانية... أما اليابان فقد تمدنت دون أن تلبس عباءة الغرب... وربما وصل الشعور بالفخر والاستياء معًا إلى ذروتهما على الشخصية اليابانية ليغطى على ذكرى الدمار الكامل الذى عانت منه اليابان بين عامى ١٩٤١ و١٩٤٥.... أما العالم الإسلامى... فهو الجزء الأكثر التهابًا فى النظام العالمى... [تحت] أنظمة تعجز عن تحقيق الديمقراطية أو الرخاء لشعوبها، بينما يرسخ فى الذهنية الإسلامية أنها سادت العالم ولها من المجد والشرف ما لها ولن تنسى أنها كانت كذلك، وأنها أيضًا ذاقت القهر والاستبداد والذل على يد الغرب، تلك الذهنية والأيديولوجية لا ترى فرقًا بين المسجد ومجلس الحل العقد [البرلمان]، وتضرم نيران الصراع داخل كل دولة وبين الدول وبعضها، وفوق كل ذلك، يستهويها سد فجوة السلطة بينها وبين والغرب بأقصر الطرق، بامتلاك الأسلحة النووية. (توفى ١٩٩٨، ٩- ٤٨)

ذكر روبرت هارفى فى كتابه *Global Disorder* (الفوضى العالمية) (٢٠٠٣)، مجموعة من التهديدات التى تزعزع الاستقرار العالمى من وجهة نظره: فهو يرى أن تلك التهديدات لا تتمثل فى أزمة الانتشار النووى فحسب[٢٣]، بل أيضًا حالة التمزق والانفلات التى يعانى منها بعض الدول مثل يوغوسلافيا، وأفغانستان، واليمن، والسودان، والصومال، وجمهورية الشيشان، والكونغو، وكلومبيا، كما يلقى الضوء على بعض المشاكل المتأصلة فى تلك المجتمعات مثل الفقر، والهجرة الجماعية، والجوع، والمرض، والديون، وعولمة الجريمة (بما فيها تجارة المخدرات)، وغياب الوجود الحقيقى لحقوق الإنسان فى العديد من دول العالم[٢٤].

ومن جانبه، فإن هارفى، العضو السابق بحزب المحافظين ومحرر مساعد فى مجلة (*The Economist*)، لا يشارك آلان شيبمان فى ثقته فى المؤسسات التجارية العملاقة. يتذكر هارفى مبدأ الحرية للجميع، الذى قدمته الرأسمالية لاحتواء الشيوعية، ويحذر من أن "الرأسمالية العالمية فى طريقها إلى الوصول إلى كتلة حرجة من التهور والانعزالية التى من الممكن أن تحتوى بديلاً مرعبًا آخر مضادًا للرأسمالية فى بداية الألفية الجديدة.".

وحرى بنا فى هذا السياق أن نذكر ما قام به روبرت كابلان من دراسة لهذا العالم المضطرب عن قرب، فلم يكتف بالتنظير لما يقول، بل زار بقاع الأرض لاستطلاع ما بها، وأورد نتائج استطلاعاته فى كتابه *The Ends of the Earth* (أطراف الأرض) (١٩٩٦). فقد استهل رحلته التى خاضها برًا، من جنوب أفريقيا، مرورًا بمصر وتركيا وإيران وآسيا الوسطى والهند، إلى جنوب شرق آسيا. وكان من أوائل المنافذ التى وصل إليها منفذ (*Adjame-Bramakote*) أدجيم براماكوت فى ساحل العاج، وتعنى كلمة براماكوت "لا اختيار"(كابلان ١٩٩٦، ١٥). ويذكر كابلان فى كتابه: أنه لدى وصوله لهذا المنفذ كاد أن يبصر مستقبل العالم متمثلاً فى مشاعر فقدان الأمل والقنوط التى رآها فى المدن التى يزداد عدد سكانها بسرعة شديدة ويتفشى فيها المرض، والفوضى، واليأس بصورة تفوق قدرة الحكومة على السيطرة. وفى غالبية الأماكن التى زارها كابلان، كان الموقف خارجًا عن نطاق السيطرة تمامًا، ورغم ذلك، كان هناك من يتربح من تلك الفوضى.

ولم ير كابلان صورة أخرى تبعث على الأمل إلا نادرًا، ومن تلك المرات التى رأى فيها ذلك كان فى وادى ريشى فى الهند، حيث رأى كابلان سكان ذلك الوادى ونجاحهم فى تجديد بيئتهم، وتأمينهم سبل العيش فيها دون مساعدات خارجية[٢٥]. وقد نقل كابلان عن سيرى نايدو، مدير شئون وادى ريشى، قوله: "يجب على أى مجتمع أن يكتشف الأشياء بنفسه، حتى ولو كانت الأشياء معلومة

لدى غيره من المجتمعات الأخرى، فبهذه الطريقة سيصل بنفسه إلى المعرفة والخبرة بصبغتها المحلية وأصالتها الخاصة به، فتتكون لديه الذهنية الخاصة بها، ومن ثم يستطيع توظيفها بما يتلاءم مع ما لديه من موروث اجتماعى أصيل". (كابلان ١٩٩٦، ٣٦٧).

وعلى النقيض من تلك الحالة، يأتى ما سمعه كابلان فى سيراليون، من أحد أعضاء الحكومة يصف حال البلاد وما كان عليه المجتمع، وينقل كابلان قول ذلك الوزير: "لقد عم فى البلاد بلاء تمثل فى رغبة الفقراء فى الانتقام والثأر، وانهيار البناء الاجتماعى، وإحباط جم لدى أفراد المجتمع الذين رأوا أنفسهم عاجزين تمامًا عن تربية أبنائهم فى مجتمع محترم". ولعلك تذكر الفتية الذين تولوا الحكم فى سيراليون (فى عام ١٩٩٢)، هؤلاء الفتية من إفراز ذلك المجتمع الخرب، من بيوت كتلك البيوت. وأشار بيده إلى بيت من الصفيح مكتظ بالأطفال على بعد أقدام من المكان الذى كنا نتكلم فيه، ويتابع المسئول حديثه فيقول: "استولى هؤلاء الفتية على زمام الأمور يوم الأربعاء، وفى يوم الجمعة نهبوا ما كان فى البنك المركزى، وفى الشهور الثلاثة الأولى لهم فى الحكم، صادروا كل سيارات المسئولين، سواء ميرسيدس، أوفولفو، أو بى إم دبليو، وحطموها على رؤوس الطرق". وقد ذكر أيضًا ذلك الوزير، أن أحد قادة الانقلاب من هؤلاء الفتية الذين استولوا على الحكم أطلق النار على أناس كانوا يدفعون له مصاريف الدراسة؛ حتى يمحو كل آثار الإذلال ويزيل أثر السلطة التى كانت لرعاته من الطبقة الوسطى عليه" (كابلان ١٩٩٦، ٣-٣٢)[٢٦].

مثل هذه المشاعر ليست مقتصرة على إفريقيا فحسب. فرغبة الفقراء فى الانتقام والثأر كما رأينا قـد تحدث فى أى مكان آخر، قد تحدث فى نيو أورليانز، أو فى حى واتس ذى الأغلبية السوداء بلوس أنجلوس، وإن كنت أرى أن مثل هذه المشاعر بدأت تتأجج، لكن إذا حدث وتأججت تلك المشاعر، فستباغت الجميع، وذلك لأن التجارة الكبرى قد جثمت، لعقود عديدة، فوق صدور الفقراء، فلم تتجاوز أصواتهم حناجرهم.

تسويق السوق

الشيء الوحيد الذى يعرفه أغلب الناس عن العولمة هو أن الأعمال التجارية الكبرى أصبحت الآن تكون جزءًا كبيرًا من العولمة نفسها. وأحد الأسباب التى حملتهم على تلك المعرفة أن التجارة الكبرى لا تبرح تصم آذانهم بمثل هذا الاعتقاد ليل نهار، وما هذا إلا أحدث محطة للرحلة التى بدأها التجار من قبل، وستبقى سائرة، عبر التاريخ.

إبان القرن العشرين كان على رجال الأعمال إبداء مرونة ملحوظة فى سعيهم للربح، وكان على العاملين بالسوق أن يكونوا على استعداد للتكيف مع أى ظروف سياسية أو اجتماعية، وأن يحاولوا إقناع صانعى القرار بإفساح المجال لهم. وقد تغير المناخ الأخلاقى والسياسى بشكل جذرى، فى أكثر من اتجاه، فى بضع عقود، حتى إن أغفلنا تحديات التجارة فى أو مع أنظمة شيوعية أو فاشية. وبحلول عام ١٩٠٠، أصبح منظمو الأعمال التجارية الغربيون أكثر تكيُّفًا مع الإمبريالية الأوروبية؛ فقد كانوا ينقبون عن النفط هنا، وينقبون عن الذهب هناك، ويرسلون عملاءهم فى الشمال، والشرق والجنوب والغرب للتأكد من أن الويسكى والتبغ وغير ذلك من السلع غير الأساسية غزت كل البيوت وأصبحت المطابخ من كينيا حتى بورما لا غنى لها عن مثل هذه السلع.

وبحلول عام ١٩٥٠، تغير العالم كلية، فقد أصاب التخبط السياسى كيان الإمبريالية الأوروبية، فى الوقت الذى بدأت فيه الحكومات الديمقراطية الاشتراكية تقدم بديلاً جديدًا، فقد سادت مظاهر الترف والنعيم التى حققتها نظرية كينز الاقتصادية التى كانت فى أوج نجاحها، مع انتشار صيحة التخطيط القومى وقتها. وسرعان ما تكيفت التجارة مع آخر صيحات المال والاقتصاد، بل جعلت نفسها جزءًا من عملية التخطيط، وطوَّعت نفسها لتلائم الدولة وأهدافها الاشتراكية؛ مما جعلها تحظى بمكانة رفيعة ومهمة.

وبالانتقال إلى النصف الثانى من القرن تغيرت اللعبة برمتها مرة أخرى، فبحلول عام ٢٠٠٠، اختفت النظرية الكنزية وما أحاط بها من مظاهر الترف والنعيم، وبطلت صيحتها وشهرتها فى الولايات المتحدة ومعظم دول أوروبا. وأحد الأسباب وراء ذلك هو أن معظم ذلك الجيل ممن ولدوا فى فترة الأربعينيات من القرن العشرين، كانوا أكثر المستفيدين من الترف والنعيم، فقد شغلوا وظائف متميزة، وشعروا بالأمان وأصبحوا من ذوى الأملاك، وشرعوا فى التفكير فى أنفسهم من هذا المنطلق، منطلق أصحاب الأملاك الذين يستطيعون رعاية مصالحهم وأملاكهم دون تدخل من الحكومة، فبدأت أصواتهم تتعالى بالاعتراض على دفع الضرائب، فلماذا يدفعون من أموالهم لدعم مَنْ لم يستطع تحقيق نجاح كنجاحهم؟ لقد أرادوا، بعد أن وصلوا إلى القمة، أن يأخذوا السلم تاركين مَنْ لم يلحق بهم فى القاع كما هو.

ولم تنجح الحكومات التى تتبنى سياسة "البذخ" وسياسة "جمع الضرائب" للإنفاق فى أى انتخابات، وكانت النتيجة ظهور صيحة اقتصادية أخرى لتحويل العديد من المسئوليات الحكومية إلى القطاع الخاص، من التحكم فى المسارات الجوية إلى السجون، وقامت الحكومة ببيع ما استطاعت بيعه من الأصول والمهام. وعلى مدى سنوات قليلة تمكن هذا الوضع من تحقيق المعضلة الكبرى؛ زيادة مستوى الدخل، وخفض قيمة الضرائب فى آن واحد.

وقد ظهر هذا المناخ الجديد فى السبعينيات من القرن العشرين، بالتحديد فى بريطانيا والولايات المتحدة، حيث ضعفت سلطة الحكومة المركزية بشكل ملحوظ حينذاك، وكان السبب الرئيسى هو الثورات الناجحة التى قامت بها الحركات القومية والحركات القبلية ضد الإمبريالية الغربية فى العديد من دول العالم. وكان هذا الرفض لطريقة الخضوع قد أدى إلى تعرض الغرب لسلسلة من الإذلال فى آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط إبان الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، ووصل ذروته فى أزمة النفط، وانسحاب الولايات المتحدة من سايجون (فيتنام)،

وتراجع قيمة الدولار إلى أدنى مستوى وحصار السفارة الأمريكية فى طهران. لقد كان كل ذلك وما شابهه من أحداث ثمنًا دفعته الإمبريالية الغربية على مدى عقدين من الزمان.

وبدت النتيجة فى شكلها العام خطيرة بالنسبة للتجارة والسوق؛ إذ شهدت أواخر القرن العشرين ضياع الغطاء السياسى والأيديولوجى الذى كان يحمى التجارة والسوق متمثلاً فى الإمبراطوريات الاستعمارية وحالة الترف والنعيم التى أحدثتها نظرية كينز الاقتصادية، فقد أتاحت الإمبريالية والديمقراطية الاشتراكية أطرًا أكبر استطاعت أن تستوعب التجارة والسوق. وفى تلك الحقبة، استطاعت التجارة أن تبرر أفعالها باسم الوطنية، فقد استطاعت أن تدمج مصالحها الخاصة فى المشروعات العملاقة وتكيِّف نفسها حسب الأهداف العامة الكبرى لتلك المشروعات، ولكن لم تدم تلك النعمة، فبحلول الثمانينيات من القرن العشرين، قضت تلك المشروعات نحبها، وبات من الصعب التكهن بأى نوع من الربح قد يتأتى من الدخول فى خدمة أى مصلحة عامة كبرى. وبدلاً من ذلك، تحولت الشركات العالمية إلى مقاتلى فايكنج على الطراز الحديث، يجوبون ظهر البسيطة كاملة سعيًا وراء اقتناص فرص الربح. وأصبح من السهل أن نصف التجارة بأنها بلغت الغاية من القوة، والطمع، والتهور.

بمعنى آخر، بعد قرن من التوارى فى ظل المبادئ القومية والإمبريالية، كان لابد للتجارة والسوق من صياغة مبادئهما الخاصة وأن يكون لهما أيديولوجية يركنان إلى ظلها. وطبعًا وكما يقول المثل، "إذا أفلس التاجر بحث فى دفاتره القديمة"، فبدلاً من وضع مبادئ جديدة، نبشت فى الماضى. وبُعثت من جديد أفكار آدم سميث فى كتابه "ثروة الأمم" عام ١٧٧٩، (سميث ١٩٧٩). لقد استطاع أرباب[٢٧] السوق، بفضل تلك الأفكار، أن يحفظوا للأنانية احترامًا بجعلها هدفًا عامًا. ولعل ما حدث فى فترة حكم كل من مارجريت تاتشر ورونالد ريجان يعد خير دليل، إذ استطاع كل منهما أن يجد القادة والمعاونين الذين يسعدهم أن ينقلوا

الرسالة إلى جمهور سياسى عريض. ومن ثم تمكن المتحدثون باسم التجارة والسوق أن يحوِّلوا الإذلال الذى سيمارسونه، وعار الأنانية، والتهور، إلى نصر منشود يحتفل الناس به ويحتفون به أيضًا.

لقد استطاع أرباب السوق أن يسوِّقوا للسوق، وعرضوها للناس على أنها الباعث على تحقيق الحرية للبشر، وكانت فحوى رسالتهم تقول "إن مؤيدى السوق استطاعوا أن يكشفوا زيف الدولة الحديثة التى قيدت المواطنين وكبلتهم بقوانين تعيقهم عن الحركة والتحرر، فقد علموا وأبصروا، أى مؤيدى السوق، أنها خلف البناء الاشتراكى "المتحرر" الذى يدير الدولة المترفة، تقبع الأطماع الشمولية القديمة ذاتها". وعلى حد زعمهم، فإن الدولة فى حقيقتها قاسية، ظالمة، معادية للمشاريع الخاصة، وتعادى كذلك توسيع نطاق الفرص، ولذا من الأفضل أن نُبقى على سلطات الدولة ضعيفة ومحدودة، من الأفضل أن نترك عمل المجتمع كلما أمكن فى أيدى المواطنين الصالحين فى جماعات أو شبكات كالتى تتكون على نحو طبيعى فى السوق.

ومن الناحية العملية، فقد كان لهذا الاتجاه تبعات جسام على الصعيدين المحلى والعالمى. وفى داخل المجتمعات القومية، كان هناك ترويج لفكرة أن ما يمارسه المستثمرون والمستهلكون من أنشطة هو روح المواطنة الديمقراطية. وتعدت قرارات السوق الخاصة إلى فضاء كان من قبل مُخصصًا لمناقشة قضايا الوطن، وانتهت الفكرة القائلة بأن الشعب لابد أن يكون له اليد العليا فى كيفية تطور البيئة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وأنه لابد من التعبير عن هذا الصوت وتعزيزه من خلال الحكومة الديمقراطية، وحل مكانها فكرة أخرى هى أن من يقرر هذه الأمور هو من يعتلى صهوة الموقف[٢٨].

كيف يمكن للسوق أن تمارس الإذلال

إذا كان لديك ما يكفى من المال أو الأرصدة للحصول على ما تريد من أجل حياة كريمة، حينئذ لا تكون السوق مسألة مصيرية بالنسبة لك، بل على العكس تمامًا، تكون حينئذٍ لعبة جادة، تارة تكون مليئة بالضغوط وتارة أخرى مسلية. وفى الأغلب الأعم تكون تلك الحالة هى حالة ٢٠% فقط من سكان العالم، أما بالنسبة للثمانين المتبقية، فإن السوق مصدر إذلال متكرر. ولا نقصد بذلك المفهوم السوق المحلية، فهذه السوق المحلية تتأثر بمقدار ضئيل من الإذلال؛ وذلك لأن واقع التجارة داخل تلك الأسواق يتم بمعايير ثابتة، أى أناس يبيعون سلعًا أو خدمات يحتاجها أناس آخرون، وفى هذه الحالة يكون للجمهور ضغط أخلاقى يمارسه للحفاظ على قوانين السوق وعدالته وفق ما هو متعارف عليه فى المجتمع، بمعنى أن قانون العرض والطلب يتداخل فى نسيج واحد مع البنية المعقدة للالتزام الاجتماعى، سواء للأسرة، أو الدين، أو العرف، أو الالتزام القبلى أو العرقى، وكذلك مع الرؤية السائدة لكيفية تسيير الحياة فى المجتمع.

ومع ذلك، فهذا النوع من السوق يصبح مهمشًا عندما يأتيه غزو خارجى مدعوم بسلسلة جديدة من السلع والخدمات، وهذا ليس بغريب، فقد حدث كثيرًا على مدى القرون الماضية، عندما كانت السوق الإقليمية، أو القومية أو العالمية تخترق المجتمعات المنغلقة على نفسها ومكتفية بنتاجها الحضارى. ربما كانت المخاوف من وراء ذلك الاختراق هى نفسها المخاوف المستفادة من الحكايات الأسطورية الشعبية عن عازف المزمار ذى الحلة المرقعة فى مدينة هيملين، وعن روبين هود.

ولكى تخترق السوق لابد من سلع جديدة وفريدة، ولكن عندما يأتى "الدخلاء" لا يأتون بسلع وخدمات جديدة فحسب، بل يجلبون معهم قيمًا جديدة أيضًا، ومجموعة جديدة من الاتجاهات الثقافية الكامنة فى سلعهم. ولأنهم لديهم من الثروة ما يكفيهم ويفيض، تراهم يقدمون سلعهم وخدماتهم بأسعار أقل من مثيلاتها فى السوق المحلية ويزايدون على منافسيهم. وبمجرد أن ترسَّخ أقدامهم فى السوق التى

دخلوا عليها، يستغلون علاقاتهم مع شبكات تجارية أكبر لتقديم فرص جديدة للمحليين الموهوبين والمتعاونين، خاصة الشباب، الذين يدخل بعضهم فى هذه الشبكات الأكثر اتساعًا. وإذا ثبت أن هؤلاء المحليين صعبٌ مراسهم، يسحب "الدخلاء" أنفسهم واستثماراتهم من تلك السوق، وينتقلون إلى سوق محلية أخرى.

لقد أصبحت معاملات السوق منفصلة عن ارتباطها الوثيق السابق بالثقافة المحلية المتمثلة فى افعل ولا تفعل، وتمزق النظام الطبقى المحلى. فبعض الأسر والجماعات التى أساءت فى النظام السابق أحسنت فى الظروف الجديدة. وترك قادة المجتمع القدامى زمام الأمور. وفى الوقت نفسه اكتشف كثير من الناس ما يلى:

- أن المهارات والمعتقدات والأصول التى يتمسكون بها لا تساوى إلا القليل داخل السوق الكبيرة.
- ارتفعت تكلفة اكتساب أصول تُطرح فى السوق، مثل تعليم أحدث بحيث يصعب دفعها.
- المكان الذى ترعرعوا فيه وكانوا يحسبونه وطنًا، أصبح الآن سجنًا.
- أصبحوا يعتمدون على التقنيات التى جاء بها "الدخلاء" والتى لا يستطيعون التحكم فيها ولا يستطيعون فهمها.
- فقد المجتمع خيرة شبابه القادرين على التكيُّف الذين تركوا أرض الآباء والأجداد ليكتشفوا عالمًا أكثر رحابة واستيعابًا.

وقد تكررت هذه الاكتشافات المؤلمة كثيرًا عبر أجيال وعصور شتى: مثلاً قديمًا عندما تداخلت الأسواق المحلية فى صلب القرى الأصغر، وحديثًا، عندما تداخلت الشركات العالمية فى صلب المدن، فسادت فى العالم أجمع ثقافة ماكدونلد، وديزنى، وهوندا، وتوشيبا، ونوكيا.

طرفا القصة

من السهولة بمكان أن نرى كيف أن الجماهير عانوا من تلك الاكتشافات التى ذكرناها آنفًا. لقد جاء الدخلاء بما يحيطهم من زهو ووهج ونفوذ وحدَّثوا الناس عن الحياة الكريمة التى يمكن تحقيقها للمواطنين – المستهلكين المتحررين. لقد كان إغراؤهم أشبه بإغراء عازف المزمار ذى الحلة المرقعة فى هيملين، وفى الوقت نفسه فقد استغلوا نفوذهم مباشرة من خلال الكيانات الكبرى، مثل منظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولى؛ للتأكد من عدم رفع قيمة الضرائب المحلية على تجارتهم وأعمالهم حتى تنفقها الحكومات المحلية على تحسين الحياة الكريمة المحلية (الرعاية الصحية، والتعليم، والإسكان، والمعاشات، وما إلى ذلك)، أى أنهم أغروا الناس بمستقبل أفضل وجنة منشودة، ثم أوقفوهم على بابها.

ومع ذلك، فإن الجانب الآخر من القصة مهم جدًا. لنفرض أنك شخص طموح وذكى فى بلد ليس غربيًا هالك الفقر والجهل الموجود حولك، ولنفرض أيضًا أنك تريد أن تسهم بشكل فعال فى رفع مستويات جميع الطبقات فى بلدك، فماذا عساك أن تفعل؟ ربما تصمم على الخوض فى عوالم السياسة والدين المليئة بالصخب والصراعات المحمومة لكسب الأنصار، والتى دائمًا ما يمارس أهلها "لعبة الإذلال". ولكى تجيد العمل فى مثل تلك العوالم فلابد لك من امتلاك ثروة طائلة أو أن تكون لك عصبية تتمثل فى علاقات متينة مع أبناء الطبقة الراقية، وإن لم تحقق ذلك، فلا مناص من أن تصبح عبدًا لشخص يمتلك هذه الأشياء. بالطبع قد تعزف عن ذلك، ولنفرض أنك لا تريد أن تخوض التجربة على هذا النحو.

إذا لم يكن يروقك الافتراض الذى قدمناه، يبقى أمامك خياران آخران، بإمكانك الانضمام للجيش أو الدخول فى تجارة كبيرة، ففى كلتا الحالتين، ستتمتع بارتباط وثيق مع قنوات المنظمات الغربية، التى تتدفق إلى بلدك من خلالها التقنيات الجديدة والاستثمار الجيد لرأس المال وأحدث الأساليب التنظيمية، وتستطيع أن تكون جزءًا من هذه المنظومة، لاسيما إذا التحقت بمؤسسة تعليمية تجارية رفيعة المستوى أو أكاديمية عسكرية[٢٩].

والأداء هو الاختبار الأساسى، فإذا تمكنت من إثبات نجاحك وإدارة عمليات ناجحة، فساعتها قد تلفت الأنظار إليك وتترقى فى المناصب حتى تصل إلى أعلى المراتب، وأكيد أن هذا يروق لك، وفى مصلحتك أيضًا، وربما استطعت أن تقدم خدمات جليلة لمجتمعك، أو على الأقل لأبنائك وأحفادك؛ لأنك تريدهم أن يحيوا فى بلد مترف، ومستقر، دون أن تفرض عليهم الظروف الحاجة إلى الهجرة أو السفر للخارج، وإذا أصبح لديك النفوذ كأن أصبحت تنفيذيًا كبيرًا فى شركة كبرى أو نلت رتبة عسكرية عالية، فقد تسهم بنصيبك فيما ذكرناه فى الجدول ٦ – ٢، الذى يوضح تكاليف ومنافع عالمية منطق السوق. ومنافع عالمية منطق السوق تبدو وكأنها واحة غنَّاء خالية من المخاطر تبرز، محاطة من كل جوانبها بسياج من التكاليف. فكيف يتسنى لك أن تُدخل بلدك إلى تلك الواحة الغناء دون أن تجازف به فى مواجهة السياج المحيط بتلك الواحة ومواجهة الوحوش الرابضة على السياج؟

وإذا نظرنا من وجهة نظر تلك الفرصة أى تمكنك من الانضمام إلى عمل تجارى كبير أو إلى العسكرية، سنجد أن مهمة كل من التجارة والعسكرية هى صياغة القواعد التى من شأنها تحقيق الاستقرار فى الإطار السياسى للمجتمع، وأن تحافظا على هذا الاستقرار إلى أطول مدة ممكنة لكى:

- تحول دون انفلات تكاليف العولمة التجارية (عالمية منطق السوق) وخروجها عن نطاق السيطرة.
- تعمل على توفير الموارد الجديدة الضرورية (رأس المال، والمهارات، والمعرفة، والأساليب التنظيمية، والاتجاهات الحديثة)؛ حتى يتسنى لك إدخال بلدك وجعله يتكامل تمامًا، ليس فقط مع قمة المجتمع فحسب، بل أيضًا مع جيرانه من المتمدنين وغير المتمدنين.

واعلم أن الأمر لن يقف عند هذا الحد، بمعنى أنك بسعيك هذا، تصبح عرضة للاتهام بأنك تخدم المصالح الغربية، والذى سيتهمك غالبًا ما يكون من

"المناهضين" للغرب، أو العديد من القادة السياسيين أو رجال الدين فى بلدك، وطبعًا لابد لك من الدفاع، وستقول إنك تبنى المجتمع، وستكون ساعتها كأهل بلد واقع تحت الاحتلال الرومانى، وعندما شعروا بتراجع قوة الإمبراطورية، شرعوا فى تجهيز مجتمعهم وبنائه حتى إذا سقطت الإمبراطورية، استطاعوا أن يبرزوا هم كدولة مستقلة، لها كيانها، وشخصيتها المستقلة، وستكون تلك حجتك.

* * *

لقد أوضحنا فى هذا الفصل:

أن منطق السوق يمنع أو يحد من واجب الرعاية ويُعتبر خليطًا من ميثاق الشرف وميثاق حقوق الإنسان على السواء، وتطرقنا إلى الحديث عن المناقشات بشأن منافع وتكاليف منطق السوق، وقمنا بدراسة تاريخية للعلاقة المتحولة بين التجارة والعولمة، وقمنا بتحليل كيف تكون السوق مصدر إذلال فى ظروف بعينها، ورأينا كيف بإمكان السوق، إذا أُديرت بمهارة، أن تجلب المنافع للمجتمعات النامية.

٧

التحول إلى العالمية

ترسم المناقشات التى تناولناها حول النزعة الإمبريالية ومنطق السوق صورًا محددة "للجناة" (الشريف الفاسد، والتجار الجشعين) و"للضحايا" (المستضعفين من الرعية والعمال)، ولكن ليس من السهل أن نرسم نفس الصور الواضحة للمولِّد العالمى الثالث للإذلال، إذ إن التساؤل المطروح الآن: لماذا ترى بعض الشعوب التى تتحول إلى الحالة العالمية نفسها "ضحايا" بينما لا ترى شعوب أخرى الشىء نفسه؟ وكيف يتسنى لهم تحديد مَنْ الذى "يُلام" على التسبب فى شعورهم بالإبعاد والتحقير؟

متآمرون عالميون

لم يكن المتآمرون الذين حلقوا بالطائرات المخطوفة وضربوا بها برجى التجارة العالمية يوم ٩/١١، من الفقراء، ولم تعرف قلوبهم آلام طفولة أو سنوات مراهقة قضوها فى ظروف تشبه السجن كما هو الحال فى قطاع غزة، وإنما كانوا من الطبقة المتوسطة. ومن الصعب أن نكيِّف القضية على أنهم شعروا بالإذلال وعانوا من الحرمان من الحرية، ولم تُتح لهم فرصة أو وسائل العيش الرغد والحياة الكريمة كما يُفهم من السياق العام.

ولكى نتمكن من فهم تلك القضية فهمًا صحيحًا يجب أن ننحى جانبًا أسطورة روبين هود وأسطورة عازف المزمار صاحب الحلة المرقعة، وأن ننظر إلى قصة

جاى فوكس، وهو أحد ثلاثة عشر رجلاً تورطوا فى مؤامرة البارود، وتلك المؤامرة كانت محاولة لنسف مجلس البرلمان الإنجليزى بتاريخ ٥ نوفمبر ١٦٠٥.

أما قادة عملية الخطف فى أحداث ٩/١١، فقد كانوا متحضرين متعصبين دينيًا،على درجة عالية من التعليم، والثراء، ولديهم القدرة المادية على السفر والتواصل مع غيرهم. ونستطيع القول بأنهم كانوا مواطنين عالميين، أو إذا شئنا الدقة، كانوا مقيمين عالميين[١]. ولنلق نظرة على خلفياتهم:

- محمد عطا، عاش فى ألمانيا، وعمل مهندسًا للتخطيط العمرانى، ووالده مصرى يعمل بالمحاماة.
- زياد الجراح، ولد فى لبنان، وينحدر من أسرة ثرية، وشأنه شأن محمد عطا، سافر إلى ألمانيا للحصول على درجة علمية عالية.
- مروان الشحى، يمت بصلة قرابة لمحمد عطا عن طريق الأم، ويصفه معارفه بأنه شخص "مرح" و"شاب عادى"، كان يلبس الملابس الغربية، ولطالما كان يستأجر سيارات للقيام برحلات إلى برلين وفرنسا وهولندا[٢].

وإذا أردنا الوقوف على الدافع الذى حرك هؤلاء الشبان لارتكاب مثل هذا الفعل البائس والمميت، يجب أن نعود بالزمان إلى أربعة قرون مضت، وبالتحديد نعود إلى أوروبا وليس الشرق الأوسط، عندما كانت أوروبا فى أوائل العهد الحديث، عهد الإصلاح ومناهضى الإصلاح، ذلك العهد كان فى أواخر القرن السادس عشر، ومطلع القرن السابع عشر، عندما تناحر الناس وكثر فيهم القتل باسم الدين[٣].

ولنقارن هنا بين المتآمرين الذين نفذوا اعتداءات ٩/١١، فى الولايات المتحدة، وبين المتآمرين الذين خططوا لمؤامرة البارود عام ١٦٠٥، وهم جاى فوكس ورفاقه. لقد كان جاى فوكس ورفاقه من الكاثوليك الرومان المتعصبين، وخططوا لتنفيذ تفجير كبير فى سرداب تحت مجلس البرلمان

الإنجليزى؛ لنسف الطبقة الحاكمة الإنجليزية فى الجلسة الافتتاحية للبرلمان(٤). تلك المجموعة، فوكس ورفاقه، كانوا أيضًا من المتحضرين المتعصبين دينيًا، وكانوا على قدر عالٍ من التعليم، والثراء، ولديهم القدرة المادية للسفر والاتصال بغيرهم، فقد كانوا من خيرة شباب المدينة، وهم:

- روبرت كتسبى، شاب ثرى، ينحدر من أسرة عريقة، معروفة فى الدوائر القضائية، وزار العديد من دول أوروبا(٥).
- إفيرارد ديجبى، كان واحدًا من أفراد البلاط الملكى وكان من أصحاب الشأن والاحترام.
- روبرت وينتور، اكتسب ثروته من تجارة الملح، وتزوج بنتًا من بنات الطبقة الأرستقراطية.
- كريستوفر رايت، واحد من أصدقاء الدراسة لجاى فوكس، من ذوى الأملاك فى لامبيث، وهو حى من أحياء لندن، وقضى معظم حياته فى ذلك الحى.
- توماس بيرسى كان يمت بصلة قرابة لإيرل (لقب تشريف) نورثامبيرلاند.

ولكن يا ترى ما السبب، سواء فى ٢٠٠١ أو ١٦٠٥، الذى يتورط من أجله رجال، واضح أن لهم أهدافًا يعيشون لتحقيقها، فى تنفيذ أعمال تؤدى بهم إلى الموت، أو على الأقل تنطوى على خطر الموت؟

هذا السؤال يستحق الطرح، والمقارنة لابد منها، حيث إن أوروبا فى القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر كانت تشبه إلى حد كبير العالم الذى نعيش فيه اليوم، فما أشبه اليوم بالبارحة.

بناء طابق علوى

بالمثال يتضح المقال، وسنضرب هنا المثل التالى، بفرض أنك تعيش مع جيرانك بحيث تقع منازلكم على صف واحد، وصحوت يومًا لتجد السقالات والشدات تتجمع حول كل البيوت لبناء طابق يمتد ليشمل أسقف كل المبانى، وتحاول الاعتراض لكن بلا جدوى ويستمر العمـــل، ولـــيس بإمكانك إيقاف ذلك أو منعه، بل على العكس تستمر مواد البناء فى التوارد، وتُرفع إلى أعلى، وتبدأ الميكنة فى العمل ويتم الإعلان عن ذلك الطابق، ويصبح فى إمكانك رؤية الجدران والنوافذ والأبواب، والأكثر من ذلك أن بعضًا من أبنائك وبعضًا من العمال يساعدونهم على تسلق السقالات لرؤية البناء الجديد، والبعض يطيب له المقام فى ذلك البناء ولا يعود إليك مرة أخرى، ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل تأتى الإهانة التالية، إذ يقع عليك الركام من السقف، وتقع عليك العوارض المعدنية وتسقط حيث تعيش، وتصعب الحياة ولا تستطيع أن تستخدم أى شىء.

عندئذٍ تنشغل بالتشاور مع جيرانك، وترسلون من يتكلم مع أصحاب الطابق العلوى الذى بُنى فوق رؤوسكم، وبدأتم تفكرون فى أن تصعدوا بأنفسكم، ليس لأنكم تريدون ذلك، ولكن لأن ذلك هو السبيل الوحيد أمامكم للنجاة.

هذه الصورة هى صورة أوروبا الحديثة فى مهدها فى عصر جاى فوكس (انظر الجدول ٧ – ١)، وتلك الصورة هى نفسها صورة العالم الحديث بعد مرور أربعة قرون. (انظر الجدول٧ – ٣).

بداية أوروبا الحديثة

بحلول القرن السادس عشر، كانت الإقطاعية الأوروبية تتمزق، لقد حلت محلها دول قومية تعمل على مستوى اجتماعى أعلى، وقد حارب الإقطاعيون هذا النجاح، وسقط البعض وهو يقاوم بينما اضطر الآخرون للتكيُّف مع النظام السياسى

والاجتماعى الجديد، الذى سيطر عليه فى نهاية المطاف الملوك العظماء وعزز حكمَهم بلاطٌ ملكى عظيم، وتطبيقُ الأنظمة القضائية، والجيوش المجهزة بالسلاح، والبيروقراطية المخلصة. وبحلول أواخر القرن السابع عشر كان نظام لويس الرابع عشر فى فرنسا أكبر مثال لهذا النظام الجديد.

الجدول ٧ – ١ بناء طابق علوى جديد:	**قبل وبعد**	
قبل	□□□□□□□□□□	□□□ يمثل الأملاك الإقطاعية، وأرباب الممالك المحلية، والإمارات الصغيرة فى أوروبا فى القرون الوسطى حوالي عام ١٥٠٠
بعد	▭ □□□□□□□□□□	□□□ يمثل الأملاك الإقطاعية، وأرباب الممالك المحلية، والإمارات الصغيرة فى أوروبا الحديثة أى من عام ١٥٠٠ إلى عام ١٦٠٠ ▭ يمثل "الطابق العلوى" الجديد الظاهر فوق كمملكة أقوى (قومية) تتطور وتستغل الموارد من المجتمع القبلى والمدن (بعد عام ١٥٠٠)

وظهرت طبقة جديدة من الملوك، يبنون قاعدة السلطة خارج نطاق قيود الولاء الإقطاعية بين المُلاك والتابعين، وعلى قدر عظمة هؤلاء الملوك، كان قدر

عدم أمنهم، فحملاتهم التى شنوها لفرض إذلال الملوك على بقايا أرباب الإقطاع، تضمنت فى صلبها عملية كانت تقوّض نظامهم فى الوقت نفسه، تلك العملية هى نزوح المواطنين من الريف إلى المدنP فقد أدى هذا إلى الحد من سلطة المالك الإقطاعى وسيادته على ما لديه من ممتلكات (انظر الجدول٧ – ٢).

وقد زادت المدن، لاسيما الموانئ والعواصم، فى الحجم خلال المائتى عام التى تلت حدوث الموت الأسود فى أواسط القرن الرابع عشر[٦]. وقد ساعد اختراع الطباعة على توعية عدد كبير من الناس بمغريات الحياة فى المدينة وتعزيز تأثيرها الأخاذ. ومن جانبها قدمت المدن بديلاً مثيرًا لما فى الحياة الريفية من ملل وظلم، لكن كانت حياة المدينة محفوفة بالمخاطر، على سبيل المثال، قد تُصاب بمرض خطير أو قد تفقد كل مدخراتك أو تتعرض لأذى وأنت تبحث عن أنواع جديدة من العمل، أو قد تفقد حياتك على يد بعض الناس، أو قد يسىء إليك صاحب العمل الذى لا يشعر بأدنى مسئولية تجاهك. وبالرغم من هذه المخاطر، كانت المدن تجتذب العمال الطموحين المهرة من الريف بعيدًا عن سيادة الإقطاعى.

الجدول (٧ – ٢) انجراف السلطة والنفوذ من الممتلكات الإقطاعية فى نهوض أوروبا الحديثة ١٥٠٠-١٦٥٠م

أ

ملك/حاكم قومى

↑

ب

ممتلكات

إقطاعية ←

ج

مدن

متزايدة (تحضر)

↑ ← تحول السلطة والنفوذ

وهذا الفيضان الذى اتسع ليشمل الميدان الاجتماعى فى المدن كان يتحدى بعنف وشراسة سيطرة القوى الإقطاعية فى الريف على السكان الأوروبيين. وفى المدينة، كان للسوق دور بارز، وكانت الأصول المتحركة مثل النقد والائتمان والمعرفة المتخصصة والمهارات الفنية من أهم مصادر القوة. ففى هذه الميادين الجديدة التى تحركها السوق تمكن بعض الناس من شق طريقهم فى العالم، وأصبحوا رجالاً ونساءً " لا سيد لهم"(٧) يتقوقع كل منهم فى معزل خاص به، ويغيِّر حياته تغييرًا جذريًا لتصبح كما يريد لها أن تكون، ومعلوم أن مثل هذه الأشياء قلما توجد فى المجتمعات الريفية؛ حيث يعرف الناس بعضهم بعضًا، والكل مكشوف، وهذا النمط الجديد للحياة من شأنه تهديد بقاء النظام الإقطاعى القديم.

وإبان القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، قامت الأسر الحاكمة الأوروبية، مثل أسرة تيودور، وأسرة ستيوارت وأسرة فالويس وأسرة بوروبون وأسرة هابسبيرج، بالظهور المكثف للعامة مروجةً لبقائها، مستخدمة لتحقيق ذلك، السياط، وأنظمة التجسس(٨). وإذا نزلنا إلى أسفل الهرم الاجتماعى، ونظرنا بعين الأسر الكبرى التى تخلى عنها الملوك بعد أن وصلوا للحكم، فسيبدو واضحًا لنا أن الحكام القوميين لم يتمكنوا من متابعة شئون الحضريين فى المدن كما كان يفعل آباؤهم وأجدادهم الأرستقراطيون عندما بسطوا سلطانهم على القرويين.

الجدول ٧ – ٣ بناء طابق علوى جديد: قبل وبعد فى العالم الحديث

قبل	□□□□□□□□□□	□□□ يمثل الدول القومية ذات السيادة فى أوائل ومنتصف القرن العشرين
بعد	□□□□□□□□□□	□□□ يمثل الدول القومية ذات السيادة فى أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الواحد والعشرين □ يمثل الطابق" □□□ الجديد الظاهر فوق على صورة شركات عالمية، ومنظمات متعددة الأطراف (مثل، الاتحاد الأوروبى ومنظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولي) و"مملكة عالمية" جديدة (الولايات المتحدة) تؤكد نفوذ تلك المنظمات والشركات

وقد كانت المدن الآخذة فى النمو بمثابة بؤر للعنف والخطر؛ وذلك لأنها آوت إليها المتعصبين والحالمين معًا، بذلك كانت بذور الإصلاح البروتستانتى ومناهضو الإصلاح الكاثوليك. ومن هاتين الحركتين نشأت الأصولية، والعنف

الجماهيرى، والتمرد، وخرجت الحرب إلى أوروبا كلها واستغرقت معظم القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر.

أما فى عالمنا المعاصر المتحول كلية إلى العالمية، فقصة التحضر أو التمدن أشد وقعًا وأوسع نطاقًا مما كانت عليه فى الماضى. فمنذ ثلاثة قرون واجهت أوروبا تحدى التعايش بين مختلف الثقافات وإيجاد سبيل للتوفيق بين التوجهات، ولكن على مستوى إقليمى محدود[٩]، وتمثل ذلك فى هجرة القرويين إلى المدن الكبيرة للعيش فيها، مما نتج عنه نوع من الصدام الثقافى، ورغم جهود الكنيسة فى ذلك الوقت لفرض نوع من الوحدة بين الناس، كان لسكان الوديان المتاخمة للمدن تقاليدهم وعاداتهم، ولهجاتهم المميزة لهم أيضًا.

العالم الحديث المعاصر

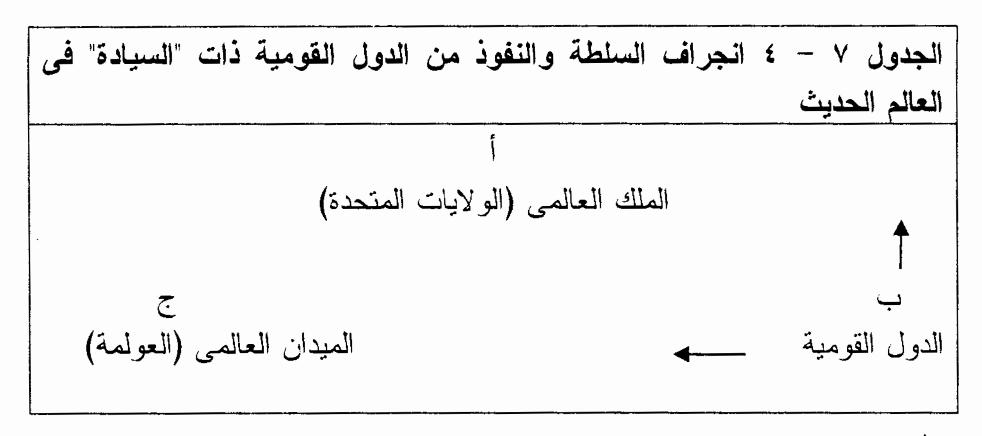
الآن، وبعد مرور أربعة قرون، تتكرر القصة نفسها على مستوى اجتماعى أعلى، وبالإضافة إلى التمدن، الذى تتزايد قوته فى أنحاء العالم، أصبح دور العولمة أكثر بروزًا[١٠]، إذ إن هذه العملية تمكِّن معظم الناس من أن يعيشوا حياتهم ينتقلون من مجتمع إلى آخر، ويشغلون المكانة الاجتماعية الراقية رأسيا وأفقيًا. وهذا بدوره يمثل تحديًا، ومهربًا من ضغوط الحياة فى مجتمعات بعينها.

أما الساحة العالمية فهى بمثابة المناطق المتحولة المائعة والشبكات التى يستطيع الناس ورؤوس الأموال التنقل السريع من خلالها، فنجد فى هذه الساحة التمويل العالمى، والتجارة العالمية، والجريمة العالمية، والهجرة العالمية، والمنظمات غير الحكومية العالمية، والدبلوماسية العالمية، كلها تعمل وتؤثر بمختلف الطرق والوسائل، نراها عبر شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)، ونراها فى المسارات الجوية التى تربط العواصم الكبرى ببعضها، ونراها فى الشبكات التى تربط الجاليات عبر الحدود القومية، ونراها فى التسوق والترفيه فى أى مكان نتخيله. فما

الساحة العالمية الآن، بجمهورها من المهاجرين لأجل المال، والمستثمرين العالميين، وشبكاتها المعقدة، إلا صدى صرخة أطلقتها الدولة القومية القديمة، ويميز تلك الساحة العالمية بناؤها الطبقى العنيد الذى يضم الجماعات المتكاملة التى "تعرف مكان تلك الساحة"[١١].

وسواء بسواء عالمنا المعاصر وأوروبا فى القرن السادس عشر، لكن على مستوى اجتماعى أرقى، نجد ثمة تحول فى موازين القوى بعيدًا عن القوى الإقليمية القديمة، هذا التحول نراه يسير نحو أحد اتجاهين (انظر الجدول ٤ – ٧)، إما نحو الرابحين فى الصراع الدائر بين الدول القومية على الهيمنة، على الرغم من أن الرابح حتى هذه اللحظة (أى الولايات المتحدة) لم يصبغ أحكامه بصبغة الشرعية والدستورية، وإما نحو الساحة الاجتماعية الجديدة الممتدة حيث تمثل السوق أهمية بالغة، إذ إنها موطن الأصول المتحركة وغير الثابتة (تتميز تلك الأصول عن الأصول الثابتة من الأراضى والأقاليم) التى هى المصدر الرئيسى للسلطة – أو بمعنى آخر، نحو ساحة العولمة المتمدنة[١٢].

الجدول ٧ – ٤ انجراف السلطة والنفوذ من الدول القومية ذات "السيادة" فى العالم الحديث



= تحول السلطة والنفوذ

وكما كان يفعل مُلاك الأراضى الإقطاعيون فى أوروبا منذ قرون، نرى الدول القومية فى أنحاء العالم قد اكتشفت أن مصادر الطاقة والسلطة تُسحب من تحت أرجلها. ففى الأيام السالفة، عندما تتطلع المُلاك الإقطاعيون القدامى من أمثال بوربان وستيوارت وهوهينزوليرن إلى الحكم (ومَنْ هم ليتطلعوا؟) مثلوا أمام القضاء للمحاكمة(١٣).

أما اليوم، فالحال هو الحال لكن على مستوى الدول، فأى حاكم دولة يتطلع أن يصل بدولته إلى كرسى الحكم، وينظر إلى أعلى ليرى النجوم، (ومن هو ليتطلع؟) يرى أمامه الملك الجديد قابعًا فى واشنطن، وبدلاً من أن يستدعيه الملك للمثول أمام القضاء للمحاكمة، تستدعيه واشنطن إلى منظمة التجارة العالمية.

ومن السهولة أن ندرك أن هذه المتغيرات تسفر عن مشاعر قاسية بالإبعاد أو الإقصاء أو الدونية. وهذه التجارب تهز كيان أى شخص من أعماقه، كما أنها تهز الملك العالمى، أى الولايات المتحدة، أيضًا، التى - وشأنها فى ذلك شأن ملوك أوروبا منذ أربعة قرون - تفرض دورها أينما ذهبت، وتصبح مع الوقت لا تتقبل أى نقد يوجه إليها. كما أن هذه المتغيرات أيضًا تهز "الإقطاعيين"، أقصد حكام الدول الإقليمية الذين يجدون أنفسهم الآن مجبرين على الانحناء أمام موجة كان يعاديها أسلافهم. وهذه المتغيرات تهز أيضًا الشعوب، التى يتطلع معظم أفرادها إلى التمتع بالحياة الأمريكية السريعة الرغدة، لكنهم فى الوقت نفسه لا يريدون حكومة أجنبية تحكمهم، تلك الحكومة التى لا يمكن أبدًا أن يعتبروها حكومتهم.

الإبعاد والانتقام

فى بداية أوروبا الحديثة، كان بعض الناس يمقت الطبقة العليا، حيث إنها تقوم على أعناقهم، لاسيما إذا عاشوا فى دولة كان فيها الأساس المعرفى للحكم القومى الجديد هو الدين الذى لم يقبلوه. وقد كان الرجال أمثال فوكس وكتسبى

وغيرهما ينتمون إلى دين راسخ فقد الحماية السياسية، ولم تعد الأحكام القديمة تُطبق، وسقط السقف الذى كانوا يحتمون تحته. وفى "الماضى الجميل" أنعم البابا على هنرى الثامن بلقب "المدافع عن الإيمان"، بيد أن خليفته الأخير، جيمس الأول، بـدت عليه بوادر اضطهاد المذهب الكاثوليكى الرومانى عندما تقلد السلطة فى عام ١٦٠٣.

وعلى مدار ثمانين عامًا، أسفر الانشقاق فى المسيحية، فى أعقاب ثورة البروتستانت فى عهد مارتين لوثر عام ١٥١٧، عن إضعاف نفوذ البابوية والإمبراطورية الرومانية المجيدة فى أوروبا بأسرها[١٤]، ولم يستطع المتطرفون أمثال فوكس وكتسبى أن ينسوا ويصفحوا.

والأمر نفسه ينطبق على ابن لادن وأتباعه، لقد زالت الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤، وبعد ثمانية عقود، مازال ابن لادن ينعى زوال الخلافة للمسلمين فى الشرق الأوسط، وثمة تشابه بين هذا الموقف وتأثير الإصلاح الدينى على الكاثوليك الإنجليز، ففى كلتا الحالتين، حوّلت الأحداث التاريخية البنية الأساسية الراسخة التى طالما وفرت الأمن النفسى والسياسى، وفى كلتا الحالتين، نرى جماعة دينية تخلى عنها الجميع، بينما تشعر أنها أصبحت عرضة لأعدائها.

لقد كان الباعث الحقيقى للمتآمرين الذين أعدوا مؤامرة البارود يكمن فى الخوف من تجريم الكاثوليكية[١٥]، وكانت إنجلترا قد ظلت دولة كاثوليكية لعقود طويلة بيد أن الذين تمسكوا بروما نظرت إليهم الحكومة على أنهم أعداء للدولة، وأراد جيمس الأول، الذى جىء به من اسكتلندا خلفًا للملكة إليزابيث الأولى، أن يضع تشريعًا يحرم أتباع المذهب الكاثوليكى من حقوقهم المدنية، ويجعل منهم طائفة محظورة.

لقد كان دافع المتآمرين فى عملية البارود ينطلق من أربعة بواعث. أولاً، الشعور بالإبعاد: حيث استُبعد أفراد الجماعة المتماسكة من المشهد الاجتماعى

اللائق بهم وحُرموا من حقوقهم. ثانيًا، الشعور بالهزيمة والغزو: فقد كان أى صوت ينادى بالإيمان مصيره الكبح والخرس. ثالثًا، قرر أعضاء تلك الجماعة، وبمنتهى العدوانية، القيام بهجوم مضاد، والأخذ بالثأر، وتعذيب من عذبهم قدر استطاعتهم. رابعًا، أراد أفراد الجماعة فرض طريقتهم الخاصة على الآخرين، دون أن يتركوا لهم أى خيار سوى الإذعان أو الموت.

وجماعة المختطفين الذين نفذوا أحداث ٩/١١، كان لهم نفس الدافع الذى ينطلق من أربعة بواعث أيضًا: الأول هو الشعور بالإبعاد، والثانى هو الشعور بالانكسار والدونية، والثالث هو الرغبة فى الانتقام، والرابع هو أخذ القرار بالقتال من أجل نصرة الدين. ولننظر إلى وصف محمد عطا كما قدمه ولكرهوث، مهندس التخطيط العمرانى الألمانى، الذى كان صديقًا له[١٦]، وسنرى البواعث قد تحققت.

١. الإبعاد. ذكر هوث أن عطا شارك بنصيبه فى الممارسات الديمقراطية الغربية بيد أنه ظل منفصلاً عن الحياة اليومية فى ألمانيا، التى كانت بالنسبة له "عالمًا غريبًا" تنطق "بلغة غريبة". لقد احتفظ بأسلوب صارم فى حياته الشخصية، وكان يحافظ على الصلاة كل يوم.

٢. الانكسار والدونية. أكيد أن عطا كان يرغب فى أن يعمل بالتخطيط العمرانى فى بلده مصر بيد أنه خشى من أن يُجرَّم بسبب معتقداته الدينية. فكان عليه أن يتحمل معاناة "الهجرة الداخلية"، وهــى تجربة مؤلمة حيث لا يمكنه التعبير عن رأيه الحقيقى بصراحة.

٣. الانتقام. عندما طُلب من هوث أن يحاول شرح وتفسير تورط عطا فى أحداث ٩/١١، ذكر الاستفزاز الذى تسبب فيه دخول أريل شارون المسجد الأقصى فى القدس. وافترض هوث أن عطا كان عليه أن يرد على هذه الزيارة بتهديد "البقعة المقدسة فى العالم الغربى" – أو بمعنى آخر، مركز التجارة العالمى.

٤. اتخاذ القرار بالقتال. عندما قابل هوث عطا لأول مرة عام ١٩٩٣، لم يكن مطلقًا لحيته، بيد أنه أطلقها فى آخر عام ١٩٩٤. وكان هذا، كما أعلن ذلك، مؤشر التضامن مع المتدينين فى مصر الذين تم تجريمهم. وقد قرر أنه لم يعد يرغب فى إخفاء آرائه بل يريد التعبير عنها بحرية.

التحرر المذل

إن فكر المتآمرين سواء فى مؤامرة البارود أو المختطفين الذين نفذوا أحداث ٩/١١، خرج من تلك الشبكة المحدودة داخل عقولهم إلى شبكة أكبر من الرجال والنساء المتحولين من المحلية إلى الحالة العالمية يسكن عقولهم شعور بالتحرر والإذلال فى آن واحد، والسبب فى ذلك هو أن المهاجرين المتحضرين سواء كانوا فى القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، أو فى عالمنا المعاصر، وجدوا أن الميادين الجديدة للوجود الاجتماعى والتى أصبحوا ينتمون إليها الآن، تموج بالصراعات والتوتر.

وأكثر الناس رجالاً ونساءً، ممن يتحولون إلى الحالة العالمية، يجدون أنهم أصبح لديهم مقدار حرية أكبر من ذى قبل، ويشعرون بقيمة أنفسهم، ولكن الواقع، أنهم مجبرون على أن يشعروا بتلك المشاعر، مهما كانت حقارة ما يحصلون عليه من مغانم، فليس أمامهم بديل. فمن الصعب جدًا أن نجد أسباب سلطة لا ينازعها منازع، بمعنى أننا فى هذا العالم الجديد نجد أن مَن يديرون أسباب السلطة يخشون دائمًا من الوقت الذى يفقدون فيه شرعيتهم، فحقهم فى الحكم دائمًا عليه نزاع، وأحيانًا يكون النزاع عنيفًا.

فى بداية أوروبا الحديثة، كان طبيعيًا أن يشعر القرويون بتغيير ملحوظ عندما أتوا إلى المدينة؛ وذلك لأنهم فى القرية كانوا تحت أعين جيرانهم، ورجال الدين، والأهل، والأصحاب وكل هؤلاء يمثلون نوعًا من الضغط على الفرد ليسير

نحو "فعل ما هو صواب"، أما فى المدينة فإن مثل هذا النوع من الضغط قد تراجع، وها هم القادمون الجدد إلى المدينة يجدون فرصًا عديدة لإمتاع أنفسهم وإشباع رغباتهم التى طالما كبتها وجودهم تحت أعين ذويهم وأهل القرية. فأين كان صوت السلطة القوى، ذلك الوازع الذى يحمل على السلوك القويم؟ فسكان المدن كانوا يرزحون بين إقطاعيين منخرطين فى حماية مصالحهم، وملوكٍ بقدر عظمتم كان خوفهم، وكنيسة فقدت مصداقيتها، ترى عندما يحيا المرء فى مجتمع لا أرض له يقف عليها، وحياة لا شىء فيها مؤكد، فأنَّى للمرء حينئذٍ أن يسلك طريقًا، عبر وجوده الفانى، وسط كل ذلك ليصل به إلى الحياة الآخرة؟

هنا تلقى المهاجرون رسالة مختلطة، فقد تغير النظام الاجتماعى والسياسى الأصيل، سواء كان ذلك النظام هو القرية أو المدينة "الوطن" الذى هربوا منه نصف هروب، وإليه ينتمون نصف انتماء، لقد تحول ذلك النظام وتغير بفعل المنافسة القادمة من العالم الجديد الذى يتشكل خارجهم وفوقهم. لقد فرضت المدينة نفوذها وأثرها على المجتمع القروى، كما سنرى بعد ذلك العولمة وهى تفرض نفوذها وتخترق حدود الدول القومية وتغير واقع الحياة بداخل تلك الدول.

مازلنا فى أوروبا فى القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، ومازلنا مع المهاجرين الذين تركوا الريف إلى الحضر، فقد ذهبوا الآن إلى ميادين عالمية متحضرة وجدوا فيها أنفسهم، وانتموا إليها نصف انتماء، ووجدوا أن تلك الميادين لا تتوافر فيها قواعد أو هياكل أخلاقية قوية واضحة تلبى رغباتهم، لقد وجدوا آفاقًا كثيرة للتقدم أو الفشل، وحرية من أى قيد أخلاقى، فيا له من تحرر! ومع ذلك نجد ذلك التمدن مثله مثل العولمة يفرض إذلاله الخاص، فها هى الهوية تنطمس فى مجتمع لا يدعم أى أصل أو موروث قديم، وبدا وكأن المجتمع القديم قد أزالت آثاره موجات المد التجارى والبيروقراطى الذى فاض ليحقق مصالحه وأعانه على ذلك أنصاره فى الداخل.

هنا نرى مرة أخرى، لكن هذه المرة فى العالم الحديث، المتحولين إلى الحالة العالمية وقد وقعوا بين فكى الثعبان، لقد فقدوا وضعهم القديم داخل المجتمعات القومية التى تركوها وراء ظهورهم، وكلما طالت مدة بعدهم، كانوا شبه غرباء إذا عادوا إلى "أوطانهم". فالواحد من هؤلاء المتحولين عندما يعود إلى بلده الذى خرج منه يشعر بتفوق ثقافى على أهله وأقاربه، ولِمَ لا وهو الذى انفتحت عيناه على عوالم جديدة، وأصبح أكثر "حداثة" وتحضرًا، ومع مرور الوقت يصبح هذا المتفتح لا يطيق المقام فى بلده الأم، الذى يتحول ليكون مصدر ملل وضجر.

ولنعد مع من هاجروا وتحولوا إلى الحالة العالمية، ترى أين "وصلوا"؟ فها هى الحياة الجديدة تتشابك حولهم كأشجار غابة عظيمة، الكل يتحرك فى كل مكان، فأين يذهبون؟ والإجابات على هذا التساؤل عديدة جدًا، غير أن هناك من هؤلاء المتحولين من يرضيه ألا يحصل على أى إجابة. فماذا بوسع المرء أن يفعل، وهو محاط برجال المبيعات بكلامهم المعسول ودفعهم إياه للشراء ليسخروا منه إذا اشترى أو لم يشتر؟ فالحالة العالمية أو المدينة الكبيرة أو الساحة العالمية ليست أمرًا بسيطًا أو هينًا، وليست المكان الذى تمشى فيه الأمور على نحو مستقيم واضحة المعالم، وليست المكان الذى ينتظر منه المرء أن يرشده أو حتى يرسم له ما يجب ومالا يجب[١٧].

ويفسر تحليل الحالة العالمية اثنان من العناصر التى وجدناها فى تكوين عقلية المتعصب دينيًا: هما الشعور بالإبعاد، والشعور بالقهر أو الدونية، وهذان هما وجها الإذلال. وليس معنى ذلك أن المتحولين إلى الحالة العالمية بالضرورة يصبحون متعصبين دينيين، حتى وإن كانوا يتعاطفون مع بعض أفعال المتعصبين، وحتى وإن شاركوا فى أفعال يدعو إليها هؤلاء المتعصبون. أما الوجهان الآخران، وهما الرغبة فى الانتقام واتخاذ القرار بالقتال حتى الموت، فكلاهما طريقتان للرد على الإذلال. والسبب الذى من أجله يتبنى بعض الناس هذا الرد المميت أمر يتطلب بحثًا مفصلاً نجريه على مجتمعات بعينها، وثقافات وشبكات اجتماعية، وشخصيات[١٨].

التقنيـة والسياسـة والدين

يعتبر الدور الذى تؤديه الحالة العالمية كمولِّد عالمى للإذلال دورا فى غاية التعقيد: فمن المهم جدًا أن نتتبع كيفية تعاطى التوجهات التاريخية الأصيلة، كالدين مثلا، لسبل الحداثة من تقنية أو سياسة، لذا لا مناص من النظر فى تلك العوامل بشىء من الإيجاز.

الـمعلـومـات والهوية

بعض أوجه الحالة العالمية المعاصرة التى نحياها الآن وصفها مانويل كاستيلز فى كتابه "عصر المعلومات" (١٩٩٧-٢٠٠٠)، الذى ارتكز على أساس واحد، رغم أنه جاء فى ثلاثة مجلدات، ويمكن أن نوجز هذا الأساس فى جملة واحدة وهى: أن التقنية الحديثة تسهل عمل الرأسمالية المعلوماتية، التى تخلق بدورها أزمات الهوية داخل الدول القومية والأسر والمجتمعات.

ويرى كاسيلز أنه إبان السبعينيات من القرن العشرين عندما زادت شدة وطأة الإنفاق بسبب رفع الأجور، وتزايد أسعار النفط، كان لزامًا على قادة الاقتصاد الرأسمالى أن يبحثوا عن سبيل للخروج، فاستخدموا تقنية معلومات حديثة كأداة لإعادة هيكلة منظماتهم. وكان معنى ذلك أن توجد عمالة أكثر مرونة، ولامركزية فى الحكم، وأن يحدث تحول من الهرمية الجامدة إلى الشبكات المفتوحة والمتحركة التى بإمكانها التعامل مع أى مستوى من التعقيد مع الحفاظ على تدفق ثابت للمعلومات. وقد تمكنت الرأسمالية المعلوماتية أن تخلق نوعًا من التكامل بين القطاعات الاقتصادية الديناميكية على مستوى العالم من خلال شبكة كبرى تضم كل الشبكات بداخلها، خاصة على ساحة التمويل.

وقد أسفرت هذه العملية عن نتيجتين، الأولى أن مسألة عدم الثبات التمويلى انتقلت بسرعة إلى كل أنحاء العالم مدمرةً فى طريقها الاقتصاديات القومية الضعيفة، والنتيجة الثانية هى فتح قناة تواصل بين الصفوة الإدارية العالمية وبين القوى العاملة التى تستخدمها تلك الصفوة، والقوى العاملة ما هى إلا أفراد المجتمعات

الفقيرة المنغلقة على نفسها المحصورة فى عقر دارها، ومن ثم أصبحت المدن بمثابة "طرق عبور" (كاستيلز ٢٠٠٠، ٤٠٧)، ومجرد نقاط ربط فى الشبكة العالمية، ولم تعد أماكن ذات قيمة ومعنى لمن يعيشون فيها.

واتخذت أزمة الهوية ثلاثة أنماط:

١. دخلت الدول القومية الملعب العالمى على حساب تواصلها مع مواطنيها، وعجزت تلك الدول عن خدمة مواطنيها أو السيطرة عليهم كما كانت من قبل.

٢. فى كل أنحاء العالم لم تعد هنالك الأسر المحافظة القديمة، فقد خرجت المرأة للعمل وانخرطت فى القوى العاملة وأصبحت شريكًا فيها، بل اكتسبت المرأة قدرة على التحكم فى إمكاناتها الإنتاجية.

٣. تسبب الإعلام فى خلق قوى ثقافية جديدة داخل المجتمعات المحلية مقوضًا إيمان تلك المجتمعات بالواقعية، فقد أصبح من السهل تزييف أى واقع.

وقد تؤدى هذه الأزمات فى الهوية، وهو ما يتمناه كاستيلز، إلى ظهور حركات اجتماعية نشطة تقوم على "بناء الهوية" (١٩٩٧،٨) وتسعى لجعل العالم مكانًا لتحقيق العدالة. ومع ذلك، نرى الرد الأولى ينطوى على تحديات "تقاوم" الهوية، تلك التحديات كالتى نراها فى الدول الفقيرة مثل الأصولية، والصراعات العرقية، والشغب. وتلك الحركات الاجتماعية الهادفة إلى بناء الهوية قد تجد مناخًا جيدًا للعمل فى بعض الأماكن، مثل روسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وجنوب شرق آسيا وأوروبا. ويختم كاستيلز بقوله: "ليس ثمة شىء لا يمكن تغييره عن طريق العمل الاجتماعى الهادف والمتفق عليه، طالما لديه المعلومات والشرعية". (١٩٩٨، ٣٦٠).

يبدو أن كاستيلز مفرط فى تفاؤله؛ وذلك لأن الحركات الاجتماعية التى تريد أن ينعم العالم بالعدالة، أو الحركات التى تسعى "لبناء" الهوية (على حد تعبير كاستيلز)، لابد لها أن تسيطر على مواطن النفوذ السياسى والاقتصادى حتى تتمكن من العمل، أو على الأقل تتعاون مع مَنْ لديهم تلك النفوذ.

ولكن كلا الأمرين صعب جدًا؛ لأن الروابط بين الحكومات والمواطنين فى عالمنا اليوم آخذة فى الضعف، فمثلاً إذا نظرنا للانتخابات على مدار فترة التسعينيات من القرن العشرين على مستوى العالم(١٩) سنشهد تراجعًا كبيرا فى عدد المصوتين فى الانتخابات من الرجال والنساء على حد سواء، فقد باتت واضحة للناس حقيقة الأحزاب السياسية، وأصبحوا يتحاشون الانخراط فى تلك الأحزاب كلما أمكنهم ذلك، وهذا يمثل رفضهم المشاركة فى النظام السياسى الذى يظن الكثير من الناس أنه يُخيِّب آمالهم. إن هذا الإحجام بمثابة ثورة ضد امتطاء الحكام للشعوب ليصلوا إلى بغيتهم.

أما الحكومة، فقد أصبحت "الصياد"، تراقب مواطنيها المُبعدين، بصمت وفضول، ورسالة الدولة "إننا نراقبكم" هى تأكيد شديد اللهجة عن العلاقة بين الشعب والدولة، تلك العلاقة التى يحاول كثير من المواطنين كسرها(٢٠).

ومنذ أحداث ٩/١١ قدمت "الحرب على الإرهاب" مبررًا للدول لتزيد من قوتها وفعاليتها، فبحجة حماية الدولة من الإرهاب، أصبح من حق الدولة أن تعتقل الناس وقتما تشاء، وكثير من تلك الدول كانت بطبيعتها تضرب بكل الحقوق المدنية عرض الحائط، ولنا أن نتصور ما قد تفعله تلك الدول بمواطنيها المقهورين بحجة محاربة الإرهاب.

إن المناخ الحالى غير مناسب بالمرة لأى مبادرات سياسية خارج الدائرة الكبرى التى تضم بداخلها دوائر الحكومات القومية، فالسلطة السياسية العليا

والإعلام تحكمهما المصالح التجارية. وعندما تدخل المصالح السياسية والاقتصادية فى الأمر، لا يمكن أبدًا لأى مواطن أن يتصرف بحرية ديمقراطية، وإلا أصبح مثيرًا للشغب، ومن ثم لن يروق هذا الوضع للمستائين من التحول للحالة العالمية ويريدون أن يقاوموا ما يرونه إهانة عالمية.

ومما يزيد الموقف تعقيدًا أن هناك واقعًا لا يمكن إغفاله، وهو أن هناك نوعًا من الإصلاح يحدث فى أمريكا، وآسيا وأوروبا وإفريقيا(٢١)، هذا الإصلاح يشبه الإصلاح الذى تم فى بداية أوروبا الحديثة فى أمرين.

الأمر الأول أنه إصلاح للاعتراض على الوساطة "الزائفة" بين الشعب والسلطة العليا، فالوسطاء هذه الأيام ليسوا الكهنة كما كان الأمر فى أوروبا، وإنما هم وسائل الإعلام والسياسيون، الذين يزعمون أنهم ينقلون نبض المواطنين إلى السلطة، فمعظم الناس يقولون لهؤلاء الوسطاء: حسبكم، لا تتكلموا نيابة عنًا. ونتيجة هذا الزيف والخداع المتمثل فى فشل السلطة فى الوفاء بوعودها، انغلق كل واحد على نفسه، وجعل آماله وطموحاته ذاتية جدًا، وانسحب من الحياة العامة، وتحول الناس إلى مجرد عمال مستهلكين يعملون ليكسبوا قوتهم ويسدوا احتياجاتهم واحتياجات أسرهم ليس إلا(٢٢).

والأمر الثانى، أن حركة الإصلاح العالمية الحالية، تشبه أختها التى حدثت فى أوروبا قديمًا فى أن كليهما كان بحثًا عن الهوية. إن أكثر العمال المستهلكين طموحًا، هم الذين يرغبون فى "الوصول" لا أن يكونوا "وسيلة لوصول غيرهم"، ولتحقيق ذلك يجب عليهم أن يفرضوا على أنفسهم درجة من انضباط الذات، فهم يتعلمون كيف يكيِّفون أنفسهم وعقولهم ومشاعرهم بل وأجسامهم لتحقيق أهدافهم(٢٣)، وهذا النمط من إعداد الذات يجعل كل شخص يسأل سؤالين: الأول ما نوع الشخص الذى أريد أن أكنه؟ والثانى، هل الهوية التى أرتديها ستلبى احتياجاتى؟ وقد تحدث هنا عملية غربلة وتصفية، هذه العملية سنجدها بإيجاز فى الجدول (٧ – ٥).

أمريكا وتحولها إلى العالمية

لا يستطيع النظام القديم للدول القومية أن يحتوى سيل البشر، ورأس المال، والسلع، والأسلحة والأفكار حول العالم ولا أن يسيطر عليها أو يضعها فى إطار مؤسسى، فبعد تمزق الإمبراطوريات الأوروبية، وانهيار الاتحاد السوفييتى، وانتهاء الحرب الباردة مر العالم بمرحلة من غياب القوانين والنظم، ولم تعد هناك قوة سياسية عالمية بإمكانها، أو حتى ترغب فى، أن تؤدى مهمة التنظيم والتقنين.

وتعتبر الولايات المتحدة، أو الإمبراطورية الأمريكية، هى أقرب شيء لمثل هذه القوة، حيث إن الحكومة الأمريكية لها قدرة خارقة على شق طريقها الخاص فى قضايا معينة، وبالرغم من ذلك، فإن موقفها الحالى والطبيعى أيضًا هو "أمريكا أولاً". والحكومة الأمريكية تسعى لحماية خطوط الإمداد الرئيسية، وضمان الأمن الاستراتيجى الخاص، وإتاحة الفرص التجارية للمؤسسات الأمريكية ذات النفوذ، أما باقى العالم فأمريكا تراه على أنه "بيئة" خطيرة ومضطربة تعيش فيها الولايات المتحدة التى تمثل العالم "الحقيقى".

وفى مركز الإمبراطورية الأمريكية، على سبيل المجاز، توجد دائرة محكمة وفى داخل هذه الدائرة تختبئ الدول الغربية صاحبة الريادة، وتستمتع بالدفء داخل معسكرها المحمى، لكنها فى الوقت نفسه تظل على أهبة الاستعداد تحسبًا لأى هجوم فى أى وقت، أما المنطقة البعيدة خارج الدائرة فيجب أن تبقى دائمًا تحت المراقبة لاكتشاف واقتناص أى موارد نافعة[٢٤]، وتخضع من حين لآخر للتفتيش لاكتشاف أى تهديد محتمل؛ ولذلك نجد أصحاب الريادة يتوقون لممارسة الحياة خارج الدائرة، ولو لفترة قصيرة، خاصة إذا كانت تلك الحياة مبهجة وكانت لديهم القوة العسكرية التى تمكنهم من الذهاب أينما يشاءون وقتما يشاءون، فمن الرائع أن تشعر بالتحرر، والحرية من القيود الأخلاقية أو القانونية أو العملية، وجميل أن تمارس النزعة الإمبريالية.

الجدول ٧ – ٥ : عملية التصفية أثناء التحول إلى الحالة العالمية



ولكن من المهم جدًا لأصحاب الريادة هؤلاء أن يعودوا إلى قلب الدائرة مرة أخرى للاستمتاع بالدفء الوطنى؛ لأن ذلك إجراء وقائى نفسى وسياسى حيوى، لكن هذا الخيار غير متاح بل مفقود بالنسبة لمن تحولوا إلى الحالة العالمية؛ لأن

المأوى الأمريكى قد تغير، فلم تعد الولايات المتحدة "وطنًا"، وليس أدل على ذلك من كتابات كثير من المحللين، أمثال توماس فرانك ومايكل مور وبات توشنان وصامويل هونتينجتون، الذين يعبرون عن ذلك القلق لأن أمريكا لم تعد أمريكا القديمة التى يعرفونها، فبالنظر إلى كتبهم وأعمالهم تجدها تحمل عناوين مثل: انهيار الغرب (توشنان ٢٠٠٢)، مَنْ نحن؟ (هونتينجتون ٢٠٠٤)، ماذا حدث لأمريكا؟ (فرانك ٢٠٠٤) أبى! أين بلادى؟ (مور ٢٠٠٤).

فى عالم يتحول كله إلى العالمية، يتعاطى الأمريكان الحالة العالمية بمعيارين، الأول أنهم لا يشعرون بالرضا الذى اعتادوا عليه فى وطنهم، ذلك الوطن الذى كان اسمه يومًا ما "العالم الجديد"، فذلك الوطن وذلك العالم يتغير الآن بطرق لا يحبونها ولا يسيطرون عليها أيضًا. والمعيار الثانى أنهم لا يستطيعون أن يتقبلوا مكانهم الحالى فى "العالم الجديد" الحديث الذى هو الساحة العالمية.

* * *

فى هذا الباب:

قدمنا مقارنة بين منفذى أحداث ٩/١١، وبين مدبرى مؤامرة البارود عام ١٦٠٥، وعلقنا على التمدن وزيادة الحكم القومى فى القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، وبعد مرور أربعة قرون، وجدنا تشابهًا بين العولمة وتطور "الحكم العالمى" الأمريكى فى أواخر القرن العشرين ومطلع القرن الحادى والعشرين، وقمنا بتحليل حالة التحول إلى العالمية ذلك التحول الذى قاد إلى التحرر المذل، ومررنا على الأدوار التى أدتها التقنية والسياسة والدين فى توصيل حالة التحول إلى العالمية، ورأينا كيف أن هذه الضغوط تصطدم بالمجتمع الأمريكى والسياسة الأمريكية.



٨

الهروب

ننتقل الآن إلى الضلع الثانى من المنحنى الثلاثى الذى يشكل أضلاع الأجندة الخفية للعولمة: وهو رد فعل الناس للخزى الذى تفرضه عليهم المنابع العالمية للإذلال. وسنبدأ هنا برد الفعل الأول وهو محاولة الهروب.

الرحيل عند غروب الشمس

لعل أحد أهم أمثلة آليات العمل داخل المنحنى الثلاثى هو الهروب كرد فعل للإذلال الذى بات رفيقًا للعولمة، وهذا الهروب استطاع أن يرسم الصورة النمطية لما يسمى "بالمجتمعات الجديدة"، ونقصد بالمجتمعات الجديدة مجتمعات المستوطنين، وأبرزها الولايات المتحدة الأمريكية، إذ تمثل ظاهرة استثنائية تثير الدهشة والعجب لأنها مجتمع استيطانى استطاع أن يصبح إمبراطورية عالمية، أو كما سبق وأن أسميناها فى الفصول السابقة إمبراطورية الدولة القومية. ولستُ وحدى من يميل إلى هذا الرأى، فأغلب أصحاب الرأى والمعلقين ينظرون إلى أمريكا على أنها إمبراطورية، وهذا أمر لا خلاف عليه، ولكنهم يتباينون فى النظر إلى هذه الإمبراطورية هل هى نعمة أو نقمة، وهل هى آخذة فى أسباب القوة أو أسباب الضعف؟

وإذا وجهنا هذا السؤال لشخص مثل أندرو بيسيفيتش، وهو جندى سابق انتقل إلى العمل الأكاديمى، سنجده يقول إن الحكومة الأمريكية كان من دواعى

فخرها أنها استخدمت قوتها العسكرية "لتوسع من نطاق إمبراطوريتها" كلما أمكن لتلك القوة أن ترعى ذلك التوجه، "فهدف الحكومة الأمريكية الأسمى هو خلق نظام عالمى جديد متكامل" (بيسيفيتش ٢٠٠٢، ٣) قائم على الرأسمالية الديمقراطية ذات الأسلوب الأمريكى، وعلى حد قول بيسيفيتش، فإن ذلك التوجه قائم منذ ما يقرب من قرن من الزمان على أقل تقدير.

وإذا سألنا مثلاً توماس بارنيت، الخبير العسكرى فى الكلية البحرية الأمريكية، سنسمع الإجابة نفسها، لكنها هذه المرة فى سياق المستقبل، بمعنى أن ما تقوم به الولايات المتحدة هو مهمة طويلة الأمد "لتصدير الأمن" إلى المناطق التى تعمها الفوضى لتمهيد الطريق أمام "أساس عمل" العالم والحفاظ على ذلك الطريق ممهدًا (بارنيت ٢٠٠٤، ١٢٥). وإذا سألنا شخصا آخر مثل نعوم تشومسكى، سنجده يصور لنا الصورة الماضية والمستقبلية معًا على أن دور الولايات المتحدة هو فرض الهيمنة على العالم على حساب حقوق الإنسان، باستغلال القوة والحيلة (تشومسكى ٢٠٠٣).

أما مايكل إيجناتيف، فيتبنى اتجاهًا ثالثًا بالنسبة للانتشار العالمى للقوة العسكرية عن طريق الولايات المتحدة وحلفائها فى المعركة، إذ يرى أن الحروب فى بعض الأحيان قد تُشن تحت راية الدفاع عن حقوق الإنسان، والهدف من وراء ذلك التدخل العسكرى الآن هو وضع الأمور فى نصابها الصحيح بأسرع وقت ممكن حتى ينتهى ذلك التدخل بأسرع وقت ممكن أيضًا، وبالتالى يكون ذلك التدخل "خاليًا من التوجه الإمبريالى" (إيجناتيف ٢٠٠٣). وهذا النوع من التدخل العسكرى عادة لا يُحمِّل الولايات المتحدة أى تكاليف، خاصة فيما يتعلق بخسارة الأرواح، بل يخـــرج شيئًا فشيئًا عـــن نطاق السيطرة الديمقراطية لاسيما بعودة الجماهير التى لا تشارك فى ذلك التدخل إلى أوطانهم، وهذا فى حد ذاته يمثل خطرًا أخلاقيًا داهمًا، وتطلب من الولايات المتحدة أن تحسب حساب انعكاسات ذلك التدخل بدقة متناهية لا مجال فيها للخطأ[1].

ويرى تشارليز كابتشان، أن نهاية عصر الاستعلاء الأمريكى بات وشيكًا (كابتشان ٢٠٠٢)، فها هو الاتحاد الأوروبى تتزايد قوته ونفوذه، وها هى الصين هى الأخرى تقف على مسافة قريبة جدًا من الاتحاد الأوروبى، ومن الداخل نرى جموع الشعب الأمريكى، خاصة من لهم حق الإدلاء بأصواتهم فى الانتخابات.

الجدول ٨ – ١ حالة الإمبراطورية الأمريكية				
	قوية			
	ضعيفة			
	و/أو			
	و/أو			
	تزيد في			
	تزيد في			
	قوتها			
	ضعفها			
جيدة	بيسيفيتش، بارنيت		فيرجسون	جيدة
	كيسنجر، برزيزينسكي			
	إيكنبرى، بوبيت			
	ناي			
	إيجناتيف		كابتشان	
			تود	
سيئة	تشومسكى	مان	وولارشتاين	سيئة
	قوية		ضعيفة	
	و/أو			
	و/أو			
	تزيد فى			
	تزيد في			
	قوتها			
	ضعفها			

ليس لديهم ميول لأن يصبحوا مواطنين عالميين، ولا يريدون دفع فاتورة استعلاء أمريكا على العالم. وعلى جانب آخــر مــن المشهد نرى هنرى كيسنجر لا ينكر على الحكومة الأمريكية حقها أن "تدرك ما وصلت إليه من مكانة عالمية، لكن فى الوقت نفسه عليها أن تدير سياستها كما لو كان هناك مراكز قوية عديدة فى العالم" (كيسنجر ٢٠٠٢، ٢٨٨)[٢].

وفى السياق نفسه نجد زبيجنيو برزيزينسكى، مستشار أمن قومى سابق، له اتجاه متخلف نوعًا ما، ونستمع إليه وهو يتكلم بلهجة مستفزة مقصودة، فيقول إن "للإستراتيجية الجغرافية الإمبريالية ثلاثة مقتضيات، الأول: منع كل أنواع التواطؤ والمؤامرة والحفاظ على الاعتماد على الأمن فى كل الأراضى التى تحميها، والثانى: الحفاظ على الموالين لها طيِّعين ومحميين، والثالث: الحيلولة دون اتفاق الهمج مع بعضهم البعض" (برزيزينسكى ١٩٩٧، ٤٠). ومع ذلك، نجدها على المدى البعيد بحاجة لأن تأخذ موقع الصدارة فى تأسيس "مجتمع عالمى ذى مصالح مشتركة" (برزيزينسكى ٢٠٠٤).

ويرى جون إيكنبرى، أن هذه العملية تحدث بالفعل بسبب "الشخصية المفتوحة والمُخترقة للولايات المتحدة والأنظمة الديمقراطية الأخرى المتقدمة"، ويشبِّه الوضع القائم على أنه "كعكة متعددة الطبقات، وتتكون تلك الطبقات من المؤسسات الحكومية البينية التي تمتد وتتوسع منطلقةً من الولايات المتحدة شرقًا وغربًا" (إيكنبرى ٢٠٠١ ص٢٥٤)[٣] أما جوزيف ناى، فيؤكد على الحاجة إلى المشاركة فى المسئولية مع الدول الأخرى متى تحوَّل النشاط من الميدان العسكرى، حيث يكون لأمريكا الصدارة، إلى الميدان الاقتصادى متعدد الأقطاب وإلى المحيط العالمى المعقد الذى يحتله إرهابيون وغيرهم (ناى ٢٠٠٢).

ويوضح فيليب بوبيت، مقدار التحدى الذى يواجه أمريكا، ذلك التحدى الذى يمثل بنسفه مستوى مخيفاً من العمل (بوبيت ٢٠٠٢)، فهو يعطى الولايات المتحدة دور القيادة فى مساعدة العالم على أن يواكب التحول من نظام يقوم على دول

قومية، وهو النظام الذى يرتكز على تحقيق الترف للمواطنين، إلى نظام يقوم على دول السوق، وهو النظام الذى يساعد الأسواق العالمية فى العمل بشكل أكثر فعالية، وعلى ذلك ستظهر على الساحة أنواع مختلفة من دول السوق، وستكون بحاجة إلى قواعد للتعاون السلمى بيد أن ثمة احتمالاً لنشوب صراع مسلح، ومع ذلك، فلابد من تعاطى الحرب والتعامل معها "كأحد الأنشطة الإبداعية للإنسان المتحضر" (ص.٣١ من المقدمة).

ثمة العديد من النقاد الذين يرون أن أمريكا ليس بوسعها التعامل مع هذه التحديات، بغض النظر عمَّا إذا كانت تلك التحديات تستحق التعامل معها أم لا. ويرى نيال فيرجسون، وهو المؤيد الرئيسى للإمبراطورية (فيرجسون ٢٠٠٤، ٢٤)، أنه على الرغم من عدم وجود خطر من "الامتداد الاقتصادى"، فهناك مشكلة خطيرة ألا وهى أن الأمريكان "ليس لديهم الفكر الإمبريالى"، وليس لديهم "رغبة فى السلطة" (٩– ٢٨). وينظر مايكل مان إلى المشاكل الأساسية بشكل أعمق، إذ إن قدرات السلطة الأمريكية متفاوتة، مما يترتب عليه تفاوت خطير جدًا فى سلوكها الاستراتيجى فلا تتعامل مع القضايا المتطابقة بطرق متشابهة، فهى مثلا "عملاق عسكرى" (مان ٢٠٠٣، ١٨) لكنها "شريك اقتصادى ضعيف" ليس له إلا القليل من السلطة على الاقتصاديات الأخرى، وما هذا إلا نوع من "الانفصام فى الشخصية السياسية" إذ ينتاب الولايات المتحدة شخصية المتفرد بالقرار، وشخصية التابع للكيانات الأخرى من ناحية، و"الشبح الأيديولوجى" الذى يعمل فى عالم خال من المصداقية الأخلاقية للإمبريالية.

وينظر إيمانويل ولارشتاين إلى العوامل الأساسية التى تؤدى إلى الانهيار، من وجهة نظره. فهو يرى أن تلك العوامل تتمثل فى تنافس أوروبا الغربية واليابان وشرق آسيا فى الميدان الاقتصادى مع الولايات المتحدة، ووقوفهم على نفس مستواها، بينما النفقات العسكرية الأمريكية تستنزف رأس المال والإبداع من المشروعات الإنتاجية، وأن انتشار كلمة "إمبريالية" واستخدامها فى وصف الولايات

المتحدة، بالرغم من أنه يرضى القيادة الأمريكية، فإنه فى الحقيقة لفظ "يسحب الشرعية من الولايات المتحدة" (وولارشتاين ٢٠٠٣، ٣٠٨) [٤].

وأخيرًا، يذكر إيمانويل تود، فى كتاب جامع، أنه "فى الوقت الذى يكتشف فيه العالم الديمقراطية ويتعلم أن يمشى فى العالم السياسى دون أن يعتمد على الولايات المتحدة، فإن الولايات المتحدة عندئذٍ ستفقد سماتها الديمقراطية وستكتشف أنها لن تستطيع المُضى قدمًا بمفردها دون بقية العالم" (تود ٢٠٠٣، ٢٠). ويرى أن الولايات المتحدة تقلل من قدر نفسها عندما تتقدم لمواجهة قوى صغيرة فى المنطقة مثل العراق وإيران وكوريا الشمالية، وكوبا، وغيرها وتستعرض تقنياتها العسكرية التى لا تعطيها السلطة، من الناحية العملية، أن تملى على روسيا أو أوروبا أو اليابان ماذا يفعلون.

ويرى تود، "أن انهيار القوى الأيديولوجية والعسكرية والاقتصادية للولايات المتحدة لا يتيح لها أن تسيطر على العالم الذى أصبح أكثر اتساعًا وتقدمًا وتعلمًا وديمقراطية"، وأن مهمة العالم تتمثل فى إيجاد السبيل"لإدارة الخسائر الأمريكية على النحو الذى يصب فى مصلحة كل دولة".

ومع ذلك، وحتى نصل إلى فهم لأمريكا ولأنفسنا لابد أن نوسع إطار مرجعيتنا، ولابد أن نعود إلى موضوع الهروب، ونعود بالزمن خمسمائة عام إلى الوراء.

لعنة المسئولية

إذا كنا نريد فهم أنفسنا، وسواء كنا من أوروبا أو أمريكا الشمالية أو متأثرين بالثقافة الغربية، فإن الإصلاح الدينى هو نقطة البداية المثلى. وإذا عدنا إلى عام ١٥١٧، عندما أقدم مارتين لوثر وخاطر بنفسه فى عرض رسالته المكوَّنة من خمسة وتسعين جزءًا على باب الكنيسة فى ويتنبيرج، سنجد أن لوثر لم يكن مستعدًا أن يترك مستقر روحه فى أيدى سلطة لا يحترمها.

لقد كان الإصلاح هو شأن أناس يتحملون مسئولية مصيرهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، لقد جعلهم الإصلاح يدركون قيمة الحق، ويخشون الاحتياج، ويختارون لأنفسهم. لقد جعلهم الإصلاح يمقتون أى شىء يعوقوهم عن الاختيار بحرية. لقد أجج الإصلاح نزعتين فى الضمير الغربى: الأولى هى النزعة إلى الهروب، أى إلى تحرير النفس من الظروف المقيدة، والثانية هى النزعة الكبرى التى تعادلها والمتمثلة فى الهيمنة، و تدمير من يقف فى وجهها إذا لزم الأمر. وكل نزعة من النزعتين جاءت ومعها سائق يحدوها، فقد جاءت النزعة إلى الهروب ومعها الشعور العميق بالاستياء من الطغيان الذى جعل من الهروب ضرورة حتمية أو أملاً تتوق إليه النفوس. أما الرغبة فى الهيمنة فقد جاءت ومعها شعور قوى بالفضيلة التى تبرر فرض الشخص لآماله الخاصة، واحتياجاته وأطروحاته على الآخرين، وغالبًا ما يكون ذلك بالعنف والدمار.

وبناء على ذلك، فإن رد الفعل بالهروب من الإذلال يأتى مع أمور أخرى مصاحبة: ومنها الرغبة فى الهيمنة والشعور الشديد بالاستياء، والحاجة الملحة للشعور بالفضيلة. وهذا المفهوم الأوسع، والذى يمثل الهروب جزءًا منه، سيساعدنا على فهم بعض النواحى السلوكية للمؤسسات الحاكمة الغربية، لاسيما فى المجتمعات الاستيطانية، أو بمعنى آخر، المجتمعات التى هرب أعضاؤها القياديون من العالم القديم حين تتسنى لهم الهيمنة على العالم الجديد.

وفى هذه الطائفة، قد يكون مجديًا أن نعرج على بعض نواحى المجتمع الاستيطانى الأقوى، وهو الولايات المتحدة. وعلى وجه الخصوص، فإن هذا التحليل سيساعدنا على إدراك بعض التطورات المفاجئة والتحولات فى سلوك الولايات المتحدة فى العالم منذ حرب فيتنام، بما فى ذلك الإستراتيجية العالمية التى طبقها حزب المحافظين الجدد لصالحه والتى اكتسبت نفوذًا متزايدًا بعد عام ٢٠٠١.

قبل أى شيء من المفيد أن نعود إلى ذلك التخبط المخيف فى الفهم والذى ساد فى العصور الوسطى بأن الإله ليس فقط هو صانع العالم الذى يعيش فيه البشر، ولكن أيضًا هو ساكن هذا العالم. لقد حطمت حركة الإصلاح الدينى هذا المفهوم الذى ساد فى العصور الوسطى بأن العالم كان مقرا يعيش فيه الرجال والنساء وكلاهما يؤمن بما يرى، ويرى ما يؤمن به.

لقد فقد الناس إيمانهم الواثق بأن هناك هدفًا سماويًا من وجودهم فى هذا العالم، وأنهم والعالم برمته تفسير لهذا الهدف، ومن هذا المنطلق أصبحت العلاقة بين النفس والكون تمثل إشكالية كبرى، ولم تكن المشاكل مقصورة على معتنقى المذهب البروتستانتى، فالكاثوليكية نفسها، وهى معارضة للإصلاح، كان لديها قلق "بروتستانتى" واضح بخصوص ما يعتقدون فيه من سلامة النفس وخلاصها.

كل إنسان مفكر تواجهه الآن وتصدمه تساؤلات تتصل بالهوية، (من أنا؟)، وبالمعرفة (ماذا أعرف؟) وبالأخلاق (كيف أتعامل مع الآخرين؟)، وكل هذا كان من قبل حكرًا على القساوسة. وقد واجهت هذه المشاكل جميع الجنس البشرى فى محاولته لشق طريقه من خلال العالم المتخبط، وقد أصبحت هذه الرحلة أكثر خطورة على الروح والجسد، فما الذى يمكن فعله؟ وجد لوثر حاميًا من الأمراء، وأصبح كالفين سيد المدينة المحصنة، ولعل مصير جاليليو (الذى حكمت عليه محاكم التفتيش بالحبس) ومصير برونو (الذى حُرق حيًا بعد صلبه)، كانا بمثابة التحذير لمن تسول له نفسه أن يتجرأ ويخرج عن تقاليد الكنيسة دون أن يكون له من يحميه(٥).

وسرعان ما تلاحقت الأمور، لأن النفوس كانت فى خطر داهم، وذلك عندما تخلصت النفوس من حالة الارتباك، والشك بطرق مختلفة، لكن كل تلك الطرق لم يكن بينها عامل مشترك لتحقيق التصالح فيما بينها، فإحدى تلك الطرق كان الهروب عن طريق أن تذوب النفس فى نفس أكبر منها، وقد نقل جون دون هذا الشعور بالعضوية فى الكيان الأكبر فى كتابه "التأمل"، الذى ألفه عام ١٦٢٤، وقال فيه:

"لا يوجد إنسان يمكن أن يكون جزيرة قائمة وحدها، فكل إنسان هو جزء من القارة، جزء من كل، فإذا أكل البحر جزءًا من أوروبا، ستقل مساحتها، وكذلك إذا دخلت اليابسة إلى البحر فإن ذلك زيادة للقارة، تمامًا كالحالة عندما يكثر أصدقاؤك، فكأنك أنت الذى كثرت، وعندما يموت إنسان، فهذا انتقاص منى لأنى جزء من الإنسانية. ولذلك، لا يهمنى على أى جنازة ينادون، فأى جنازة هى جنازتى."(٦)

وبجانب تلك الطريقة التى ذكرناها للهروب، كانت هنالك طريقة أخرى وهى تحسين قدرة الذات على مقاومة الاقتحامات "الغريبة"، لتقوية النفس من خلال ضبطها. ونطالع هنا ما كتبه إجناتيوس لويولا، مؤلف كتاب "الأنشطة الروحانية"، المكتـــوب فى عام ١٥٤٨، حيث وضع إستراتيجية أساسية لمجتمع يسوع المسيح (أو مجتمع اليسوعيين)، الذى كان مبدؤه الموجه يتمثل فى الإخلاص والولاء للكنيسة (لويولا ١٩٥٠).

الجدول ٨ – ٢ الهروب والسيطرة		
	ترويض النفس	التعامل مع الآخر
الهروب	أن تذوب النفس فى ذات كلية أكبر (كأن تذوب فى الجماهير، أو فى الطائفة الدينية ككل مثلاً)	أن تنأى بالنفس عن المؤثرات "المفسدة" (بالهجرة مثلاً)
السيطرة	تقوية طاقات النفس لمقاومة الاقتحامات "الغريبة" والأفكار الآثمة، عن طريف شحذ النفس بهمة الصلوات مثلاً.	القضاء على كل التهديدات الخارجية التى تهدد كمال وسمو النفس وذلك عن طريق مهاجمة المذاهب المعادية وتدمير أى مصادر غواية شيطانية

وبعد أن تعلَّم جون دون على أيدى اليسوعيين، أصبح من أتباع الكنيسة الإنجيلية. ومن أبرز من تعلَّموا على أيدى اليسوعيين كان الفيلسوف وعالم الرياضيات رينيه ديكارت، لكنه لم يستخدم الممارسات اليسوعية لضبط العقل لتساعده على الولاء لأفكار ومعتقدات قائمة، وهو ما كان يراه إجناتيوس، بل على العكس، استخدم تلك الممارسات لاكتشاف ما هو جديد، ألا وهو كنه الوجود الذى لا يقبل أن يذوب فى كل أكبر. وفى نهاية بحثه الدءوب وصل ديكارت إلى كنه الوجود ألا وهو الذات المفكرة، وعلى العكس من جون دون، رأى ديكارت أن ضميره الواعى ليس جزءًا من كل كبير، بل هو ضمير واعٍ منفصل عن كل شيء، وحاول أن يخترق بعقله الضباب الذى أحاط به بنور الفكر العقلانى، لكنه، وتلك نتيجة منطقية، شك فى الكل الكبير "القارة" بتعبير جون دون، لأنه بالنسبة لديكارت كان كل إنسان جزيرة منفصلة بالفعل.

وهنا نستطيع القول بأن كل المتحولين إلى الحالة العالمية، أمثال جون دون وديكارت، انخرطوا تمامًا كل من خلال حياته الشخصية فى المعارك الطاحنة بين الكاثوليك والبروتستانت[٧]، التى تمثل بالنسبة لبعض الناس أمورًا نفسية لا يمكن تحملها. وهنا نذكر البحث العلمى الذى كتبه جون دون، حول جدلية الانتحار عند هامليت الذى لم يكن وحده الذى يفكر فى الانتحار. ومع ذلك،[٨] كانت هناك طرق أخرى للهروب أيضًا.

وإحدى الطرق لمنع النفس من الوقوع فى موقف مذل أو جائر هى الانتقال إلى البرية غير المتحضرة أو غير المتعلمة، حيث بوسع المرء إنشاء مستعمرة. وهذه الطريقة للتعامل مع الارتباك والاضطراب والفساد تضمنت أن ينأى المرء بنفسه روحًا وجسدًا عن خطر الفساد فى عالمه القديم الذى اعتاد أن يسكنه، وأن يدمر أى تهديد محتمل للعالم الجديد الذى ينوى بناءه[٩].

المستوطن المضطرب

المستوطنون هم أناس يرغبون فى البدء من جديد، وكتابة صفحة جديدة بعد أن طووا الصفحة القديمة من حياتهم. وتصور البعض منهم أنه بإمكانه أن يخلق مجتمعًا جديدًا أفضل حالاً فى الجنة الطاهرة المنشودة، وهذا المبدأ هو عنوان الأسطورة الأمريكية "عن الآباء المؤسسين"، لكن يبدو أن "مدينة الهضبة العالية" كان بها ضواحٍ قذرة.

إن إنشاء أى مستعمرة جديدة معناه استعمال سيف ذى حدين، الحد الأول هو الهروب، والحد الثانى هو الهيمنة. والهروب، كحد أول، كان أحد الوسائل لتحقيق تحرير النفس، أما الحد الثانى، وهو الهيمنة، فقد أدى إلى تدمير الآخرين، ففى القرن السابع عشر، وما بعده، استعمل المستوطنون فى أيرلندا وجنوب أفريقيا والمستعمرات الأمريكية حافتى السيف معًا، فقد أرادوا التحرر من شرور العالم القديم الذى خلَّفوه وراءهم، ورغبوا فى أن يحوِّلوا العالم الجديد الذى وجدوه إلى إمبراطورية يملكونها، لقد أرادوا تحويل العالم الجديد إلى ذلك النوع من الأرض الذى وعدوا به أنفسهم فى أحلامهم،(١٠) وهذا يعنى استخدام القسوة مع كل من يعترض طريقهم.

وفى أوائل القرن السابع عشر، حث الحكم الإنجليزى الاسكتلنديين على الهجرة إلى أولستر فى الجزء الشمالى من أيرلندا. وانحدر كثير من المستوطنين من الظروف المذلة من الفقر والهامشية، وأقاموا حياتهم فى الحدود بين اسكتلندا وإنجلترا. وفى أيرلندا وقعوا بين الطبقة العليا من الأيرلنديين الإنجليز التى احتقرتهم، وبين المواطنين الأصليين من الكاثوليك الذين احتقروهم أيضًا، ونتيجة لذلك، كانت العلاقات بين البروتستانت والكاثوليك عنيفة ويملؤها الاستياء من البداية.(١١)

ولعل أبلغ الأمثلة على ذلك كان ما حدث إبان الخمسينيات من القرن السابع عشــر، علــى يــد أوليفر كــروموبل، الذى انتهج سياسة منظمة للذبح والاستعباد، أو الإذلال. لقد مضى فى تأسيس "حجز" فى كونوت يحتجز فيه الأيرلنديين الهمج الخطرين الذين قاوموا الإنجليز (بخلاف المواطنين "المتحضرين" الذين لم يفعلوا ذلك)، وأن يبقيهم آمنين وراء نهر شانون.[١٢] هذه الخطة كانت إخفاقًا إداريًا، بيد أنها تنبأت بممارسات أخرى مثل "أماكن الحجز للهنود الحمر" فى الولايات المتحدة و"أماكن الحجز للوطنيين" فى جنوب أفريقيا.

وفى الوقت نفسه، فإن ذرية المستوطنين الألمان فى جنوب أفريقيا كانوا يفرضون العبودية على سكان القبائل المحلية. ومعتقدات الألمان فى إصلاح الكنيسة أكدت تفوقهم كشعب مختار ليس عنده التزام بالعمل، كما برروا التفرقة العنصرية قبل قرون. وقد شعر البوير بالتزام قليل نحو عبيدهم، ولم يكن عندهم ارتباط قروى بالأرض ولم يكونوا اجتماعيين. وكل رجل، كما قيل، تفادى الظلم من دخان جاره،[١٣] وفضّل العزلة على الجوار.

وكما كان الحال مع ذرية الاسكتلنديين الذين هاجروا إلى أولستر، فقد كان أبناء المستوطنين الألمان فى عيشة ضنك، ومع ذلك كان هذا الضنك أفضل من حال "المواطنين الأصليين" الذين ذاقوا الهوان والاستغلال على أيدى أبناء المستوطنين الألمان. أما البوير الذين فرض عليهم حكامهم القدامى ثم البريطانيين من بعدهم أسوأ إذلال، فقد تعاملوا مع هذا الوضع بتمجيد مهمتهم التبشيرية الخاصة وممارسة الإذلال على من دونهم فى طبقية مطلقة.

ومع وصول البريطانيين فى القرن التاسع عشر، تحول البوير من أسلوب الهيمنة إلى أسلوب الهروب. لقد خلفوا وراءهم حقولاً كانت تُزرع لقرون عدة وساروا مئات الأميال إلى البرية لاستعادة عزلتهم[١٤].

وتمامًا مثل البوير والاسكتلنديين الذين نزحوا إلى أولستر، فقد كان المستعمرون الأمريكيون بروتستانت يشعرون أن لهم مهمة تبشيرية مفعمة بشعور استعلاء على السكان الأصليين. بيد أنه كان ثمة اختلاف كبير في الحالة الأمريكية. كان مستوطنو أولستر يحكمهم الكيان البريطانى، ويعتمدون عليه، من القرن السابع عشر فصاعدًا. أما البوير (أو الأفارقة) فقد كانوا تحت ضغط مستمر من البريطانيين فى جنوب أفريقيا من بداية القرن التاسع عشر وحتى تأسيس اتحاد جنوب أفريقيا عام ١٩١٠. [١٥]

وعلى النقيض، فقد تحرر المستعمرون الأمريكيون من الإمبراطورية البريطانية قبل نهاية القرن الثامن عشر، وحافظوا على تحررهم من البريطانيين بالرغم من نشوب حرب عام ١٨١٢، ونتيجة لذلك، قضى الأمريكان قرنين من الزمن، كان الصراع خلالهما بين الهيمنة والدمار من ناحية والهروب والتحرر من ناحية أخرى، يحاولون أن يستقلوا بأنفسهم، تقابلهم فى طريقهم وقفات إما لضبط النفس وإما معيقات.

التجديد بالعنف

كان "مؤسسو" أمريكا المختارون (مؤسسة أو مجتمع عادة ما تقرر هذه الأشياء بعد مرور الأحداث بفترة طويلة) مجموعة من البيوريتان المنشقين. لم يتمكن هؤلاء الرجال والنساء من ممارسة طقوسهم الدينية فى أوروبا دون أن يعاملوا كمجرمين؛ ومن ثم فقد وجدوا الفرصة فى عبور المحيط الأطلنطى، والسؤال هنا ترى أى نوع من الثقافة أنشأوها؟ بحث ريتشارد سلوتكين فى المؤلفات التى كتبها المستوطنون الجدد على مدار القرنين ونصف القرن والتى كانت سببًا فى الحرب الأهلية، وقدم الإجابة على هذا السؤال (سلوتكين ١٩٧٣)[١٦].

إن أهم ما ميَّز ثقافة المستوطنين الأمريكيين كان القلق والخوف، فقد اتخذ القلق صورة الشعور بالذنب، وربما فى شكل تصور غامض للعقوبة، لترك العالم القديم فى أوروبا، وكان الخوف خوفًا من الوحدة وخطر مواجهة العالم الجديد، فهل يا ترى سيتمكن منهم الإنجليز ويعاقبونهم على فرارهم وخروجهم عن طوعهم؟ ترى هل ستهلكهم الحياة فى البرية؟ ترى هل سيتحولون إلى همجيين؟ والعنصر الآخر فى مجتمع المستوطنين الأمريكيين تمثل فى الأمل، ذلك الأمل فى الربح المادى والروحى المكتسب من خلال التجربة القاسية والمعونة الإلهية.

إذن ما هو النتاج الثقافى الذى رسم ملامح المجتمع الاستيطانى الأمريكى الجديد؟ إذا نظرنا إلى التراث الثقافى كما فعل سلوتكين سنجد صورة ملفتة للنظر تلك الصورة ترسَّخ فى الأذهان أن هؤلاء الأمريكان الجدد يريدون الربط بين معاناتهم وبين المعونة الإلهية، أى إذا كان هنالك خوف من الإنجليز وخوف من الهنود الحمر فهناك الله الذى إذا احتموا به لن يخيب آمالهم. والأمثلة على هذا المفهوم كثيرة، ولعل أبرزها تلك القصص التى روت حكايات المستوطنين الجدد الذين وقعوا فى أسر الهنود الحمر، وخلصتهم العناية الإلهية من ذلك المصير التعيس. ونطالع فى هذا السياق أشهر تلك القصص، وهى القصة التى كتبها كوتون ميثير، يروى فيها ما حدث للمستوطنة الجديدة حنه دوستين، التى وقعت فى أسر الهمج أو الهنود الحمر. وقد نُشرت هذه القصة فى عام ١٦٩٧، وكانت تحمل عنوانًا أصليًا وآخر فرعيًا يكشف عن تلك الحالة، وكان العنوان هو: ذل الأسر وحلاوة الحرية من بعده، تحليل مختصر للأمر والمنهج المتبع فى التعامل معه، فالأمر هو الإذلال الذى كان نذير الخروج من المحنة الكبرى، ومنهج التعامل معه مُستفاد من حكاية قصة تحرر بعض الأسرى من يد الهنود الحمر.[١٧]

لقد كانت هذه القصة التى نقلها ميثير هى الرابط بين أهل الأرض وأهل السماء، إذ إننا نستطيع ملاحظة كيف أن القصة تحوَّل فيها الذل على يد "الهنود الحمر المتوحشين" إلى خلاص جاء من السماء ليحرر هؤلاء الأسرى من يد

آسريهم الطغاة. وهنا نجد أن السماء بتدخلها المنقذ كانت "طرفًا ثالثًا له دوره الأصيل فى القصة ككل"؛ لأن السماء هنا راقبت، ولم ترض المهانة لهؤلاء المستوطنين الجدد، لكنها صبرت لترى كيف سيتعامل المستوطنون الجدد مع تلك المهانة وذلك الذل، وعندما رأت السماء أن المستوطنين قد حاولوا بشرف واستعانوا بقدرة وحكمة السماء، تدخلت السماء هنا لإنقاذهم، ويتضح هنا مكانة الإله فى نفوس هؤلاء المستوطنين الجدد، فالإله هو المخلِّص الحامى الذى مكنهم من الخروج من مصير الأشقياء إلى مصير السعداء.(١٨) ونستطيع القول هنا إن تلك القصة أو الأسطورة رسخت فى أذهان المستوطنين الجدد مفهوم الهروب، ذلك الهروب الذى جاء كرد فعل طبيعى للإذلال. والإسقاط الواقعى واضح جدًا، فالإذلال ما هو إلا حالهم فى أوروبا، والهروب هو عبورهم الأطلنطى إلى الأرض الجديدة، وأكيد أن هذا من تدبير الإله الحكيم لهم الذى يبارك مسعاهم ويساعدهم فى تنفيذ ما عزموا عليه لأن فيه الصلاح.

وبعد أن وصل المستوطنون الجدد إلى الأرض الجديدة كان لابد لهم من التكيُّف مع المناخ الجديد والظروف الجديدة التى لم يألفوها من قبل، والتجربة الإنسانية هنا تتجسد فى ملاقاة أمر جديد هو المطاردة والقتل. فالهنود الحمر، وهم السكان الأصليون فى الأرض الجديدة، سيطاردون المستوطنين الجدد، وسيسعون لقتلهم. وهنا كان لزامًا على المستوطنين الجدد أن يتعاملوا مع تلك التجربة، وأن يحسنوا تعاطيها. ولتحقيق ذلك، كان لابد من خلق نموذج من المستوطنين الجدد يجيد المطاردة والقتل هو الآخر بحيث يتفوق على الهنود الحمر فى أهم ما يميزهم، وبالفعل تحقق ذلك النموذج الذى جمع فى شخصيته الصورة الأسطورية، صورة "بطل الحدود" حامى الحمى. وها هو ديفى كروكيت يخرج للنور، ويبهر التاريخ بأفعاله ومهاراته وقدرته على تحدى الشر، ونشر الفضيلة إلى أن يقضى نحبه فى معركة ألامو عام ١٨٣٦. فقد كان هذا البطل أحد أبناء الأسر التى هاجرت من

أولستر، ومجتمع أولستر صورة للمجتمع الاستيطانى الذى تأثر بأشكال شتى من أشكال المذهب البروتستانتي[١٩].

ولمعرفة المزيد عن هذا البطل التاريخى، نطالع ما كتبه فيرنون بارينجتون فى دراسته عن الفكر الأمريكى إذ يقول:

> لقد كان ديفى كروكيت الحقيقى لا يزيد على رجل بسيط، رث الثياب.... وتكشف سيرته الذاتية عن الخلفية الأيرلندية الإنجليزية المتوحشة التى جعلت منه واحدًا من وحوش البرية لا يعرف شيئًا عن المدنية أو التحضر... شخصيته صلبة كالصخر، كانت الحدود بالنسبة له هى الخط الأحمر الذى لا يتعداه أحد، فمَنْ يفكر أن يعبر تلك الحدود هالك لا محالة على يده، فقد كان يجد أن مهمته هى ذرع الحدود التى تحيط بتينيسى ذهابًا وإيابًا، وهو لا يجد فى ذلك أى غرابة، فهو يعيش حياته كاملة، يأكل ويشرب، ويأتى النساء، وله أسرة وأطفال، ويصنع طعامه من ضرب فأسه، فقد عاش معظم حياته بعيدًا عن المدينة، على حدود بلاده الجديدة، وتبدو قدرته على المطاردة والصيد فى ممارساته، إذ استطاع أن يصيد خمسة دببة فى فصل واحد، واستطاع أن يصيد ستة غزلان فى يوم واحد، فما أروعه من رام وصياد، استطاع بقوته تلك ومهاراته أن يلقى الرعب فى قلوب الهنود الحمر الذين سرعان ما أدركوا أن المستوطنين البيض الجدد يفوقونهم فى الصيد والمطاردة والقتل، ولا قِبل لهم بهم إذا ما واجهوهم. لقد كان ذلك الرعب الذى تولد فى قلوب الهنود نتاجًا لقوة ديفى كروكيت، الذى هز بقوته عرش إمبراطورية

الهنود الحمر، فأذعنوا بعد أن أتلف ضياعهم، وأفسد حرثهم، وذبح رعيهم وألقى الرعب والخوف فى قلوبهم (بارينجتون عام ١٩٣٠، ٢: ١٧٨-٩)[٢٠]

بعد تلك الصورة التى تأصلت فى الفكر والوجدان الأمريكى نستطيع أن نفهم منطقًا إضافيًا لما ذكرناه من قبل، فبعد أن وقف الإله ليبارك هروب الأمريكان من الإذلال الأوروبى، هاهم الأمريكان أنفسهم أصبح لديهم القوة التى يبنون بها مجتمعهم الجديد. فبطل الحدود هو محترف، وماهر، ومنضبط، ومتزن، وملتزم بقيم الحياة الأسرية، ويعمل، ويزرع، ويأكل من عمل يده، ويقدس الأسرة، ويضطلع بمسئولياته تجاه أرضه وعرضه. هذا هو النموذج الأمريكى للقيم التى ستبنى المجتمع الجديد.

وبناءً على تلك الصورة، نجد أن القتل والذبح ما كان إلا لرعاية المستوطنين الجدد، بمعنى أن بطل الحدود قتل وذبح ليحمى موطنه الجديد، فالقتل صدر عن قلب رءوم، وبدافع من روح تطوير الذات، وسعى حثيث لتحقيق ما هو أفضل لكل شخص فى الحمى. ويا له من تناقض غريب للمنطق والعقل، أبالقتل، سواء قتل حيوانات أو بشر، وبإفساد الأرض، يبنى البطل حياة متحضرة ويحافظ على بقائها؟[٢١].

ترى ما هى تبعات هذا المنطق الغريب، الذى ورثته أمريكا الحديثة؟ ولنستمع إلى إجابة هذا السؤال من سلوتكين الذى يقول:

أسطـــورة الصيـــاد.... هـــى أحد أشكال تجديد الذات أو تكوين الذات من خلال أعمال العنف... وبتصديق هذه الأسطورة التى تقول ببناء الحياة بمعاول القتل والصيد، قام الصيادون الأمريكيون بإفساد المناخ الطبيعى الذى أعطى لهم

الحرية الاجتماعية والاقتصادية، وديمقراطية الحركة الاجتماعية، وإلى الآن لا تزال تلك الأسطورة، بما حوته من نظام قيمى قائمة، .... وأعتقد، أننا مضينا فى ربط الديمقراطية والتقدم بالتحررية الاجتماعية الأبدية (رآسيا وأفقيًا على السواء) وبتوسيع نطاق نفوذنا فى ميادين جديدة أو بسط النفوذ على مستويات جديدة من الاستغلال... لقد كان الهنود الحمر هم العدو النمطى للبطل الأمريكى، وكذلك فإن العدو الآن هو أى جماعة أو دولة تهددنا كما كان الهنود الحمر يهددون أسلافنا فى أساطير الأولين. (سلوتكين ١٩٧٣، ٥٥٧– ٨)

لقد عزز ذلك المنطق الغريب، منطق الصيد والقتل من أجل التجديد، أسطورة الأسر، تلك الأسطورة التى تسمح للأمريكان أن يكرروا عنفهم ضد أى هدف يهددهم، وكأنهم ينتقمون للماضى التاريخى. بمعنى أنهم عندما يهاجمون بعنف، فإنهم يستعيدون ماضيهم ويشعرون أنهم محقون فى عمل هذا.

والماضى الذى ينتقمون له هو الوقت الذى كانت فيه القوى العالمية المحيطة بهم مقيِّدة ومستذلة لأسلافهم من المؤسسين الذين رفعوا بناء أمريكا وماتوا وهم يرفعون ذلك البناء على أيدى القوى العالمية المستبدة التى أرادت هدم ذلك البناء فى مهده، وسرعان ما تكوَّنت الرغبة الأمريكية فى الهيمنة والتدمير، تلك الرغبة التى كانت نتاجًا للهروب الأول الذى تم وعبر فيه الأمريكان المحيط الأطلنطى، وقد أجج تلك الرغبة "شعور المهاجرين بالذنب لاضطرارهم كسر روابط الأسرة عندما رحلوا" (سلوتكين ١٩٧٣، ٥٦٣)، كما أن تلك الرغبة فى الهيمنة والسيادة كانت المخرج للتخلص من الشعور العارم بالاستضعاف، ذلك الشعور الذى وصل أوجه فى أوائل تكوين الجمهورية الأمريكية، وقد خفت هذا الشعور مع الوقت، لكنه خلَّف آثارًا مشوشة فى الثقافة الأمريكية. وعندما يصف سلوتكين شعور الأمريكان المتأصل بتاريخهم الخاص، وأن ذلك الشعور يجعلهم يشعرون أن بإمكانهم الانتقام

للماضى فى شكل أعمال عنف متكررة ضد أى هدف سانح، فهو بذلك يصف حالة نفسية مشابهة تمامًا لتلك الحالة التى عبَّر عنها ابن لادن فى تبريره لأحداث ٩/١١.

الاستياء والفضيلة

حتى الآن قمنا باستعراض الجدل بين الهروب والهيمنة فى إطار الحالة الاستيطانية. ويتداخل مع هذه الحالة الجدل بين مثيرات الاستياء والسعى وراء الفضيلة. وكما ذكرت من قبل، فإن مشاعر الاستياء من الممكن أن تسفر عن عنف مدمر، والسؤال هنا هو ما علاقة كل ذلك بالفضيلة؟ ويجدر بنا الإشارة إلى أن مسار تلك العلاقة ليس مباشرًا ويحتاج إلى فضل بيان.

ترتبط كلمة "الفضيلة" بصفات القوة والشجاعة والذكاء التى تمكِّن المرء من أن يثبت وجوده، ومن أن يحافظ على مكانته الاجتماعية ويرتقى بها، وتمكِّنه من تعاطى مصالحه الشخصية بفعالية، وتمكِّنه من حماية ما يختار من تلك المصالح. إن كلمة الفضيلة تقتضى "الرجولة" و"القوة" على السواء، كما تعنى الأفكار التى تتضافر معًا فى إطار مفهوم "الرجولة و"القوة". وعندما يتساءل الرجل الذى يمتلك الفضيلة بهذا المعنى "المُشرِّف" ماذا عليه أن يفعل، فإن هذا السؤال يشير إلى أفعال وأمور تتعلق بالميدان السياسى أو العسكرى أكثر من الصلاح الأخلاقى. والسؤال الجوهرى هو "كيف يتسنى لذلك المرء ممارسة قدرته الرجولية بفعالية لرعاية مصالحه الشخصية العملية؟ وليس السؤال "ما هى المعايير الأخلاقية للانضباط السلوكي؟" وإذا نظرنا إلى الثقافة السياسية للولايات المتحدة نجدها دمجت هذين الاعتباريين معًا من خلال تكريس الافتراض القائل بأنه عندما يمارس الأمريكان القوة فهذا مؤشر فضيلتهم الأخلاقية.

وفى لب ما يُطلق عليه اسم "الأيديولوجية الأمريكية" تكمن الفكرة القائلة بأن القوة العسكرية والاقتصادية والسياسية هى دليل الفضيلة بمعنى الصلاح الأخلاقى،

وهذا المنطق يوازى أسطورة الصياد. وإذا استحضرنا تكوين أسطورة الصياد نجدها كالتالى: يؤدى العنف المدمر إلى بعث العدالة الاجتماعية والحب واستجلاب العطف السماوى. ولنتحول سريعًا إلى الأيديولوجية الأمريكية التى تتركب من الأسطورة الرسمية، وإلى قواعد اللعبة التى صدَّقت عليها تلك الأسطورة.

الأيديولوجية الأمريكية

نعنى بتعبير "الأسطورة الرسمية" الآليات التى من المفترض أنها تعمل على تشكيل الأمريكان والمجتمع الأمريكى. ونعنى بتعبير "قواعد اللعبة" الطريقة التى تسير بها عناصر تلك الأسطورة لشرح وتبرير أحداث بعينها فى الحياة الواقعية وفى التاريخ وفى السياسة. وفى سياقنا التالى، عندما ترد كلمة "الفضيلة" فإنها تعنى المعنى الحداثى لتعبير "الصلاح الأخلاقى".

وتوضح "الأسطورة الرسمية" الأمريكية أنه عندما يتحرر مجتمع ما فإنه ينشئ دساتير وقوانين منطقية، ويضمن ذلك المجتمع فضيلة أو ("صلاح") هذه الدساتير والقوانين وأنها ستوجِّه أفعال الناس حتى يصلوا إلى درجة الصلاح. وهذا الصلاح من شأنه أن يجعل الناس أقوياء، وهذا بدوره، يجلب لهم النجاح. ونتيجة لهذا النجاح، فإنهم يكسبون القبول والإشادة ممن يراقبون الأحداث. وبالتالى، فإن الحرية سبب فى العقلانية، والعقلانية سبب فى الفضيلة، والفضيلة تؤدى إلى الصلاح، والصلاح يؤدى إلى القوة، والقوة تؤدى إلى النجاح، والنجاح يؤدى إلى القبول.[٢٢]

وهنا نلاحظ، إذا دققنا النظر والفهم، أن هناك رسالة مفادها أن أى شكل من أشكال القوة يظهره العدو ما هو إلا صورة من صور "الطغيان" أو "الاعتداء"، وهذا يختلف تمامًا عن "القوة" الديمقراطية الأمريكية، والتى، وفقًا لهذه الأيديولوجية، تنطوى على الصلاح الأخلاقى فضلاً عن القدرة على العمل بقوة.

وتسير هذه الأسطورة الرسمية وفق تسلسل منهجى (انظر الجدول ٨ – ٣).
ووفقًا لتلك الأسطورة، فإن "النجاح"، الذى تم إنجازه من خلال "القوة" من المنتظر أن يخلق حرية جديدة ويعيد الأمور إلى نصابها الطبيعى مرة أخرى. ولهذا دلالات شتى تبدأ من النزعة الخيرية التى تتحقق نظريًا على أيدى الحكام الأقوياء الأثرياء الموجودين من أجل الفقراء الذين حددهم أندرو كارنيجى[٢٣]، إلى فكرة أن الدولة الديمقراطية القوية والناجحة بإمكانها "جلب الحرية" للمجتمعات الأخرى عن طريق الوسائل العسكرية والاقتصادية. وهذه الدائرة تذكرنا بأسطورة الصياد التى تقول بأن العنف يطهر من يرتكبه، ويجدد فضيلته، وصلاحه، وقوته.

وما دام الجميع يسلِّمون بالعلاقة السببية التى ذكرناها، فقد تؤخذ نتائجٌ بعينها دليلاً على صحة العوامل التى أدت إليها، وهذه هى "قواعد اللعبة". بمعنى، أنه قد يؤخذ النجاح دليلاً على قوة المرء وصلاحه وفضائله[٢٤]. وبالمثل، فإن قوة الدولة، أو الجماعة أو الشخص، قد تعتبر نتيجة لحريتها، أو نتيجة لخضوعها لقوة ما شرط ألا تكون قوة "طاغية" أو قوة معادية لأمريكا أو قوة غير أمريكية.

الجدول ٨ – ٣ الأيديولوجية الأمريكية	
الأسطورة الرسمية	الحرية --> العقلانية --> الفضيلة --> الصلاح --> القوة --> النجاح --> القبول (--> = "يؤدى إلى)
قواعد اللعبة	القبول --> النجاح --> القوة --> الصلاح --> الفضيلة --> العقلانية --> الحرية (--> = "إثبات على وجود)

وكما يقال العكس بالعكس، بمعنى أن النقد السلبى (عدم القبول) قد يكون مؤشرًا للإخفاق (عدم النجاح)، الذى قد يُفسر على أنه مؤشر الضعف (عدم وجود القوة) وهكذا. وبالنسبة للأذهان الثاقبة، فقد يُفسر الإخفاق على أنه اختبار أخلاقى قد يحمل فى طياته الإذلال (كما فى أسطورة الأسر) ويقوى الفضيلة بما تحمله من إيجابيات.

فيتنام وما بعدها

لقد ساعدت قواعد اللعبة والأسطورة الرسمية التى أسلفنا الحديث عنها فى فهم نمط الحياة السياسية الأمريكية، لاسيما علاقاتها الخارجية منذ عام ١٩٦٨. وتقع هذه المدة فى ثلاث مراحل متعاقبة، وكل مرحلة لها طابعها الغالب، وهى بالتتابع مرحلة الإذلال (من ١٩٦٨- إلى ١٩٧٩)، ومرحلة الاستعادة الجزئية (من ١٩٧٩- إلى ١٩٩١) ومرحلة إثبات الوجود المتجدد (من ١٩٩١- إلى....).

مرحلة الإذلال (من ١٩٦٨ إلى ١٩٧٩)

فى عام ١٩٦٨، كانت البداية حيث عانت الولايات المتحدة، ولمدة إثنى عشر عامًا، من الإخفاق والنقد العالمى والانقسام الداخلى[٢٥]. وقد بدأ ذلك يوم أن وقع هجوم التيت (أو هجوم الربيع) الرهيب فى فيتنام فى يناير من عام ١٩٦٨، وكان ذلك الهجوم مصدر إذلال كبير للحكومة الأمريكية[٢٦]، فقد أصاب الهجوم الذى شنه الفيتناميون من الشمال على جنوب فيتنام، بالتضامن مع الفيتكونج، الأمريكان بالذهول وتمكن عشرون فدائيًا من فدائيى الفيتكونج من الاستيلاء على السفارة الأمريكية فى سايجون لمدة قصيرة. وتم احتواء الهجوم فى النهاية، بيد أن الكيان السياسى الأمريكى لم يعد قادرًا على الاستمرار فى الحرب[٢٧].

وفى العام نفسه الذى وقع فيه هجوم التيت أو الربيع تتابعت أحداث أخرى على رأس الدولة الأمريكية، فقد قامت القوات الأمريكية بمذبحة القرويين فى ماى لاى، واستُبعد ليندون جونسون من السباق الرئاسى، واستطاع العالم أن يحشد الأدلة على إدانة الحكومة الأمريكية، وبدأت فى تلك الفترة محادثات السلام. وفى نهاية المطاف، عام ١٩٧٥، وفى أعقاب استقالة ريتشارد نيكسون على خلفية فضيحة ووتر جيت بتسعة أشهر، قام المسئولون الأمريكيون بهروب غير مُشرِّف من سايجون على متن طائرات الهليكوبتر.

وليس هذا كل شيء، فقد أُرغم نيكسون على إنقاص قيمة الدولار الأمريكى مرتين، عام ١٩٧١ وعام ١٩٧٣. وبنهاية السبعينيات من القرن العشرين كانت اليابان مصدر تحدٍ للهيمنة التجارية الأمريكية. ثم بعد ذلك فى ٤ من نوفمبر عام ١٩٧٩، تمكن النظام الإسلامى الثورى فى إيران من الإطاحة بالشاه، واستولى على السفارة الأمريكية فى طهران واتخذ من موظفى السفارة ستًا وستين رهينة، بقى منهم اثنان وخمسون رهن الاحتجاز حتى شهر يناير من عام ١٩٨١.

والواضح أنه بين عام ١٩٦٨ وعام ١٩٧٩ عاش الأمريكان فترة من الإذلال الشديد، وإبان تلك الفترة سُحب منهم القبول، وحُرموا من النجاح فى الميادين الأساسية؛ وبناءً على ذلك، فقد بدءوا يشكون فى قوتهم وربما فى صلاحهم.

مرحلة الاستعادة الجزئية (من ١٩٧٩ إلى ١٩٩١)

إبان هذه الأعوام الإثنى عشر، استمر التحدى الاقتصادى اليابانى وارتفعت نسبة البطالة بحلول منتصف الثمانينيات من القرن العشرين. ومع ذلك، فقد شهدت فترة الثمانينيات تلك تقدمًا ملحوظًا فى التجارة، فقد أعطى رونالد ريجان الأمريكان ثقة متجددة فى أنفسهم وأخبرهم أنهم يستحقون القبول. لقد دعم الشعور بالفضيلة داخلهم كسكان "لمدينة الهضبة العالية" وعدوهم هو "إمبراطورية الشر". وبين عام ١٩٧٩ وعام ١٩٨٩، سيق الاتحاد السوفييتى إلى "فيتنام أخرى"، وهى الحرب فى أفغانستان، والتى انتهت بالإخفاق والانسحاب، وأعقبها انهيار الاتحاد السوفييتى فى الفترة بين عامى ١٩٨٩ و١٩٩١ وإجمالاً، أثناء هذه الفترة الثانية كان المجتمع الأمريكى "فى حالة تعافٍ" وحظى بقبول الذات واسترجاع الشعور بالفضيلة.

مرحلة تجديد إثبات الذات (من ١٩٩١ إلى ....)

فى الفترة التى تلت حقبة الثمانينيات من القرن العشرين، أعادت الولايات المتحدة اكتشاف هويتها كدولة "قوية" تريد أن تكون أقوى. ولم يعد السؤال السياسى

الجوهرى المطروح هو "إلى أى مدى يمكن أن نتمتع بالفضيلة؟" بل تغير هذا السؤال إلى سؤال آخر هو "إلى أى مدى نكون أقوياء؟"(٢٨) وبحلول أوائل التسعينيات من القرن العشرين أصبح أشد منافسى أمريكا، هما روسيا واليابان، فى حالة من الضعف الشديد. وأصبحت الولايات المتحدة هى اللاعب الوحيد والأكبر فى الساحة العالمية. وفى التسعينيات من القرن العشرين شعر الأمريكان "بالأمان" وعدم التهديد داخل حدودهم. وكانت المحركات السياسية الأساسية، داخل البلاد وخارجها، هى الانتهازية، والربحية وتسوية الحسابات.(٢٩)

* * *

لذا وتلخيصًا لما مضى، نستطيع القول بأنه على مدى الإثنى عشر عامًا، حتى عام ١٩٧٩، عانت الولايات المتحدة إخفاقات مدمرة فيما يتعلق بالقوة والنجاح والقبول، وقد أسفر هذا عن تقليل مصداقية الادعاء القائم بأنهم رعاة الحرية والفضيلة والصلاح ومثلها الأعلى. وفى الفترة الثانية، من عام ١٩٧٩ وحتى عام ١٩٩١، كان لحملة ريجان دور أساسى فى تجديد الثقة الأمريكية فى فضيلتها. ومن حسن طالع الولايات المتحدة أن صاحب كل هذا ضعف شديد لأشد المنافسين، روسيا واليابان.

وبالرغم من أن الولايات المتحدة رغبت فى حدوث ذلك، فلم يظهر بشكل مقنع أن القادة الأمريكيين هم السبب فى حدوثه.

وفى الفترة الثالثة، منذ عام ١٩٩١، قلل كلٌ من جورج بوش الأب وبيل كلينتون من شأن "مسألة الرؤية"(٣٠) التى برع فيها ريجان، وبدلاً من السير على خطى ريجان، "لعبوا" بالعناصر الثلاثة الأخيرة من عناصر قواعد اللعبة، أو بمعنى آخر، سعوا لاستغلال القوة الأمريكية بطريقة عملية لتحقيق النجاح وكسب القبول فى الداخل والخارج.

وعندما تقلَّد جورج دبليو بوش الحكم عام ٢٠٠٠، أحيا نغمة التأكيد مرة أخرى،[٣١] وأخذ يدق على وتر الحرية باعتبارها السبيل الوحيد للحفاظ على القوة الأمريكية.[٣٢] لقد ركز بوش على الأسباب الداخلية للقوة بدلاً من التركيز على المردود العالمى للقوة. وهنا نسوق فقرة نموذجية من حملته الانتخابية عام ٢٠٠٤ (مع إضافة بعض الكلمات بين قوسين):

"إن الدولة مستقرة وغنية (وقوية)، بيد أننا بحاجة إلى تذكر مصادر العظمة الأمريكية. إننا (أقوياء) لأننا نحب (الحرية)، وأمريكا منوط بها مسئولية لابد أن تحافظ عليها، لأننا موطن (الحرية) والمدافعون عنها. إننا نرى (الحرية) الحاجة الملحة وأمل كل قلب حى. إننا نرى (الحرية) مستقبل كل دولة، ونعلم أن (الحرية) ليست هبة أمريكية للعالم، إنها هبة الله وحده لكل رجل وامرأة فى هذا العالم. كما أننا نعلم أن (القوة) العظمى لهذه الدولة تكمن فى قلوب وأرواح مواطنيها. إننا (أقوياء) بسبب القيم التى نحاول أن نحيا بها – والشجاعة والعاطفة والاحترام والنزاهة. إننا (أقوياء) بسبب الدساتير التى تساعدنا فى تحديد مسارنا وأهدافنا – الأسر والمدارس والمجامع الدينية. وتعد هذه القيم والدساتير جوهرية فى حياتنا، وهى تستحق احترام حكومتنا."[٣٣]

هذا الخطاب بمثابة بعث جديد للأصولية المسيحية، دون أن تكون هناك أولويات أو أطروحات عمل بالنسبة للسياسة الخارجية، أو حتى ربط بين بنود الخطاب والسياسة الخارجية، فمن وجهة نظر بوش كان أفضل طريق لربط حلقات السلسلة الممدودة بين الحرية والقوة يتلخص فى القيام بأمرين، الأول هو خلق إطار تشريعى للتجارة الأمريكية التى سمحت للفضيلة والصلاح أن يتحققا على أيدى الشركات، والأمر الثانى هو تشجيع مناخ سياسى أمريكى يحابى الجماعات الدينية الأصولية.

حزب المحافظين الجدد

خلال تسعة أشهر من تقلد بوش الحكم، وكنتيجة مباشرة لأحداث ٩/١١، وقع فى أيدى حزب المحافظين الجدد،[٣٤] وكان لهؤلاء المحافظين الجدد أجندة أيديولوجية مختلفة، أحدها يبدأ من حيث انتهى بوش. لقد أشاد بوش بالحرية الأمريكية كمصدر للقوة الأمريكية، وكانت الحرية هى الشعار الذى يردده دائمًا، أما المحافظون الجدد فقد بدءوا وانتهوا بالقوة الأمريكية، ودأبوا على تجديدها وتوسيع نطاقها وحمايتها، وكانت القوة هى شعارهم.

وفى دراسة حديثة عن حزب المحافظين الجدد ظهرت المحاور الأساسية التى يرتكز عليها الحزب، وحصرت الدراسة تلك المحاور فى ثلاث نقاط هى:

١. الاعتقاد أن الشأن البشرى هو صراع بين الخير والشر.

٢. الاستعداد التام لاستخدام القوة العسكرية طالما أن القوة العسكرية هى القول الفصل لرسم طبيعة العلاقات بين الدول.

٣. الانشغال بالإسلام والشرق الأوسط.

واستطاع حزب المحافظين الجدد أن يقنع بوش بأن استخدام القوة الأمريكية خارج الولايات المتحدة أمر حتمى لضمان حماية الحرية الأمريكية فى الداخل، وكانت مهمتهم هى استغلال هذه القوة كمحرك لنجاح أمريكا المتحدة ولنجاحهم الشخصى، لقد أرادوا أن يلعبوا دور "الملاك الذى يصرف الريح ويرمى بالعواصف من يشاء"[٣٥].

وتتشابه روح حزب المحافظين الجدد الأمريكى مع روح سيسل رودس، الذى كتب عام ١٨٧٧ قائلاً: "إننى مقتنع أننا أفضل أجناس العالم وأنه كلما زادت الرقعة التى نشغلها من العالم، زاد الخير للجنس البشرى."[٣٦] ويعنى رودس بهذه الكلمات البريطانيين. وبالطبع فإن طموح حزب المحافظين الجدد يشابه ذلك

الطموح ولكن للأمريكان. ولعل انتشار أفكار الحزب كان بسبب الدعم الذى قدمه روبرت موردوك، ملك الإعلام فى أمريكا(٣٧).

وإذا استعرضنا تاريخ نشأة حزب المحافظين الجدد، نجد أن الحزب نشأ نتيجة انسحاب عدد من الديمقراطيين بعد فوز جيمى كارتر بالانتخابات فى عام ١٩٧٦، فقد خدع هؤلاء سياسة كارتر الخارجية "الضعيفة". وبحلول منتصف الثمانينيات من القرن العشرين تحرر هؤلاء الديمقراطيون المنسحبون من الوهم على يد ريجان، خاصة بعد أن اعتمدت إدارته على المملكة العربية السعودية بدلاً من أن يكون لها وجودها العسكرى الخاص(٣٨)، وفى التسعينيات من القرن ذاته كان تدخل الولايات المتحدة فى مشكلة البوسنة والهرسك دليلاً على أن عمل الولايات المتحدة مع الأوروبيين من خلال مؤسسات متعددة الأطراف مثل منظمة حلف شمال الأطلنطى (الناتو) ما هو إلا مضيعة لوقت الجميع واستنزاف للآلة العسكرية الأمريكية المتقدمة(٣٩)، وفى سبتمبر من عام ٢٠٠٢، أصبح لوجهة النظر تلك مكانة مقدسة فى السياسة الرسمية الأمريكية.

وإذا نظرنا إلى إستراتيجية الأمن القومى الجديدة نجدها تحقق ما أسماه كلٌ من هالبر وكلارك "مبدأ مونرون العالمى" (هالبر وكلارك ٢٠٠٤، ١٤٢)، فقد افترضت الولايات المتحدة أنها المسئولة عالميًا عن الدفاع عن السلام، والمحافظة على وجوده وتوطينه فى كل مكان، وذلك السلام، كما تدعى أمريكا، يهدده الإرهاب فى مقتل. وقد أعلنتها السياسة الأمريكية صريحة، وأوضحت أن أمريكا لديها من الإرادة والاستعداد ما يجعلها قادرة على التصرف وتعاطى الأمر وحدها وقادرة على أن تمنع وقوع أى شر من شأنه تهديد العالم.

وكان نتيجة التحالف بين بوش والمحافظين الجدد ظهور نموذج متطرف من الجاكسونية (إشارة إلى الرئيس الأمريكى آندرو جاكسون، الذى أسس فلسفته الحاكمة على العنصرية والتحرر الاقتصادي) ونموذج متطرف من الويلسونية (إشارة إلى الرئيس الأمريكى وودرو ويلسون، الذى أسس فلسفته الحاكمة على

احترام حقوق الإنسان والسلام العادل والديمقراطية، وحق تقرير المصير). والجاكسونية التى تبناها بوش كانت تعنى توجيه الدولة والسير بها فى عالم خالٍ من العقبات ما لم يظهر من يعكر الصفو، فإذا ظهر من يعكر الصفو فإن إستراتيجيه التعامل عندئذٍ تكون ملاحقة من يفعل ذلك بلا أى رحمة، والسعى إلى تدميره أو إبطال مفعول قدراته وشل حركته بأسرع وقت، وعلى نحو شامل، ثم الرجوع إلى الوطن بأسرع وقت أيضًا[٤١]. أما الويلسونية فهى على النقيض تمامًا من ذلك، إذ تعنى فى هذا المقام تصدير النموذج الديمقراطى الأمريكى إلى كل دول العالم، سواء كانت تلك الدول صالحة أم شريرة، وسواء شاءت تلك الدول أم أبت، إذ إن الفكرة الرئيسية هى القيام بذلك من خلال مؤسسات متعددة الأطراف طالما أن ذلك التعاون أمر سهل وملائم للحالة، وإلا تقوم الولايات المتحدة بتلك المهمة وحدها ولها أن تستخدم القوة إذا اقتضى الأمر ذلك[٤٢].

ونستطيع ملاحظة أمر مهم جدًا فى هذا السياق وهو أن حزب المحافظين الجدد يقوم أصلاً على التناقض. فمن ناحية، هناك ادعاء أن الولايات المتحدة تمثل بنفسها "الصراط القويم"، أى أن أمريكا متفردة عن العالم ونموذج استثنائى، فهى أرض الحرية والعدالة، وهذا ما يجعلها مختلفة ومتميزة. ومن ناحية أخرى، نجد أن ادعاء أمريكا بالتفرد مبنى على حقيقة واقعية وهى امتلاكها القدرة العسكرية المتفوقة، وأن الدولة التى تمتلك تلك القوة من حقها أن تهيمن على غيرها من الدول، بغض النظر عن إرادة تلك الدول. وباختصار كأن لسان حال أمريكا يقول: "نحن أفضل ونختلف عن باقى العالم" من ناحية، ونجده يقول من ناحية أخرى: "لا فرق بيننا وبين باقى دول العالم التى تنتهج نفس نهجنا إذا أُتيحت لها الفرصة."

إذن فإن هدف حزب المحافظين الجدد – "يجب أن تكون لنا السيطرة" – هو أمر لا يمكن التفاوض عليه، لذا فإن النهج الجاكسونى، بما له من مطالبات بتحقيق الحرية والفضيلة والصلاح، قدَّم لبوش الغطاء السياسى المناسب، خاصة عند التعامل مع جماهير الشعب. ومهما كان الوضع، فقد كان الأهم من الجدليات التى

قدمها حزب المحافظين الجدد فى تبرير موقفهم هو الأسلوب الذى قدموا به تلك الجدليات. ولا يخلو الأمر من استياء شديد تجاه أفعال ذلك الحزب، إذ يرى البعض أن الحزب يعيق تقدم المسيرة الأمريكية، ويحمل أمريكا على ممارسة الإذلال تجاه غيرها، ورفض ممارسة الغير للإذلال. وأبرز مثال على هذا الاستياء ما كتبه روبرت كيجان، فى كتابه "الفردوس والقوة" حيث يتهم أوروبا "بعدم الرجولة"[٤٣].

ففى ٩ أبريل عام ٢٠٠١، وبعد مرور ثلاثة أشهر على الفترة الأولى من حكم بوش، كتب روبرت كيجان وويليام كريستول مقالاً بعنوان "الإذلال القومى" لجريدة (*Weekly Standard*)، فقد واجه بوش أولى أزماته بعد أن اصطدمت طائرة استطلاع أمريكية بطائرة مقاتلة صينية فوق بحر الصين، ونذكر هنا مقتطفات من المقالة كما نُشرت:

> "إن الإذلال القومى العميق الذى جلبه الرئيس بوش للولايات المتحدة قد ننساه لبرهة من الزمن عندما يعود طاقم الطائرة الأمريكى إلى أرض الوطن، لكننا وبعد أن ننهى احتفالنا بعودة ذلك الطاقم، يجب أن نقيِّم الخسائر والمخاطر التى حدثت بسبب سلوك الحكومة.... فليس من العجيب أن الحكومة الصينية استولت على الطائرة وقامت بتفتيشها.... لكن العجيب فعلاً أن تعلن الحكومة الصينية شروطًا لإطلاق سراح طاقم الطائرة، وأول تلك الشروط أن تتقدم الحكومة الأمريكية باعتذار رسمى، ولكن هذا لا يبدو شرطًا بل هو مطلب صينى لفرض حالة من الإذلال على الولايات المتحدة أمام أعين العالم أجمع."

ويرى كيجان وكريستول أن "طلب الصين من الولايات المتحدة تقديم اعتذار رسمى أمام العالم أجمع، ليس الهدف منه أن تحفظ الصين ماء وجهها، بل تعمد إلى أن تجبر الولايات المتحدة أن تريق ماء وجهها، ومن ثم تعترف بضعفها." وقد

كان، ولكن "بشكل جزئى" وذلك عندما أعرب كولن باول عن "أسفه" تجاه الحادث. ومع ذلك، فعندما رأت الصين أنها استطاعت أن تجعل الولايات المتحدة تركع ولو على ركبة واحدة، زادت من الضغط، وحان الوقت الذى ركعت فيه الولايات المتحدة على كلتا ركبتيها "وتبنت توجهًا متعاونًا، واعترفت بخطئها وقدمت اعتذارًا رسميًا." وكما يقول لينين "إذا ضربت برمحك الحديد فاسحبه، لكن إذا ضربت برمحك لحمًا فاغرزه فيه ولا تتراجع." وقد ختم كيجان وكريستول مقالتهما بقولهما

> "إن الولايات المتحدة على شفا الإذلال، وبالنسبة لقوة عظمى – بغض النظر عن "القوى العظمى الوحيدة فى العالم" – فإن الإذلال ليس مسألة يتم التعامل معها باستخفاف.... ولأن الصينيين يفهمون بشكل أفضل من القادة الأمريكان، فقد استطاعوا أن يجعلوا بوش يرفع الراية البيضاء ويكشف عن ضعفه، بل وكشف أيضًا عن خوفه الذى تمثل فى الخوف من التبعات الاقتصادية والإستراتيجية والسياسية لمواجهة التحدى الصينى. وطالما انكشف الضعف والخوف، فلا غرو أن تستغل الصين ذلك، ربما فى المستقبل عند بروز النزاع على تايوان. (كيجان وكريستول ٢٠٠١، ١٧- ١٠)

ولعل ذلك يفسر الحالة النفسية التى ظهرت، بعد بضعة شهور من ذلك الحادث، فى رد فعل الحكومة الأمريكية على أحداث ٩/١١، ففى تلك الحالة تغلَّب الخوف من تبعات الإذلال المهينة على الخوف من التكاليف المجهولة للدخول فى معارك عسكرية مع العالم الخارجى، وكانت المحصلة هى إعلان الحرب على الإرهاب.

الفردوس والقوة

إن من أوضح الاعترافات التى تبرر الحرب على الإرهاب، والطريقة التى تتم بها تلك الحرب، كتاب "الفردوس والقوة" للكاتب روبرت كيجان (٢٠٠٣) والذى ناقشناه من قبل (انظر الفصل السادس)، إذ يرتكز الكتاب على أساس أن الولايات المتحدة ترفض أن تتقيَّد بالقوانين الدولية والمعاهدات لأنها تمتلك القوة لتجاهل كل ذلك، فهى تمتلك القدرة العسكرية لترعى مصالحها، وبها تضع إطارًا للنظام، ذلك النظام يستفيد منه كل من هو ليس عدوًا لأمريكا، خاصة أصدقاؤها وأوروبا منهم.

ويرى كيجان، أن أمريكا تعيش فى عالم هوبيسى (إشارة إلى هوبيس صاحب كتاب لوثايان، راجع الفصل السادس)، أى عالم تسود فيه القوة، أما الأوروبيون، فهم فى بيئة محمية، ومن ثم يتمتعون بالترف والنعيم الذى يؤهلهم لسن قوانين راقية لأنفسهم مستلهمة من الروح الكانطية (إشارة إلى فلسفة إيمانويل كانط)، وربما رغبوا، إذا استطاعوا، أن يفرضوا تلك القوانين على باقى دول العالم، خاصة أمريكا. ربما كان هذا التوجه مختفيًا إبان فترة الحرب الباردة؛ حيث كانت أوروبا فى مقدمة الصف، وإن صح التعبير كانت "متورطة" فى تلك الحرب أيضًا. لكن منذ عام ١٩٨٩، نعمت أوروبا بقدرتها على انتقاد الولايات المتحدة بينما كانت لا تشارك فى حمايتها إلا بالقدر القليل.

وقد واجه هذا الرأى ردود أفعال أوروبية وأمريكية على السواء، فمثلاً نجد ما كتبه روبرت كوبر، وهو دبلوماسى بريطانى كبير[٤٤]، إذ يقول إنه عندما تتمكن دولة ما من فرض إرادتها لتحقيق مصالحها، يكون من الصعب عليها أن تبقى على شرعيتها لدى الدول الأخرى (كوبر ٢٠٠٣)، علاوة على ذلك، عندما تكون تلك الدولة مهددة من حين لآخر بالهجوم عليها، فإنها تكون عرضة لأن تتصرف على نحو يقل معه التزامها بالممارسات الديمقراطية. ويؤكد كوبر أن تعددية الأطراف والقانون العالمى لهما قيمة جوهرية، فضلاً عن كونهما سبيلين للحد من الخطر والارتباك. ويعبر، بلهجة حادة، عن إحساس أوروبا بالصدمة تجاه الطريقة التى

قللت بها الحكومة الأمريكية من التزامها تجاه منظمة حلف شمال الأطلنطى (الناتو) واعتمادها عليه. ويرى كوبر أن أوروبا يجب أن تستمر فى بناء وتنسيق قدرتها العسكرية؛ حتى يتسنى لها أن تقدم الدعم العملى لتعددية الأطراف[٤٥].

أما بينيامين باربر، الذى يعيش فى مدينة نيويورك، فإنه يلفت النظر إلى دورة الخوف التى فعّلها عالم كيجان الهوبيسى حيث كان الخوف من الإرهاب هو الذى دفع العنف العسكرى الأمريكى وصدّق عليه ضد الآخرين. ويصف باربر الوضع بقوله: "إن منطق الحرب الوقائية يُقصد به الحيلولة بين الخصوم وبين وقوعهم فى حالة من العداء، لكن بدلاً من أن يحقق ذلك، استفزت الحرب الوقائية الخصوم وحملتهم على الدخول فى حالة العداء، إذ تستخدم أمريكا كلمات قاسية معبرة عن الخواطر الأخلاقية لتبرير تحريم إخضاع الخصوم، وتفاجأ بثورة الخصوم عليها." (باربر ٢٠٠٣، ١٤٠). وهذا الموقف قد حدث بسبب "الصقور" (المحافظين الجدد) الذين يقولون بأنه "ليس بوسع أمريكا أن تعزل نفسها عن العالم؛ لأنها يجب أن تحكم العالم. وهذه التعليقات من باربر هى نتيجة "لحماسه الرومانسى" الضال، فباربر من جانبه لا ينتمى إلى فريق الحمائم ولا فريق الصقور بل ينتمى إلى"البوم" الذين يقرون بواقع ضرورة التضامن العالمى، وقيمة القانون الدولى، وعدم جدوى محاولة ردع التعصب الدينى باستخدام القوة العسكرية لأن هؤلاء المتعصبين يوقنون أنهم بعد الموت على أيدى الأمريكان سيدخلون الجنة[٤٦]، وطلب الجنة هذا لا يمكن للقوة أن تمحوه بهذه الغطرسة.

وباربر محق فى أن يلفت النظر إلى دور الخوف فى السياسة الخارجية الأمريكية، فهذا الخوف يعبر عن نفسه فى نطاق الدائرة التى تكلمنا عنها فى نهاية الفصل السابع. ولابد أن نذكر أيضًا تحليل سلوتكين لديناميكية الاستياء. إن الخوف والاستياء هما مزيج كثيرًا ما يؤدى بالذين يواجهونه إلى الهجوم على من يرون أنهم أعداء.

وقد يأخذ هذا الهجوم أحد شكلين:

- الهجوم أولاً بدافع الخوف لإجهاض حدوث أى مشاكل.
- الهجوم المرتد بدافع الاستياء من أجل الانتقام ممن تسبب فى الأذى.

والشكل الأول، وهو الهجوم للمبادرة والاستحواذ على المشكلة، من الممكن أن يحدث عند وجود تهديدات جديدة محتملة، وتكرار هذا النمط قد يوصف بأنه دورة خوف.

والشكل الثانى، وهو الهجوم المرتد، من الممكن أن يؤجج دورة الانتقام، وإذا حدث ذلك، فإن مرتكبى الإذلال يصبحون بعد ذلك ضحايا لمن سبق وأن دمروهم، ثم يصبحون بعد ذلك معتدين مرة أخرى، وهكذا فى دورة لا تنتهى.

وكل حلقة من حلقات سلسلة الخوف من الممكن أن تثير دورة الانتقام إذا كان لدى الضحية القدرة على شن هجوم مرتد.

وسنستعرض دورات الانتقام فى الفصل العاشر، أما الآن فلنركز على دورات الخوف.

دورات الخوف

دورة الخوف هى سلسلة متكررة من الأفعال وردود الأفعال الناشئة عن رد فعل الهروب من الإذلال، وتشمل العناصر التالية (انظر الجدول ٨ – ٤):

١. الذين يهربون من الإذلال، حاملين الجراح والآلام التى أجبرتهم على الهروب، ينسحبون من العالم الكبير، حيث يتعرضون لإذلال أكبر، إلى مكان خاص آمن "يولدون فيه من جديد" ويحققون النجاح والسعادة[٤٧].

٢. وفى هذا الموقف يكونون أكثر حساسية تجاه أى نقد يوجه إليهم، ولا يتحملون الآخرين، ويخشون كل شيء يمكن أن يمثل تهديدًا، سواء كان ذلك واقعيًا أو وهميًا، لأحلامهم وطموحهم ومشروعهم.

٣. الذين هربوا يهاجمون "التهديدات" و"الأعداء"، سواء كانت حقيقية أو وهمية، وهذا يتسبب فى أن تشعر الجماعات المستهدفة بالإذلال والانتهاك والاستياء.

٤. وكنتيجة لذلك، يدخل الهاربون فى معاملات واتفاقات معقدة وطويلة ومربكة ومذلَّة مع من تأثروا بالهجمات، ويبحثون عن فرصة للهروب من ذلك الموقف، وبالتالى يعودون إلى النقطة (١)[٤٨].

ومما لا شك فيه أن دورة الخوف ليست حكرًا على أمريكا، ولا هى مقتصرة على المجتمعات الاستيطانية، بل من المحتمل أن تُثار متى خشيت جماعة قوية من مواجهة تحدٍ بطريقة يمكن أن تمحو هويتها، وتقوِّض سلطتها وتنسف عقلانيتها، وقد حدث ذلك مع البريطانيين فى الهند مع نهاية الحرب العالمية الأولى، ولعل مذبحة أمريتسار، التى نفذتها الحكومة البريطانية فى مواجهة المتظاهرين المسالمين عام ١٩١٩، كانت دليلاً على الخوف من تحدى الحكم البريطانى، ووفقًا للمسئول عن هذه المذبحة، فإن القصد من وراء تلك المواجهة كان الهجوم على الإرهاب فى كل إقليم البنجاب، وبعد مرور قرابة العقدين، وبعد الحرب العالمية الثانية، تكررت مثل هذه الانتهاكات مرة أخرى[٤٩].

لقد كان لديناميكية الهروب مكانتها المهمة فى الإمبراطوريات الأوروبية، وفى هذا السياق ترى حنه أرندت، أن ثقافة المجتمعات المغتربة داخل الإمبراطوريات الأوروبية عكست واقعًا، وهو أن أكثر الأعمال القذرة اليومية التى تتم لبناء الإمبراطورية قام بها من نبذتهم أوروبا، وهؤلاء هم الذين لم يتمكنوا من "العودة لأوطانهم" ومن ثم خرجوا، فمن ذا الذى يستطيع تحمل مخاطر الحياة فى مستعمرة؟

لاشك، أن ثمة مثاليين عمليين رغبوا فى أن يكون لهم دور فى جلب الحضارة لباقى أجزاء العالم[٥٠]، ومع ذلك، كما تقول أريندت، فإن الكثير من المستعمرين كانوا هاربين من مجتمع العاصمة بحثًا عن شىء أقل إذلالاً.

الجدول ٨ – ٤ دورة الخوف	
(١) الانسحاب من الأذى إلى وطن/أرض بديلة ↓	← (٤) الارتباك والوقوع فى فخ الضحايا الغاضبين
(٢) القلق إيذاء أى تهديد بالانتهاك →	↑ (٣) الهجـــوم على أى مصدر تهديد حقيقى أو وهمي

لقد ترك "المنبوذون" الإهانات وراء ظهورهم، واستوطنوا المستعمرات، وبحثوا عن جماعات أضعف منهم للسيطرة عليهم وقهرهم. وتلفت أرندت الانتباه إلى أن أكثر هؤلاء الأشخاص "لم يخرجوا من المجتمع ولكنهم أُخرجوا منه.... أما الموهوبون فقد كانوا تجسيدًا للاستياء، وأشهر مثال على هؤلاء هو الألمانى كارل بيتر ... الذى اعترف صراحة بأنه "سئم من كونه محسوبًا من بين المنبوذين من المجتمع وأراد أن ينتمى إلى طبقة السادة" (أرندت ١٩٧٦، ١٨٩). لقد استخدم كارل بيتر أساليب قاسية لكنها فعَّالة لبناء القوة الاستعمارية الألمانية فى شرق أفريقيا[٥١].

ومثل هذه الحقائق تضع دورة الخوف الأمريكى الطويلة فى سياقها التاريخى، تلك الدورة التى تشمل مذابح الهنود الحمر، وقتل السود الجنوبيين، ومذبحة ماى لاى فى فيتنام، والقتل الجماعى للجنود العراقيين أثناء حرب الخليج

بين عامى ١٩٩٠ و١٩٩١، وكل تلك الأفعال فى حد ذاتها لا تقل عما فعله الأوروبيون إذ إن منشأ تلك الأفعال هو الأرض الموعودة التى تقدم نفسها بديلاً أفضل من العالم القديم المملوء لحافته فسادًا.

حلاوة النصر المرة

أذكر هنا قول دين آتشيسون فى إحدى المرات، وعلى الملأ، إن بريطانيا قد فقدت إمبراطوريتها وأخفقت فى إيجاد دور جديد لها[٥٢]، أما الولايات المتحدة فى العقد الأول من القرن الحادى والعشرين فموقفها مختلف، لقد فازت بإمبراطورية جديدة، أو على الأقل حققت وضعًا إلى حد ما إمبرياليًا، بيد أنها فقدت دورها القديم[٥٣].

فمن جانبها تجاهد أمريكا لتتصالح مع نفسها لما تواجهه من تبعات الانتصارات التى حققتها فى القرن العشرين وغيَّرت بها معالم الجغرافيا السياسية، لقد تمكنت الولايات المتحدة من منع إعادة بعث الإمبراطوريات الأوروبية من جديد بعد أن ولى زمانها بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية، كما حققت انتصارًا حاسمًا على النازية الألمانية والشيوعية الروسية.

علاوة على ذلك، فإن أمريكا قد أظهرت للعالم كله كيف يمكن للرأسمالية أن تكون سببًا فى تحقيق الثروة للمجتمعات القومية، فعلى مدار الخمسين عامًا الماضية استوعب العالم هذا الدرس، وإن تفوق البعض على الآخر، بالرغم من أنه لم يبدو واضحًا حتى الآن كم عدد الدول التى يمكنها أيضًا أن تفهم الخديعة الأخرى لأمريكا فى تحويل نفسها إلى دولة ديمقراطية سلمية[٥٤].

يجب على أمريكا الآن أن تراقب أوروبا والصين، وكذلك أن ترى انبعاث اليابان وروسيا وتعاظم ثرواتهما، وقدراتهما السياسية، وأنظمتهما العسكرية التى باتت تمتلك أحدث التقنيات والمعدات. فأمريكا بقواعدها العسكرية، وأنظمتها

الاستطلاعية التى تغطى أوروبا وآسيا سوف تواجه بعد ذلك من يعترض عليها ويمتلك القوة لفعل ذلك، وستأتى تلك الاعتراضات من شعوب قومية وقادة قوميين(٥٥).

ويتزايد خطر الإذلال بالنسبة لقيادة الولايات المتحدة عامًا بعد عام، وقد زاد الموقف سوءًا بعد أحداث ٩/١١، فعلى الولايات المتحدة أن تبحث عن سبيل لمواجهة هذه المحنة شرط أن تتجنب ما يلى:

- تكريس مناخ الإذلال وذلك بتوليد دورات الخوف والانتقام.
- إضعاف شرعيتها وذلك بتأكيدها على مزاياها الإمبريالية التى تتعارض مع تقاليدها الديمقراطية.
- تقويض الحرية السياسية، وذلك بتقليص حقوق مواطنيها من خلال سن تشريعات من شأنها التضييق على المواطنين، مثل قانون مكافحة الإرهاب أو ما يُعرف بالقانون الوطنى(٥٦).

إذا أصبحت الولايات المتحدة مصدر تهديد للنظام والسلم العالميين، فسيكون السبب فى ذلك هو أن الولايات المتحدة أصبحت أضعف وتجد أن هذا الواقع "مرفوض"، والذى يزيد من المشاكل التى تواجهها عندئذٍ هو أن الثقافة السياسية الأمريكية صاغها التاريخ الأمريكى الذى هو تاريخ مجتمع استيطانى هرب من العالم "القديم" وهو ينوى الهيمنة على العالم "الجديد" الوليد.

وقد ظن الأمريكان أن العالم القديم الذى خلَّفوه وراءهم من الممكن أن يتلاشى، لكن حقيقة الأمر لم تكن كذلك، فقد تحول إلى عالم عالمى جديد يحيط بالولايات المتحدة. ولتعلم أمريكا أن "الهنود الحمر" يدورون الآن حول الدائرة، وهـذا وضع خطيـر. فهل يـا ترى إذا لم تتمكن الولايات المتحدة من الهروب أو السيطرة على العالم الجديد، ستحاول تدميره؟ وإذا واجهنا هذا الاحتمال، فإن مهمة الدبلوماسية العالمية هى إقناع الولايات المتحدة بالانضمام إلى العالم المتعولم

التى بذلت الكثير من الجهد لإيجاده – وأن تنضم إليه كأخ شقيق، وليس كأب مستبد، وألا تكون مثل ساتورن الأب الذى خاف من أبنائه فأكلهم.

* * *

لقد استعرضنا فى هذا الفصل الانقسامات حول مسألة القوة والقدرة على البقاء والقيمة الأخلاقية للإمبراطورية الأمريكية، واستطردنا للحديث عن المجتمع الاستيطانى الذى أصبح إمبراطورية عالمية، وأن الولايات المتحدة هى فريسة للتناقض بين الرغبة فى الهروب والرغبة فى الهيمنة على العالم، وعزونا أصول هذا التناقض إلى حركة الإصلاح الأوروبية، وقارنا بين المجتمعات الاستيطانية الأخرى فى أيرلندا وجنوب أفريقيا، وبحثنا رُدود أفعال الأمريكيين النفسية والثقافية حيال تلك الحالة الاستيطانية، لاسيما فيما يتعلق بالشعور بالاستياء والفضيلة، وأدركنا تعبيرهم فى الأيديولوجية السياسية الأمريكية وديناميكية السياسة الخارجية الأمريكية منذ فيتنام؛ وقمنا بتحليل اتجاه المحافظين الجدد، وربطناه بدوائر الخوف، ولاحظنا المخاوف الأمريكية من تجدد التعرض للإذلال.

٩

القبول

الحرية والعبودية

كما رأينا فى الفصل السابق أن الوجه الآخر للهروب هو الهيمنة و/أو الدمار، إذ لا يرغب الهاربون بدورهم فى الوقوع فى أى مصيدة أو مؤامرة تحاك لهم والتحول إلى ضحايا مرة أخرى، ولكى يتمتعوا بالحرية والاستقلال فى تحديد مصائرهم، فإنهم يفرضون بسط يد الهيمنة على الآخرين إذا ما اضطروا لذلك ومتى وأينما استطاعوا القيام بذلك. ويدمرون كل ما فى طريقهم إذا ما استدعت الضرورة أو كان ذلك هو الإجراء المناسب لتحقيق هدفهم. وهكذا يتحول الهاربون من الإذلال ليصبحوا هم أنفسهم عوامل وآليات للإذلال.

ولكن لنتناول الآن الدول الواقعة تحت الهيمنة، وهى تلك الدول التى تم غزوها أو حصارها ولا تستطيع الهروب. ولنأخذ مثالا على ذلك قضية الأفارقة الذين استُعبدوا ورُحلوا إلى أمريكا، أو الهنود الحمر وهم سكان أمريكا الأصليون الذين أُجبروا على مشاركة أراضيهم وصيدهم مع الغزاة والغرباء عليهم ممن حلوا عليهم من البحر. والسؤال هنا ترى ما هى الإستراتيجيات المتاحة أمام هؤلاء للتعامل مع مثل هذا الموقف؟

لعل أول رد فعل من ناحيتهم سيكون شعورهم بالصدمة التى يعجزون معها عن اتخاذ أى إجراء هو الغالب عليهم؛ وذلك لأنهم ذاقوا مُر الهزيمة ووقعوا فريسة للإذلال. مع العلم أن رد الفعل هذا لا يمكن أن يندرج تحت القبول أو لرفض، فهو

ليس كذلك بل هو مجرد تكيُّف مع الأوضاع. ومع ذلك ترى ماذا عساه أن يحدث؟ مع العلم أن أى تصرف ينطوى على مخاطرة عالية. ماذا إذا لم يُكافأ المغلوب على تقبله الأمر؟ وماذا لو فشل الرفض؟

فى كتاباته استطاع المفكر الفرنسى أليكسيز دى توكوفى، أن يجد أن كلاً من القبول والرفض قد تحققا فى أمريكا خلال الثلاثينيات من القرن التاسع عشر. فقد كتب يقول:

> لكم كابد الزنوج آلاف المحاولات بلا طائل لدمج أنفسهم فى مجتمع ينبذهم، وطوَّعوا أنفسهم لرغبات آسيادهم، وتبنوا نفس آرائهم على أمل أنهم عندما يحاكون سادتهم قد يقبلهم المجتمع. وهؤلاء الزنوج رسخ لديهم منذ نعومة أظافرهم أنهم من جنس أحط من جنس آسيادهم البيض وقد آمنوا بذلك، ومن ثم أقلموا أنفسهم على ذلك الوضع المهين. (توكوفى ١٩٦٨، ٣٩٤)

ولم يسْلَمْ الأفارقة حتى مع قبولهم ما فُرض عليهم، بل على العكس لاقوا أشد صور القهر والتعذيب(١)، ولم يكن ذلك شيئًا غريبًا فلقد أتوا إلى أمريكا لهذا الغرض ليس إلا(٢)، ولعل ما وصفه توكوفى من صور التأقلم وتسليم الذات لم يكن الشكل الوحيد للتكيُّف مع الإذلال. فهناك صورة أخرى هى المقاومة، وتلك الصورة تتضح جلية فى نموذج الهنود الحمر، وهم السكان الأصليون للأرض الأمريكية، فقد قاوموا المستعمرين الجدد، بل تحالفوا مع بريطانيا فى حرب عام ١٨١٢، ونتيجة لذلك، عامل المستعمرون البيض السكان الأصليين بأسلوب العصا والجزرة، أى أسلوب جمع بين الإغراء بالتعايش والقمع فى آن واحد، فكم من معاهدات أُبرمت ثم نُقضت، وكم من أراضٍ وُهبت ثم صودرت بعد ذلك(٣).

ربما كان توكوفى حادًا فى نقده، فهو يرى أن الإسبان ومع وحشيتهم التى لم يكن لها مثيل فى التاريخ لم ينجحوا فى "القضاء على الجنس الهندى"، و"لم يستطيعوا أن يمنعوه حقوقه"، ومع ذلك فقد كتب يقول:

> لقد تمكن الأمريكيون بالولايات المتحدة أن يحصلوا على النتيجتين بسهولة عجيبة وبهدوء وبشكل قانونى بل وخيرى دون إراقة الدماء ودون نقض أى من المبادئ الأخلاقية الأساسية التى يجلها العالم. إنه من المستحيل أن تدمر الناس وأنت تحترم قوانين البشرية. (توكوفى ١٩٦٨، ٤٢١)

بالطبع هذا الكلام الذى كتبه توكوفى كان قبل المذابح التى ارتُكبت فى معركة ساند جريك عام ١٨٦٤، ومذبحة ووندد نى فى ديسمبر من عام ١٨٩٠[٤].

القبول والإذعان

أوضح توكوفى واحدًا من أصعب أشكال التحدى الذى يواجهه الكثير منا، ألا وهو كيف يمكن للمرء الحصول والحفاظ على ما يراه حقًا له دون أن يصبح ضحية؟ وطبيعى أن يفرض الإذلال هذا التحدى على من يعانون الإذلال؛ وذلك لأنهم يُرغمون على قبول الإقصاء والإبعاد عن المكانة الاجتماعية التى يرون أنها من حقهم. والذى يجعل الإذلال يتبدى فى هذه الحالة هو الموقف الرافض للإبعاد القصرى وليس مجرد الحنق تجاه هذه الحالة.

فى العديد من الحالات التى يقبع فيها الناس تحت وطأة الإذلال لا يملكون حيلة ولا يستطيعون سبيلاً إلى الهروب، إذ يجدون أنفسهم مساقين، ولو لفترة من الزمن، إلى قبول الوضع والإذعان له، ويسلكون مسلك الطائع الخاضع لمالكه راضين بما يمارسه الطاغى من احتقار لهويتهم ومصالحهم، ويتحملون القيود النفسية التى يكبِّلون بها، ويرغمون أنفسهم على التكيُّف مع الوضع قالبًا لا قلبًا، ويكبتون بداخلهم مشاعر السخط ولا يبدونها.

لكن ليس معنى ذلك الإذعان أنهم قد قبلوا الإذلال قبولاً نهائيًا، بل على العكس، فذلك الإذعان ليس إلا مرحلة مؤقتة، إذ هو إذعان مرحلى وعلى مضض. فالواقع أن معظم الناس يعيشون فى قلق يمثل منطقة وسطى بين الإذعان القصرى للإذلال (سواء فى العمل أو فى المنزل أو فى النظام التعليمى أو مع الجيران) وبين خيارات حاسمة قد تأخذ شكل الرفض القاطع أو الهروب أو القبول التام كما فى بعض الحالات.

وعمليًا فإننا عادة ما نجنح إلى تجنب السقوط فى يد أى مستبد يكبِّل أحلامنا وعقولنا، بمعنى أننا نتجنب دومًا أن نُرغم على قبول الإذلال قبولاً نهائيًا. ولكن ترى هل هناك حالات يقبل فيها الناس راضين أن يكبِّلهم غيرهم بقيود لا يرغبونها؟ نعم، فقد يقبل الناس أوضاعًا كانوا يعدونها فيما مضى أوضاعًا لا يمكن قبولها وذلك فى حالتين هما:

- عندما تُعاد صياغة شكل ما من أشكال الإذلال ليبدو على غير حقيقته، أى يبدو أنه ليس من الإذلال فى شىء.
- عندما يعيد الناس تشكيل هويتهم وترتيب مصالحهم بالشكل الذى يبدو معه الإذلال غير ذى قدر كبير ولا يستحق المقاومة.

وينطبق ذلك على مستوى العالم، وعلى مستوى حياة كل فرد منا، بمعنى أن الناس شأنهم شأن الحكومات فى العديد من الدول القومية، مجبرون على الإذعان لحالات من الإذلال، بينما يبحثون عن فرص إما للرفض أو للهروب أو لتحويل تلك الظروف المذلة.

لكن تقف المصالح القوية والمغرية لتؤدى دورها فى ذلك المشهد، إذ تسعى إلى دفع الدول والشعوب إلى قبول الإذلال قبولاً كاملاً، ومثال ذلك ما حدث على مر العقود القليلة الماضية حيث سعى كل من الليبراليين الجدد والإمبرياليين الجدد إلى إقناع الحكومات فى كل دول العالم أن بنود "إجماع واشنطن" خاصة التى تتعلق

بالسياسة الاقتصادية والاجتماعية ليست من الإذلال فى شىء كما يظن البعض، بل هى سبيل التحرر والرخاء. وهذا المنحى تنطبق عليه الحالة الأولى التى سبق وأن ذكرناها، وهى إعادة صياغة شكل من أشكال الإذلال ليبدو على غير حقيقته، وبالتالى إذا اقتنع الناس بذلك تنطبق عليهم تلك الحالة من حالات قبول الإذلال طواعية.

ومثال آخر على حمل الناس على قبول الإذلال –طواعية– قبولاً تامًا هو ما يمارسه أرباب الأصولية الدينية، حيث يسعون إلى إقناع الناس بأن التمسك "بالدين الحق" يجعلهم يدركون أن الحياة على الأرض لا تساوى أى شىء أمام النعيم الذى ينتظرهم فى الجنة بعد الموت، ومعنى ذلك، حسب فهم البعض، أن السعادة كل السعادة تكمن فى التضحية بالنفس أو الدخول فى غياهب المعتقلات مقابل ممارساتهم الإرهابية. وهنا تنطبق الحالتان الأولى والثانية معًا وهى قبول الإذلال –طواعية– قبولاً تامًا بعد إعادة صياغة شكله وبعد إعادة تشكيل الهوية ليبدو معها الإذلال شيئًا يُستهان به ولا يستحق المقاومة.

بعبارة أخرى، فإن هناك ضغوطًا كبيرة تهدف إلى دفع الشعوب من مجرد الإذعان للإذلال إلى قبوله قبولاً تامًا، وإذا ما خضعت تلك الشعوب إلى تلك الضغوط، فستصبح عرضة لأن تكون ضحية، وأعنى بكلمة ضحية أن تصبح تلك الشعوب تحت رحمة شخص، أو مجموعة، يحدد لها مصيرها بناء على مصلحته، وأن ينزلها من الحياة منازل تواجه فيها الألم والمعاناة، فى الوقت الذى يدفع فيه كل ذلك عن نفسه وعن آخرين أيضًا.

ومع ذلك، عندما يجد أى فرد نفسه مجبرًا على الإذعان إلى موقف من مواقف الإذلال فى حياته الشخصية، فإنه "يتحول" تلقائيًا إلى نمط من أنماط الالتزام الشخصى والانضباط الذى يحمى به هويته الخاصة ومصالحه كلما أمكنه ذلك، فالناس ينأون بأنفسهم، وهذا طبيعى، عن الانجراف إلى مواقف تجعل منهم ضحايا.

الجراح الخفية

يجد معظم الأشخاص ممن يقفون فى موقف الخضوع أنفسهم وهم يتمايلون بين القبول والرفض. ولكن طريق الرفض ليس سهلاً على الإطلاق حتى بين هؤلاء الأشخاص ممن يشعرون بالإساءة والخيبة الكبيرة والغضب من الطريقة التى تتم بها مكافأة إخلاصهم.

وفى دراسة بعنوان "الجراح الخفية بين الطبقات" (١٩٧٢)، قام بها كل من ريتشارد سينيت وجوناثان كاب فى مدينة بوسطن بولاية ماساتشوستس، تتبعا فيها تكتيكات واستراتيجيات الإذعان وبعضًا من مظاهرها النفسية. وركز الباحثان بشكل أساسى على الوافدين من أصول بولندية ويونانية، وغيرهم من ذوى الخلفيات الأخلاقية الأخرى، حيث تحولوا جميعًا من عُمال إلى موظفى مكاتب، صحيح أنهم حققوا قدرًا كبيرًا من الارتقاء فى العالم ولكنهم لا يزالون يشعرون بالخيبة وعدم الرضا، فهؤلاء هم "سجناء الحلم الأمريكى" على حد تعبير مايك ديفيز، الذى ألف كتابًا بذات العنوان عام ١٩٨٦. لقد أغرتهم أحلام العالم الجديد، أو ربما لم يكن لهم بديل عن ذلك العالم، لقد وافقوا أمورهم وأوضاعهم لتحقيق الأمل المنشود، وعملوا بكل ما لديهم من كد واجتهاد والتزموا بكل القواعد لتطوير أنفسهم.

وكانوا محصورين "بين أمرين":

- من ناحية، حُصروا بين قيم الترابط التى أتوا بها من بلادهم وورثوها عن عائلاتهم وبين الاستقلالية الفردية التى يريدونها.
- ومن ناحية أخرى، حُصروا بين الرغبة فى تطويع أنفسهم مع النظام والاستسلام له والحاجة إلى الدفاع عن أنفسهم ضد هذا النظام.

وقد تسبب حمل هؤلاء الناس أنفسهم على التوافق مع العالم الجديد فى إحساسهم بعدم الرضا والغربة، إذ لم يستطيعوا بأى حال أن يجعلوا دماء العالم

الجديد تسرى فى عروقهم. ولم يقفوا مكتوفى الأيدى بل حاولوا أن يحلوا تلك المشكلة عن طريق كبح ميولهم الشخصية وتوجهاتهم الذاتية أثناء العمل، (وهذا ما أسمية "الانعزال التكتيكى")، وكل هذا جعلهم يشعرون بالخزى، ولكى يعوضوا ذلك النقص، كما سنناقش فيما بعد، وجدوا الملاذ أن يتبنوا سياسة التضحية، مما يجعل الرجال يظهرون بمظهر المضحى الذى يضحى بوقته وجهده وسعادته وهو يقوم بأعمال صعبة ومرهقة من أجل توفير لقمة العيش لأبنائه وأسرته، ولتحقيق حياة كريمة لذويه[٥]. وتخلص الدراسة، دراسة الجراحات الخفية بين الطبقات، إلى ضرورة قيام مجتمع لا طبقى، لا يفرض الإذلال على أعضائه، ولا يجعلهم يشعرون بالمهانة فى العمل، ولا يبيعهم السلع المغرية ليستعبد بها جراحهم النفسية[٦].

وفى الوقت ذاته تقريبا كما كان يخطط سينيت وكاب للدراسة التى مقرها بوسطن، جاءت أعمال فرانتز فانون، مؤلف كتاب "التعساء فى الأرض"، وكتاب بشرة سوداء بأقنعة بيضاء، كلاهما صدر فى العام نفسه (١٩٦٧) باللغة الإنجليزية. واعتمد فانون، الذى ولد فى جزيرة مارتينيك وتعلم فى باريس، على خبرته التى استمدها من المواجهات التى خاضها سواء كجندى يحارب من أجل الحرية الفرنسية خلال الحرب العالمية الثانية أو كطبيب نفسى بالجزائر خلال فترة الخمسينيات من القرن العشرين[٧]. وتناول كتابه الكرب الناتج عن الإذعان للهيمنة والإذلال كما أنه حاول الإجابة عن السؤال المتعلق بكيفية إعادة الأمور إلى نصابها الصحيح[٨]. وقد وجد أن الأفارقة السود يعانون نفس معاناة موظفى المكاتب فى بوسطن، بمعنى أن الأفارقة هم الآخرون محصورون بين أمرين، لكن مع اختلاف الأمرين:

- فمن ناحية، كان الأفارقة يتأرجحون بين التسليم بقبول أسطورة الانتماء الزنجى، الأمر الذى حصرهم فى منطقة الأقليات، وبين المشاركة الفعالة فى التحديات السياسية المطروحة من جانب القوة الاستعمارية المسيطرة.
- ومن ناحية أخرى، كانوا يتأرجحون بين كونهم شخصيات مستعمرة مهانة (لها من الحساسية ما لها بالإضافة إلى عدم الثقة بالذات)، وبين

اقتناص فرصة لاكتساب الاحترام من خلال إعادة بناء شخصياتهم ومهاجمة المعتدى المستعمر مباشرة واستعمال العنف معه(٩).

وكان تحليل فانون الأساسى شبيهًا إلى حد كبير بتحليل سينيت وكاب. ومفاده أن الإذعان للنظام السياسى الاجتماعى الذى يمارس الإذلال مؤلم جدًا. وأخيرًا فإن الطريقة الوحيدة للتغلب على الإذلال هى بتحويل النظام السياسى الاجتماعى وتحرير هؤلاء ممن تم الاعتداء عليهم بموجب ذلك النظام.

وتمثل الحل الذى اقترحه كل من سينيت وكاب فى أن يقوم المواطنون الأمريكيون بجعل مجتمعهم خاليًا من الطبقية وإن حدث ذلك على حساب البعض ممن ليس لهم دور فعال فى المجتمع(١٠). ولتحقيق ذلك فإنهم يريدون شيئًا مثل "إعلان التحرير" للعاملين كافة ويكون ذلك مدعمًا ببعض التغيير المؤسسى.

وليس لدى فانون أى من هذا. فمن وجهة نظره كانت مجموعة العبيد التى حررت من البيض فى القرن التاسع قد خضعوا للمعاملة غير العادلة وغير الأخلاقية.

وفى الحقيقة فهم لم يتمكنوا من تحرير مؤسساتهم أو حتى شخصياتهم كنتيجة للتحرر "المذكور أعلاه". ولإعادة الاحترام الذاتى فإنه على المضطهدين والمعتدى عليهم أن يحرروا أنفسهم وليس أن ينتظروا أن تُقدم لهم الحرية على طبق من فضة، بل يجب أن يأخذوا حقهم بالقوة.

وكانت وصفة فانون أمريكية تمامًا. ووقف فى جانب دانيل بوون ودافى كروكت. وأيد مثلهما فكرة التجديد بالعنف(١١). ومثل أبطال الحدود الأمريكيين، اعتقد فانون أن العنف هو قوة تطهيرية، وأن "العنف يحرر السكان الأصليين من عقدة الدونية ومن اليأس والبطالة، حيث يجعلهم لا يشعرون بالخوف، ويستطيع إعادة احترام الذات" (فانون ١٩٦٧، ٩٤). وجدير بالذكر أن هذا التشابه الملحوظ ليس بالأمر المفاجئ؛ نظرًا لأن عنف النظام الاستعمارى والعنف المضاد للسكان الأصليين كان يوازن بعضه بعضًا ويستجيب لبعضه البعض كذلك (١٩٦٧، ٨٨).

اقتبس إدوارد سعيد هذا المقطع فى كتابه "الثقافة والإمبريالية" (١٩٩٣، ٣٢٧)، والذى قدم فيه حلاً بديلاً لاتهام فانون العام بأن الثقافة الأوروبية قللت من شأن الرعايا المستعمرين. وادعى سعيد أن دراسته عن الأدب الغربى قد كشفت موقف التضحية فى العمل من داخلها[١٢]. ومن وجهة نظر سعيد أنه وقت ولادة فانون (١٩٢٥) كان أى شخص يروى حكاية يأتى من عالم المستعمرات يصور على أنه إما أنه ضحية أو شخصية مشوشة؛ نتيجة التهديد المستمر والعقوبات القاسية، على الرغم من المزايا المتعددة التى يحصل عليها أو الخدمات أو الإنجازات. ولم يكن هؤلاء يُعتد بهم حقًا، حيث تم إبعادهم وجوديًا لتمتعهم ببعض المزايا القليلة من الغزو والمسح الخاص بالأراضى وفرض التمدن الخارجى. كانوا يقعون على هامش مجال الرؤية الأوروبية. ومن وجهة نظرهم كان الأوروبيون يبذلون جهودًا بطولية للحفاظ على مغامراتهم الاستعمارية النبيلة بصرف النظر عن اضطرارهم إلى التعامل مع مثل هؤلاء الأشخاص المتدنيين. كما رأوا من وجهة نظرهم – على الأقل أو على الأكثر – أن ما على سكان المستعمرات تقديمه للمساعدة هو تقديم فروض الولاء والطاعة. وأفضل الطرق لذلك يكون من خلال فرض نظام تأديبى قوى. وبعبارة أخرى "بالنسبة للضحية، قدم الاستعمار هذه البدائل: قدم الخدمة أو سيتم تدميرك" (سعيد ١٩٩٣، ٢٠٤).

وطبقًا لكلام السيد جوزيف ستيجليتز، أبرز الاقتصاديين لدى البنك الدولى[١٣]، لم تتغير تلك الطريقة فى التعامل حتى نهاية القرن العشرين. حيث إنه وضع تلك الطريقة فى كتابه "العولمة والساخطين عليها" (٢٠٠٤، ٤١): "كل ما يتم غالبًا من بذل رؤوس الأموال الدولية للدول النامية يشبه شعور الحاكم المستعمر". على سبيل المثال، فى الصورة التى تم التقاطها فى عام ١٩٩٨، كان رئيس صندوق النقد الدولى، القصير والمرتب والذى يرتدى ثياب الطبقة الحاكمة فى فرنسا والذى ادعى ذات مرة أنه اشتراكى، يظهر وهو يقف بوجه صارم وأيدٍ متشابكة خلال جلسته وكأنه يمارس الإذلال على رئيس إندونيسيا. وقد علق ستيجليتز: كان موقف

رئيس صندوق النقد الدولى مثل موقف قادته وهو موقف واضح، كان ينبوع الحكمة والممول الأرثوذكسى الماكر، وسيظل هكذا إلى إن تدرك شعوب الدول النامية تلك الحقيقة.

وعلى غرار المثل الذى قدمه سينيت وكاب وهو موظفو المكاتب، وكذلك المثل الذى قدمه فانون وهو الأفارقة، دخل الرئيس الإندونيسى فى اللعبة كذلك إلا أنه غير مسموح له بالانضمام للنادى الذى يتم التلاعب فيه بمصالحه. واستندت قرارات رئيس صندوق النقد الدولى إلى ما يبدو أنه مزيج غريب من الأيديولوجيات والاقتصاديات السيئة والعقيدة التى أحياناً تبدو وكأنها توارى المصالح الخاصة. (ستيجليتز ٢٠٠٢، ١٣)

طرائق الإذعان

جدير بالذكر وجود أربعة طرق للإذعان فيما يتعلق بالإذلال (انظر الجدول ٩ – ١). وقد يتبنى شخص ما أو جماعة بعينها أو مجتمع ما أكثر من طريقة من هذه الطرق أو قد يتنقلون بين هذه الطرق.

تتضمن إحدى مجموعات الاستجابة الانقلاب على المواجهة. ويصرح هذا الشخص أو الجماعة أو المجتمع دائمًا بمقولات مثل: طالما حاول البيض إذلالنا والسيطرة علينا، وقد يكون ذلك قد تحقق جزئيًا بنجاح إلا أننا يمكننا أن نترك أثرًا كبيرًا من خلال هذا الجزء، بالإضافة إلى تحويل الإذلال غير الكامل إلى أسلحة نستفيد منها فى الدفاع عن أنفسنا والاستفادة من ذلك فى تطوير أنفسنا.

الجدول ٩ - ١ أشكال الإذعان من خلال ضحايا الإذلال

	الخطط	الطرق	النزعات الناتجة
أشكال الإذعان	الانقلاب	القبول مع التحدي	الرفض
		سياسات دور الضحية	
	الانفصال	الأعمال التخريبية	الهروب
		الانسحاب الداخلي	
		الرفض والإنكار	
	الامتثال والخضوع	الإذلال الذاتي	القبول
		رفع قيمة السيد	
		الكبت	
	الاستسلام	التنازل والاستسلام	

وعلى النقيض تتضمن الاستجابات الانفصال أو فصل الذات من المواجهة أو التكيف، وتلك الاستجابات يمكن التعبير عنها وكأن لسان حالها يقول للمستعمر: "ربما تظن أنك تقوم بإذلالنا والسيطرة علينا ولكن وعلى الرغم من ذلك فإن جزءًا منا ممن تراهم يؤدون شعائر الإذلال لك لا يعبر فى الحقيقة سوى عن صورة تقبع خلف جزء منا غير مبال بك أو أنه بالفعل يشترك فى تحركات مناهضة لك[١٥]. وإحدى الطرق الأخرى هى الامتثال والخضوع، وهى بمعنى آخر الإقناع بتطابق ملاحظات الفرد والجماعة أو المجتمع مع بعض الحالات والظروف التى يجدون أنفسهم فيها وهم يتبعون الإخضاع والسيطرة وغير مبالين. ويمكن تلخيص هذا النوع من الإذلال فيما يلى: "ربما أن أفعالك تعتبر إذلالاً وسيطرة علينا، ولكن فى الحقيقة أنك وضَّحت لنا من نحن بالفعل و/أو حقيقة موقفنا الفعلى ونحن نقبله."

وأخيرًا، فإن هناك الاستسلام للقدر والاستسلام وعدم ممارسة المواجهة من خلال الانقلاب أو الانفصال أو الامتثال والخضوع. وفيما يلى التعبير عن الاستجابة بالشعور الداخلى: "إنك تحاول ممارسة الإذلال والسيطرة علينا وربما تكون قد نجحت فى ذلك إلا أننا لن نخدع أنفسنا ونستغلها بعبء المواجهة الإضافى أو الهروب منك. لذا يمكنك أن تشكلنا كما تريد[١٦].

دعنا الآن نتعرف على هذه الطرق الأربعة ببعض التفصيل.

الانقلاب والانفصال والامتثال والخضوع والاستسلام

- **الانقلاب**

ويتنوع الانقلاب بين القبول مع التحدى للكلمات المتكررة المقصود منها أصلاً الاحتيال؛ وذلك لجعل الناس يشعرون بضآلتهم والإبقاء عليهم منكمشين. والمثال الحالى التقليدى يتمثل فى تنظيم "الدراسات الشاذة"[١٧].

والنوع الثانى من الانقلاب هو التعامل بسياسات الضحية. ويتضمن ذلك إقناع الآخرين أنهم محظوظون بشكل غير عادل على أنهم ليسوا ضحايا مما يجعلهم يشعرون بالذنب أو الخجل أو الخوف أو الحزن (أو يشعرون بمزيج من هذه الأحاسيس) حيال موقفك. وهذا يعنى استخدام هذه المشاعر المتولدة لدى الآخرين لحثهم على فعل شيء بطرق تخدم هدفك أو تمنعهم من التصرف بطرق ليست فى صالحك. وجدير بالذكر وجود خمس طرق على الأقل للتعامل بسياسات الضحية:

١. طلب التعويض: ولسان الحال يقول: "لقد جرحتنى أنت أو الآخرون بطريقة غير عادلة ويجب عليكم جميعا أن تحاولوا وتبذلوا كل جهدكم لتصحيح هذا الوضع".

٢. طلب الغفران " ولسان الحال يقول: "لقد أصابنا ضرر كبير وجرح عميق ونحن الآن فى غضب كبير لذا لا تفاجأ إن نحن هاجمنا

أو جرحنا الآخرين بمن فيهم أنت. ليس لك الحق فى توجيه اللوم لنا خاصة أنك أنت المسئول عما أصابنا من ضرر. يجب عليك قبولنا على الشكل الذى نحن عليه".

٣. طلب الإيمان بالتميز ولسان الحال يقول: "نحن الضحايا ونعلم تمامًا من هاجمونا. يجب عليك أن تثق بنا وتصدقنا حين نصرح بهم كما يجب أن ينالوا عقابهم بطريقة ترضينا".

٤. طلب الانتقام، ولسان الحال يقول: "لقد تم وصمنا بالخطأ ونحن لدينا الحق ونشعر بقوة حجتنا وتبريرها للتعبير عن الغضب الذى أصابنا من خلال جرح شخص ما آخر بطريقة سيئة جدًا خاصة حين يوجد شخص ما نلقى عليه بصدق معاناتنا ونلومه عليها".

٥. طلب الاحترام من خلال القوة، ولسان الحال يقول: "لقد وقفنا موقف الضحـــية بسبب ضعفنا ونـــحن الآن نبنى أنفسنا بقوة كبيرة بحيث لا يجرؤ أحد على المساس بنا. يجب عليك أن تبتعد عنا أو أن تقترب فقط طبقًا لشروطنا. وهذا هو نوع الاحترام الذى نطلبه".

جدير بالذكر أن دور الضحية هذا قد يكون مفيدًا كطريقة لمساندة ورفع معنويات الفرد أو الجماعة وقد يكون جذابًا لطرف ثالث أكثر قوة. فى ظل القبول مع التحدى، يتحول الإذعان إلى رفض لهذا الإذلال.

الانفصال

فى هذه الحالة تتمثل الخطة الرئيسية فى تقديم الشخص نفسه إلى الطرف الذى يمارس هذا الإذلال عبر عدد من الكلمات والأفعال والمواقف المحددة والتصرفات التى تبدو وكأنها ترضى أمانيهم وتوقعاتهم. وفى الوقت ذاته يقوم الشخص بالفصل بين جزء النفس الذى يقبل الإذعان والتبعية والتى تتمثل أفعالها فى التودد واللطف الكامل للسيد الذى يرأسك وجزء النفس الآخر بما له من نوايا خاصة.

وقد يقوم الجزء الآخر من النفس هذا على سبيل المثال بالتآمر والتدبير وحبك الخطط التى تهدف إلى إبطال خطط المعتدين فى كل فرصة تتاح لذلك. وقد تم هذا الأمر فعلاً على يد أحد الجنود، ويدعى سفيك، كما جاء فى الرواية التى كتبها جاروسلاف هاسيك، وعلى نحو مثير من خلال الجسر الذى بناه الجنود ثم تم تدميره، وهو ذلك الجسر القائم على نهر كواى[١٨]. وفى حين تتدرج هذه الاستجابات تحت خيار رفض الإذلال، تكون الأنواع الأخرى الانسحاب الداخلى بمعنى "أنا لست هنا" والرفض والإنكار "لا يحدث هذا لى" بالإضافة إلى أن ذلك قد يعنى الهروب النفسى.

جدير بالذكر أن خطط الانقلاب والانفصال تحاول تجنب مناطق قوة المعتدى. فهم يضعفون قدرته على تصنيف الآخرين فى فئات من اختيارهم. إلى جانب أنهم كذلك يضعفون قدرته على مقولة "مَنْ أنت؟" وما هو الموقع المناسب لك؟". فهم يحاولون تدمير الحصار أو الهروب عبر الانزلاق من خلال القضبان.

الامتثال والخضوع والاستسلام

على النقيض، تحوّل الخطط الأخرى المتبقية حالة الإذعان إلى قبول لانتصار المعتدى. وللعلم فإن الاستجابة للإخضاع عبر الامتثال والخضوع تنقل الرسالة التالية للمنتصر: "نحن نقبل تفوقك علينا كما نقبل الظروف المتدنية التى أضرت بنا وقللت منا. وفى المقابل، رجاء أن تعاملنا بشكل لائق". وهذه الرسالة ليست نفس مفاد الرسالة التى تنقلها الاستجابة من خلال خيار الاستسلام، وهى رسالة يسلمها المهزومون لأنفسهم ويقتنعون بها ومفادها: "دعنا نتوقف عن القتال لأن هذا من شأنه أن يحررنا فورًا من الشعور بالألم الناتج عن الصراع". ويقبل المستسلمون أن يتم تجنبهم وتقوقعهم وحبسهم والهجوم عليهم لإلحاق الأذى بهم. ومع ذلك فإنهم يفعلون ما فى وسعهم لإزاحة أحد مصادر الإزعاج عن كاهلهم.

إن كلا الأسلوبين سواء الامتثال والخضوع من ناحية، والاستسلام من ناحية أخرى، غالبًا ما يجتمعان في الوقت ذاته، وهو أمر يعني وجود حركتين رئيسيتين وهما كالتالي: إحداهما هي التعرف قدر الإمكان على المعتدى مع بعض التهويل والتوصل إلى كونه أحد النبلاء الرائعين وهو المتميز في شخصيته وأفعاله. والحركة الأخرى هي الاستخفاف بالذات والتدني والتقليل من النفس بحيث تكون أقل قسوة (بسبب التنازل والاستسلام النفسي) أو أكثر قبولاً (بسبب مقدار الكبت) أو أكثر ذلاً وعبودية (بسبب حالة الإذلال النفسي)، إلا أنه في كل الأحوال تظل هناك عقبة صغيرة تقف أمام أهداف السيد النبيل وخسارة أقل أهمية في حالة مارس أسلوب التدني أو التدمير.

وهنا نحاول التعرف على الأسس المنطقية الرئيسية للنظام الإقطاعي والمسيحي للأوروبيين (واليابانيين). حيث لابد أن يركع القائد المحارب المهزوم أمام القائد المنتصر الذي يستغني عن حياته ويعطيها كل محفز لتمجيد زعيمه. وبدور الخادم والتابع الجديد تنبعث هيبته واحترامه من هيبة واحترام السيد الجديد المنتصر. ولعل الخطوة الرئيسية للتكيف على الوضع الجديد تكون من خلال القبول الصادق للدور الجديد والشخصية الجديدة والعمل وفقًا للقواعد الجديدة. ويعتمد النجاح في هذا الأمر على كون القائد قادرًا على التخلي عن مشاعر الإخضاع المدمرة بأنك قد تم استبدالك أو التخلي عن العودة إلى الماضي المنصرم والتخلي كذلك عن الدور القديم والشخصية القديمة والقواعد القديمة تمامًا.

كما كان مع آدم الذي ارتقى إلى قوة الإله في الجنة ثم بعد ذلك يدفع ثمن غطرسته بخروجه من الجنة. وفي النهاية تقبل خلفاؤه هذا النوع من التدني بل وتكيفوا مع واقعهم الجديد في التسلسل الخلقي وتعلموا أن يقبلوا وأن يذعنوا للقواعد الجديدة التي أتتهم على الألواح الحجرية. وتحمل المسيح نفسه ألم الإذلال على عاتقه نيابة عنهم. ومن خلال قبول حكم الله المذكور في قوانين الحكم على آدم، توصل الجنس البشري إلى التعرف على ماهيتهم الحقيقية ومكانتهم الفعلية.

وتحولت عملية الإذلال بمرور الوقت إلى خجل: خجل من ذنوب آدم الماضية وخجل عن ذلك العجز عن إتباع القواعد التى جاءتهم.

إن خطط الامتثال والخضوع والاستسلام، وقد اختلطت بدرجات مختلفة، تتفاعل فى الحياة اليومية فى كل مكان فى العالم.

ويتم ذلك الأمر على مدار عدة قرون: فى التسويات المحلية التى أقامها جنود الفايكنج عبر دفع ضريبة دان جيلد وقبول دانى لو[١٩]، وفى مستعمرات الاستعباد فى الجنوب القديم بالولايات المتحدة الأمريكية، عندما كان العم توم وسامبو يلعبان الألعاب بوعى أو بغير وعى لجعل الحياة أقل عذابًا[٢٠]، وفى المستعمرات الأوروبية حين كان الرؤساء القوميون يوافقون مع رجال الإدارة المتمدنين، وفى مقرات الناتو الرئيسية فى أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية حينما كان القنصل العسكرى الأمريكى الموكل من واشنطن يتولى القيادة، وفى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية حين يتقدم ممثلو صندوق النقد الدولى أو البنك الدولى على الحكومات الإقليمية، وندما ينصب رجال الإدارة العليا الجدد أنفسهم فى الشركات التى تم تأميمها والاستيلاء عليها، وفى غرف تناول الطعام والمطابخ وغرف النوم.

ولتلخيص الحالة، تعنى خطط الامتثال والخضوع والاستسلام[٢١] أنه يجب على التابعين ما يلى:

- العمل على تطويع النفس لجعلها متوافقة مع وجهة نظر الحاكم فى التعرف على الأشياء أو يتوجب عليهم أن يقوموا بذلك.
- قبول التحكم فى أحوال حياتهم بالكامل من خلال الحاكم.
- التكيف مع إجراءات الحاكم وإرشاداته وملاحظاته فيما يتعلق بالمصالح والسلوك الملائم للتابعين التابعين.
- التخلى عن آليات الدفاع وعن الاندماج فى خطط الانقلاب والانفصال.

- المحاولة الجادة لتصديق الخط الرسمى والأمل فى أن ينتج عن ذلك بعض الفوائد للتابعين خاصة لمن تم وعدهم من الجهات العليا.
- اكتشاف ذلك بعد فترة شهر العسل والتى خلالها يشعر التابعون بأنهم تم رفعهم وتحريرهم، ويكاد يصبح الوضع المسيطر هو إحساس بالخسارة والتلاشى.
- قبول وزيادة القابلية الشخصية للتضحية ودورات التضحية.

دورات التضحية

تعمل دورات التضحية على تكرار تسلسلات بعض الأفعال وردود الأفعال الناتجة من خلال الاستجابة بخيار القبول لعملية الإخضاع. ويكون ذلك ممكنًا عندما يتداخل الأشخاص والجماعات فى علاقة تبعية شديدة لأحد العوامل المسيطرة. وقد يكون ذلك نتيجة طبيعية للإذلال (نموذج روبن هود/شريف نوتنجهام) أو نتيجة عملية دقيقة أكثر للتسلل مجتمعة مع خطبة مثيرة وبعض الدعاية (نموذج عازف المزمار ذى الحلة المرقعة).

بمجرد أن يكون المنتصر أو الشخص الذى تم إغواؤه فى موقف الاستعباد[٢٢]، يتولد شعور قوى بدعوة من الأعلى "العرض الذى لا يمكن مقابلته بالرفض" وذلك للالتزام بالقواعد والقيم المفروضة من الأعلى. وتصبح تلك الطبقة الدنيا المذكورة قابلة أكثر للتلاعب بها فى ظل استخدام أدوات السحب الحادة على أوتار الرغبة الرئيسية إلى جانب الخجل والخوف، تلك الرغبة التى تظهر عند التلويح بمكافآت موعودة، والخجل من فكرة التمرد والعصيان، والخوف من العقوبة كذلك.

وتتمتع دورات التضحية بوجود العناصر التالية (انظر الجدول ٩ – ٢):

١. تأسيس وتثبيت علاقة تكون بتبعية كبيرة للضعيف على القوى سواء من خلال الإخضاع أو الإغواء.

٢. يضع الطرف المسيطر قواعد العلاقة ويتلاعب بها من خلال اللعب على أوتار الرغبة والخجل والخوف من جانب التابعين.

٣. يسيء الطرف المسيطر ويبعد التابعين ويعمل على التدنى السريع لمستوى الثقة فى العلاقة.

٤. مقابلة الانتهاك و/أو اليأس من جانب التابعين بتجديد رغبات الإغواء و/أو تجديد الكبت و/أو الاحتقار الهادئ.

وفى حين يتم استخدام هذه الدورة والاستعانة بها عدة المرات، فقد يتم استبدال القبول بالإذعان أو قد يتحول إلى أسلوب الرفض.

الجدول ٩ – ٢ دورة التضحية

١ تقوم عمليات الإخضاع أو الإغواء بتكوين علاقة ذات تبعية كبيرة/قابلة للتعامل كيفما تشاء من ناحية الطرف الضعيف ↓	٤ → تتم مقابلة حالات اليأس والإحباط من جانب السيد بحالة من تجديد الإغواء و/أو تجديد الكبت و/أو الاحتقار الهادئ
٢ ← تلاعب الطرف المسيطر فى مشاعر الخجل والخوف والرغبة لضمان الإذعان لأحكامه	٣ ↑ يسيء الطرف المسيطر ويبعد التابعين ويعمل على التدنى السريع لمستوى المسئولية

اليابان وإسرائيل

جدير بالذكر أن الجمعية العالمية للدراسات المتعلقة بالضحايا يقع مقرها فى اليابان[٢٣]، وهى منظمة عالمية تم تأسيسها عام ١٩٧٩، ويذكر أن رئيسها ونائب رئيسها حتى وقت كتابة هذه السطور من الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل وجنوب أفريقيا والمكسيك والمملكة المتحدة. ومن المثير أن تعلم أن العمل الأساسى المتعلق بالضحايا قام بتنفيذه والعمل عليه شخص إسرائيلى يدعى بنيامين ميندلسون،[٢٤] وقد رأت الجمعية أن تأسيس مقرها الرئيسى فى اليابان أمر مثير، ولعل ذلك من الأمور المثيرة حيث إن اليابان وإسرائيل تتمتعان بعلاقة مزدوجة فيما يتعلق بالضحايا. حيث اتُهمت كل دولة منهما بمعاملة آخرين معاملة الضحية: وهم فى الحالة الأولى، الفلسطينيون وفى الحالة الثانية الكوريون والصينيون وأسرى الحرب التابعين للتحالف خلال الحرب العالمية الثانية إلى جانب فتيات المتعة. كما أنهم كذلك قدموا أنفسهم باعتبارهم ضحايا: فى الحالة الأولى، من خلال معاداة السامية ومعسكرات الاعتقال النازية وفى الحالة الثانية من الهجمات النووية على كل من هيروشيما وناجازاكى إلى جانب الإساءة المستمرة، أعنى بها تلك المتعلقة بالوجود العسكرى الأمريكى فى أوكيناوا[٢٥]. تدعى كل من اليابان وإسرائيل بمواجهتهما وإخضاعهما للحقد والعداء الغاضب من جيرانهما الحاليين، وأن كلاً منهما تحت رعاية وإشراف وحماية الولايات المتحدة الأمريكية، وأن لكل منهما علاقات مقلقة مع الرعاة[٢٦].

جدير بالذكر أن إسرائيل قدمت للعالم القبول مع التحدى (نحن ما نحن عليه)، إلى جانب التعامل بسياسات الضحايا (لا تتوقع أن نكون ظرفاء ولطفاء معك). وهذه الاستجابات ثابتة منذ أواخر فترة الأربعينيات من القرن العشرين. وعلى النقيض وخلال الفترة نفسها من نصف القرن الماضى كانت استجابات اليابانيين تتغير جوهريًا.

من الاستسلام إلى الانقلاب

- **الاستسلام**

في عام ١٩٤٥، كان الاستسلام النفسى الكامل مألوفًا فى اليابان. وسمح الإمبراطور للأشخاص بالاستسلام. وفقد النظام الاستعمارى الذى قاده الكثير من شرعيته بين الناس[٢٧]. وطبقًا للقائد ماسو ماريوامى كان هناك شعور بالركود وشعور بالذل بحيث كان الأجانب مُدهشين تمامًا.(ماريوامى ١٩٣٦،٤).

- **الامتثال والخضوع**

تحول اليابانيون بعيدًا عن القومية وسياسات التغير المفاجئ. واتجهوا نحو "المنزل والعائلة المشتركة" (ثورستين ٢٠٠٤، ٣)[٢٨]

وكانت رغبتهم الجديدة فى الامتثال والتوافق مع الطريقة الأمريكية مثارًا لمشاعر الخجل وبالنظر إلى ما كان إلاّ أنها أعطتهم اتجاهًا واضحًا للجهود الشخصية. وكانت الاستجابة للعمل القاسى والعمل الزائد تعتبر غير محتملة. وأعاد العديد من الرجال اليابانيين تركيز ولائهم فى مستوى أقل مكرسين جهودهم فى تكوين شركات تجارية يعملون بها ويتوقعون أن يظلوا بها باقى حياتهم[٢٩]. وخلال أوائل فترة التسعينيات من القرن العشرين كانت الأزمة الاقتصادية الآسيوية وأضعفهم نظام الشركات كما أضعف نظام الإمبراطور آباءهم وأجدادهم. وبدأت الوظائف والعديد من الفوائد الإضافية للطبقة الحاكمة التى حققوها فى الاختفاء والتلاشى.

- **الانفصال**

ولعل السؤال الآن يكون: أين سيتم تركيز ميول اليابانيين نحو الإخلاص؟ وظهرت إجابة واحدة محتملة تتمثل فى إعادة الاستثمار بالدولة القومية، على الرغم

من أن هذا المنظور يظل مثيرًا للجدل باليابان. جدير بالذكر وجود إشارة واحدة للنزعات والميول بالأعلى (على الرغم من أن الأمر لا يمثل ضرورة بين أغلب السكان على المستوى الكبير) وقد كانت عام ١٩٨٩، وبعد انتهاء أربعة عقود من الإهمال تمثلت فى المجلس التشريعى الوطنى الذى أمر المدارس اليابانية أن تعرض العلم الوطنى وأن تغنى النشيد الوطنى كذلك. وفى عام ١٩٩٩، عاد العلم والنشيد الوطنى مرة أخرى ليمثلا رمزى الدولة بشكل رسمى. بعبارة أخرى، بدأت اليابان فى تشكيل هوية قوية منفصلة بشكل واضح عن الولايات المتحدة الأمريكية.

الانقلاب

فى عام ١٩٨٩، أعلن السيد شينتارو ايشيهارا، حاكم طوكيو، أن "اليابان يمكن أن تقول لا" والتى وجدت بعدها بعدة ترجمات منسوبة إليه (على سبيل المثال إيشيهارا ١٩٩١). وفى هذا المقال قدم المؤلف نفسه على أنه يابانى ويفتخر، وأنه قد تغلب على شعور الكبت الذى تسبب به السلوك الوطنى من محو للهوية الذاتية. وكان عنوان مقالته يمثل تعليقًا ساخرًا بالقول اليابانى المتكرر الذى يصطدم مع الأمريكيين عادة "اليابانى الذى يبتسم ويتوافق معهم" ١٤٢. وهنا نرى تحركا قويا باتجاه خطة "الانقلاب" للتعامل مع الإذعان غير المرغوب فيه فيما يتعلق بمسألة الإخضاع، وبعبارة أخرى الخطة التى تعكس صورة عامة مسيطرة (فى هذه الحالة اليابان التى تقول نعم دائمًا) وتحويلها إلى الاتجاه المضاد فى وجه المعتدى[٣٠].

وهنا تظهر نية واضحة لإيشيهارا تظهر فى مهاجمة الإحساس اليابانى بالخجل ولكنه أيضًا يهدف لتقوية شعور دولته الذى كان معرضًا وخاضعًا للإذلال الظالم[٣١]. على سبيل المثال اتهم إيشيهارا الأمريكيين بممارسة التمييز العنصرى ضد اليابانيين[٣٢]. وبهذه الطريقة مضى فى اتجاه سياسات الضحايا. واستدعى من الماضى على سبيل المثال كيف كان المراهق فى عام ١٩٤٦، والذى كان يرفض

التنحى جانبًا عندما يجد ثلاثة من المارينز الأمريكيين ينتقلون فى الشارع: "حين أصبح الشارع ملكًا للحاكمين الجدد وبدا أن فكرة التبجح لتمجيد الثلاثة قد اختلفت. ولم يعجبنى موقفهم هذا، لذلك مشيت ومضيت قدمًا فى الشارع متظاهرًا بأننى لم أرهم. وعندما أوشكت على المرور ضربنى أحدهم على وجهى بعبوة المثلجات". وعدد إيشيهارا العديد من المواقف والحكايات حول الوقوف على نحو مألوف أمام الأمريكيين وطلب المساواة معهم[٣٣].

من المستحيل أن تعرف إلى أى مدى وصل شعور اليابانيين، إذ أصبحوا ضحايا ومدى تقوية هذا الشعور واشتداده من خلال خليط من المشاعر يمزج بين الضغوط الخارجية وبين الانتهازيين السياسيين الداخليين. وكذلك لا يمكنك معرفة ما إذا كانوا سيتغلبون على الشك المستمر فى النخب السياسية اليابانية من بين الجمهور العام. ومع ذلك ومنذ الحرب العالمية الثانية، طرأت بعض التغييرات على الطرق التى تتم فيها ممارسة الإذعان على اليابانيين فى الظروف السياسية والاجتماعية الناتجة عن ممارسة الإخضاع عليهم من القوة الأمريكية الغاشمة، وهذا التغيير يعتبر تغييرا فى الشخصية من ناحية الاستجابات لما يراه الجميع مما يمثل ممارسة الغطرسة العنصرية ضدهم. وهذا التغيير جاء كما يلى:

- من دمج النموذج الأولى للاستسلام مع الامتثال والخضوع.
- إلى الامتثال والخضوع ودمجه مع الانفصال.
- إلى الانفصال ودمجه مع الانقلاب.

فهل يتحول ذلك فى النهاية إلى أسلوب الرفض؟

كتاب الغابة الجديد

جدير بالذكر أن استياء اليابانيين فى ظل الوصاية الأمريكية يعتبر جزءًا من الصورة الكبيرة إجمالاً. وتتحمل واشنطن مسئولية الإمبراطورية الدولية المتبقية بعد انتهاء الحرب الباردة. ومثل الإمبراطوريات الأوروبية السابقة، فإن هذه الإمبراطورية نتجت من خلال التعارض بين المبادئ الهرمية لميثاق الشرف والتى يتم التعبير عنها من خلال ممارسة التحكم الاستعمارى ومبادئ المساواة الخاصة بقانون حقوق الإنسان.

ومنطق السوق الذى تم استكشافه فى الفصل السادس يسوق ويخفى هذا التعارض. وكما نرى، فإنه يحتوى على عناصر من كل من ميثاق الشرف وميثاق حقوق الإنسان. ويرجع هذا إلى:

- تمجيد الصراع بالسوق.
- الصمت حيال الحالات غير المتساوية التى يحدث بسببها هذا الصراع.
- تجاهل الدور الذى يتم من جانب القوة العسكرية فى تقوية هذا التفاوت.
- التقليل من أهمية الحقوق الاجتماعية.

والآن، يمكن التعرف على كتاب السيارة ليكزس وشجرة الزيتون، لمؤلفه توماس فريدمان عام ٢٠٠٠، والذى أشرنا إليه فى البداية بشكل مختصر، فى سياقه المناسب. ومن المفيد للقبول بالإذلال التعرف على مجموعة أسباب قد تجعلك مبتهجًا حتى وإن بدت السماء قاتمة. ويهدف كتاب فريدمان إلى تقديم وسائل علاج إدراكية مطمئنة على الرغم من اعتراف أحد المراجعين الأمريكيين لرفاقه بقوله: "سوف أكون مرتبكًا إذا ما أقرضت هذا الكتاب للأصدقاء عبر البحار". بدا فريدمان

متعجبًا جدًا كمدافع أمريكى ولم يبد اعتراضات لوجهة النظر العالمية التى تعتبر العولمة امتدادًا دوليًا لقدر أمريكا المتجلى(٣٤). عرض فريدمان وجهة النظر العالمية التى تضعف من أثر الضحايا، واعتبر ذلك على أنه منتج لا يمكن تجنبه للطريقة التى يجب على السوق الحرة العالمية العمل فيها إذا كان ذلك كافيًا، ومن ثم فإن ذلك يكون جيدًا للجميع. كان الكتاب محافظًا وشعبيًا وعدوانيًا على نحو قليل.

ومن خلال استخدامه بعض الطرق، كان لفريدمان وجهة نظر مشتركة مع روديارد كيبلنج، الذى صاغ أفضل قضايا جذابة للإمبراطورية البريطانية فى عصرها وزمن نهضتها وكان متحدثًا بلغة تبهج وتريح الأمراء البريطانيين والعمال البريطانيين العاديين كذلك. استخدم فريدمان طريقة مشابهة للأمريكيين: وُجدت بعض من أصداء كتاب الغابة لكيبلينج (كيبلينج ١٩٩٤أ)، والذى تم نشره للمرة الأولى عام ١٨٩٣، فى كتاب سيارة ليكزس وشجرة الزيتون لفريدمان ظهرت مجموعة كاملة من التلميحات للماشية طويلة القرن وقصيرة القرن والأسود والغزلان والسلاحف وكل نوع من أنواع الحيوانات الذى يشير إلى لاعب مختلف بالغابة العالمية الاقتصادية(٣٥).

وكانت حجة فريدمان الأساسية أن الانفتاح والشفافية يتم فرضهما على التجارة والحكومة من خلال التحول الديمقراطى فى التكنولوجيا والمعلومات والشئون المالية. وتتم إدارة العولمة من خلال مجموعة إلكترونية من المستثمرين والسلطات التجارية التى تأتى إلى أو تنشأ من الاقتصاديات القومية استنادًا إلى حال الاقتصاديات وعما إذا كانت جيدة للمضى قدمًا أم لا. فإذا ما تبنت هذه الاقتصاديات قواعد جديدة بضريبة أقل وتضخم مالى أقل والشكل الودى للمصالح التجارية الخارجية القوية ثم بعد ذلك سيكون هذا القطيع سعيدًا لتتبع خطواته، وإذا أبى، فسيجد القطيع منطقة رعى.

ويطلق القطيع مصطلح "الرداء الذهبى" الدال على السوق الحرة (فريدمان ٢٠٠٠، ١٠١) على الشركات والبلدان. وهى دائمًا ما تتلاءم مع بعضها بإحكام.

وقد قدم فريدمان النصيحة فيما يتعلق بالاحتواء فى قالب لاتخاذ الوضع الملائم والمناسب. وقد ركز الانتباه على أهمية تبنى النظام الصحيح للقوانين المالية المنظمة وتعزيز معايير المحاسبة[٣٦]، وقد أيد فريدمان منطق التفكير فى الدولة على أنه التمتع بخصائص وسمات تقنية الكمبيوتر (فى ظل وجود البرامج المناسبة والأجهزة المناسبة) بالإضافة إلى شركة تجارية معلنة تحاول كسب معدلات جيدة للسمعة. وكانت رسالة فريدمان الرئيسية هى: إذا لم تكن لديك القدرة على الدخول إلى هذه السوق الحرة، فإن هذا يعنى أنك ليس لديك الرغبة أو المهارة اللازمة للبقاء. وإذا لم تستطع الحصول على هذه الأشياء، فأنت تستحق أن تهوى للأسفل[٣٧].

دعنا نتبع تحليل فريدمان إلى خضم هذه الغابة التى رسمها ويتحدث عنها. فى إحدى الفقرات النموذجية، يصف اجتماعه مع عمدة إحدى المدن الصغيرة فى إحدى الغابات البرازيلية الممطرة. حيث كان كلما سار الاثنان فى الغابة معًا، كان العمدة يربت على كل شجرة. فقد كان يعرف كل شجرة بالغابة الممطرة ويدعوها باسمها البرازيلى. ومال فريدمان ميلاً مباشرًا نحو حامل الأخشاب البرازيلى هذا. وأحس أن هناك شيئًا ما فى حنايا هذا الرجل. ولما ساروا فى نزهة مشتركة فى الغابة، وضح العمدة لى أنه بالمنطق يعرف ويفهم أن تقطيع الأشجار لم يعد ممكنا كما كان إلا أنه يعرف أن مدينته غير مستعدة للعيش دون تقطيع الأشجار فى الغابة. وبعد فترة وحين أصبح فريدمان مستعدا للمغادرة يقول فريدمان:

> "شكرته وبدأت فى إعداد جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بى من نوع آى بى إم وعندها قال لى: "الآن أنا أريد أن أسألك عن شيء ما من فضلك، وأجبته أن تفضل واسأل عما تريده". فنظر العمدة إلى عينى وقال "هل ترى أنه سيكون هناك مستقبل لنا؟" وكان وقع السؤال علىَّ كالصاعقة تمامًا كمن نال ضربة قاسية فى معدته. بل إنه من تأثير السؤال سالت الدموع من عينىَّ، ولم يزد العمدة وهو ينظر إلى

> المنضدة الموجودة فى كبرياء عن سؤالى عمّا إذا كان سكان قريته وما إذا كان لديهم أى مستقبل....وحاولت لملمة بعض المعلومات المتفرقة لأصيغها فى إجابة أحاول بها أن أوضح بمصطلحات بسيطة أنه وأبناء قريته بالفعل سيكون لديهم مستقبل إلا أنهم يلزمهم إجراء عملية انتقال من الاقتصاد القائم على الزراعة إلى نظام اقتصادى قائم أكثر ما يكون على المعرفة. (فريدمان ٢٠٠٠، ٣٣٠)

وفى كلمات فريدمان، هناك مقابلة بين الأسد الودود على غير العادة (المتمثلة فيه) والسلحفاة التى تتحرك ببطء كبير وهى مصابة بالرعب (العمدة) الذى يأمل لو أن بإمكانه أن يتحول إلى شبل أسد أو إلى غزال سريع الحركة[٣٨].

وتكلم فريدمان أيضًا عن قصة مشابهة للفردوس والقوة، التى كتب عنها روبرت كيجان (٢٠٠٣)، والتى تمت مناقشتها فى الفصل الثامن. والقصة هى: يشبه العالم إلى حد كبير الغابة والأسد فيها ملك الغابة وعلى جميع من فى الغابة وعلى الأسد الملك ذاته أن يقبل قانون الغابة الذى وضعته الطبيعة. ولعل الجزء الأهم فى القصة هو تصوير مسألة الضحايا على أنها أمر طبيعى تمامًا وليظهر كما لو أن ذلك أمر يصعب تجنبه ومألوف كحدث يومى حتى نراه شيئًا طبيعيًا بالنظام الطبيعى. يعيد كتاب سيارة ليكزس وشجرة الزيتون مرة أخرى بعضًا من مقاطع عمل مشهور آخر للسيد كيبلنج: مجرد قصص (كيبلنج ١٩٩٤ب). وفى هذا السياق يروى فريدمان قصة لقرائه حول "كيف أصبحت الأمة الأمريكية ملك الغابة". وكان المغزى من القصة واضحًا: آسف أيها المحبوب العزيز لكن هذه هى الطريقة التى نحن عليها والشكل الذى أنت عليه. فى الحقيقة هذا هو الطريق وفقط كما هو"[٣٩].

منطق السوق العالمى

يرى السيد فريدمان العولمة التجارية على أنها عملية كبيرة يصعب السيطرة عليها تقودها بعض الغرائز المجمعة كالقطيع والتى لم يكن لها تأثيرات مفيدة حتى الآن. إلاّ أن المعلقين الآخرين كانوا أكثر حساسية عند التعامل مع الضرر الحاصل الناتج عن هذه العملية بل وصل الأمر ببعضهم إلى الاعتقاد بوجود أياد خفية من المصالح المشتركة تقف وراء كل ما يحدث. يعتقد زيجمونت بومان، على سبيل المثال، أن العديد من سكان العالم المعاصر قد تحولوا إلى غرباء مسافرين، فالبعض منهم سائحون لديهم محافظ مالية كبيرة لا بأس بها وجوازات مرور جديرة بالاحترام، فى حين أن البعض الآخر، وهم الأغلب، من المشردين الباحثين فى كل مكان عن وسائل العيش والبقاء على قيد الحياة، وهم يحاولون أن يجمعوا وسائل الحياة المترفة المريحة فى ظل هذه الفوارق المتحيزة.

وحتى هذا التشرد يعتبر أمرًا غير متاح للجميع، حيث يتم الحكم على بعض الجماعات بأنها خطرة جدًا أو من البشاعة تركها تخسر. ولا يتوانى الأغنياء عن بذل كل جهد فى إمكانهم لإبقاء الفقراء فى المرتبة الأدنى دائمًا بل وإيقاعهم فى شرك الأحياء الفقيرة وإيقافهم عن تخطى الحدود، بل ويضعونهم فى السجن إذا ما وجدوا الفرصة المناسبة بحيث لا يمكنهم إلحاق أذى بأحد فيما عدا أنفسهم[٤٠].

وقد لوحظ أيضًا تلذذ المجتمع العالمى بسجن الفقراء خاصة الشباب منهم، كما لاحظ ذلك السيد إدوارد لوتواك[٤١]. وكأحد الأمريكيين المقاومين للتغيير (من القدامى وليس الجدد) فقد جاء من جزء مختلف جدًا من الطيف السياسى المناقض لبومان. ومع ذلك فإن لوتواك قد تشارك مع رؤية بومان فى نقاط ثلاث هى: أن الرأسمالية خارج نطاق السيطرة ولا يمكن التحكم فيها، وأنها تُوجد تمييزًا واختلافًا كبيرًا فى المجتمع بين الفئة العليا والفئة الدنيا، وأن الأغنياء يستجيبون للجماهير المتزايدة من الفقراء الساخطين عبر إلقائهم فى السجن لفترات متزايدة[٤٢]. وفى الدراسة التى قام بها والتى تسمى الرأسمالية التوربينية (١٩٩٩)، حاول لوتواك أن

يبرهن أن فك القيود عن الرأسمالية يعتبر من الأمور السيئة. فهى تجعل بعض الأشخاص أغنياء جدًا وحوالى ٥٠ مليون أمريكى أفضل حالاً بسبب المعاملة الائتمانية السهلة بشكل رئيسى، ولكن مع ذلك يظل أكثر من ٦٠ مليونًا من العاملين الأمريكيين العاديين ممن هم خارج الحسابات ولا يقعون فى أى دائرة اهتمام وتراهم يكسبون معدلاً نقديا فى الساعة يعتبر أقل مما كانوا يحصلون عليه فى بداية السبعينيات من القرن العشرين بالمعنى الحرفى ومع اعتبار التضخم كذلك[٤٣].

جدير بالذكر أن لوتواك حذر من أن أى حكومة فى أفريقيا أو أمريكا اللاتينية أو فى منطقة أوراسيا قد تسمح بممارسة الضغط السياسى القوى لرفع القيود عنهم وإشراكهم فى الأمر ذاته تعتبر فى خطر خوفًا من أن يجلبوا لهم نشرات علاجية خاطئة خادعة. والسبب أنهم إذا ما أسقطوا كل دفاعاتهم المؤسسية مقابل المنافسة المفتوحة فسوف يحصلون على نموذج أمريكى للرأسمالية ولكن بدون سمات التوازن المهمة المطلوبة التى تحافظ على توازن حياة الأمريكيين، ذلك التوازن الذى حافظ على أمريكا منظمة نسبيًا ومبهجة ومريحة ومفيدة لمن يتقيدون بذلك النظام.

إن أحد هذه السمات يتمثل فى النظام القانونى الأمريكى والذى ينصف الناس حتى الفقراء منهم بل إن فرصة الحصول على التعويض من خلال ساحة المحكمة أكبر بكثير منها فى أى بلد آخر[٤٤]. والآخر هو النظام الأخلاقى الكلفينى.

وهذا ما يجعل الإشارة إلى الغنى هى ذاتها الإشارة إلى الفضيلة؛ الأمر الذى يقلل من الحقد الاجتماعى. كما أنهم يمنعون الأشخاص من الاستمتاع بثرواتهم مما يقلل من أمور الفساد والرشوة ويشجع الأغنياء على إعادة أموالهم مرة أخرى إلى المجتمع من خلال المسئوليات الخيرية والاجتماعية[٤٥].

الجدول ٩ – ٣ العولمة التجارية: جيدة أم سيئة؟ يمكن السيطرة عليها أم هى خارج نطاق السيطرة؟

	الفائدة الرئيسية فى صالح البشرية	**الضرر الرئيسى على المصالح البشرية**
هذه العملية يتم التحكم فيها على نطاق واسع	ألان شيبمان	سمير أمين نورينا هيرتز ناعومى كلين هانز بيتر مارتين وهارالد شومان مايكل هاردت وأنطونيو نيجري
هذه العملية لا يتم التحكم فيها على نطاق واسع	توماس فريدمان شارلز ليدبيتر	إدوارد لوتواك زيجمونت بومان

وعلى غير ما اعتقد به فريدمان الذى يرى أن الاقتصاد السياسى العالمى القائم هو الطريق نحو تحرير البشر، وبومان الذى يرى أن ذلك النظام هو محرك للتضحية المنظمة، يرى لوتواك أن ذلك النظام يمثل "معضلة كبيرة" (انظر الجدول ٩ – ٤). حيث إن اختياره واضح تمامًا ويميل إلى الرأسمالية المنظمة. ومع ذلك فإنه يعترف ويسلم بأن معظم الحكومات الغربية ليس لديها خطط أفضل من أن تترك الرأسمالية التوربينية تتقدم كيفما شاءت دون قيود وفى الوقت نفسه يحدوهم الأمل فى أن يعالج النمو السريع لهذا النظام كل نقاط الضعف الموجودة فيه (لوتواك ١٩٩٩، ٢٣٧).

إن بعض نقاد نظرية السوق الحرة يصرحون بأن هذا النظام يضعف الدولة الديمقراطية، الأمر الذى بدوره يقلل من الدفاعات المؤسسية عن المواطنين مقابل وضد التضحية بهم. وهذا من شأنه إضعاف وتقويض حقوق الإنسان التى يتمتعون بها. وهو أيضًا ما يجعل الفوضى الاجتماعية أكثر احتمالاً وذلك طبقًا لما قاله هانز

بيتر مارتين وهارالد شومان. ومع ذلك "فى واقع الأمر، ليس المحرومون هم من يتمردون، لكنه الخوف من فقدان الوظائف، وقد طال الخوف فى الوقت الحالى الطبقات الوسطى للمجتمع والتى تعتبر العنصر المتفجر السياسى الرئيسى نظرًا لكثرة ما تتمتع به. بمعنى أن الخطر على الديمقراطية ليس الفقر نفسه ولكنه الخوف من الوقوع فى الفقر" (مارتين وشومان ١٩٩٧، ١١). وجدير بالذكر أنه فى هذا الوقت سوف يعتبر الجنس العالمى نتيجة الفعالية العالية والأجور المنخفضة أحد مكونات الفوضى والخوف والإرهاب واللاعقلانية.

وللتعرف على ذلك الأمر بطريقة أخرى، فإن الخطر الأكبر يتمثل فى الخوف من الإذلال والتضحية. وإذا ما اختفت الدولة الديمقراطية وعلى افتراض ظهور قوة جديدة من خلال الشركات متعددة الجنسيات مسئولة فقط أمام المساهمين فيها، فمن سوف يهتم بمصالح المواطنين؟ وعلى حد قول نوريانا هيرتز: "تتم عملية الإزاحة والطرد لنا نحن البشر ومن خلال نظرية العالم الواحد فى القرن الحادى والعشرين وإذا ما سارت الأشياء على نحو مخطئ، فإلى أين يستطيع المواطن العالمى أن يذهب حين يطلب حق اللجوء السياسي؟ (هيرتز ٢٠٠١، ٨٨).

الجدول ٩ – ٤ لوتواك ونظريته حول الرأسمالية التوربينية مقابل الرأسمالية المنظمة	
الرأسمالية التوربينية	**الرأسمالية المنظمة**
ميل للسيطرة على العالم	ميل للتبعية العالمية
يخدم المجتمع بكامله الاقتصاد	يخدم الاقتصاد المجتمع
يتم تحديد رأس المال طبقا لمعدلات عائدات الاقتصاد التى تم الحصول عليها	يتحدد رأس المال أيضًا طبقا للأنشطة الاقتصادية غير الهادفة إلى الربح نظرا للشعور بالالتزامات الأخلاقية والالتزامات المهنية والأفكار الاجتماعية
توسع من الاختلافات فى الدخل تنظم النمو الاقتصادى تفكك المجتمع إلى نخبة صغيرة من الرابحين وبقية هائلة كبيرة من الخاسرين وثائرة ومنتهكة للقانون تتسبب فى فناء التبعية الاجتماعية والروابط الأسرية يؤدى الانحلال الاجتماعى إلى ابتكار قوانين قاسية وتنتشر حالات سجن المذنبين	تثقل على العاملين تعطل من روح المبادرة تعوق التقدم التقني تتسبب فى نمو الاقتصاد بشكل أبطأ من الرأسمالية التوربينية الافتقار المستمر للدولة التسبب فى تقليل الفرص المعروضة للشباب
تجعل المتعاظمين من خلال المؤسسات الربحية يفسدون محتواهم الأساسى على الرغم من أنها تعمل على تحسين الأداء الاقتصادى لها	قد تؤدى مقاومة النزعة الربحية فى النهاية إلى إفقار وإنهاء عمل المؤسسات المهتمة

* طبقا لنظرية لوتواك ١٩٩٩، ٢٣٦-٧.

وشقت ناعومى كلين طريقها من خلال الصورة التى تكونت فى "الاقتباس الصامت للعالم العام والمسافات العامة بواسطة المصالح المشتركة".

وفى كتابها "لا شعار" (٢٠٠٠)، تحكى عن كيفية انحطاط المواطنة إلى المعنى الاستهلاكى على الرغم من أنها تنبأت باندلاع حرب مرة أخرى، حرب هذه المرة من أجل الجماهير حول العالم.

إن الحرب من أجل الجماهير حول العالم والتحدى المطروح من خلال الرأسمالية العالمية يعتبران الموضوعين المركزيين اللذين تعامل معهما كل من مايكل هاردت وأنطونيو نيجرى فى كتابيهما الإمبراطورية (٢٠٠٠) والجماهير (٢٠٠٥). ومن خلال ربط هذين الموضوعين معًا يكون النمو القوة العالمية الرأسمالية (٢٠٠٠، ١٦٠). ومن خلال هذه الشبكة، تتم ممارسة الحيوية السياسية على الجماهير. كما لا تتم السيطرة والتحكم فى الأشخاص العاديين كالعمال والعملاء وأفراد العائلات من الأعلى من خلال القوة العسكرية كما فى الطريقة القديمة. وبدلاً من ذلك تتم السيطرة عليهم من خلال القوانين الداخلية للإنتاج وعمليات التبادل والثقافة. وعلاوة على ذلك فإن هذه الشبكة العالمية تعتبر إمبراطورية على الرغم من أن الفرد فيها ليس فى روما. وقد تعلمت الإمبراطورية أن تخترق وتتغلغل فى القيم الروحية وتعلمت أن تتعاون وتتواصل وتتراكب بشكل فعال بالقوة العاملة. بعبارة أخرى، تعلم المديرون كيف يفكر الأشخاص وكيف يتعاملون ويتصرفون فى هذه الأيام وقد حولوا تلك المعلومات التى اكتسبوها وتعلموها إلى صالحهم واستفادوا منها كثيرًا. ومع ذلك وعلى قول هاردت ونيجرى، فإن القوة المبدعة الفعلية فى المجتمع هم من بين الأشخاص العاديين والجماهير[٤٦].

يعتقد سمير أمين كذلك أن العولمة هى عبارة عن صراع بين القوى الرأسمالية والديمقراطية. وهو يرى أن صندوق النقد الدولى والبنك الدولى يعملان وفقًا للمصالح التجارية الربحية قصيرة الأمد للأعمال التجارية الدولية. وتتم قيادة هذه

المؤسسات ضمن برنامج يهدف إلى إضعاف الدول إذا ما أمكن ذلك بحيث يمكن للسوق أن تكون الملك الوحيد (أمين ١٩٩٧). وهذه الطريقة أزاحت فئات الحكم الخارجية إلى السياسات الأخلاقية والقومية. وبالتالى تكون النتيجة المحتملة ما لم تنتعش الدولة الديمقراطية أو تنشئ هى الإذلال الكامل لمنطق الرأسمالية.

ومع ذلك وطبقًا لجون جراى، فإن الأسواق غير المنظمة تعتبر ظاهرة غير عادية من الناحية التاريخية والدول القوية فقط هى من يمكنها تنفيذ هذا النظام والحفاظ عليه كذلك. ومثل هذه الدول لا يحتمل أن يتمتع كثيرًا بروح الديمقراطية أو الممارسة العملية ويرجع ذلك إلى أن كلاً من السوق الحرة والديمقراطية متنافسان أكثر منهما شريكان (جراى ١٩٩٨، ٢١٣)[٤٧]. وفى الحقيقة فإن العولمة ليست مسألة أسواق حرة قد تنتصر أو تغزو العالم. وفى المقابل تمثل منتج تقنية معلومات جديدة يعمل على تحويل المسافة والوصول إلى مدى أبعد، مدى لم يصل إليه أحد من قبل. وتكون النتيجة هى بإعمال أنواع الرأسمالية كافة – ليس أقل من تحويل اختلافات وتنوعات السوق الحرة – إلى واقع عملى.

وجدير بالذكر أن أحد نتائج الوصول إلى درجة كبيرة من عدم الأمان هو إضعاف المؤسسات والقيم بالنظام الثقافى الاجتماعى الحالى. وقد يطول أمد عدم الأمان من خلال حقيقة أن الولايات المتحدة الأمريكية يمكنها أن تشق طريقها العـــالمى ولكنها قد تعترض على مشروعات المؤسسات العالمية وهو التغيير الذى لا يناسب المصالح الخاصة به.

وسيزيد معدل الإحباط كلما زاد الصراع على الحكم فى وسط آسيا. واختتم جراى أنه فى هذه الحالة سيمثل ذلك الخيار الاحتمال الغالب لحدوث الحرب والفوضى.

ينظر كل هؤلاء المعلقين إلى العالم كما نظر له فريدمان إلا أنهم يرون الأمر بشكل مختلف. حيث يرى فريدمان الحالة الإنسانية المشتركة وهى تؤدى إلى

إنشاء قانون غابة عالمى يراه فريدمان مفيدًا بشكل كبير فى بنوده ومواده لمن يتوافقون وينتظمون تمامًا معه ولمن يتوافق مع التمدن طالما أن الجميع يقبلون المنطق الأساسى لهذا النظام. ويرى العديد من الأشخاص الآخرين فى هذا النظام كل الخسارة، خاصة فيما يتعلق بخسارة حقوق الإنسان والهيبة والاحترام والأمن. ويرى لوتواك فى المقابل بعض المكتسبات المتوازنة إلا أنه من غير الواضح من وجهة نظره ما إذا كان يرى أن التعويض بالنظام كاف أم لا.

إن كتاب فريدمان من الأهمية بمكان؛ وذلك أنه يمثل محاولة رائجة فى الإقناع، ويحاول أن يجعلنا نقبل أن نكون فى موقع الضحايا وأن يكون الإذلال الناتج عن ذلك من الأمور الطبيعية مثل العواصف الرعدية أو عمليات القتل الموجودة فى الغابة. وتعتبر هذه خطة محكمة ترجع بنا إلى ميثاق الشرف وهى تدعو الشخص لقبولها تمامًا ليقع فيها كما يقع فى فخ محكم. وهى محاولة لتحييد ومعادلة نزوة رفض التضحية على أساس أنها تضعف وتنقص من حقوق الإنسان الخاصة بنا.

*   *   *

تناولنا خلال هذا الفصل:

اعتبار المعضلات التى تواجه هؤلاء المجبرين على الإذعان للإذلال، وتحديد أشكال الانقلاب والانفصال والامتثال والخضوع والاستسلام، وتحليل دورات التضحية، ودراسة حالات إسرائيل واليابان، والتعرف على عمل توماس فريدمان على أنه محاولة لتحييد التضحية وجعلها أمرًا مقبولاً ضمن ميثاق الشرف؛ ومقارنة الأصوات الأخرى المؤيدة والمعترضة على وجهة النظر التى تفيد بأن العولمة التجارية التى يقودها منطق السوق مفيدة بشكل أساسى للمصالح الإنسانية.

١٠

الرفض

والآن يمكننا الانتقال إلى النوع الثالث من أنواع الاستجابة للإذلال ألا وهو الرفض. فإذا كان الهروب تمثله صورة شخص أطلق العنان لساقيه تأخذه مع الريح، وإذا كان القبول تمثله صورة شخص يفتح ذراعيه مرحبًا، فما هى الصورة التى تمثل خيار الرفض؟ هناك صورتان، الأولى صورة شخص يستخدم قبضته القوية ليحطم من يقف أمامه، والصورة الثانية شخص يحتمى بذراعه متفاديًا ضربات خصمه. ويعتمد اختيار إحدى تلك الصورتين على طبيعة الحوار الدائر فيما نسميه الانتقام أو المقاومة.

الانتقام أو المقاومة

يمارس الإذلال دوره فى توجيه مسألتين رئيسيتين عنيفتين ومنذرتين بعواقب أكبر.[١] عندما يدافع شخص أو جماعة أو مجتمع ضد الإذلال، فماذا يفعلون؟ هل يحاولون التعريف والإشارة إلى أن هذا العنف الذى يواجهونه غير مقبول؟ أو سيحاولون تقليل المدى العملى الذى تكون فيه مصالحهم وهوياتهم فى موقع تهديد أو تضرر؟

لتوضيح ذلك بطريقة أخرى (انظر الجدول ١٠ – ١):

- هل العواقب ذات الصلة تتمثل فى الإساءة –> الغضب –> محاولة الانتقام؟

هل تولد الإساءة الغضب والرغبة فى الدفاع والضرب على يد من يكون مسئولاً عن ممارسة الإذلال بما يكافئ مرتكبى الجرائم أو يزيد من الكرب؟

- هل العواقب ذات الصلة تتمثل فى التهديد -> الخوف -> محاولة المقاومة؟

هل يولِّد الشعور بالتهديد الذى تم الامتثال له شعورًا بالخوف والرغبة فى التمتع بالقوة وحماية الهوية والمصالح المهددة مما يقلل من الأهلية أو يحد من فرصة الآخرين على التسبب فى تضررهم؟

الجدول ١٠ – ١ أوضاع الرفض			
الإذلال ->	الغضب (بسبب الإساءة) الخوف (بسبب التهديد الواضح)	الرفض ->	الانتقام المتناقض المقاومة المتناقضة

- كلاهما؟

تقوِّض بعض أعمال الانتقام الجهود المبذولة للمقاومة. وهى الرسالة الواضحة فى كلمات الزعيم نيلسون مانديلا، فى سويتو فى فبراير من عام ١٩٩٠ مباشرة، بعد تحريره من سجنه. كان وقتًا عصيبًا طغت فيه سياسة التمييز العنصرى وعودة الشكاوى والحقد وانتشار العنف. وفى كلمته أمام أتباعه أخبرهم نيلسون مانديلا بما يلى:

> "تعتبر عمليات الاختطاف وإحراق المركبات والإغارة على الأبرياء من الأفعال الإجرامية التى ليس لها مكان فى طريقة تعاملنا مع الصراع الحالى. ونحن ندين ذلك بجميع أشكاله. وسيكون سلاحنا الأساسى للكفاح ضد العنصرية والظلم والاستغلال هو تنظيم الأشخاص فى أشكال حركات ديمقراطية. ويتحقق ذلك بالتنظيم السياسى للشعب وليس

باستخدام العنف ضد هذا الشعب. وأود أن أضم صوتى إلى النداء الذى وُجه فى أوائل هذا العام بأن يعود كل الطلاب إلى مدارسهم ليتعلموا".

وكانت رسالة مانديلا هى مقاومة سياسة التمييز العنصرى مع التأكيد على عدم وجود مكان لممارسة الانتقام. وأخبر مانديلا أتباعه فى سويتو بما يلى:

> عودوا إلى مدارسكم ومصانعكم ومناجمكم ومجتمعاتكم. اعتمدوا على الطاقات الضخمة التى حررتها الأحداث الأخيرة بالبلاد عبر تقوية المنظمات الجماهيرية المنظمة. نحن نخطوا للأمام. خطى ثابتة لن تتزعزع نحو الحرية والعدالة. إننى أتحدث عن الاستمتاع بالحرية فى الحياة. فكفاحكم والتزامكم وانضباطكم هى الأسباب وراء وقوفى أمامكم اليوم. وتلك هى المبادئ الأساسية التى ستدفعنا إلى بناء جنوب أفريقيا بلدًا موحدًا يتمتع بالحرية والديمقراطية ونبذ العنصرية وهى المبادئ التى كافحنا من أجلها ومتنا فى سبيلها[٢].

للتعرف على مثل حول كيفية تقويض الرغبة فى الانتقام لسياسات المقاومة، يمكن أن ننظر بعين الاعتبار إلى حالة الرئيس صدام حسين. فطبقًا لكلام السيد سعيد أبو ريش، الصحفى الفلسطينى الخبير الذى كان على علاقة جيدة بالرئيس صدام حسين وتعامل معه خلال فترة السبعينيات من القرن العشرين[٣]، كانت السياسة الداخلية العراقية تحت قيادة الرئيس صدام حسين عبارة عن تركيبة تمزج بين "النفاق البدوى والمنهج الشيوعى" (أبو ريش ٢٠٠٠، ٨). كان صدام حسين قطب نظرية "سياسات الانتقام"[٤] الدامية التى كانت تمثل المجتمع العراقى القبلى لعدد من القرون. كان قادرًا على معالجة وإدارة هذه التركيبة السياسية بفعالية بأن تخلص من المنافسين له مستخدمًا طرق التعذيب أو الإعدام. وأصبحت عشيرته المسيطرة على التكريتيين والمصالح التكريتية مما مكنه وخلق له موقعًا مركزيًا فى حزب البعث وأصبح حزب البعث هو الحزب الأهم والأقوى بالعراق.

ولفترة من الوقت وخلال فترة السبعينيات من القرن العشرين، كان صدام قادرًا على تدارك هذه الأمور من خلال وضعه خطة يستخدم فيها الأرباح الواردة من نفط العراق لتجديد الاقتصاد العراقى وبنيته الاجتماعية، إضافة إلى بناء قدرات العراق العسكرية. بعبارة أخرى خلال ذلك العقد كان صدام يطوِّر ويزيد بخطى ثابتة من قدرة العراق على مواجهة التحديات القادمة من الدول الأخرى بالمنطقة تلك الدول التى تريد إسقاطه.

ويعتمد النجاح فى تنفيذ سياسات الانتقام على عاملين: التعرف على المنافسين لك أو الأعداء والحصول على الموارد والمهارات اللازمة لإخضاعهم مرارًا وتكرارًا. وفى حالة العراق كان صدام يمضى فى كلا الاتجاهين. ومع ذلك فقد كانت حركته خارج حدود العراق أقل ثباتًا وموارده أقل كفاءة.

لنأخذ مثلاً علاقته مع آية الله الخمينى، رجل الدين ذى المقام العالى الذى أصبح الشيخ الحاكم فى إيران بعد تحركات الشيعة المتعصبة التى أدت إلى الثورة عام ١٩٧٩. وكان الخمينى أيضًا ألد خصوم صدام أثناء الحرب العراقية الإيرانية. وعلى نحو ساخر وقبل عدة أشهر من اندلاع الثورة الإيرانية، نفى صدام حسين الإمام الخمينى من العراق، وهو البلد الذى كان يعيش به. وصدَّق صدام فى العام السابق لهذا العام على قرار إعدام ثمانية أئمة من أئمة الشيعة وألفين من أتباعهم وترحيل مائتى ألف آخرين إلى إيران[٥].

عندما نفى الرئيس صدام الإمام الخمينى وأبعده، انتقل الخمينى إلى باريس ومنها، وبعد فترة صغيرة، عاد إلى طهران منتصرًا. ثم بدأت الحرب العراقية الإيرانية فى سبتمبر من عام ١٩٨٠. وتوقع صدام أن الحرب لن تستمر لأكثر من بضعة أسابيع لكنها استمرت لما يقرب من ثمانى سنوات. ووقع صدام فى مسألة الانتقام وبدأ فى تنفيذ سياسات الانتقام. وكانت حربًا ضروسًا أثرت على البلدين.

طبقًا لكلام أبو ريش، فإن أحد العوامل المؤثرة فى هذه الحالة ما يلى:

لم يعرف صدام عدوه. وكشخص مؤمن ويعتقد فى الانتقام لم يأخذ فى اعتباره عزم الخمينى على معاقبته على تكبره العسكرى وإخضاعه عبر نقل رسالة مفادها أن طرده من العراق عام ١٩٧٨ ما هو إلا خطوة حمقاء.

ورفض الخمينى اعتبار أى جهود للوساطة، فقد كان الأمر المهم بالنسبة له يتمثل فى التفوق غير القابل للانتقاص لكلمة الله. (أبو ريش ٢٠٠٠، ١٩٥)

وجدير بالذكر وجود أحد العوامل الأخرى ذات الصلة، وهى أن الولايات المتحدة الأمريكية والقوى الرئيسية الأخرى فى العالم كانوا راضين جدًا عن طول أمد الحرب. فهى بالنسبة لهم حرب من شأنها أن تضعف القوتين الإقليميتين وتزيد من اعتماد كل منهما على الدعم الأمريكى أو الأوروبى أو الروسى بينما تقلل من قدرتيهما على مواجهة الضغوط الخارجية. وتدنت قدرة صدام على التأكيد على استقلاله خارج العراق وتدنت قدرته كذلك على مقاومة التدخل الخارجى فى شئون العراق بشكل تدريجى حتى وصلت إلى أدنى درجة فى حرب الخليج فى عام ١٩٩٠-١٩٩١، بداية من الضربات المتكررة والحظر الطويل الذى فُرض على النفط، وانتهاءً بالغزو الذى نُفذ عام ٢٠٠٣.

أدت دراسة هذه النماذج إلى النتيجة نفسها: وهى أن الحث على الانتقام من ناحية وإستراتيجيات المقاومة من ناحية أخرى أمران يجب الحرص والانتباه إلى توازنهما وقد يتقابلان فى أحد الصراعات فى بعض الأحيان ضد بعضهما البعض. وقبل التوسع فى هذه النقاط واستكشافها، دعنا نحدد بعضًا من الطرق المحتملة لرفض الإذلال ببعض من التفصيل.

الانتقام المتناقض

يندرج الانتقام تحت ميثاق الشرف. وله هدفان مرتبطان (انظر الجدول ١ – ١٠). أحد هذه الأهداف هو التعبير عن الغضب والاستياء عبر مكافحة حالات الإذلال والرد عليها بطريقة مناسبة (على سبيل المثال مرتكب الجرائم). والهدف الثانى هو استعادة الشرف المفقود أو الهيبة أو المصداقية لدى الجماهير والتى تُمنح دائمًا لمن يرغب فى الانتقام. وبموجب ميثاق الشرف، فإن طريقة التظاهر بالقدرة على إخضاع الآخرين تعتبر هى الطريقة المتعارف عليها لزيادة الشرف الشخصى أو الجماعى.

وهنا يبرز موقف متناقض. فى أحد الجوانب يطوِّر المشاركون فى دورات الانتقام والمعاداة بشكل طبيعى وجهة نظر شائعة عن خصومهم، الأمر الذى يجعل أحدهم يتخيل الآخر وكأنه لا يساوى شيئًا ويستحق التدمير، وهذه النظرية قد انحصرت وأبيدت. وعلى الجانب الآخر تأتى الهوية الثقافية والنموذج اليومى لأنشطة البشر العاديين المشتركين فى عملية الإذلال ومكافحة الإذلال المرتبطين تمامًا بعلاقة الانتقام. كما أن لديهم مصلحة ثابتة فى الحفاظ على هذه العلاقة. إذا كانت تهديداتهم لتعطيل وتدمير الطرف الآخر واضحة تمامًا، فعليهم مواجهة مشكلة كبيرة، وهى فقدان أحد الأعداء صاحب الوجود الضرورى لإحساسهم الشخصى بكنههم.

وضَّح جوناثان لير، هذا الأمر جيدًا فى كتابه عن فرويد إذ كتب يقول:

> يعتقد الإرهابى أنه بسبب أن قومه مضطهدون فإن ذلك كفيل بتبرير أفعاله. ولكن هل يعتبر الأمر رد فعل عكسي؟ ذلك لأنه يجد متعة فى الدمار مما يجعله أسيرًا لشعور الإذلال لديه. ومن ثم فإن صحة ما يقال حول أن الإرهابى يقتل بدافع من

شعور الانتقام لديه، تقابله أيضًا صحة أنه يعتمد على شعوره بالإذلال ليكون قادرًا على الذهاب للقتل. (لير ٢٠٠٥، ٤)[٦]

ويظهر الانتقام المتناقض فى هؤلاء الذين يرغبون فى هزيمة أعدائهم وهم أيضًا من يرغبون فى الكفاح من أجل الاستمرار.

المقاومة المتناقضة

وهنا نجد أيضًا المقاومة المتناقضة. ذكر إدوارد لوتواك هذا الأمر خلال مناقشته الرأسمالية المنظمة والرأسمالية التوربينية. وهو يود أن يرى الالتزامات الأخلاقية والتعهدات المهنية والغايات الاجتماعية المتضمنة بالطرق القديمة التى تحميها نظرية كينزى الاقتصادية الرأسمالية المهتمة بالرفاهية الاجتماعية. ومع ذلك يمكن توظيف المهنيين المطلوبين للقيام بذلك فى حالة تم إعدادهم للعمل فى مؤسسات منظمة على أنها لعالم يسير بالرأسمالية التوربينية التى يبدوا أنها ستضعف هذه الأشياء الكثيرة.

وعلينا أن نميِّز بين شيئين: الأول هو المصالح الخاصة بالجماعات، خاصة فيما يتعلق بهويتها وطريقة حياتها (أ فى الجدول ٢ - ١٠) والثانى هو المؤسسات والممارسات العملية والمواقف اللازمة لحماية وتقوية مصالح الجماعة هذه (ب فى الجدول٢ - ١٠). على سبيل المثال، وجدت حكومة النبلاء المالكة، التى أرادت حماية طريقة المعيشة الريفية فى القرن التاسع عشر، أن عليهم دعم الحكومات التى تشجع على النمو الصناعى المدنى لتحقيق الثروة والتقدم التكنولوجى اللازمين لصنع جيش مسلح قوى قادر على الدفاع عن طريقة العيش هذه ضد المعتدين الأجانب (انظر الجدول٣ - ١٠).

الجدول ١٠ -٢ حماية المصالح والهوية وطريقة المعيشة

أ

المؤسسات والممارسات العملية والمواقف

المطلوبة لحماية وتقوية ب

ب

المصالح المحددة والهوية

وطريقة المعيشة

وفى النهاية، انتهت هذه الحركة التى قام بها النبلاء بأنفسهم. وتحولوا بمرور الوقت وأصبحوا قلة بحلول نهاية القرن العشرين، ويرجع ذلك للتأثير القوى الطاغى للنمو الصناعى المدنى على المجتمع بكامله بما يشمل النبلاء وطريقة عيشهم. ويُقاس النجاح فى ضوء هذه الخطة واقعيًا بالرجوع إلى البطء الذى صاحب كيفية حدوث التغيير المرفوض.

ووضحت المقاومة المتناقضة أنه لحماية الهوية وطريقة معيشتك، قد يكون عليك تغيير الهوية وطريقة العيش.

الجدول ١٠ – ٣ النبلاء بالمجتمعات الصناعية المدنية	
بلغ التهديد للنبلاء وطريقة عيشهم فى الحياة من جانب القوة العسكرية للدول القومية المنافسة التى مضت فى الناحية الصناعية والمدنية وطورت ثقافة علمية متقدمة ↓	النتيجة المتناقضة هى تقوية الصناعات المدنية وتحقيق الفوائد العلمية للدفاع عن طريقة عيشها الريفية، وهُدد تأثير النبلاء وتقوية طريقة المعيشة الريفية عبر الفوائد الاجتماعية الجديدة التى قد شجعوا على حدوثها داخل بلادهم
أدرك أعضاء حكومة النبلاء أنه لمنع الهزيمة والإخضاع من الدول القومية المنافسة – التى ستضع طريقة جيدة للحياة تحت التهديد – يجب أن يشجعوا على الصناعة المدنية والتطور العلمى ببلدهم وذلك للمساعدة فى جعله قويًا وقادرًا على مقاومة الهجوم ←	↑ إذا نجحت عملية الصناعة المدنية والتطور العلمى، فستزيد القوة السياسية والاجتماعية لطبقة العاملين المدنيين وطبقة التجاريين مع زيادة المهن العلمية كذلك ويؤثر كل ذلك بشكل كبير على الحكومة والمجتمع

الجدول ١٠ – ٤ الطرق الثلاث للتعامل مع المقاومة المتناقضة		
مقاومة للرمق الأخير	التأقلم العملي	الإصلاح المدروس
تتحدد عند المحافظة على طرق العيش القديمة أيًا كانت التكاليف بل والقتال عند الضرورة	تغييرات بسيطة تحت ضغط التحديات الحالية عندما يكون البقاء على قيد الحياة فى خطر	الإعادة المدروسة للهوية وطريقة المعيشة والحفاظ على الروابط الأساسية مع الماضى وأيضًا محاولة فرض شكل مقبول قابل للتطبيق على المجتمع الجديد

بعبارة أخرى فى ضوء الجدول ٢ – ١٠، قد تتعارض متطلبات النوع أ مع محتوى النوع ب. كنتيجة لذلك عندما تكون هويتك وطريقة معيشتك فى تحد، سيكون عليك اختيار بعض المظاهر للتخلى عنها مقابل حماية "المظاهر الأساسية"، مما يعنى أنه عليك أن تقرر ما هى المظاهر الأساسية.

ثمة ثلاث طرق على الأقل قد تستجيب بها الجماعة الواقعة تحت ضغط فى مثل هذه الحالات. إحداها التأقلم العملى، على سبيل المثال افترض أن الجماعة متكاملة تمامًا مع المجتمع وتقوم بالتحليل الذاتى وتتمتع بالوصول الحقيقى لمصادر الطاقة. فقد تكون هذه الجماعة قادرة على إجراء تغييرات عملية تتميز بالمرونة فى الأداء والتكتيكات والمواقف عندما يكون من المفيد القيام بذلك. والدليل على ذلك استجابة النبلاء الإنجليز عند ظهور الدولة البيروقراطية الحديثة وهجمة المدينة الصناعية.

ومع ذلك وكما هو واضح فى الجدول ١٠ - ٤، فإن هناك طريقتين أخريين، هما المقاومة للرمق الأخير والإصلاح المدروس. دعنا نستشف مثالين عن أنواع الاستجابة هذه من اليابان والهند وكيف أنهما تغلبتا على مشكلة تحدى الاستعمار الغربى.

محارب الساموراى الأخير

فى عام ٢٠٠٣، حقق فيلم محارب الساموراى الأخير، الذى أخرجه إدوارد زويك، وقام ببطولته توم كروز، نجاحًا وشهرة واسعة فى كل أمريكا الشمالية. وهو يحكى عن قائد محارب من النبلاء اليابانيين ممن رفض المساومة على طريقته التقليدية أو ميثاق الشرف عند مواجهة التمدن التجارى العصرى والتقنية الحديثة القادمة من الغرب.

ورفض هذا الرمز النبيل التخلى عن سيفه كما تطلب القوانين المعاصرة الجديدة. ولم يحن هامته للنظام السياسى الاجتماعى الجديد الذى كان يعتزم استبدال السلطة الإقطاعية القديمة. وحاول قائد الساموراى هذا أن يرفع حالته إلى الإمبراطور لكنه لم يجد أذنًا مصغية. وأحس بأن الخيارات قد نفدت منه فيما عدا الثبات والقتال عندما أرسل مستشارو الإمبراطور جيشًا لاعتقاله والقضاء عليه. وقد أبلى بلاءً حسنًا فى القتال وهو يجمع بين مهارات المقاتل التقليدية مع خطط عسكرية متقنة إلا أن الأسلحة الأكثر تقدمًا الموجودة فى أيدى الدولة اليابانية حسمت المعركة فى النهاية وبالتالى تجرع مرارة الهزيمة. وبعد أن جُرح، انتحر فى أرض المعركة.

وكانت الرسالة المحورية التى أراد الفيلم إيصالها أنه من النبل أن تختار الشرف على الحياة لكن الفاجعة أن تُجبر على هذا الاختيار. لقد رفض البطل هنا تبنى خطة للنجاة كان من شأنها تقويض الطريقة الوحيدة فى الحياة التى قد تجعل

للنجاة معنى. وفى ضوء ما ذكرنا فى الجدول ١٠ – ٢، لقد اختار الخيار ب (طريقة الحياة التقليدية الخاصة به) لكونه خيارًا جديرًا بالاحترام، ورفض الخيار أ (فى هذه الحالة، الأسلوب الغربى العصري)؛ لأنه يعبر عن الإذلال. وأضحى فعل المقاومة عملاً مُدانا. وهو يمجد ثقافة تموت فى مواجهة التغريب.

تستند القصة على نحو غير محكم إلى الثورة التى قامت بها عشيرة ساتسوما عام ١٨٧٧، التى قادها سائيجو تاكاموري. كان سائيجو أحد القادة فى هذه العشيرة والذى تولى قيادة جزيرة كيوشو بجنوب غرب اليابان بالقرب من كوريا والصين. وراوى الفيلم أحد النبلاء الإنجليز المنفيين (لعب دوره تاموثى سبال). كانت هذه الشخصية تحمل بعض الشبه بأغسطس اتش مونسى، زميل الجمعية الجغرافية الملكية، ويروى كتابه، ثورة ساتسوما (١٨٧٩)، الذى يُعرف فيه على أنه "سكرتير بعثة ملكة بريطانيا إلى اليابان"،[٧] بلهجة تحمل بعض الذهول وتصف أيضًا نبرة صوت الفيلم.

من الواضح أن مونسى قد زار بلدة كيوشو ولم يعد غريبًا على المجتمع اليابانى والتاريخ اليابانى. وقد حكى قصة تحمل تعقيدًا أكثر من الفيلم. كان سائيجو عاملاً رئيسيًا بالسياسات المحلية اليابانية قبل مجيء ميجى إلى العرش وإصلاح عام ١٨٦٨، عندما كان شوغون لا يزال بالحكم. كانت حكومة شوغون، التى حكمت من خلال عشيرة توكوجاوا، القوة الفعلية وراء عرش الإمبراطور لعدة قرون وقد استاءت عشائر أخرى تتضمن ساتسوما من تلك القوة.

ولم يكن غريبًا على سائيجو، محارب الساموراى الأخير، أن يعلن الثورة. وقد مثل الجانب القيادى بالثورة العسكرية عام ١٨٦٧، الذى أسقط حكومة الشوغون وأعطى السلطة للإمبراطور مرة أخرى. نال العديد من الناس من عشيرة ساتسوما وظائف بالحكومة الإقليمية من وقتها وحتى بعد ذلك. فى حين لم يكن آخرون ومن بينهم سائيجو سعداء بما يُعرض عليهم. عمليًا، يبدوا أن سائيجو كان يريد موقعًا وظيفيًا قويًا مثل شوغون المعزول. وكنتيجة لذلك انقسمت عشيرة ساتسوما.

ولـــم يعـــارض أتباع سائيجو كل أشكال التغيير. بل كانوا قلقين حيال أنهم لا يسيطرون على سرعة التغيير واتجاهه. إلا أنهم بكل بساطة لم يديروا ظهورهم ولم ينقلبوا على الأفكار الجديدة والممارسات الجديدة لصالح الهوية وطريقة العيش القديمة. وتم نشر بيان رسمى بصحف طوكيو فى يونيو ١٨٧١، يعرض وجهات نظر سائيجو.[٨] وحاول إثبات أن الحكومة يجب أن تستند إلى نظام الحكم فى اليابان بالعصور الوسطى لكن مع الأخذ فى الاعتبار بقانون الدول الغربية. بمعنى آخر قبول بعض العنصرية والتجديد.

إلا أن التجـــديد المقصـــود لا يُسمـــح لـــه بأن يغمر اليابان القديمة. يجب ألا نحاول تمدين اليابان بسرعة كبيرة ويجب أولاً أن نقوم فقط بما تسمح به مواردنا. يجب أن نتخلى عن القوة الكاملة والسكك الحديدية وما إلى ذلك ونعمل فقط باجتهاد لجعل نظامنا العسكرى قويًا ومكتملاً. دعنا لا نحاول أن نقوم بمئات الأشياء مرة واحدة ولكن لنتحلى بالصبر ونعمل بالتدرج (مونسى ١٨٧٩، ٤٥). وهذه الرسالة لا تعنى "لا ولكن تعنى لنبطئ قليلاً من فضلكم!" و"لتسألونا عمَّا نفكر فيه قبل أن تعملوا!". أراد البيان أن يقول "يجب مناقشة إجراءات الحكومة، الصغيرة منها والكبيرة جيدًا، وأخذها فى الاعتبار قبل سن قوانينها".

شعر سائيجو بقليل من السعادة لرؤيته بعض التغييرات بالبناء الفاسد للنظام الإقطاعى القديم. على سبيل المثال، إسقاط كبار زعماء الإقطاع ممن يقودون العشائر والمعروفين باسم داى ميو، مما أعطى محاربب الساموراى مزيدًا من الحرية.[٩] وكان تدهور حالة محاربى الساموراى أمرًا مختلفًا، وقد حدث ذلك عام ١٨٧٦. [١٠] وصف مونسى كيف أن أكثر محاربى الساموراى تطرفًا من كيوشو تأثروا عندما تم إرسال جند الإمبراطور من التنظيمات الأقل ممن يرتدون اللباس الموحد على الطراز الغربى إلى جزرهم:

> قامت فرقة من المحاربين اليابانيين الأشداء المرتدين لباسهم تبعًا للطراز القديم من الخوذة والدرع المكونة من السلاسل والتسليح بالسيوف والمطارد (فأس الحروب) بمهاجمة موقع عسكرى خاص بكوما ماتو فى جنح الليل. وذبحوا وجرحوا ٣٠٠ من جند الإمبراطور وهم فى أسرتهم. وكان هذا العمل من وجهة نظرهم إعمالاً للفروسية ولم يكن الإجراء التالى أقل فروسية طبقًا لأفكار اليابانيين، حيث تم ارتكاب مذبحة كان القتل فيها صبرًا، ومن ثم تراجعوا إلى التلال واكتشفوا عدم احتمالية اندلاع ثورة عامة بالإقليم، وقام عدد منهم يبلغ أربعة وثمانين بإجراء بيان الثقة فيما يتعلق بنياتهم من خلال الانتحار بطريقة الهارى كيرى (بقر البطن بالسيف) فى حين استسلم تسعة وعشرون لجنود الإمبراطور الذين سريعًا ما بدءوا وقتلوا بقية الفرقة. (مونسى ١٨٧٩، ٩٢-٣)

كان أتباع ايتاجاكى تايسوكو، أحد قادة عشيرة التوسا، الموجودين أيضًا فى كيوشو أقل قوة ولكنهم اعترضوا على الانحطاط الذى طال أعرافهم العسكرية.

زار بعض من رجال عشيرة توسا الولايات المتحدة الأمريكية وكانوا مؤيدين للمؤسسات الممثلة للأداء الغربى بالحكومة لكنهم اعترضوا على الطريقة التى يتم التعامل بها مع محاربى الساموراى. كما استشهد مونسى، إنهم يؤمنون أن ثمة خطأ كبيرًا يُرتكب فيما يتعلق بمحاولة تقليل منزلة محاربى الساموراى إلى منزلة الأشخاص العاديين. ومن وجهة نظرهم يجب أن يتم تشجيع الأشخاص العاديين للارتقاء إلى مستوى الساموراى".

عندما حشد سائيجو جنوده المدربين جيدًا لتفجير ثورة، كان لديه بالتأكيد مخططان للأحداث، أحدهما كان متفائلاً والآخر كان متشائمًا. المتفائل منهما أن السلاح البحرى اليابانى الممتلئ بضباط من قبيلة ساتسوما سيثورون تعاطفًا

لاستعادة وتقوية مبدأ التسلسل الهرمى داخل المجتمع اليابانى منفذين قيم طبقة الساموراى بالقيام بذلك حتى النهاية.(١١)

وكان المخطط المتشائم هو الذى حدث لأحد المحاربين وهو محارب الساموراى الأخير. وهو أن الإمبراطور وحاشيته سيشعرون بالعار عندما يرون محارب الساموراى الجدير بالاحترام من كيوشو وهو يحارب دفاعًا عن طريقة معيشته القديمة. بعبارة أخرى قد يحدث تغييرًا انطلاقًا من التضحية الجماعية الواضحة، وهم يعبرون عن التزام هذه المجموعة لطريقة واضحة للتعامل مع العلاقات الإنسانية، تغييرًا فى قلوب من يحكمون البلد.(١٢)

غاندى

جعل منهج غاندى المقاومة السلمية المدروسة رغبة أتباعه للتعامل المعاناة فى سبيل قضيتهم. وقد أراد أن يغرس فى نفوس أتباعه التزامًا بطريقة محددة تتوافق مع العلاقات الإنسانية. فقد كان مثل محارب الساموراى حين أراد أن يحدث تغييرًا فى قلوب القائمين على حكم الدولة. ومثل سائيجو ومثل إيتاجاكى تاسوكى، تطلع غاندى إلى منهج عملى يجمع بين الأفكار الفطرية والأفكار الخارجية. ومع ذلك فقد وردت بعض الاختلافات:

- على عكس سائيجو، الذى التزم تمامًا بميثاق الشرف، كان غاندى مأسورًا أكثر بحقوق الإنسان العالمية.
- أكدت رؤية غاندى للعلاقات الإنسانية على السلام أكثر من العنف.
- كان من وجهة نظر غاندى أنه من الأهون أن تكون ضحية للإذلال من أن تكون سببًا فيه.

- كان غاندى يعمل على تقوية روح التكافل الإنسانى والمساواة العالمية والمساعدة المشتركة ولا يدعو إلى تجديد ممارسات الحقوق الاجتماعية الفئوية والتسلسل الهرمى.
- حاول بشكل مدروس استيراد أفكار (خلاف القبول على مضض) من الغرب، خاصة من تلك الموجودة بالمسيحية ونظريات النقاد الاجتماعيين مثل جون روسكن.

ولد غاندى فى الهند عام ١٨٦٩. وكما هو معروف جيدًا، تدرب كمحام فى لندن ثم قضى أكثر من ٢٠ عامًا بجنوب أفريقيا. وفى ناتال بجنوب أفريقيا وبشكل فطرى، شارك فى قضية تسوية عقود عمل العمال الهنود وأسس التجمع الهندى بناتال وطور سياسته بشأن المقاومة السلمية أو الساتياغراها (كلمة من اللغة الهندية القديمة تعنى القوة الحقيقية). وعاد إلى الهند عام ١٩١٤.

ومثل سائيجو، كان غاندى رجل أفعال على الرغم من اختلاف نوعية الفعل بينهما بشكل كبير. يقول السيد بيكو باريك فى كتابه حول الفلسفة السياسية لغاندى فيما يتعلق بمنهج غاندى ما يلى:

> كانت الفكرة لا تعنى شيئًا له ما لم يدفع حياته ثمنًا لها، وكانت حياته ستتم بالسطحية ما لم تعكس رؤية حريصة تم التفكير والتخطيط لها بعمق. فى كل مرة كان يأتى لغاندى هاجس بفكرة ما جديدة، كان يسأل نفسه تُرى هل تستحق العيش من أجلها؟ إذا كانت الإجابة لا، فلا يعيرها بالاً. وإن كانت الإجابة إيجابية، فهو يدمجها لتكون جزءًا من حياته، ويجربها ويسبر غورها، ويكتشف المنطق الأخلاقى بها. كان قليل القراءة ويقرأ فقط الأعمال التى تضيف إلى حياته العملية. (باريك ٢٠٠١، ٦-٧)

كان سائيجو يحاول الدفاع عن طريقة المعيشة التقليدية المتماسكة فى وجه الغزو المنذر بالخطر من جانب المدنية الغربية. وعلى الجانب المقابل كان غاندى يحاول خلق طريقة حياة جديدة متماسكة فى مواجهة تحول الهند على يد بريطانيا التى رسخت أقدامها فى الهند بعد ذلك وأبت أن ترحل. على سبيل المثال، أراد أن يحول موقف "المحرومين" أو الطبقة الدنيا فى الشعب الهندى.[١٣] أراد أن يتحمل كل فرد واجب حماية نفسه وذلك لتحمل المسئولية الشخصية ومن ثم يتمكن كل شخص أن يقاوم الهجمات البريطانية على نهج مستقيم. ويجب أن يكون بحوزة كل فرد أدوات قوية لإعادة بناء مجتمع الهند والعالم أيضًا كما كان يأمل غاندى. ومن خلال الثقة الكبيرة فى النفس والقوى التنظيمية الكبيرة والميل للانتشار، أخبر غاندى أتباعه عن نوع إعادة البناء التى يعتقد أنها ضرورية.

وفى نهاية كتاب السرفودايا، الذى كتبه غاندى فى فترة وجوده فى جنوب أفريقيا مستلهمًا أفكار روسكن، وضح غاندى وجهة نظره عن نوع السواراج (الحكم الذاتي) الذى يجب على الهنود والهند العمل على تحقيقه. وبدأ بتوضيح أن السواراج لا يمكن تحقيقه من خلال قتل الإنجليزيين أو من خلال بناء المصانع الكبيرة.

فقد يتراكم الذهب والفضة إلا أنهما لن يؤديا إلى خلق الحكم الذاتى. وقد أثبت روسكن ذلك إلى حد بعيد.وفى الحقيقة لقد أضاف:

لقد قللت المدنية الغربية من أوروبا وجعلتها فى ورطة مؤسفة. دعونا ندعو أن يحفظ الله الهند من مصيرها الذى باغتتنا به أوروبا. سيأتى يوم تنفجر فيه ثورة الهند، وتتحول أوروبا إلى جحيم حقيقى على الأرض. وستنظر الأجناس البشرية من غير البيض إلى كل دولة أوروبية كضحية شرعية. ماذا نتوقع غير ذلك عندما يكون الاشتهاء هو الدافع الحاكم فى صدور الرجال؟ انقض الأوروبيون على المناطق الجديدة انقضاض الغربان على قطعة من اللحم. وأميل إلى تفسير ذلك على أنه يرجع إلى مصانع الإنتاج الجمهورية. يجب أن يكون لدى الهند استقلالها

الخاص بها إلا أن ذلك يجب أن يأتى بالطرق الشرعية المستقيمة. يجب أن يكون الاستقلال الخاص بنا حقيقيًا، وهو الأمر الذى لن يحدث من خلال العنف أو التصنيع. كانت الهند يومًا أرضًا ذهبية لأن الهنود كانوا يمتلكون قلوبًا من الذهب. والأرض هى الأرض إلا أنها أصحبت صحراء لأننا أفسدناها. ويمكن أن تصبح الأرض أرضًا ذهبية مرة ثانية فقط إذا تحول المعدن الرئيسى للشخصية الوطنية الحالية إلى ذهب. والنواة التى قد تؤثر على هذا التحول من نظر الفيلسوف هى كلمة بسيطة من مقطعين – ستايا (الحقيقة). إذا التزم كل هندى الحقيقة، فسيحالفنا الاستقلال[١٤].

فى اليابان، حاول رجال ساتسوما وتوسا مساومة الحكومة اليابانية حول المقايضة المناسبة بين الأهداف والوسائل بين الهوية القيمة وطريقة الحياة من جانب، والوسائل الفعالة لتأمينها من جانب آخر. وفى المقابل، رفض غاندى اعتبار إجراء أى مقايضة من أى نوع. وبالنسبة إليه فإن كلاً من الأهداف والوسائل يتمتع بوجود اتصال عضوى. كما حدده فى كتابه "قد تكون الوسائل أشبه بالبذرة، تنتهى بالشجرة، إلى جانب وجود الاتصال القوى بين الوسائل والهدف كما بين البذرة والشجرة" (غاندى ١٩٥١، ١٠). وفى ضوء ما ذكر فى الجدول ٢ – ١٠، فإن الخيار ب (طريقة المعيشة القيمة) لا يجب أن يكون فقط متوافقا مع الخيار أ (وسائل التحقيق والدفاع) ولكن أيضًا أن يتداخل كل من الخيارين مع بعضهما البعض.

استمر غاندى فى التزكية وممارسة سياسة الساتياجراها (المقاومة الخالية من العنف). وبدأ بتنظيم حملات جماهيرية للتمرد الجماعى على القوانين الخاصة بالمستعمرين، مثل ضريبة الملح المفروضة عام ١٩٣٠. وفى هذه المظاهرات كان أتباعه مطالبين بتلقى أى ضربات على أشخاصهم من الشرطة أو الجيش دون رد أو كسر رابطة الأخوة الإنسانية التى تربط كل البشر. كان المقصود بالطبع من هذا الاستسلام الباعث على الفخر هو إغضاب السلطات وإضعاف ثقتهم بأنفسهم.

ولاقت هذه الحملات رواجا كبيرا. اكتسبت طريقة غاندى الفلسفية قيما كبيرة الشبه بالأوروبيين التى جعلت من السهل عليه إثارة مشاعر الخجل والإعجاب من جهة البريطانيين وغيرهم من الغربيين الآخرين.

وفى الوقت ذاته، استطاع غاندى عبر تعليم أتباعه أن يتقبلوا عقوبات الإذلال دون ردها أو أن ينحرفوا بعيدًا عن نواياهم أن يقلل من تأثير العنف وفعاليته كوسيلة يمتلكها المستعمر.[١٥]

اعتبر غاندى أن لديه خطة للتحرر الوطنى ستكون تكلفتها قليلة بالمقارنة مع ما تكبدته الدول من تكاليف للقوى العسكرية. فى عام ١٩٣٨، كان غاندى جريئًا بما فيه الكفاية ليكتب أنه "القليل من الحقيقة كافٍ لتحقيق الحرية".[١٦] اختلفت نظرة غاندى للعشائر والعائلات عن سائيجو. فبالنسبة لمحارب الساموراى، تعتبر العشيرة قلعة يحتمى بها من هجمات العشائر الأخرى. وعلى الجانب المقابل، يعتقد غاندى أنه عندما يدرك الناس المعاناة التى سببها العنف، فإن قلوبهم تذوب وتتلاشى. وحاول أن يثبت ذلك "من طريقة تعاملنا مع العائلات أو العشائر. يعتبر الجنس البشرى كله عائلة كبيرة. وإذا كان التعبير عن الحب قويًا فيجب أن يصل إلى البشر جميعًا". (غاندى ١٩٥١، ٢٦٣-٣).

ولم يجد غاندى طريقة للتعامل أو حتى تدارك العنف كتعبير عن الضغينة البينية المشتركة. مرة أخرى، يلخص باريك الأمر جيدا: "إن النظرية التى تبناها غاندى تفسر أن الهمجية ما هى إلى حالة مؤقتة تختفى فيها الناحية الإنسانية، ويمكن علاج هذه الحالة من خلال جراحة بسيطة للروح، لكن عندما واجه غاندى الوحشية شعر بأنه فى وادٍ والأخلاقيات فى وادٍ آخر، ولم يستطع أن يحتوى ذلك الإحساس." (باريك ٢٠٠١، ١٢٠).

مات ما يقرب من مليون شخص خلال العنف الهمجى بين الهندوس والمسلمين، الذى جرى عندما تحقق استقلال الهند عن بريطانيا عام ١٩٤٧. الأمر

الذى تبعه تقسيم الدولة إلى قسمين هما الهند وباكستان. استطاع غاندى نشر التنوير الثقافى والسياسات التصورية التى ساعدت على التحرر من سيطرة الحكومة البريطانية على الهند. وعلى نحو ساخر، كما تم التحرر من هذه السيطرة، تم التحرر من سيطرة سياسات أخرى أكثر إفراطًا، هى سياسات الانتقام.

سلاسل الانــتـقام

قــد تتم إثارة الانتقام من خلال ارتكاب أفعال الإذلال أو الإبعاد أو الترحيل أو الطرد (ومن خلال تذكيرهم بالاستمرار البغيض). وعلى خلاف المقاومة، فإن الهدف الرئيسى للانتقام ليس الحفاظ على موارد الشخص وقدرته على مواصلة السعى وراء تحقيق أهدافه الخاصة ولكن بدلاً من ذلك يكون هدف الانتقام هو مهاجمة هؤلاء الملامين بالإذلال بطريقة تؤلمهم وتسىء إليهم. وهو نوع من الثأر وليس الدفاع.

تنبعث الرغبة فى الانتقام من شعور الإساءة. وينشأ شعور الإساءة من إدراك تدهور وانقلاب الموقف والموقع الصحيح أو التهديد الجدى بفعل من أفعال الإذلال.

قد تتم إزاحة الانتقام من مسألة الإذلال الفعلية – التى قد تكون مجهولة الملامح ولا يمكن الاقتراب منها – إلى هدف أكثر ملاءمة بمعنى "تهيئة" الإذلال نفسه ليصبح شكله "مع ازدرائة" متوافقًا مع رغبات مَنْ يريدون التعبير عن غضبهم. وفى الحالات الشديدة، قد تتكرر عملية الإزاحة هذه عدة مرات، تتحرك منحدرة بالتسلسل الهرمى أو تتحرك بنظام النقر المستمر بالنظام الذى يسمى سلسلة الانتقام.

كما وضح إلياس كانيتى: "لا يمكن أن ينسى أى شخص أى احتقار يأتيه بغتة؛ لأن ذلك مؤلم جدًا، وما لم يقم هو الآخر بتوجيه هذا الاحتقار إلى شخص آخر أيضًا، فإنه سيحمل تلك الذكرى السيئة معه لبقية حياته" (كانيتى ١٩٧٣، ٢١٩). إن الاحتقار

يعبر عن الدفع لأسفل أو التسبب فى تدنى شخص أو الإنقاص من قدر شخص ما يرفض أن ينسجم مع دور الضحية فيما يتعلق بهويته والموقع المناسب له بين نظام الأشياء. وللتعبير عــن ذلك بطــريقة أخرى، فإن الإذلال عبارة عن إزاحة النفس أو إزاحة مجموعة. وإحدى الاستجابات هى إزاحة الإذلال نفسه عبر تمريره إلى الآخرين. ويساعد ذلك الرد فى إعادة تهيئة شخص أو مجموعة بعامل يميل إلى الحزم والاستقلالية قادر على ممارسة سلطاته والقيام بالأشياء التى يريدها. وفى مثال ذكر، سأل كانيتى قراءه أن يتخيلوا شعور الألمان خلال فترة التضخم المالى الكبير بين الحربين العالميتين. وقلل هذا التضخم من قيمة الأفراد ووضع الجميع فى القارب ذاته وجميعهم يشعرون بالضعف. أصبح المال غير ذى جدوى. وهذا ما جعل الناس يشعرون بأنهم عديمو القيمة. وأصبحوا شديدى الحاجة إلى أن يحولوا هذا الشعور إلى شىء ما أو إلى شخص آخر. وعلى حسب كلمات كانيتى:

> ما نحتاجه هو عملية ديناميكية للإذلال. من ناحية أنه يجب معاملة شىء ما بطريقة يصبح معها هذا الشيء غير ذى قيمة وأقل، مثلما فعلت وحدة المال خلال فترة التضخم. ويجب استمرار هذه العملية حتى تنعدم قيمة ذلك الشيء. ثم يمكن للشخص أن يتخلص من ذلك الشيء وكأنه ورقة أو يقوم بإعادة تحويله. وكان الشيء الذى وجده هتلر لهذه العملية أثناء التضخم الألمانى هو اليهود. ويبدو أنهم قد وُجدوا لذلك. (كانتى ١٩٧٣، ٢١٩)

دورات الانــتــقام

وللتسبب فى حدوث دورة الانتقام، يتعين على الطرفين أن يكونا قويين كفاية لبث الروح فى هذه العملية. أو يجب أن يقوم أحد الأطراف على الأقل (ما لم يكن

كلاهما) باعتبار الشخص الآخر أو الجماعة أو المجتمع على أن هذا الطرف لا يساوى شيئًا مطلقًا.

الجدول ١٠ - ٥ دائرة الانتقام	
(١) يتوجه الطرف س باللوم للطرف ص عن الإخضاع الموجه للطرف س والذى يحيا فيه الطرف س ↓	(٤) → النتيجة من (١) إلى (٣) تتكرر مع الطرف س وتنعكس مع الطرف ص
← (٢) يشعر الطرف س بالانتهاك ضد الطرف ص، الذى يعبر عن اللوم لهذه الهجمة	↑ (٣) ينفذ الطرف س هجوما انتقاميا إخضاعيا موجهًا للطرف ص للتعبير عن الإساءة وزيادة الانتقاد

بعبارة أخرى، يجب أن ينكر أى حق شرعى للموقف والمكانة للآخرين والتأكيد على ذلك بشكل مفرط. ويتسبب الانتهاك نتيجة الوجود المستمر للآخر فى المكان غير الملائم الذى يصر على البقاء فيه. ويعتبر الوجود الدائم والواضح لكره الآخرين مؤلما جدًا ومصدرًا ثابتًا للمشكلات، وسبب استمرار الألم (انظر الجدول ١٠ - ٥).

جدير بالذكر وجود عامل آخر يغذى دائرة الانتقام، وهو المصلحة العائدة فى جانب كل طرف من الأطراف المشاركة جراء استمرار الصراع. وعلى نحو ساخر، فإن الجراح الناتجة عن الإخضاع تتحد مع هويات بعض الأشخاص ذات الصلة على الأقل. ومن ثم يفتقرون إلى الضغينة والبغض وحب الانتقام. ويعتبر ذلك جزءا من الانتقام المتناقض.

ولمحاولة التعرف على دورة الانتقام وفهمها بشكل أفضل، دعنا نركز بشكل مختصر على أوروبا منذ ١٨٧٠.

فرنسا وألمانيا

نشر كل من توماس شيف وولف جانج شيفايلبوش دراسات مهمة حول الانتقام. ففى الانتقام الدامى (١٩٩٤)، عقد السيد شيف مقارنة مهمة بين الأنظمة الدولية والعائلات. واعتمد على نظريات تم تطويرها لفهم حالة الصراع داخل العائلات للمساعدة فى شرح حالات الصراع المطوّل بين الدول الإقليمية، خاصة الحربين العالميتين بأوروبا.

وحاول أن يقول إنه بدلاً من توجيه اللوم لدول خاصة أو قادة سياسيين عن حروب محددة، يكون من الأفضل النظر إلى نظام الاتصالات بين دول أوروبا فى الوقت ذاته. وجدير بالذكر وجود مستوى متدنٍ من الثقة فى هذا النظام واستخدام طرق وخطط ملتوية وخداعية مثل التآمر مع أطراف أخرى خلاف التحدث والتعامل بطريقة مباشرة وخالية من المنغصات مع الأعداء المحتملين لتحقيق التفاهم المشترك وتجنب المواجهة.

وثمة مشكلة بين الدول كما بين العلاقات الأسرية، وهى الاغتراب. وقد أخذت هذه المشكلة شكلين: العزلة، وذلك عندما تتسع الهوة والمسافة بين الآخرين كثيرا، والانغماس، عندما يعنى الالتزام والإخلاص الأعمى لإحدى العلاقات الغوص فى الفردية بحيث يتم التبرؤ من صفات مهمة فى الشخصية ذاتها ووضعها بعيدة وصعبة المنال. وتحمل القومية الشديدة مخاطر احتواء وانغماس الأفراد بالدولة فى حين يتم عزل الدول عن بعضها البعض، وهو الموقف الذى يُعرف باسم "الاغتراب الثنائى" حسب تعبير شيف (شيف ١٩٩٤، ٢).

ويزيد الاغتراب من فرص عدم الاعتراف بوجود مصدر خزى. وهذا للأسف بسبب أن الخزى لا يخدم فقط وسيطًا أخلاقيًا نافعًا لسلوكنا، لكنه أيضًا يقدم دليلاً جيدًا حول كيفية موازنة القرب والبعد أو التكافل والاستقلالية فى علاقاتنا بشكل جيد. عندما يكون النظام غير معترف به، فقد يتحد مع انفعالات أخرى كالشعور بالذنب أو الخوف لينتج عن ذلك بعض من "أشراك الشعور". ويهتم شيف بشكل خاص بشرك الشعور الذى يتطور عندما يؤدى اللوم غير المعترف به إلى الغضب أو ينشأ عنه. وعند حدوث ذلك، يؤدى اللوم إلى الغضب والغضب إلى لوم أكثر واللوم إلى غضب أكبر وهكذا. ويصعب إيقاف هذا التسلسل عند خفاء الدور الذى يؤديه اللوم فى حين لا يتعرف المشاركون على ما يحدث[١٧]. ويساعد هذا العامل على تفسير فترات الصراع الطويلة بين الدول كما فى الصراع بين فرنسا وألمانيا الذى قادته روح الانتقام أو ضراوة الإذلال[١٨].

بعد عام ١٨٧١، تم إذلال فرنسا بعد خسارة كل من ألزاس ولورين. ومع ذلك لاحظ شيف أن باعث الانتقام ضد الألمان كان نادرًا ما يُعترف به بناءً على نصيحة من جامبيتى لفرنسا حول هزيمة ١٨٧١: وكانت النصيحة هى "فكر فى الهزيمة دائمًا ولا تتحدث عنها مطلقا" نصيحة وجود هاجس مع إنكار وإهمال الشعور بالخزى (شيف ١٩٩٤، ٨٧). بعد هزيمة الألمان عام ١٩١٨، أظهر هتلر، الذى كان للخزى مكانه فى حياته الخاصة، للألمانيين طريقًا "لاعتراض التفاعل التسلسلى للغضب والخزى الصريح". وتمثل الحل فى توجيه مصدر الخزى والغضب على اليهود وجعلهم الهدف لانتقام الألمان.

فى كتابه ثقافة الهزيمة (٢٠٠٣)، ألقى السيد وولف جانج شيفايل بوش، الضوء على الشخصية الثقافية الاجتماعية التى تطلب الانتقام بعد الهزائم الوطنية. وبحلول أوائل القرن التاسع عشر، توفر للتاريخ إجابة واضحة عن سؤالين مهمين: مصالح من تمثلها دولة فرنسا وتدافع عنها؟ ومن يقف إلى جانب فرنسا؟ كانت الأطراف الحاسمة تتمثل فى الأطراف التى تؤدى دور الأرستقراطية الفرنسية

والملكية. وأخضع ملوك البوربون المستبدون الشهامة الفرنسية الباعثة على الفخر بالقرن السابع عشر؛ الأمر الذى أجبر الطبقة الأرستقراطية على قبول موقع ثانوى إلى جانب أن ينحنوا أمام القصر الملكى. وكانت ثورتهم، الفروند، بمثابة النموذج الحديث المبكر لثورة ساتسوما. وتم سحق ثورة الفروند[١٩]. ومع ذلك وبعد هزيمة فرنسا عسكريًا على أيدى إنجلترا عام ١٧٦٣، استغل القادة من الطبقة الأرستقراطية الفرصة لتقديم أنفسهم مع الحاجة إلى إنقاذ الشرف الفرنسى. كان لافاييتاتى واحدًا من بين هؤلاء الوطنيين.

خلال الثورة الفرنسية، كانت طبقة النبلاء، مثل الملك، تشعر بالخزى، وأصبحت الجماهير الباريسية هى الوريث الأساسى وحمت ميراث الطبقة الأرستقراطية، الأمر الذى أعيد صياغته فيما بعد ليكون "الشرف الوطنى" (شيفايل بوش ٢٠٠٣، ١٣٣). تم دمج طبقة العمال المدنيين الفرنسية والفلاحين تدريجيًا بالدولة الفرنسية الحديثة خلال القرن التاسع عشر. وعلى خلاف نظرائهم الألمان، فقد حصلوا على الإحساس الصادق بالمواطنة.

لن نبالغ حين نقول بأن هناك تقسيمات داخلية كبيرة فى فرنسا. وزاد من الأمر الهزائم العسكرية المتلاحقة على أيدى الألمان عام ١٨٧٠-١٨٧١. استرد الضباط الفرنسيون إحساس الفخر والكبرياء من خلال القمع الدموى للأفكار الباريسية الثورية. كما تم استعادة ذلك أيضًا من خلال المغامرات الاستعمارية بشمال أفريقيا. مما وحد الأمة الفرنسية على الرغم من أن هذه التقسيمات مثلت إحساسًا مشتركًا بحد ذاته كأمر بارز إلا أنه على نحو ظالم جرح الأمة، وهو الأمر الذى استلزم واستحق الانتقام.

أصبحت التقسيمات الاجتماعية الألمانية بعد عام ١٩١٨، أكبر بكثير من تلك الموجودة فى فرنسا بعد عام ١٨٧١. وبعد الحرب العالمية الأولى، كانت ألمانيا فى وضع سقوط حر، يفتقر إلى شبكة السلامة الفرنسية، لإحساسها القوى بالكبرياء الوطنى الذى ينبعث من قرنين من الهيمنة على قارة أوروبا. فى ألمانيا، أُحيلت

ملفات الذاكرة على مدار قرون عن الدونية القومية إلى الماضى وذلك بسبب انتصار ١٨٧٠-١٨٧١، وعبر تأسيس الإمبراطورية وعلى مدار أربعين عامًا من السلطات القوية التى أعادت ظهورها حاليًا كضيف ثقيل على أبواب ألمانيا (شيفايل بوش ٢٠٠٣، ١٩٦-٧).

والتحق الألمان بشكل كامل بالدولة فقط فى أغسطس من العام ١٩١٤. حيث دخلوا فى معركة مزعومة عن الحضارة الألمانية ضد حضارة فرنسا وبريطانيا وأمريكا.

وبعد ذلك بأربع سنوات انهارت الدولة التى لحقوا بها لتوهم، الدولة التى سألتهم إعطاءها كل شيء، حولهم. فالغرور يجعل الأشياء أسوأ ويعمق التفسخ الاجتماعى.

لعل الإنجاز الذى حققه هتلر أن وحد هذا المجتمع مع بعضه مرة أخرى لفترة من الوقت على الأقل، مع إزالة المؤثرات. أظهر شيفايل بوش مقدار اعتماد إعادة تعمير وإعادة توحيد المجتمع الألمانى خلال الثلاثينيات من القرن العشرين على أساليب الإنتاج الإجمالية والاستهلاك الإجمالى والدعاية الإجمالية مقترضة من الولايات المتحدة الأمريكية. تعلم النازيون من هنرى فورد والعقد الجديد. صاغ هتلر مقارنة بوضوح أكثر فى قوله: "نحن نشبه الأمريكيين فيما نريده وفيما نرغب فيه" (اقتباس من شايفير ١٩٩١، ٢١٤). علم هتلر كيف ينشئ ويدير هذه المطالب والرغبات. وعلاوة على ذلك كما علق شيفايل بوش: "أثر انهيار عدد سكان الهنود فى هتلر بشكل عميق مثل عقيدة السيد مونروى التى صنفت تطلعات الهيمنة الأمريكية" (٢٠٠٤، ٢٨٤).[٢٠]

عالم على قلق

استخدم هتلر الديمقراطية البرلمانية الوليدة لجمهورية فايمار؛ للتعبير عن الاستياء الناتج عن السوق الرأسمالية والأعمال الوحشية الاستبدادية خلال فترة العشرينيات من القرن العشرين. ولعب على حقيقة شعور الأشخاص بالمعاملة

الظالمة والمنحطة والمتدنية والمتجاهلة والمحتقرة. أعطاهم هتلر هدفًا للانتقام تمثل وقتها فى اليهود. لم تنته هذه القصة فى عام ١٩٤٥، حيث تتم إعادتها الآن فى العالم بأسره على الرغم من أن اليهود تحديدًا ليسوا الضحايا الوحيدين.

فى كتابها عالم على قلق (٢٠٠٣)، أعادت آمى شو، كيفية أن خالتها – مثلها صينية عرقية من عائلة ثرية بالفلبين – ماتت فى مانيلا عام ١٩٩٤. وقد قتلها سائقها الخاص، وكان فلبينيا. وفى تقرير الشرطة حول الأمر، اتضح أن الدافع وراء القتل ليس السرقة على الرغم من أن السائق قال إنه أخذ المجوهرات والمال، بل كان الدافع كلمة واحدة – الانتقام (شو ٢٠٠٣، ٤–٥). توضح هذه القصة الرسالة الأساسية لكتاب عالم على قلق: لا تؤسس رأسمالية السوق الحرة والتصويت على الأشياء كافة دون إعادة تأسيس الإجراءات، دور القانون والضمانات الفاعلة لحماية الأقليات. ولفتت آمى شو، مثل إدوارد لتواك، الانتباه باتجاه أخطار استيراد نصف الطريقة الأمريكية فقط أى شراء برنامج العمل دون الإلتفات إلى التعلم من فوائد العملية التاريخية والسياق التاريخى الاجتماعى الواضح الذى أنتج برنامج العمل وجعله الطريقة المثلى الجيدة على نحو معقول للمعيشة. لقد تمثلت النقطة المحورية فى رسالتها فيما يلى:

> على مدى الأعوام العشرين الماضية، رسخت الولايات المتحدة الأمريكية قدمها فى كل مكان بالعالم الخام غير الغربى ناشرة رأسمالية الاقتصاد الحر – شكلاً من الأشكال الاقتصادية بالسوق والذى هجره الغرب منذ وقت طويل. من المدهش أن نرى أن التاريخ لم يشهد قط قيام أى دولة غربية بتطبيق رأسمالية الاقتصاد الحر مع الموافقة عليه عالميًا فى الوقت ذاته – ويتم الضغط لتنفيذ المعادلة الدقيقة المتعلقة بديمقراطية السوق الحرة بالدول النامية حول العالم.

والمشكلة فى برنامج العمل هذا أنه عند تطبيقه، يحدث شيئان فى وقت واحد. الأول تصبح الأقليات ناجحة ورائعة كما تصبح هى نفسها عرضة لأن يستاء الناس منها. وجدير بالذكر أن العديد من هذه الأقليات ليست فقط موهوبة لكنها أيضًا حساسة وعرضة بشكل كبير للاستياء العام. ويتضمن ذلك الصينيين الموجودين فى الفلبين وبورما ومالايا وإندونيسيا والبنغاليين فى آسام والتاميل فى سريلانكا واللبنانيين بغرب أفريقيا والإيبو بنيجريا والكروات فى يوغوسلافيا سابقًا والهنود فى شرق أفريقيا والأوروبيين فى زيمبابوى والأمريكيين حول العالم.

الثانى، تسمح السياسات الديمقراطية للأغلبية المستاءة بممارسة انتقامها على هذه الأقليات العرقية التى يمكن وصمها بالمتعجرفة والمستغلة والمستبدة. روبرت موجابى على سبيل المثال قادر على توجيه اللوم إلى الأقلية المستهدفة (فى حالة المستوطنين البيض) وفرض عقوبات كبيرة عليهم. أحيانًا يخلق الجو السياسى خطوات تشجيعية للأفراد أو الجماعات الظالمة لاتخاذ إجراءات انتقامية عنيفة ضد أفراد الأقلية.[٢١]

تم تحديد دورات الانتقام. فى بعض الحالات، تتخذ هذه الدوائر شكل احتجاجات رسمية ضد عمل السوق. على سبيل المثال عمليات الإصلاح وإعادة التشكيل المفروضة على تنزانيا من البنك الدولى وصندوق النقد الدولى خلال الثمانينيات من القرن العشرين والسماح للهنود بإعادة تأسيس أنفسهم كقوة اقتصادية كبيرة. وهذا يؤدى إلى خلق وضع أفضل مناهض للوحشية التى يتعرض لها الهنود (شو ٢٠٠٣، ١١٤). فى حالات أخرى كما فى سيراليون وكينيا، يحاول المستفيدون من الرأسمالية الشللية حماية مصالحهم وتقليل قابلية السقوط عبر إغلاق المؤسسات الديمقراطية.[٢٢] أحيانًا تؤدى دورات الانتقام إلى حركات إبادة ضد الجماعات الكارهة كما هو معروف فى رواندا ويوغوسلافيا سابقًا.

حددت آمى شو بشكل واضح صيغة توليد دورات الانتقام كما يلى:

خذ الشكل الأقل للرأسمالية ومرره مع شكل الديمقراطية الأقل وصدر الاثنين معًا كجزء واحد إلى الدول الأشد فقرًا والأكثر إحباطًا والأكبر عجزًا والأكثر تهورًا فى العالم. أضف الأقليات المسيطرة على السوق فى الصورة والفطرة المتقلبة فى إصدار عارٍ قوى لديمقراطية السوق الحرة هذه واخلط ذلك كله عدة مرات مع قوى الكراهية العرقية.

صراع الحضارات

فى كتابه صراع الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمى (١٩٩٧)، تأثر صامويل هونتجتون باحتمالات تأثير البغض والانتقام على حد سواء منذ سنوات الحرب الباردة. ومع ذلك فإن رؤيته الخاصة ركزت على مستوى أعلى وهو تأثير هذه الأمور على النظام نفسه. ويرى أن "الحضارة هى إجمالى نتاج قبيلة بشرية" (هونتجتون ١٩٩٧،٢٠٧) والحضارات التى يقصدها، أو التى ذكرها فى كتابه هى الحضارات الصينية واليابانية والهندية والإسلامية والمسيحية الأرثوذكسية والغربية ودول أمريكا اللاتينية[٢٣]. والحضارة فى رأيه تمثل أرقى نتاج ثقافى تُحدثه مجموعة من البشر، وهى المستوى الأكبر للهوية التى تميز طائفة من البشر عن غيرها من الطوائف مما يشكل "الحس الجمعى" الأكبر لهذه الطائفة فى محيطها عن كل الطوائف الأخرى بالخارج.

من وجهة نظر هونتجتون، فإن الحضارات عبارة عن مجموعة من الهياكل التى ينبنى عليها المجتمع العالمى. ولكن للأسف فإن قيم تلك الهياكل تتضارب مع بعضها ولا تتفق. وأفضل ما يسعون إليه هو عقد هدنة أو التعاون العملى فى أفضل الأحوال. فى حين تظل العداوة المتبادلة هى أكثر الأمور حدوثًا.

وبرهن هونتجتون بأن الطريقة التى تربط الحضارات بعضها ببعض هى الإطار الرئيسى للنظام العالمى أو الفوضى العالمية. وفى هذا السياق تبرز أربعة عوامل مهمة بشكل خاص، وهى: الأول أن الغرب يتهاوى اقتصاديًا وديموغرافيًا ولغويًا (على الرغم من انتشار اللغة الإنجليزية)، والثانى أن الناس تتجه إلى الدين، والثالث أن الإسلام بدأ يستعيد مكانته، والرابع والأخير هو أن الصين، بل وآسيا ككل،أصبحت أكثر قوة.

يرى هونتجتون أن هناك أربع فئات للحضارة. الأولى تتمثل فى الغرب، الذى يلمح بقوة إلى أنه هو الحضارة الوحيدة المتمدنة والراشدة(٢٤). ثم تأتى الحضارات المقابلة الصين والإسلام والثالثة حضارات متأرجحة كما فى اليابان وروسيا (الأرثوذوكسية) والهندية وهى التى يؤثر إخلاصها وولاؤها السياسى والسلوكى على توازن الميزة بين حضارةُ الغرب والحضارات المقابلة له. وفى المقام الأخير تأتى بقية الحضارات (هونتجتون ١٩٩٧، ١٨٣).

على سبيل المثال الحضار غير الغربية، وهى الحضارات التى تتضمن حضارة أمريكا اللاتينية والبوذية وأفريقيا. وهو يرى من بين هذه الحضارات نوعين رئيسيين للتصادم. الأول صراعات خط التماس على الحدود بين الحضارات. وهى تتضمن الحروب فى جنوب شرق أوروبا خاصة فى دول يوغوسلافيا السابقة، حيث تداخلت الحضارات الغربية والأرثوذوكسية والإسلامية. وفى مثل هذه الحروب، فإن الدول الرئيسة الممثلة لهذه الحضارات – فى حالة كان لديها دول بالفعل -- تظهر بشكل أولى لتقديم الدعم لأصدقائها فى الحضارة ولكن بشكل أساسى لخلق اضطرابات وفرض سلام وسيط. وغياب دولة أساسية واضحة للإسلام يعتبر عاملاً مهمًا قد يطيل أمد الصراع(٢٥). وبعبارة أخرى، يصف هونتجتون بعض الجوانب المهمة لدورات الانتقام بقوله:

كلما زاد العنف، تميل القضايا الرئيسية محل الرهان إلى إعادة تعريف نفسها بشكل حصرى ومباشر أكثر باستخدام المصطلح "نحن" ضد "هم" مع تحسن التماسك الاجتماعى والالتزامات الجماعية. ويوسع القادة السياسيون ويعمقون من دعواهم بالولاء الدينى والأخلاقى مع زيادة الوعى الحضارى فيما يتعلق بأنواع الولاء الأخرى. وتنشأ "آلية الكراهية" شبيهة بما يسمى "معضلة الأمن" فى العلاقات الدولية حيث الخوف والارتياب المشترك وتغذية البغض والضغينة عند كل طرف. ويصوِّر كل طرف الاختلاف المميز بين قوى الفضيلة وقوى الشر ويزيد من حجمه، وأخيرًا تأتى محاولة نقل هذا الخلاف إلى خلاف نهائى، أى خلاف حياة أو موت. (هونتجتون ١٩٩٧، ٢٦٦)

والنوع الآخر المحتمل من الصراع هو صدامات مباشرة بين الدول الرئيسة أو بين الحضارات إجمالاً. وفكر هونتجتون فى احتمالية اندلاع حرب فى المستقبل، إذ يرى مثلاً أن الصين تواقة إلى الانتقام بسبب الإذلال الذى واجهته عام ١٩٧٩، أى أثناء غزو فيتنام (٣١٣).[٢٦]

الجدول ١٠ - ٦ نموذج هونتجتون: صراع الحضارات	
الغرب	الحضارات المقابلة
الحضارة المتمدنة	الصين الإسلام
الحضارات المتأرجحة اليابانية الأرثوذوكسية الهندية	باقى الحضارات أمريكا اللاتينية البوذية الأفريقية

ويختلق سيناريو يرى فيه اشتراك الأمريكيين والهنود والباكستانيين والإندونيسيين جميعهم فى جر أوروبا خلفهم. بصورة أكثر شمولية، يرجح اندلاع بعض الحروب الأكثر إذا ما اعترضت إحدى الدول الرئيسة على المصالح التجارية لدولة رئيسة تتبع حضارة أخرى مما يجعل الأخيرة تشعر بوجود محاولة "لإخضاعها وإرهابها" تحت لوائها. وتقدم هونتجتون للدول الرئيسة بالنصيحة أنه على الدول الرئيسة التى قد تواجه هذا النوع من الإغراء على الاعتراض أن تبتعد وأن تقود بوضوح وعقلانية أعمالها التجارية الخاصة.

وقلل تحليل هونتجتون من التهديد الواضح المطروح من خلال استعلاء آسيا عبر حجة أنها تضم خمس أو ست حضارات وبالتالى لن تكون قادرة على تنظيم التعاون والتنسيق فيما بين الدول المؤسسة كالصين واليابان والهند وروسيا(٢٧). والنتيجة المحتملة التى أشار إليها هونتجتون هى اندلاع العنف الانتقامى بينهم. وفى الوقت ذاته، حذر هونتجتون من تدفق الأقليات من الحضارات الأخرى على الغرب خاصة الولايات المتحدة الأمريكية وتندرج فى هذا السياق شعوب دول أمريكا اللاتينية سواء من المكسيك أو دول أمريكا الجنوبية كلها(٢٨).

ومن خلال التصور الخاص بالمجتمع العالمى كمجموعة حضارات متجاورة ومتنافسة وقريبة، أعاد هونتجتون إلى الأذهان صورة القرن التاسع عشر لمجموعة دول متحدة، تمثل كل منها إصدارات متكررة للمتنافسين والأعداء لأمتهم. على سبيل المثال قدم لنا هونتجتون الإسلام الدموى والصين الراغبة فى الانتقام وأضاف أنه ليس من الحكمة السماح لغير الأمريكيين من المكسيكيين بالتوافد بأعداد كبيرة جدًا على الولايات المتحدة الأمريكية.

جدير بالذكر أن نغمة صدام الحضارات تعتبر خليطًا من القلق والأسباب المعقولة مع احتقار متوارٍ خفى بين الحضارات الأقل مرتبة وهذا كله يزج بها إلى دائرة العنف. وإذا طالعنا ما كتبه جون ستيوارت ميل، فى كتابه حول الحرية (ميل ١٩٦٤). نُشر للمرة الأولى عام ١٨٥٩، قد نلحظ نوعًا من التشابه، فقد انتمى ميل

إلى الطبقة المتحضرة من أصحاب الأملاك فى بريطانيا والتى كانت لعقود معتمدة فى وجودها على الطبقة الدنيا وكنتيجة لذلك لم يخشوا أبدًا من عواقب حمل تابعيهم عن نمط معين من الحياة. وبحلول أواخر فترة الثمانينيات من القرن التاسع عشر أصبح من الواضح أن الأشخاص الحرفيين والتجار وحتى العمال غير المهرة من غير المتحضرين سيصبح لهم صوت، وهو ما لم يطرأ على الأذهان من قبل. وكان الخطر فى أن نتيجة ذلك أنهم قد يلمون على آسيادهم القدامى ما يجب عن أن يفعلوه. وكانت أواخر فترة الثمانينيات من القرن التاسع عشر فترة جيدة للسادة من أمثال ميل؛ لإعادة اكتشاف أهمية أن تكون قادرًا على حماية ثقافتك بسياج ما، وحماية طريقة حياتك كذلك وأن تقول لغيرك "ابقوا بعيدًا"[٢٩]. وبعد تلك الفترة بحوالى قرن ونصف القرن أى فى أواخر القرن العشرين، كانت تلك فترة جيدة لبعض المؤسسات الأمريكية القليلة لإعادة اكتشاف أهمية المبدأ العام بأنه لا يجب أن تتداخل مع حضارة أى جهة أخرى خاصة إذا ما كنت تعيش فى ظل حضارة تبدو وكأنها فى خطر. قد يطلق الخوف من الانتقام إعداد خطة وقائية للمقاومة الحضارية.

* * *

تناولنا فى هذا الفصل:

مقارنة الانتقام والمقاومة كاستجابة لرفض الإذلال، وأخذنا بعين الاعتبار الحالات المختلفة للزعيم مانديلا والرئيس صدام حسين، وتعرفنا على التأقلم والمقاومة الأخيرة وإعادة الإصلاح المحسوب بطرق رفض الإذلال مع الرجوع إلى حكومة النبلاء البريطانية والساموراى اليابانى والحركة التى قادها غاندى، وتناولنا سلاسل الانتقام ودورات الانتقام، وعرجنا على العلاقات بين فرنسا وألمانيا، واستكشفنا دورات الانتقام بين المجموعات الأخلاقية، وبحثنا صراع الحضارات المزعوم.

وفى الفصول الثلاثة الأخيرة بشكل عام، تعرفنا على الاستجابات المتمثلة فى الهروب والقبول والرفض لمواجهة الإذلال. من المستحيل ألا نلاحظ أن الملف الكبير والضخم لميثاق الشرف قد ظهر عدة مرات. وتضمن هذا الشخصية الفاضلة القوية والعنيفة كما ظهرت فى طريقة التفكير الأمريكية المميزة وظهرت أيضًا فى كتابات فانون والفخر بالكفاءة الذاتية والأهلية ومعاناة العمال الواضحة والمدروسة التى كتب عنها سينيت وكاب واستغاثة فريدمان من ميثاق العولمة المتشدد، وأمثلة دورات الانتقام وجميع الأمور التى طرأت على روح ميثاق حقوق الإنسان.

وللعولمة، فى شكلها المتطور الحالى، أثر فى تقوية ميثاق الشرف. ولعل قضية تقوية حقوق الإنسان تعتمد على إعداد كل شخص لاتباع القواعد التى تحمى مصالح الآخرين. كيف يمكن فرض هذه القواعد؟ وجدنا أن هناك طرقًا ثلاثًا محتملة لتنفيذ ذلك: الأولى هى من المجتمع، حيث يمكن أن يمارس المجتمع ضغطًا عامًا قويًا على أعضائه، والثانية من خلال الدولة، حيث تكون وسائل المراقبة والتحكم متطورة بشكل كاف، والثالثة من خلال النظام الذاتى للأفراد المدفوعين للتصرف طبقًا للروح الصحيحة، فيمارسون ما دعاه مارتين ألبرو "المواطنة ذات الصلة بالتعبير" (ألبرو ١٩٩٦، ١٧٥).

جدير بالذكر أن التأثير الغربى هو من تسبب فى نشر مبادئ ميثاق حقوق الإنسان فى العالم أجمع. وأصبح الوعى المتزايد بين السكان حول العالم فيما يتعلق بهذه المبادئ أحد العوامل الرئيسية التى تسببت فى رفع مستويات الاستياء من حالات الإذلال والعلاج الذى لا يتوافق مع معايير هذا الميثاق. ومع ذلك فإن قدرة ورغبة الحكومات الوطنية لتبنى وفرض ميثاق حقوق الإنسان لم تزد بالمقدار ذاته. وهذا يعنى أن ضغوط العولمة غالبًا تضعف ترابط المجتمعات المحلية وفى كل الأحوال قد لا يتم ترسيخ عادات المواطنة على هذا المستوى مقارنة بأنواع الولاء المرتبطة بالعائلة والدين.

وفى هذه الحالات فإن مشاعر الإذلال والاستياء التى تنشأ جزئيًا، على الأقل بسبب الوعى المتزايد بحقوق الإنسان التى يتمتع بها كل شخص، كثيرًا ما تؤدى إلى اتخاذ إجراء ناشئ عن ميثاق الشرف والذى ينص على "قاتل دفاعًا عن نفسك وعن جماعتك". وعندما يكون القتال ممتدًا وواسعًا، يقل تمامًا عمل أى اعتبار لحقوق الإنسان. وإذا ما استوطنت الحرب ومعها العنف المدنى، فإنه من المحتمل أن ينتصر ميثاق الشرف على حساب ميثاق حقوق الإنسان.

فى الفصل الأخير سنعيد النظر فى الأجندة الخفية للعولمة، وسنقف على الحالات المؤيدة لدورات التحرير ودورات الارتياب، وسندرس آليات التوحد الأوروبى منذ ١٩٤٥، ونتعرف على أعمال دورة الانتقام عبر الأطلسى، وسنأخذ بعين الاعتبار ما ينطوى عليه تعدد القطبية العالمية مستقبلاً والتمدن المتزايد حول العالم، وسنواجه احتمالات زيادة الإرهاب الذى ترعاه الدولة، ونتعرف على مدى ملاءمة ميثاق الشرف وميثاق حقوق الإنسان للسياسات المعمول بها فى القرن الحادى والعشرين.



١١

الديمقراطية الراشدة
أم الدولة المهيمنة؟

لقد انتهينا تقريبًا من عملية استكشاف المنحنى الثلاثى للعمليات التاريخية الاجتماعية الذى يشكل الأجندة الخفية للعولمة، وآن الأوان لتعريف هذه الأجندة بطريقة مباشرة:

١. كيف ستتغلب الولايات المتحدة الأمريكية والقوى القائدة الأخرى على الانحدار النسبى الوشيك فى تأثير العولمة الأمريكية؟

٢. كيف ستتم إدارة حكم العولمة مع ضعف القوة الأمريكية؟

٣. الآن وبعد أن سادت الرأسمالية وانتصرت، ما نوع النظام السياسى الرأسمالى المهيمن؟ ومصالح من سوف يخدم؟ وكيف؟

٤. ما هى التوقعات العالمية المستقبلية فى ضوء النسخة الجديدة المعدلة لحقوق الإنسان التى يدعمها الاتحاد الأوروبى مع تأكيده على الحقوق الاجتماعية القوية؟

٥. مع زيادة تحول سكان العالم إلى الحالة الاجتماعية وانتقال نصف البشر بالفعل إلى المدن وتمدن نصف سكان العالم بالدول النامية بحلول عام ٢٠٣٠، كيف سيتم دمج السكان المتمدنين حديثًا بالأنظمة السياسية الاجتماعية التابعة للعولمة ومن هى القيادة السياسية التى سيتبعونها؟

يناقش الفصل الأخير تلكم المشكلات ويفصلها فى رحلة من مرحلتين، تبدأ إحداها من التفاؤل إلى التشاؤم والأخرى من التشاؤم إلى الواقعية. ولنبدأ من أوروبا عام ١٩١٤.

صراع الحضارات بأوروبا

تعتبر الحرب العالمية الأولى شكلاً من أشكال صراع الحضارات. حيث قاد الضباط الألمان جنودهم بالخنادق وهم يعلمون أنهم يحاربون للدفاع عن الحضارة الألمانية. ومثَّل أعداؤهم الحضارة الفرنسية / الأنجلوساكسونية / اليهودية، وهى من وجهة نظرهم سطحية ومادية ومعرضة للاختفاء أكثر من القيم عميقة التفكير(١). وفى غضون ذلك وفى نوفمبر من عام ١٩١٤، أصدرت السلطات الدينية باسطنبول، عاصمة الإمبراطورية العثمانية، فتوى تعلن فيها الجهاد ضد كل المسيحيين(٢).

وعلى مدار تسعين عامًا بعد ذلك الحدث، جاءت الأحداث بحسناتها وسيئاتها وحلوها ومرها، إلا أن الأحداث السارة بين عام ١٩١٤، وحتى وقتنا الحالى تغطى أشكال المنافسات متعددة القطبية بأوروبا وحول العالم؛ الأمر الذى أدى إلى اندلاع حربين عالميتين. كلفت الأولى منها أكثر من ٩ ملايين نفس بشرية. فى حين أودت الثانية بحياة أكثر من ٥٠ مليون نفس بشرية، أما عدد الجرحى فقد فاق ذلك العدد بكثير. وعلى نحو ساخر فقد خرج معظم المشاركين الرئيسيين بنتائج لم يخططوا لها أبدًا. ففى عام ١٩١٤، لم يخطط قادة فيينا وبتروجراد (سان بطرسبرج حاليًا) واسطنبول وبرلين لرؤية إمبراطورياتهم وهى تنهار. ولم يهدف النازيون فى غام ١٩٣٩ ولا اليابانيون فى عام ١٩٤١ إلى خلق الكيان الأمريكى "الملك العالمى".

والأحداث السارة أنه لم تعد كل من فرنسا وألمانيا أعداء ولكنهما اجتمعا سويًا فى سلام داخل الاتحاد الأوروبى. وفى غضون ذلك، قدمت الحكومة التركية

طلبًا للانضمام للاتحاد الأوروبى وتتم دراسة هذا الأمر بجدية. وهنا يبدأ التفاؤل ولنرى إلى أين سيأخذنا.

دورات التحرير

أضحت العلاقة بين القوى الأوروبية قائمة على التعاون أكثر من ذى قبل وبالتحديد قبل عام ١٩٤٥. فهل يعد هذا برهانًا على إعادة التحرير من علاقات الإذلال؟ وهل يمثل الاتحاد الأوروبى الإجابة الرابعة للإذلال – ليس الهروب ولا القبول ولا الرفض ولكن التحول؟

وأعنى بعملية التحول تلك التى يعيد فيها طرفا الإذلال (الذى فرضه والذى عانى منه)، تعريف العلاقة بينهما بطريقة يتم فيها التخلص من الإذلال تدريجيًا من تلك العلاقة. جدير بالذكر أن التحول يعتبر أحد أنواع التجديد الجماعى، وقد يتم تحقيق التحول الأحادى من خلال دورة تحرير تتضمن:

- الهدنة.
- الحوار.
- لغة جديدة راغبة بالسلام على أساس مشروع مشترك.
- الخلق التدريجي لمجموعة جديدة من المصالح المشتركة.

تتطلب دورة التحرير حالة مشتركة من الهدنة والحوار. وهذا من شأنه أن يأخذ خطوات إلغاء تفويض ممكنة للآراء السلبية الشائعة والتى تعمل على تقوية الإذلال وزيادة شعور الآخرين بالتدنى والإبعاد. وقد يجعل هذا من الممكن تطوير لغة جديدة راغبة بالسلام على أساس مشروع مشترك إلى جانب الخلق التدريجى لمجموعة جديدة من المصالح المشتركة والتى لا تتضمن بالضرورة دمج أو احتواء

المصالح الحالية. وقد تتضمن العملية بناء ملحقات للرموز الجماعية الجديدة لاحتواء الولاء الحالى.

قد تؤسس الهدنة والحوار نموذجًا متكررًا، وقد يساعد على بناء هذا النموذج هدنة سرية تُعقد بين المشاركين الرئيسيين عبر السماح بإجراء الحوار أثناء عملية بناء الثقة، مما يشكل نزعات كافية لعقد هدنة علنية للتوقف عن الأعمال العدائية. وإذا تم تنفيذ الخطوة بنجاح، فقد توفر هذه الهدنة مساحة لتوسيع وتعميق الحوار وزيادة الثقة كذلك(٣). إذا تخيلنا التحول فى ظل سريان الحوار برغبة وأهلية المشاركين لقبوله، فقد تكون هناك هدنة من الحوار ذاته وفترة لالتقاط الأنفاس لتحقيق الإقناع وفترة تسوية لتحقيق ذلك فى كل جانب قبل استئناف الحوار مرة أخرى(٤).

تساعد هذه العملية بشكل كبير فى حالة وجود ظروف محددة فى الخلفية. على سبيل المثال:

- إذا أصاب الملل والخيبة الأطراف صاحبة المصلحة من الوضع الحالى، ربما من المعاناة من تكاليف دورة الانتقام الطويلة.
- إذا كان قادة كل طرف قادرين على الدخول فى هدنة وحوار نيابة عن أتباعهم وبالتالى التوصل إلى اتفاقيات.
- عند وجود سلطة قوية يحترمها الطرفان أصحاب المصلحة وترغب فى أداء دور ما فى عملية التحول.
- المساعدة فى حالة توفر الموارد فى القيام بالإنشاءات الضرورية اللازمة لإجراء الترتيبات المتبادلة و/أو البينية و/أو السياسة الاجتماعية التى قد ينشأ منها اختلاف بطريقة سلمية.

أحد أهداف الوسطاء فى مثل هذه المفاوضات قد تكون فى البناء التدريجى للحماسة والالتزام والفخر خلال تطوير المستجدات. وإذا تم ذلك الأمر بفعالية، فقد يساعد هذا الفخر على تعديل مشاعر خوف وغضب الأطراف التى تولدت منذ بداية المناقشات.

الجدول ١١ – ١ دورة التحرير	
(١) الاستنزاف يقود إلى الحوار أو الهدنة من كل صراع ويسمح هذا بإعادة التفكير وتجديد الطاقة ↓	→ (٤) التحول التدريجى فى المواقف والسلوك والتركيبات يقلل من مستويات الإذلال
(٢) ← يتنقل الحوار إلى ما وراء التفكير الشائع	(٣) ↑ الأهداف والمعانى الناتجة عن التعاون تزيد من الثقة بين الأطراف المشاركة فى الحوار

دورات الارتياب

على الجانب الآخر، قد يتعلق الخصوم المستنزفون أصلاً بفرصة الهدنة بحيث يمكن إعادة بناء قدرتهم لمواصلة القتال. وقد لا يرغبون فى رفض الطمأنة العاطفية إلى جانب التفكير الشائع القاضى بالحماية ضد الحاجة إلى استهلاك الطاقة العقلية حول التفكير فى أشياء ليست بالجديدة(٥). وفى هذه الحالات، فإن الحوار المتاح من خلال الهدنة يكون عرضة للتقيد والمحدودية، بأن يعطى أقل ما يمكن بالحد الأدنى، ويحصل على أكثر ما يمكن لصالحه، فى الحقيقة فإن ذلك يعتبر اتفاقاً لتحقيق ميزة على المدى القصير كما يتضح من الاشتراك فى المشاركة المتبادلة للأفكار والمشكلات.

وستكون النتيجة الدخول فى دورة من الارتياب (انظر الجدول ١١ - ٢). فى بعض البيئات كما فى أيرلندا الشمالية والعلاقات الإسرائيلية الفلسطينية، نلاحظ عمل كل من دورة التحرير ودورة الارتياب بالتزامن فى وقت واحد.

القصة الأوروبية

وبعد، ماذا يحاول الاتحاد الأوروبى إخبارنا به بشأن القوى المحركة لدورة التحرير؟ الشىء الأول الذى يجب ملاحظته، هو أن نظام الحكم الجديد هذا يعتبر غريبًا ويمثل تحديًا لجيران العولمة كما كانت الولايات المتحدة الأمريكية خلال القرن التاسع عشر.

الجدول ١١ - ٢ دائرة الارتياب	
(١) الاستنزاف يقود إلى الحوار أو الهدنة من كل صراع ويسمح هذا بإعادة التفكير وتجديد الطاقة	(٤) كلما انتقلت الأجندة إلى أبعد من النقاط العملية المتبادلة الملائمة، فإن المساومات الإضافية تنتج بعض الارتياب والخوف من الخداع مما يزيد الخصومة المتبادلة ويعيد التفكير فى الأعمال العدائية
(٢) يفشل الحوار فى الانتقال إلى ما وراء التفكير الشائع	(٣) يتقيد الحوار بالمناطق المشروطة للأمور العملية المتبادلة، على سبيل المثال تأسيس حدود العدوان

هذا وكانت التجربة السياسية على الجانب الآخر من الأطلنطى تتعارض مع الطرق القديمة؛ نظرًا لأنها لم تكن ملكية ولم يكن لديها طبقة ارستقراطية. نظر العديد من أعضاء الطبقة الارستقراطية والملكية بأوروبا بعين الرضا وإن كان قليلاً إلى الأمة الأمريكية وهى تمزق نفسها أثناء الحرب الأهلية.

كما أن الاتحاد الأوروبى لديه التجربة السياسية التى تفيده بأنه ليس دولة فى حد ذاته. ويجد الآخرون فى هذا الأمر طمأنة؛ وذلك أن الاتحاد الأوروبى قادر الآن على اجتياز فترة من الاضطراب الداخلى تمامًا مثل الولايات المتحدة الأمريكية وهى فى منتصف القرن التاسع عشر فقد خططت لتتمكن من إدارة مشكلات التوسع الإقليمى.

خلال الحرب الأهلية الأمريكية، كانت التجربة الأمريكية تبدو أحيانًا قريبة من خطر السقوط ومع ذلك وبعد ثلاثة عقود من نهاية الحرب، كانت الولايات المتحدة الأمريكية مشغولة بفرض طريقتها على أمريكا اللاتينية والشرق الأقصى منحية بذلك قوى المستعمرين الأوروبيين. ترى أين سيكون الاتحاد الأوروبى بعد ثلاثين عامًا من الآن؟ هناك البعض ممن يدعون إلى التفاؤل استنادًا إلى أسباب تشير إلى أن الاتحاد الأوروبى وبحلول عام ٢٠٣٥، سيتغلب على المشكلات التى تتعلق بالبنية الهيكلية له وسيكون أكثر تماسكًا وقوة بالميدان العالمى.

وعلى الرغم من الصعوبات التى تواجهه حاليًا، فإن الاتحاد الأوروبى يتمتع بوجود الكثير من المعجبين به ويعلنون ذلك صراحة. فمثلاً يجد السيد ويل هوتون أن الاتحاد الأوروبى ظاهرة مثيرة للإعجاب أكثر من الولايات المتحدة الأمريكية والواقعة تحت سيطرة حزب المحافظين الجدد.

يحب السيد هوتون ويحترم الالتزام الأوروبى الواضح تجاه ثلاثة أشياء: "التزامات أصحاب الأملاك تجاه المجتمع، والحاجة إلى وجود عقد اجتماعى، وتركيز الجماهير والحكومة لخلق مجتمع سعيد." (هوتون ٢٠٠٣، ٢١)[٦]. أما

السيد ريفكن فهو مبتهج بالحلم الأوروبى والذى يرى أنه خليط من الحضارة والمجتمع المدنى و"الحكم الشبكى" (ريفكن ٢٠٠٤، ٢٢٣)[٧]. ورحب السيد تزفيتان تودوروف بالدفاع الأوروبى عن العقلانية والعدل والديمقراطية والحرية الفردية والعلمانية، وقد أحب طريقة تأقلم هذه "القوى الهادئة" (تودوروف ٢٠٠٥، ٥١) وهو يأمل أن تتوسع فى تأثيرها جغرافيا.

أما السيد زيجمونت بومان، فرؤيته تأتى من منظور محدود. فهو يعتقد أن الأوروبيين انحرفوا بعيدًا جدًا عن طريق الدولة الاجتماعية إلى طريق الدولة الأمنية (بومان ٢٠٠٤، ٩١)؛ مما يكون له الأثر فى إثارة الخوف لدى مواطنيها. ومع ذلك يأمل بومان أن تتطلع أوروبا نحو الخارج أكثر من الداخل مع الاستعداد لتنحية "منطق الترسيخ المحلى" لصالح "منطق المسئولية العالمية التى ستدخلنا إلى منطقة غير معروفة".

فى الحقيقة فإن هذه التحليلات لا تصل إلى قلب القصة الأوروبية. والأفضل لهذه القصة أن تأتى فى سياق عابر وامتداد تاريخى. عندما أصبح للأمريكيين التحكم الفعلى والفعال فى أوروبا عام ١٩٤٥، فقد وضعوا بذلك حدًا لدورة الانتقام الدموية التى مزقت القارة مرارًا وتكرارًا خلال العقود السابقة (شيف ١٩٩٤، كما تمت مناقشة الأمر فى ثنايا الفصل العاشر). فقد ظلت أمريكا تجلس على عرش الملك العالمى دون منازع. وتصرفت على أنها المسيطر الذى يستطيع أن يضع تحت إمرته كل صور النبل العنيدة، حتى إنه فى أوروبا ولعدة سنوات كانت الكلمة الأمريكية بمثابة قانون.

كانت أوروبا حتى منتصف الأربعينيات من القرن العشرين مدمرة، وكان فقدان المخزون التجارى وتشتت التجارة وارتفاع الأسعار وعجز رأس المال والديون غيض من فيض المشكلات التى كانت تعانى منها. وكانت الاستجابة الأمريكية تتمثل فى إرسال مساعدات قيمة، والدخول فى برنامج التعافى الاقتصادى، لتأخذ الطابع الرسمى بمساعدات مالية بلغت ١٢,٥ مليار دولار دخلت

إلى أوروبا فيما بين عامى ١٩٤٨ و١٩٥٢. وخلال العقد التالى لعام ١٩٤٥ تضاعف مقدار الدعم الإجمالى المتجه لأوروبا إلى ما يقارب ضعفى هذا المقدار وقد اتجه إلى بريطانيا وفرنسا وألمانيا الغربية وإيطاليا، بمعنى آخر وصل إلى الأصدقاء الجدد، الدين كانوا فيما قبل أعداء.

وكان أحد بنود الاتفاق، أن تعمل الدول الأوروبية على إصلاح المؤسسات التابعة لها وتحقيق الثبات المالى والتوازن المالى كذلك مع تقليل العوائق التجارية ودمج الاقتصاديات القومية مع بعضها. وكان بول هوفمان، أحد المسئولين الرسميين ممن قادوا أمريكا هو من أخبر الأوروبيين فى عام ١٩٤٩، أن الولايات المتحدة ترغب فى رؤية "تشكيل سوق واحدة كبيرة تتم فيها إزالة القيود المفروضة على حركة البضائع والعوائق المالية لتدفق المدفوعات وكل التعريفات إلى الأبد" (مقتبس من واكر ١٩٩٤،٨٧).

تمتعت الحركة الأوروبية بدفعة قوية للأمام بسبب جهود الولايات المتحدة الأمريكية فى أواخر فترة الأربعينيات من القرن العشرين؛ إلى حد ما لأنهم أرادوا أن يكون غرب أوروبا عائقًا قويًا أمام اتساع تأثير الاتحاد السوفييتى وكذلك لأنهم أرادوا خلق سوق مزدهرة لمنتجاتهم وخدماتهم واستثماراتهم.[٨]

وبالعودة إلى تلك الفترة، يتذكر السيد مايكل جوبيرت (وزير الخارجية الفرنسى، ١٩٧٣-٤) أن غرب أوروبا وبعد الحرب مباشرة كان فى خندق واحد تحت قيادة الولايات المتحدة الصارمة ويتلقى الأوامر والواجبات المفروضة عليه (صحيفة لوموند الفرنسية بتاريخ ١٠ أغسطس ١٩٩١). ولا عجب إذا ما وجدنا مقاومة للفكرة، فخلال عام ١٩٥٣، فشل الأمريكيون فى فرض فكرة أن تكون أوروبـــا فى موقف المدافع وليس المهاجم، ودليل ذلك ما حدث بعد ثلاث سنوات، إذ اشتركت بريطانيا وفرنسا مع إسرائيل فى حرب السويس.

أصبحت علاقات القوة الممتدة عبر الأطلنطى أكثر توازنًا بعد ثورة النفط خلال السبعينيات من القرن العشرين والتى أجبرت الولايات المتحدة الأمريكية على تأجيل تحويل الدولار إلى ذهب؛ بسبب الضربة الكبيرة التى هزت هيبته[٩]. واستجاب الأوروبيون بثلاث طرق، أولاها التحرك فى اتجاه سوق واحدة داخلية، وثانيها وضع خطط لإنشاء عملة موحدة عامة، وآخرها إنشاء الاتحاد الأوروبى (ثم المجتمع الأوروبى بعد ذلك) ليصبح بعد ذلك أشبه ما يكون بدولة تنموية، لها صندوق تنمية إقليمى موحد، وانتخابات مباشرة للبرلمان الأوروبى وتصويت لاختيار مجلس وزراء الاتحاد.

وكان لسقوط جدار برلين عام ١٩٨٩، أثره فى إنشاء ألمانيا اتحادية كبيرة والتى وافقت على إلغاء عملتها الخاصة والانضمام إلى معاهدة ماستريخت ودعمها، وهى المعاهدة التى نُفذت عام ١٩٩٣. وتهدف المعاهدة إلى توفير التنسيق فى مجالات السياسة الأمنية والشئون الخارجية داخل الاتحاد الأوروبى إلى جانب التعاون البينى بين الحكومات مع الأخذ فى الاعتبار مراعاة العدالة والشئون الداخلية لكل دولة. وتم إنشاء لجنة لاعتماد التقارب والمناطق، وتم عمل المواطنة الأوروبية مع زيادة قدرات البرلمان الأوروبى، إلى جانب إنشاء اتحاد مالى واقتصادى عام ١٩٩٩. وما يشغل أوروبا الآن هو اجتذاب الدول الجديدة. وتوسعت دائرة الأعضاء الإجمالية لتصل إلى خمس وعشرين دولة فى عام ٢٠٠٤، مع التخطيط لمزيد من التوسع[١٠].

يواجه الاتحاد الأوروبى مشكلات كبيرة، على الرغم من أن المشكلات ليست بالشكل الذى واجهته الولايات المتحدة الأمريكية وتغلبت عليه كما ذكر التاريخ، فلا يزال دعم القادة الأوروبيين يأتى من الكيان الكبير، وإن كان قيد التطور، والقاعدة القوية الأمر الذى يضعه فى احتمالية كبيرة لمنافسة الولايات المتحدة الأمريكية. فى نوفمبر من عام ١٩٩٩، أعلن شيراك أن "الاتحاد الأوروبى لزام عليه أن يصبح أحد الأقطاب الكبيرة المؤثرة فى تحقيق التوازن الدولى وأن

يمنح نفسه أسباب القوة الحقيقية"(١١). فى أكتوبر من عام ٢٠٠٠، أعلن تونى بلير أن المواطنين الأوروبيين يتوقون إلى رؤية أوروبا قوية ومتحدة، ويحتاجون إلى أن يروا أوروبا وهى تمثل قوة عالمية، مهما كانت نشأتها، فإن أوروبا اليوم لم يعد كل اهتمامها بالسلام فحسب ولكن أيضًا بالتخطيط لأن تكون قوة جامعة(١٢).

أحيانًا ننظر إلى فكرة الاتحاد الأوروبى على أنه قصة تقليدية للتحول الناجح.(١٣) فقد تحرر أعضاؤه من دورات العنف الانتقامى والإذلالى التى دخلت فيها كل من فرنسا وألمانيا وجيرانهما القريبين خلال العقود التى سبقت عام ١٩٤٥. كما تحررت الدول التابعة من غرب أوروبا ولاحقًا شرق أوروبا من مواقعها السابقة المتدنية. وأكثر المستفيدين هم بلاد مثل أيرلندا وإسبانيا، ومن بعدهما استمتع قادة بولندا بالتأثير ذاته عندما تحققت لهم فرصة الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي(١٤).

بحلول عام ٢٠٠٤، زاد عدد سكان الاتحاد الأوروبى إلى حوالى ٤٥٠ مليون نسمة أكثر من الولايات المتحدة الأمريكية بنحو ١٧٥ مليون نسمة. وخلال تلك السنة، كان اقتصاد الاتحاد الأوروبى أكبر بنسبة ٤٠%، من اقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية بحسب مؤشر إجمالى الناتج القومى، على الرغم من أننا إذا أخذنا فى الاعتبار الاختلاف فى التكاليف ومستويات المعيشة، فإن كلاً من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبى بدوله الخمس والعشرين متساوون فى ذلك(١٥). وطبقًا لهذه الأرقام، فقد حقق الاتحاد الأوروبى نجاحًا كبيرًا خاصة إذا نظرنا إلى حالة الخضوع التى مرت بها أوروبا قبل أربعة عقود.

ومع ذلك فإن الأمور ليست بتلك البساطة، إذ إن للتحول ضريبة أيضًا، فعمليتا التحرر من الإذلال، والموضحتا مسبقًا، تزامنتا مع عمليتى إذلال جديدتين.

انطلقت الأولى بنموذج الإذلال الإبعادى، وكانت التحركات الأوروبية لا تعنى شيئًا إلا للنخبة التجارية والسياسية والمهنية، واستبعدت الأشخاص العاديين من

عمليات اتخاذ القرار.[١٦] لعدة عقود قليلة، كانت عمليات التصويت والاستفتاء البرلمانية تتم بدوافع الخوف والعرفان بالجميل: الخوف من الشرق الشيوعى والعرفان بالجميل لغياب الحرب. والآن ضعف كل من الباعثين، الخوف والعرفان بالجميل. وهناك فرصة لمعالجة الاستياء من الأسفل. حيث إن المواطنين بدءوا بتحميل الانتقام على المراهنين عبر صندوق الاقتراع، وسيتعين على القادة الأوروبيين فى فرنسا والدول الأخرى إيجاد طرق لإصلاح الرابطة المتأثرة مع الناخبين[١٧].

فى حين انطلقت عملية الإذلال الثانية عبر الإذلال والإبعاد الذى مارسته القيادة السياسية الأوروبية خلال منتصف وأواخر الأربعينيات من القرن العشرين. وكان من المهين للسادة القدامى للعالم أن يصبحوا متسولين فقراء أمام جلال واشنطن. وكما استعاد الأوروبيون ثروتهم وقوتهم، بدءوا بالانزعاج مرة أخرى. وكانت النتيجة الدخول فى دورة من الانتقام المتسع الذى دام لفترة نصف قرن فى الماضى.

وكان أحد الأحداث المبكرة فى دورة الانتقام هذه هو الهزيمة التى تلقتها أوروبا فى حرب السويس عام ١٩٥٦، تلك الحرب التى عارضتها الحكومة الأمريكية. ونتج عن هذا الشأن خداع كل من حكومة بريطانيا وفرنسا أمام الأمم المتحدة. واتضح سبب خضوع أوروبا للسيطرة الأمريكية خلال الخمسينيات من القرن العشرين وبداية الستينيات من القرن ذاته خلال العقد التالى وذلك عبر الهجمات الأوروبية على الأفكار والشخصية الأمريكية خلال حرب فيتنام.[١٨] ورد الأمريكيون على هذه الهجمات بإعادة تأكيد الذات تحت قيادة الرئيس ريجان آنذاك، ودخلوا فيما يسمى الليبرالية الجديدة العدوانية خلال الثمانينيات من القرن العشرين، بإغراء من بريطانيا. وتبع ذلك فترة من التمجيد الذاتى خلال فترة التسعينيات من القرن العشرين بعد انهيار الاتحاد السوفييتى. وانتقمت "أوروبا القديمة"[١٩]، ماعدا بريطانيا، وذلك عبر مواجهة خطة الولايات المتحدة الأمريكية علانية بشأن غزو

العراق عام ٢٠٠٣، ذلك الانتقام الذى بلغ أوجه بإعلان فرنسا أنها ستستخدم حق الفيتو (الاعتراض على قرار مجلس الأمن، وهو حق متاح لخمس دول فقط) بمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة ضد الولايات المتحدة الأمريكية للمرة الأولى منذ حرب السويس عام ١٩٥٦.

تعدد القطبية

وهنا تبدأ مرحلة التشاؤم، فقد انقسم الغرب ولم يستوعب فكرة انهيار العدو القديم المتمثل فى الاتحاد السوفييتى والذى قدم السبب المناسب للوحدة. ومن الصعب العثور على من يحل محله. مع اعتبار الكثير إلا أنه كان لكل واحد منهم عيوب كثيرة: فالصين رأسمالية جدًا واليابان أمريكية وروسيا تكيِّف أمورها حسب الوضع والإسلام ملىء بالانقسامات على نفسه (على الرغم من أنه ظل المرشح الأوفر حظًا لوظيفة "العدو عند الضرورة").

فى حالة التفاف نصفى الغرب، أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، على بعضهما البعض: ليس بشكل مباشر ولكن مع الحذر، بالتأكيد على تهدئة الخلافات الماضية عبر الانتقاص القاسى من القدر، وليس أمر تضميد الجراحات التاريخية بالحدث البسيط. حيث انقسمت قيادة الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبى إلى ثلاثة أمور أساسية تأرجحت فيها المملكة المتحدة بينها بقلق.

١- مالت الإدارة الأمريكية الحالية إلى الأحادية ما أمكن فى حين يفضل الأوروبيون الطريقة الجماعية.

٢- سعادة الأمريكيين البالغة بعالم أحادى القطبية على الرغم من تطلع الأوروبيين بوضوح إلى الوقت الذى ستقوم تعدد القطبية باستعادة قدرتهم الكاملة على أن يكون لهم صوتهم المستقل بالعالم.

٣- ميل الأمريكيين إلى الطرق العسكرية المساندة لقضايا السياسة الخارجية المقلقة، فى حين أن الأوروبيين يميلون أكثر إلى مساندة دبلوماسية السلام[٢٠].

جدير بالذكر أن تقسيمات الغرب هذه تعتبر جزءًا من الانجراف الثابت نحو تعدد القطبية على المستوى العالمى. حيث يتضاعف الدخل القومى الصينى كل ثمانى سنوات خلال العقدين الماضيين. وتتوقع منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية أن يزيد نصيب الصين من إجمالى صادرات العالم من نحو ٦% فى عام ٢٠٠٥ إلى ١٠% عام ٢٠١٠، حيث تكون فى هذا العام قائدة التصدير بالعالم.[٢١]

ومع زيادة القوة الاقتصادية تزيد الإمكانية لتصبح قوة عسكرية قوية. الأمر الذى قد يتحول إلى قوة قتال فعلية سريعًا إن رغبت الدولة بذلك. وكان المثال الأوضح يتمثل فى الولايات المتحدة الأمريكية وكيفية قيامها بذلك: بأن تشترى العقول والمهارات والمعلومات والمعدات والبرامج عند الضرورة، مع إقناع المواطنين الغنى منهم والفقير بأن بناء درع عسكرية فكرة ليست فقط جيدة ولكنها تستحق التضحية من أجلها.

يعتبر الجدول ١١ – ٣، تخمينًا حول مظهر النظام العالمى فى عام ٢٠٣٥. حيث يبدو حينها أن الولايات المتحدة الأمريكية لن تكون القوة الفائقة العالمية الوحيدة وستلحقها كل من الصين والاتحاد الأوروبى. كما سيكون هناك لاعبون إقليميون وعالميون آخرون يملؤهم الطموح لزيادة تأثيرهم عالميًا، وقد تكون روسيا واليابان والهند من بينهم.

من الممكن أنه بحلول هذا الوقت، قد يتهاوى الإرهاب المتعصب الذى تنفذه الحركات غير الدولية كالقاعدة، خاصة عند تلاشى السياسة بآسيا الوسطى والشرق الأوسط.، فى حين سيكون للأطراف مثل تركيا وإيران دور حاسم فى تقديم التأثير المعتدل للمسلمين التابعين الذين سيكونون أكثر فعالية من القوة الكافرة.

ومع ذلك لا يوجد سبب لتوقع الانتقال السلس من عالم أحادى القطبية إلى عالم متعدد القطبية، مع الأخذ فى الاعتبار تزامن تهاوى التنسيق غير المحكم للإرهاب العامل لحسابه الخاص والموضح فى تنظيم القاعدة، مع انتشار الإرهاب الذى ترعاه الدولة وليس المتصل بشكل خاص بالأسباب الإسلامية.

جدول ١١ – ٣ كيف سيبدو النظام العالمى فى عام ٢٠٣٥			
العمالقة العالميون	الصين	الولايات المتحدة الأمريكية	الاتحاد الأوروبي
قيادة اللاعبين الإقليميين العالميين	اليابان	روسيا	الهند

ويشير هذا المصطلح إلى الأنظمة التى توظف خليطًا من القوة العسكرية والخطابة السياسية للاحتيال على الأقليات ومهاجمة الدول القريبة. ولن تكون وحشية الدولة ضد المدنيين والدول المجاورة على الطريقة الشرق أوسطية أو الطريقة الإسلامية، بل سوف تشمل توظيف أشكال الوحشية كافة من العنف والخوف لشق طريقها.

وقد يظهر الإرهاب الذى ترعاه الدولة بأى مكان، بحيث يكون ذلك المكان عبارة عن مدينة سريعة النمو يعيش بين جنباتها العديد من الشبان المتعلمين وأنصاف المتعلمين من العاطلين، وستنشأ تلك الحالة خاصة إذا تربص بالمجتمع الانتهازيون السياسيون الذين يعملون على دعم شعور الاستياء لدى مواطنى تلك المدينة كوسيلة لبناء حركاتهم السياسية أو للإمساك بذمام الدولة والوصول إلى الحكم.

وكما يقول السيد إيمانويل وولارشتاين، فقد دخلنا فى "زمن التحولات" (وولارشتاين ١٩٩٨، ٣). بمعنى، أننا فى طريقنا إلى "موقف فوضوى لا يروق لأحد العيش فيه، ولا يمكن التنبؤ بمساره التاريخى"، ويرى وولارشتاين أن نظامًا جديدًا

سوف يدمج هذه الفوضى خلال فترة من الوقت تبلغ خمسين عامًا، كما سيتشكل هذا النظام الجديد على ضوء ما سيتم فى الفترة البينية التحويلية على يد هؤلاء المتمتعين بالقوة بالنظام الحالى والآخرين ممن لا يتمتعون بها(٢٢).

ونضيف إلى ما تقدم تقييم السيد تيموثى جارتون آش، الذى يقول فيه:

إذا لم يترنح النمو الاقتصادى الصينى بشكل مفاجئ، ربما بسبب اضطراب سياسى، فستكون الصين بحلول عام ٢٠٢٥، إحدى القوى الرئيسة – فى حين تظل اليابان هائلة وتبرز الهند كذلك – ولن يمكن تصور خطة سياسية لأوروبا وآسيا بشكل منفصل عن أهداف وآليات آسيا. لذا فإن الغرب الملتف حول المحيط الأطلنطى الذى يشكِّل العالم منذ عام ١٥٠٠، لم يعد أمامه سوى خمسة وعشرين عامًا لا أكثر، بعدها سيترك مهمة تشكيل العالم إلى قوة أخرى. (آش ٢٠٠٤، ١٩٢)

بالإضافة إلى كل ذلك هناك اعتبارات أخرى يجب النظر إليها، فمن بين كل الأعضـــاء المشاركين فى الحدث، سواء كانوا سياسيين أو رجال أعمال أو ناخبين أو مستهلكين أو جماعات، سيكون لذلك الموقف التحولى التأثير الأكبر على تنامى مشاعر الخوف والانتقام لدى كل هؤلاء، وسيكون لدى الجميع رغبة لتجنب الوقوع فى موقف التضحية، حتى وإن كان ذلك يعنى أن تكون أنت من يضع الناس فى موقف الضحية.

تحدى الأحياء الفقيرة

إن ما يزيد من شدة الموقف هو أن نسبة كبيرة من السكان على مستوى العالم شرعوا فى التحول والانتقال الكبير من الحياة فى الريف إلى المجتمع المدنى.

ومن المعروف جيدًا أن شخصًا واحدًا من بين شخصين على مستوى العالم يعيش على أقل من دولارين فى اليوم أو أقل. ولكن ليس من المعروف أن الفقراء

أصبحوا ظاهرة مدنية، فلم يعد الفقراء مبعثرين بالقرى. وقد أوضح تقرير الأمم المتحدة، الصادر بعنوان تحدى الأحياء الفقيرة (برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية – ٢٠٠٣)، أنه خلال العقدين القادمين سيتضاعف سكان المدنيين على مستوى العالم من ٢,٥ مليار إلى ٥ مليار شخص(٢٣).

جدير بالذكر أن نصف سكان العالم بالفعل من سكان المدن، وينمو السكان المتمدنون على مستوى العالم فى هذا الوقت بما يكافئ ٣٣ (ثلاثة وثلاثين) مدينة جديدة بكل منها مليونا شخص كل عام ويتوقع أن يستمر ذلك خلال الثلاثين عامًا القادمة(٢٤). فى عام ١٩٥٠، كان أهل الريف هم القاعدة الأساسية للفقراء فى الدول النامية، أما فقراء المدن فقد كانوا يمثلون ١٨% فقط من إجمالى الفقراء فى الدولة، ولكن سرعان ما سيتغير ذلك بحلول عام ٢٠٣٠، حيث سيكون نصف نسبة هؤلاء الفقراء من المتمدنين.

معروف أن حياة المدينة تضع الناس فى مواجهة مع التفاوت الطبقى القاسى. وفى بلدان مثل أرمينيا وروسيا وطاجاكستان وأوكرانيا، تضاعف مستوى التفاوت خلال السنوات العشر الماضية. وفى المجر وبين عامى ١٩٩٢ و١٩٩٦، زادت نسبة السكان الموجودين تحت مستوى الحد الأدنى إلى النصف تقريبًا. وبحلول عام ١٩٩٩، فسيعيش أكثر من نصف سكان دول الكومنولث المستقلة تحت خط الفقر(٢٥).

فهل سيخبر القادة الدينيون والقادة السياسيون شعوبهم بقبول منطق السوق مع الاستفادة منه؟ الإجابة هى: من المحتمل ألا يحدث. فالناس بالمدن أقوياء عند تنظيمهم أو حشدهم جماهيريًا. سواء كان للمتمدنين صوت أم لا، فإنهم يخربون الممتلكات ويزهقون الأرواح ويسقطون الحكومات. هذا ما وجده الأغنياء بأوروبا بالقرن التاسع عشر.

فى بداية القرن التاسع عشر، فإن الأغنياء ممن استحثتهم الكتابات والمنشورات مثل ما كتبه السيد توماس مالثوس بعنوان "مقال حول مسألة السكان" (١٧٨٩)، فقد حاول فى هذا المقال أن يلفت نظر الفقراء إلى فقرهم وأنهم يستحقون ذلك، وعليهم ألا يتوقعوا المساعدة (مالثوس ١٩٩٩). وفى أواخر القرن التاسع عشر، وبعد اندلاع عدة حركات ثورية، استنتج الأغنياء على مضض أن أفضل طريقة لتقليل التهديد كانت التأكد من أن الفقراء يمكنهم الحصول على أسباب عيش لائقة فى بيئة محترمة.

وتم طلب الدعم بالمقدار نفسه، حيث إن الدولة المترفة بدأت فى الخروج مدعومة بعائدات الضرائب المأخوذة من هؤلاء القادرين على الدفع. وصاحب تقدم دولة الرفاهية بأوروبا مع الأعمال التجارية بشكل متطابق تمامًا مع تشريع بسمارك الاجتماعى خلال الثمانينيات من القرن التاسع عشر. والتى أعطت للعمال الألمان تعويضات عن إصابات العمل الصناعية ومعاشات تقاعد لكبار السن مع استمرارها حتى الستينيات من القرن العشرين. وكانت المعرفة التى أدت إلى أن تقدم الدولة وسائل الترف لشعبها هى الدرس المستفاد[٢٦]، لكن ذلك الترف يظل نقطة واحدة من ذلك الدرس الذى يتكون من نقطتين، إذ إنه لجعل المدن آمنة، ولجعلها أماكن تحقق الرضا، يلزم القيام بنقطتين مهمتين:

- وجوب التخلص من الفقر.
- التخلص من الإذلال تخلصًا جذريًا.

فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تحقق التقدم بأوروبا، لكن عجلته كانت أسرع فى القرن التاسع عشر عنها فى القرين العشرين. وفى الحقيقة، فإن تقدم حقوق الإنسان فى شكل المواطنة جعل الناس يشعرون بالاستياء الشديد إيذاء الإذلال الذى عاشوا فيه.

وفى بداية القرن الحادى والعشرين، لم يفصح تقرير تحدى الأحياء الفقيرة (برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية ٢٠٠٣) عن الكثير بشأن التكاليف الاقتصادية التى تقابل الفقر فى المدن. ومع ذلك وفى حالة تبنى توصيات التقرير على نطاق واسع، فإنه يلزم وجود تعهد سياسى قوى ودعم مالى سخى من الأغنياء. حيث يدعو هذا التقرير إلى وجود "حسن الإدارة الحضرية" "بالمدن الشاملة" التى تتمتع بإمكانية الوصول التكميلى والقوى والمتساوى بشأن عمليات اتخاذ القرار والحاجات الأساسية للحياة الحضرية، والفعالية فى تقديم الخدمات العامة وفى تعزيز التنمية الاقتصادية المحلية والشفافية والمسئولية بشأن أصحاب المصلحة والقائمين على اتخاذ القرارات والمواطنة والمشاركة الحضرية وأمن الأفراد والبيئة المعيشية الخاصة بهم.

إذا كان هذا ما يريده الفقراء الحضريون، فإن تطبيق قاعدة "العكس صحيح" على هذه القائمة سيخبرنا ما الذى يعانون منه الآن. من خلال المعانى الضمنية فما يعانون منه الآن هو:

- مدن معزولة ومبعدة اجتماعيًا.
- قادة سياسيون لا يتمتعون بالمسئولية إلى جانب أنهم مختلفون ويعتمدون على المركزية[٢٧]
- تقديم الخدمات العامة بشكل غير فعال.
- عدم وجود من يعمل على تنمية الاقتصاد المحلى بجدية.
- غياب الشفافية ووجود الفساد.
- الافتقار إلى المشاركة من جانب الحضريين الفقراء.
- البيئات غير الآمنة[٢٨].

ولنعبر بطريقة أخرى، فإن هؤلاء الأشخاص يتم إذلالهم وإبعادهم والعمل على تدنيهم سواء بشكل متعمد أو من خلال التجاهل والإهمال.

شبح هتلر

ورث هتلر ثقافة سياسية قائمة على الإذلال كنتيجة للتكبر والروح العسكرية المتعلقة بالطبقة العليا "الشعب السامى" للإمبراطورية الألمانية، تلك الروح التى تخللت وانتشرت لأسفل إلى أن وصلت إلى قاعدة المجتمع الألمانى. لقد أحس القائد الألمانى أن السكان دأبوا على الشعور بالاستياء،[٢٩] وكانت خطته هى زيادة هذا الشعور واستخدامه كاحتياطى للطاقة السياسية لأغراضه السياسية. وكان مضمون الرسالة التى يحملها هى أن الدول الأخرى هى فئة أقل من الشعب الألمانى. وقد تحدى جمهوره فى إعادة ألمانيا قوية مرة أخرى متسائلاً: من يتنازل طوعًا؟ لا أحد! لذا فإن القوة التى كان يمتلكها كل شخص قررت هذا اليوم، أمام الله والعالم، أن يكون للقوى الحق فى تنفيذ رغبته.[٣٠] واستند حق القيادة إلى "السلطة الفردية"، وقد أعلن أن الألمانيين تحت قيادته سيكونون "أبطال حق العيش". وهذا يعنى السعى لامتلاك القوة للفوز وعدم الخوف من استخدامها. وتظاهرت انجلترا وفرنسا بالحارس الأخلاقى الأسمى لكنهم لم يكونوا كذلك. حث هتلر شعبه على أن يسأل نفسه "ما هى الوسائل التى جعلت الدول الفاضلة تمتلك لنفسها ربع العالم؟" وأضاف "إنهم بالتأكيد لم يستخدموا طرقا فاضلة!". وكانت رسالته "لا تخدعوا أنفسكم حول أهم شرط فى الحياة والذى يقضى بضرورة أن تكون قويًا".

كان هتلر قادرًا على العمل على المعنويات المنخفضة والمشوشة للشعب الألمانى الذى كان بالتزامن يعانى من تأثيرات الإذلال:

- النزعة الإمبريالية (التى حددها هتلر فى كل من انجلترا وفرنسا).
- منطق السوق (الذى جسده هتلر فى الرأى المعروف عن اليهود).

- التحول إلى الحالة العالمية (بعبارات أخرى، دول العالم الضعيفة ممن يواجهون فكرة التنظيم من الخارج ومن الأعلى، التى صورها هتلر بصورة مثيرة فى مؤامرة اليهود الدولية).

وبمقارنة الموقف العالمى خلال الأعوام الأولى من القرن الحادى والعشرين، كما رأينا فى الفصل الخامس والسادس والسابع، لا تزال أشياء مثل النزعة الإمبريالية ومنطق السوق والحالة العالمية تؤدى دورها، فقد أوجدوا شعور الإذلال فى العديد من المجتمعات حتى فى الولايات المتحدة الأمريكية التى كان رئيسها جورج بوش فى عام ٢٠٠٥، مشغولاً بزيادة مشاعر الخوف من "إمبراطورية الإسلام الراديكالى المتطرف التى انتشرت من إسبانيا إلى إندونيسيا.[٣١] واستمر الخوف من العودة للفاشية على رأس اهتمام جميع القارات[٣٢].

دمج ميثاقى الحداثة

حان الوقت للانتقال إلى المرحلة الثانية من هذه الرحلة، من التشاؤم إلى الواقعية. كيف يمكن الفوز فيما يتعلق بالقيم المكتسبة لحقوق الإنسان بل ودفعها نحو الأمام؟ يلزم الأمر بناء مؤسسات حكومية قوية على المستويين الإقليمى والعالمى من شأنها تنظيم وتعزيز وفرض تلك الحقوق. ولعل النقطة المهمة تكمن فى قوة الحكومات المركزية بالدول القومية التى حولت حقوق الإنسان، فى شكل المواطنة، إلى واقع عملى وذلك إبان القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

وسيحدث بالفعل حدث مشابه على المستويين الإقليمى والعالمى خلال القرن الحادى والعشرين. وقد بدأ الاتحاد الأوروبى بداية جيدة؛ حيث عرض نموذجًا واحدًا للتقدم على المستوى العالمى، كما أشار السيد بيتر سينجر[٣٣]. كيف يمكن فهم الاختلاف حول غزو العراق عام ٢٠٠٣ من جانب العالم إذا كانت عبارة عن

عملية شرطية تم إقراراها من خلال كيان عالمى على أنها شرعية وذلك من الأغلبية العظمى للدول القومية.

ويلزم وجود المكوّن الأهم لبناء مؤسسات إقليمية وعالمية ألا وهو الرغبة السياسية. ولإيجاد هذا المكوّن، يجب ضمان تداخل المصالح والتعهد للسكان الحضريين الهامين الموجودين فى كل أوروبا وآسيا وأمريكا وأفريقيا. ماذا يريدون وما عليهم تحمله مما يعول عليه بشكل كبير.

وينحصر هذا التوسع الكبير فى السكان الحضريين فيما بين المواثيق القبلية أو الأسر الحاكمة أو مواثيق الشرف المجتمعى لمدنهم القديمة والقوة التى يأخذها التفكير فى حقوق الإنسان فيما يتعلق بالمكتسبات داخل المدن حيث يتحدث الجميع، بلغة الاتحاد التجارى والسياسى والنشاط التجارى، وبلغة الحقوق والفرص. ونشأ جيل جديد من سكان الحضر فى ظل هذه اللغة ووجدوا داخل المدن الأطر الدينية لتفسير العالم. وطرح ذلك أفكارًا حول ميزة كل روح وعظمة الإله والأفكار التى يمكن نشرها لتعزيز وجهات النظر استنادًا إلى ميثاق الشرف وميثاق حقوق الإنسان.

ولا يقوم الأشخاص الموجودون بهذه المؤسسات بإجراء تحوّل كامل من ميثاق الشرف إلى ميثاق حقوق الإنسان، بل هم يتطلعون إلى خليط يمزج بينهما. ولعل السؤال هو: ما هو الخليط الذى سيعمل جيدًا فى هذا العالم وسيخدم مصالح من؟ وأى خليط من ميثاقى الشرف وحقوق الإنسان سينال من التأييد أكثر لبناء أشكال قوية للحكم على المستويات المحلية والإقليمية والعالمية الأمر الذى ينشئ مؤسسات تتعهد بشكل كامل بالحفاظ على مستوى جيد من المواد الموجودة والتعامل المنصف لكل المدنيين؟

الجدول ١١ – ٤، دمج ميثاقى الشرف وحقوق الإنسان			
	الرأى الأول	**الرأى الثاني**	**الرأى الثالث**
	الرأسمالية المتحررة	الدولة المهيمنة	الديمقراطية الراشدة
من منظور ميثاق حقوق الإنسان	لكل شخص الحق فى التطلع إلى حياة مناسبة خالية من العنف (ما لم يكن إزعاجا للأغنياء) ويجب أن يتم التخلص منه ما أمكن (باستثناء عند الدفاع عن الممتلكات)	يمكن للدولة الناجحة والقوية الحفاظ على امتيازاتها على نحو مشجع وآمن مع توفير الحقوق الاجتماعية	لكل شخص الحق فى التمتع بالتعامل المنصف فى المنافسة الاجتماعية مستفيدة من واجب الحرص والرعاية مع التمتع بفوائد تحسين الحياة مثل حق الوصول الثقافي
من منظور ميثاق الشرف	الإخضاع هو حقيقة الحياة ويجب تحمله أو التغلب عليه، والحياة عبارة عن صراع يكون فيه الفائزون من يعرفون كيفية العناية بأنفسهم	"القوة هى الحق": القوة رائعة، كل ما يفهم على أنه انتزاع ونصر ونجاح بأى وسيلة	الإعجاب بالقوة والإخلاص والشجاعة والثبات والطموح عند فهمها فى سياق ميثاق حقوق الإنسان

على الأقل فإن هناك ثلاثة آراء (انظر الجدول ١١ – ٤). وقد قدمنا بالفعل الأول منها فى شكل الرأسمالية المتحررة، من خلال منطق السوق الذى خطا خطوة ثابتة واحدة فى كل من الميثاقين، ومفاده: "الحياة صراع على الإذلال ولكن لندع الصراع مفتوحًا وغير عنيف ومتاحًا للجميع أن يدخله، وهذا أفضل ما يمكن توقعه. وهذه هى الديمقراطية كما نعرفها فى الحياة".

والرأى الثانى الدولة المهيمنة، وهى تحمل رسالة أخرى: "على الدولة أن تستخدم قوتها لرعاية مصالحها على حساب مصالح الآخرين، أى أنه بوسعنا

إيذاؤك". والرأى الثالث الديمقراطية الراشدة، وفيها الاقتراح التالى: "يعتبر الهدف من تنفيذ ميثاق حقوق الإنسان من جانب الدول والمواطنين هو التأكد من حصول كل شخص على حياة مناسبة ما أمكن، ومن غير الممكن أن تتهرب من ميثاق حقوق الإنسان على أسس ادعاء تعزيزه أو الدفاع عنه". ويستجيب هذا الخيار بشكل إيجابى للقيم الأساسية لميثاق الشرف من القوة والإخلاص والشجاعة والثبات والطموح والمكافحة لتحقيق النجاح إلى جانب ذلك أيضًا: يجب عدم تنفيذ هذه القيم لتقويض ميثاق حقوق الإنسان والقوانين التى تعززه، بل استخدامها فقط لتعزيز تلك الحقوق أو للدفاع عنها. وبهذه الطريقة يستفيد الجميع".

والديمقراطية الراشدة ليست أداة وضيعة ومسيئة قام نيتشه بمهاجمتها فى حملته ضد العبودية وليست كذلك رؤية خط متناهٍ ومتواصل للترف الموجود للحفاظ على الحكومات مائلة وعادية ومناسبة للأعمال التجارية. حيث تظهر الديمقراطية الراشدة على أنها قوية وفعالة (لكن ليست مستبدة تمامًا) دولة قوية ومبدعة (لكن ليست متحررة طائشة) اقتصادية رأسمالية بكل وسائل القوة مقابل إشراك المواطنين والمجتمعات كافة فى مهمة العيش المشترك دون وجود للفقر والإذلال. جدير بالذكر أن الوصول إلى تحقيق السعادة ليس ضمن جدول أعمال الديمقراطية الراشدة، ولكن التخلص من البؤس الذى يمكن اجتنابه هو الأمر الأهم.

المصلحة الشخصية المستنيرة

الديمقراطية الراشدة هى نفس مسألة المصلحة الشخصية المستنيرة عند التعرف عليها جيدًا. حيث تتضح الفوائد التى تعود على أغلب السكان المتحولين إلى الحالة العالمية فى شكل: المزيد من الفرص والقليل من البؤس ومعايش أفضل. وتكون الفوائد التى تعود على الأغنياء والأقلية القوية واضحة تمامًا بالتساوى بمجرد اعتبار الأمر بجدية.

شجعت سيطرة منطق السوق منذ السبعينيات من القرن العشرين على وجود مناخ بالغرب يرفض التقارب مع مشكلات البلدان الخاصة ممن هم خارج دائرة الثروة والقوة السياسية. ويبرر هذا الأمر عبر الادعاء بأن لديهم الحرية لتحسين أنفسهم إذا ما قرروا ذلك. وفى المقابل، فإن السياسات المضادة للغرب تنقل أساسًا رسالة مفادها: أنه على الغرب تبنى مجموعة مواقف محددة ثابتة تتقابل بشكل أكبر من الناحية السياسية مع مصالح الآخرين.

وكما هو معروف جيدًا، فإن النظام الرئيسى الذى تتبعه واشنطن يتمثل فى تجنيد الحلفاء التجاريين والسياسيين فى علاقة محكمة مناسبة ذات صلة بأوروبا وآسيا وأفريقيا ودول أمريكا اللاتينية.

وتم اختيار هذه الدول بسبب الإعداد للتعاون مع خطط الغرب استنادًا إلى الدولة المهيمنة (انطلاقًا من بقايا النزعة الإمبريالية) والرأسمالية المتحررة (التى تنفذ منطق السوق). حيث تمثل العراق اليوم المثال الأحدث على هذا المنهج.

ومع ذلك فكما سيتلاشى التأثير العالمى للغرب خلال العقود القليلة القادمة، فسيترك الحلفاء المحليين وحدهم، يتحملون شأن سلامتهم الخاصة، لذا فإن العديد منهم قد يتبنون موقفًا سيآسيا مناهضًا للغرب فى هذه الحالة، وسيبدو أن جهود استثمار الغرب فى هذه الدول تضيع بشكل كبير كأنها لم تكن.

بدلاً من شراء أشخاص، يتم استخدام طريقة سليمة طويلة الأمد تتمثل بشكل كبير فى توفير التعليم والتدريب والموارد المادية والمعرفة والمهارات بهذه المجتمعات، والهدف من ذلك الاستثمار هو خلق الظروف للديمقراطيات المحترمة الثابتة. ولننظر إلى الأمر من وجهة نظر أخرى قد تكون أفضل، يجب على الغرب أن يتبنى طرقًا لمشاركة الفكرة والتنفيذ مع الدول المجاورة الرئيسية من أوروبا وآسيا. وهذه هى خطة المصلحة الشخصية المستنيرة. ومع ذلك وفى الوقت الحالى، لا يبدو أن أيًا من ذلك قد ظهر له تأثير.

الخيارات

لنتعرف على الخيارات المتاحة من وجهة نظر عاملين رئيسيين، أحدهما حكومة الولايات المتحدة الأمريكية فى أوائل القرن الحادى والعشرين، والثانى سكان المدن الفقراء أو على حافة الفقر بكل مكان على مستوى العالم.

أيدت الولايات المتحدة كل الخيارات الثلاثة الموضحة بالجدول ١١ – ٥:

١. لا شك أن السياسة الأمريكية الحالية قوية فيما يتعلق بمصالح الرأسمالية المتحررة فى الداخل والخارج، وهى تعمل على افتراض يقضى بأن سيطرة مصالح الرأسمالية التجارية بالبلاد تعتبر مؤشرًا قويًا على أن الدولة حرة ومن ثم فإن لديها المكوِّن الرئيسى للديمقراطية.

٢. عندما تهاجم حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بلدانًا أخرى، فإن المتحدثين باسمهـا دائمًا ما يقولـون إنهـم يدافعون عن حقوق الإنسان أو يحاولون تأسيسها وهى الأساس للديمقراطية المحترمة، كما أنها ترتبك كثيرًا إذا ما تم عرض لقطات فيديو أو صور فوتوغرافية بوسائل الإعلام تُظْهر بعضًا من السجناء وهم يُعذبون أو تُحرق أجسامهم.

٣. عمليًا، فإن بعض الأمريكيين وبعض النقاد الآخرين يُرجعون هذه الأعمال العدائية على أنها أمر حتمى من خلال حقيقة أن الولايات المتحدة الأمريكية تفعل ما تراه صوابًا. وبعبارة أخرى إنها تتصرف طبقا لمبادئ الدولة المهيمنة[٣٤].

الجدول (١١ – ٥) هل هذا هو ما نختاره للقرن الحادى والعشرين؟		
	حكومة الولايات المتحدة الأمريكية	مدن العالم
الأفضلية الأولى	الرأسمالية المتحررة	الديمقراطية الراشدة
الأفضلية الثانية	الدولة المستبدة	الدولة المستبدة
الأفضلية الثالثة	الديمقراطية الراشدة	الرأسمالية المتحررة

أما سكان الحضر الجدد فلديهم مجموعة مختلفة من وجهات النظر:

١. حيث إن لديهم فى الغالب مستوىً متدنيًا من الموارد المتاحة، فالخيار المنطقى هو الديمقراطية الراشدة، طالما يمكن تنفيذه بواسطة حكومة فعالة وتتمتع بالكفاءة من النوع الموصى به فى تحدى الأحياء الفقيرة (برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية ٢٠٠٣). ومع ذلك فإن هذا الخيار غالبًا ما يكون غير متاح.

٢. وجود عنصر جذب قوى تجاه الدولة المستبدة، خاصة حين تنشق الظروف عن مجموعة دينية أو عرفية أو قبلية قوية تمثل الحكومة.

٣. والخيار الأقل تفضيلاً هو الرأسمالية المتحررة؛ حيث إنها تقدم مكافآت للأقلية فقط، خاصة على المدى القصير والمتوسط ويمكن تنفيذه على أى حال عند تصرف الحكومة الحاكمة كدولة مهيمنة.

عندما تتصرف الولايات المتحدة الأمريكية كدولة مهيمنة، على اعتبار مبدأ "القوة هى الحق"، فإنها بذلك تقوى سواعد دول غيرها على مستوى العالم ممن يفضلون هذا الخيار لمصلحتهم مثل إسرائيل وحتى زيمبابوى. وقد تحتج حكومة الولايات المتحدة الأمريكية أن تطبيق هذه الإستراتيجية "القوة هى الحق" يعتبر طريقة لتقديم الحرية بما يشمل حقوق الإنسان. ومع ذلك فإن سكان الحضر الفقراء أو على حافة الفقر (خلاف الغرب وهم يمثلون الأغلبية) يبدون بعيدين عن الاقتناع

بمثل هذه الحجة وهم يدركون جيدًا أن الحرية تعنى الرأسمالية المتحررة وهو الخيار الذى يستحيل معه حل مشكلاتهم.

تحاول الأجندة العلنية للعولمة إخبارنا أن العالم ملزم بالاختيار بين "الإرهاب الإسلامى" والحرية فى شكل الرأسمالية المتحررة. وهذا الأمر غير صحيح، كما أنه ليس من بين الأجندة الحقيقية، فالطرح الحقيقى الخفى يطالبنا بالاختيار بين الديمقراطية الراشدة والدولة المهيمنة.

خلال العقد التالى أو الفترة التى ستتوفر فيها الخيارات للعالم وخاصة لسكان الحضر بالعالم، ستعتمد تلك الخيارات على الخيارات التى قام الغرب بصياغتها الآن. وجدير بالذكر أن الغرب، وإن كان منقسمًا، إلا أنه يتمتع بالأهلية فى الوقت الحالى لتبنى أى خيار من الخيارات الثلاثة الموضحة بالجدول ١١ – ٥.

لقد مضى الاتحاد الأوروبى أكثر من الولايات المتحدة الأمريكية فيما يتعلق بالديمقراطية الراشدة وتنفيذها جزئيًا، ولم تكن تلك انطلاقة سهلة، حيث هناك دومًا معارضة، ولكن لماذا تلك المعارضة؟ من ناحية، برز العداء لأن العديد من الأشخاص الطبيعيين رأوا فى ممارسات الاتحاد الأوروبى العملية أنها سخية جدًا للمجموعات الخارجية مثل طالبى حق اللجوء السياسى. وسبب آخر أن هناك من يعتقد أن الحياة فى بروكسل أصبحت وكأنها كالعيش فى وسط قافلة من الشخصيات السياسية. وكان العديد من الشخصيات التى تمثل الاتحاد الأوروبى واضحين جدًا بشأن إخفاقهم فى العيش طبقًا لمعايير السلوك المحترم المتوقع فى ظل الديمقراطية الراشدة. وسيمنح علاج المشكلة الثانية الأشخاص السياسيين سلطة أكبر فى التعامل مع المشكلة الأولى.

ربما مع مرور الوقت ستصبح الديمقراطية الراشدة مرة أخرى أحد الخيارات بسياسات الأمريكيين كذلك. وفى غضون ذلك قد ينشأ صراع داخل الاتحاد الأوروبى بشأن الاختيار من بين خيارات الديمقراطية الراشدة والرأسمالية

المتحررة. وإذا ما ربحت الرأسمالية المتحررة الصراع إجمالاً وإذا تقارب كل من الاتحاد الأوروبى والولايات المتحدة الأمريكية فى اتجاه بعضهما مرة أخرى، وإذا انتشرت الطريقة العسكرية للأمريكيين، فسيرسم العالم عندها خطوطه النهائية. وسيرى الناس فى كل مكان بعد ذلك الاتحاد الأوروبى كأحد المستفيدين الرئيسيين من خيار الدولة المهيمنة للحفاظ على نفسه آمنا ومترفًا فى حين تترك القوة الأمريكية الفقراء خارج العملية يعانون الأمرّين[٣٥].

إذا استبعد الغرب فى السنوات القليلة القادمة خيار الديمقراطية الراشدة كهدف له وللآخرين، فإن ذلك سيعنى أن الاتحاد الأوروبى أخفق فى الدفاع عن الاستقلال داخل ساحة الأطلسى، وفى تلك الحالة، فإن النتيجة الأكثر ترجيحًا هى أن واشنطن ستستمر فى استخدام طريقة الدولة المهيمنة كوسيلة لإنشاء الرأسمالية المتحررة على حساب توسيع المساحة العالمية طالما أنها قادرة على القيام بذلك.

إذا ما ترك الغرب خيار الديمقراطية الراشدة كخيار حقيقى وإذا ترك واجب الحرص والرعاية وإذا ما ادعى أن السوق ستشفى جميع الأمراض، فماذا سيحدث بعد ذلك؟ من سيجهز عملية دمج الديمقراطية الراشدة وحقوق الإنسان بالممارسات العملية للمؤسسات القوية الحاكمة الإقليمية والعالمية؟ يحتمل ألا يوجد من يفعل ذلك.

فى تلك الحالة، سيُترك سكان الحضر العالميون للاختيار بين الرأسمالية المتحررة والدولة المهيمنة، وسيُعرض الخياران على يد مجموعة مختلفة من السياسيين المحليين. وقد يفضلون الخيار الأخير؛ حيث إنه يوفر لهم فرصة لتجنب أن يكونوا هم الضحايا فى حين يجعلون الضحايا بعض المجموعات الأخرى (انظر الجدول ١١ – ٥).

عند حدوث ذلك، فسيُحرم العالم من فرصة بناء ديمقراطية راشدة ومجتمعات لا تعانى الإذلال وشعوب لا تعانى الإذلال، وهو المنظور المتوقع عرضه من خلال خيار الديمقراطية الراشدة.

وماذا سنجني؟ إذا لم يتمتع الناس بالديمقراطية الراشدة التى يريدونها بالفعل، فسيكون لديهم فى ظل الدولة المهيمنة على الأقل الفرصة لإرضاء غريزة الانتقام ومحاولة تحقيق بعض من نصر محتمل. وهذا الأمر قريب إلى حد ما مما قدمه هتلر، وكانت التكلفة فى النهاية حوالى خمسين مليون ضحية قُتلوا خلال الحرب العالمية الثانية.

وسيتحدد مستقبل العالم بالمدن الكبيرة بأوروبا وآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية والولايات المتحدة الأمريكية. محمد عطا الذى قاد الطائرة الأولى يوم ٩/١١، كان مهندس تخطيط مدنى. وإذا كان عطا ورفاقه قد رأوا مستقبلاً هادفًا ومُرضيًا أكثر بالمدن التى يقطنون فيها، فما كانوا ليفكروا فى أن يكونوا من بين الإرهابيين.

لقد تحدد الخيارات التى يصيغها الغرب حاليًا الشكل الذى سيكون عليه العالم خلال فترة الثلاثين عامًا القادمة والتى سيصبح الغرب فيها لا يتمتع بنفس القوة كما هو الآن. وتتم صياغة هذه الخيارات فى الخفاء دون اعتبار لمآل هذه الخيارات ونتائجها. يبدو أن ذلك هو الوقت الذى تظهر فيه الأجندة الخفية للعولمة لترى النور.

وستكون رواية القرن الحادى والعشرين كالتالى: الغرب يخلط مجموعة البطاقات بينما يتولى العالم توزيع تلك البطاقات.

وفى هذا الوقت فإن الغرب سيعنى واشنطن، التى تؤدى دور الحامى القوى للرأسمالية المتحررة باستخدام عرض المقاومة عبر خيار الدولة المهيمنة، ولا ترغب واشنطن فى خيار الديمقراطية الراشدة، حيث إن القادة التجاريين والسياسيين علَّموا الأمريكيين ألا يرغبوا فى تلك الديمقراطية الراشدة، فقد أخبروهم أنها تزيد من قيمة الضرائب.

إذا انحنى الاتحاد الأوروبى لإجماع واشنطن (العاصمة الكبيرة والدولة الضعيفة والسكان المطيعين والعسكرية الأمريكية عند الضرورة)، فإن الديمقراطية الراشدة، أكثر البطاقات ترجيحًا لكى ينعم الجميع بالسلام النسبى والرخاء النسبى، سيتم التغاضى عنها، وسيتعين على كل شخص قبول الخيار الثانى طبقًا لمقولة "القوة هى الحق". القوة تبعث على نيل الإعجاب، وكل ما يهم هو تحقيق الفتوحات والنصر والنجاح بأى وسيلة.

وإذا ما انحسرت وتضاءلت الإمبراطورية الأمريكية، فسيتم استبدالها بدول مستبدة تواجهها الفوضى الحضرية فى كل قارة، وهو الأمر الذى يؤدى فى الغالب إلى نشوب حرب، كيف ستكون مساوئها؟ لا يعلم أحد. ففى عالم متعدد الأقطاب ومتمرد وعدوانى، يظل نشوب حرب عالمية ثالثة هو الاحتمال الأرجح[٣٦].



الهوامش



الفصل الأول
قضايا محورية

١. يحتوى الجدول ١-١، على نتائج دراسة للصحف العلمية الاجتماعية.المسجلة فى العلوم الاجتماعية، ملحق الاقتباس الذى قمت به فى مايو عام ٢٠٠٥. وقد وجدت أن العولمة ذكرت كمصطلح فى ٧٣٥٥ مقالة مكتوبة بين شهر يناير ١٩٨١ وشهر ديسمبر عام ٢٠٠٤، نشر ٨٩ بالمائة منها منذ بداية عام ١٩٩٧. وعلى مدار الفترة نفسها ارتفعت المراجع فى الملحق الخاص بالفنون والعلوم الإنسانية من صفر إلى ٢١٩. وثمة تداخل نوعًا ما بين هذا الملحق والملحق الخاص بالعلوم الاجتماعية وقلما يؤدى هذا إلى حدوث لبس نوعًا ما للمبالغة فى هاتين المجموعتين.

٢. انظر بيك ١٩٩٢؛ باومان ٢٠٠٠، جيدين ٢٠٠٠.

٣. انظر الملاحظة السابقة وكذلك كاستيل ١٩٩٧- ٢٠٠٠، هونتيجون ١٩٩٧؛ فريدمان ٢٠٠٠.

٤. للتعرف على المزيد، انظر على سبيل المثال، ماديسون ٢٠٠٣، بونتيج ٢٠٠١.

٥. المصالح التجارية لفينس التى تمولها الحملة الصليبية الرابعة (٤- ١٢٠٢). وفى مقابل المشاركة فى الأرباح المتوقعة. قدم دوج فينيسا لزعماء هذه الحملات شروطا أيسر فى ديونهم للمدينة إذ كان عليهم الشروع فى الحملة العسكرية من خلال مساعدة الفينيس فى احتلال زارا، والمدينة الرومانية الكاثوليكية على الأدرياتليك الذى تمرد على الهيمنة الفيتنامية. وكان هذا هدفًا طبيعيًا بالنسبة للحملة الصليبية. وبالرغم من ذلك، فإن هذه العملية قد تمت، بالرغم من الاعتراض الطبيعى للبابا.

٦. من الناحية العملية، فإن المبانى القائمة على القرية والاقتصاد المتعولم أخذت - شكل الاقتصاديات القومية والدول القومية، انظر، على سبيل المثال، بروديل ١٩٨١-٤.

٧. كما ذكرنا فى الملاحظة السابقة، فلابد من التأكيد على أن تشكيل العولمة قد سبقه بلورة القومية. أو بمعنى آخر، فإن الإمبراطوريات عبر القارات المختلفة كانت منتشرة لفترة طويلة قبل انتشار المواطنة القومية.

٨. وينشأ الاهتمام العقلى بالإذلال فى المقام الأول من ألفة البحث الذى قام به إلفين ليندر.

٩. انظر أيضًا ١٩٩٠، ١٩-٢٩، ٣٥-٦.

١٠. وفى هذه النقاط: فقد كان لنهضة أمريكا فى القوة العالمية فى الأربعينيات تأثير متحرر مدوى، بالرغم من أن التحرير تم عن طريق الأنظمة السياسية الحالية، وليس عن طريق حكام اليابان وألمانيا فحسب ولكن أيضًا الحكومات الفرنسية والبريطانية التى منعت من إعادة إنشاء إمبراطورياتها الاستعمارية. وإذا استعرضنا حالة أخرى، فإن المجتمع الأيرلندى كان له متنفس أكبر من الرخاء منذ انضمام الدولة إلى الاتحاد الأوروبى وقد جذبت أنظار العديد من الاستثمار الأجنبى المباشر. (ومن وجهة النظر النقدية بشأن أيرلندا بوصفها " النمر السلتى، انظر أوهيرن ١٩٩٨). ومن الممكن إدارة هذه التحولات فى موقع اجتماعى لشخص أو جماعة بطريقة تساعدهم على قبول أو حتى الترحيب بالموقع الجديد. وكان هذا أحد أهداف الدورات الخاصة فى إعداد الأفراد للتقاعد. وقد يعين بعض المستشارين لمساعدة العمال فى مواجهة هذا الانتكاس لصناعتهم (على سبيل المثال،التعدين أو الصيد) للإعداد لنوعين من العمالة.

١١. انظر آدم ١٩٩١، بيتى ٢٠٠٢، إلياس ١٩٩٤، سبيرنبرج ١٩٩١، فوكولت ١٩٦٧، فوكولت ١٩٧٧، مارافال ١٩٨٦، أوسترتش ١٩٨٢، بايك ١٩٨٣، فان هورن ميلتون ١٩٨٨.

١٢. بشأن دراسات الدائرة التفسيرية، انظر، على سبيل المثال، جادامار ١٩٧٥، هابرماس ١٩٧٧.

الفصل الثانى

مواثيق الحداثة

١. بدأ البناء عام ١٩٦٦. وتم افتتاح أول برج عام ١٩٧٠، والثانى عام ١٩٧٢. انظر موقع ***www. Skyscraper.org/tallest towers/t_wtc.htm***

٢. لمزيد من التفاصيل، انظر موقع ***www.9-11commission. Gov/***

٣. وفيما يتعلق بابن لادن، انظر على سبيل المثال، بودانسكى ٢٠٠١.

٤. تمت إضافة الحروف المائلة. ونقلنا كلمات ابن لادن فى ٧ أكتوبر عام ٢٠٠١. انظر موقع ***www.robert-fisk.com/text_of_usama_video_7october2001.htm***

٥. وللمزيد من المعلومات عن الإمبراطورية العثمانية، انظر فاروقى ٢٠٠٤، انظر ليفين ٢٠٠٣، ١٢٨-٥٧.

٦. وقد تم رفع الحصار التركى عن فيينا بواسطة البولانديين عام ١٦٨٣. وقد رسمت معاهدة كارلويتز عام ١٦٩٩، عندما تخلى الأتراك عن الهانجرة، نهاية التهديد التركى لأوروبا. والتصور الأخير للمصداقية بالنسبة للرأى القائل بأن الأرستقراطية الإقطاعية الأوروبية كانت مطلوبة لهزيمة الأتراك قد تلاشى بحلول عام ١٧٨٩. انظر أندرسون عام ١٩٦٦.

٧. انظر نورويتش ١٩٨٢، الجزء الأول.

٨. وكما تحدث كوماندتى زيبيدو من الجيش الزباتيستا للتحرير القومى، فى حديثه للأوفينتك وتشيباس والمكسيك، فى ٩ أغسطس عام ٢٠٠٣، قائلاً: " إن زمن العولمة هذا يفرض بحثا مقدسا بطريقة أخرى. وفى أيامنا هذه، فإن آثام الفقراء تدفع بالسياط. إننا ندفع بأسلحة معقدة صنعت خصيصًا للذين يتمردون على خطط العولمة. وجلنا يدفع من أجل هذا، بمن فى ذلك الأطفال والشيوخ. وتتشابه العولمة العالمية، بنظامها العالمى الجديد، كقولك: "الإذلال العالمى لشعوب العالم." انظر موقع ***www.zmag.org/content/showarticle.cmf?Section1D=8ItemID=4046*** (١ أبريل عام ٢٠٠٥).

٩. جورج دابليو بوش، " يدعو إلى جلسة مشتركة لمجلس النواب الأمريكي والشعب الأمريكي، في ٢٠ سبتمبر عام ٢٠٠١، والبيت الأبيض، وواشنطن دي.سي، انظر
www.whitehouse.gov/news/releases/2001/09/20010920-8.html

١٠. وهذا التقرير يتأثر ببعض الأعمال مثل: تيلي عام ١٩٩٠، تيلي عام ٢٠٠٤، مان ١٩٩٣، إلياس عام ١٩٩٤، بوجي ١٩٧٨، بوجي ٢٠٠٠، أندرسون ١٩٧٠، أندرسون ١٩٧٤، جيلنر ١٩٩١، سميث ١٩٩١.

١١. وبالنسبة للمباحثات الأخيرة انظر، على سبيل المثال، ليستر ٢٠٠٣، ليستر ٢٠٠٤؛ وودفيس عام ٢٠٠٣.

الفصل الثالث

طرائق الإذلال

١. إنه فى يوم ٣٠ من أبريل عام ١٨٦٣. وحيث صدر الإعلان فى ٣٠ مارس عام ١٩٦٣. انظر "الإعلان الذى يحدد يوم الصوم القومي"، فى لينكولن ١٩٥٣، ٧-١٥٦، أو فى موقع ***www.leaderu.com/bpf/pathways/lincoln.html***

٢. انظر، على سبيل المثال، موقع
www.english.people.com.cn/200409/19/eng20040919_157545.html (٢٨ مارس ٢٠٠٥).

٣. انظر كذلك الأبحاث فى هيلد وماكجرو ٢٠٠٢، هيلد وكونيج أركيبوجى ٢٠٠٣.

٤. من جانبه، يرى نوربيرت إلياس، أن هذا التأثير المنضبط للأحاديث من الممكن أن يسفر عن أفراد أصحاب طرق تفكير ومشاعر وتصرفات "متحضرة". وهؤلاء الأشخاص الراشدون المنضبطون بإمكانهم إقامة مجتمعات أكثر عقلانية. إنهم لن يكونوا فريسة للوهم الذى ملأ الخطابات الأيديولوجية لكنهم سيعملون على أساس المعرفة الموضوعية. وللحديث عن إلياس، انظر سميث ٢٠٠٠.

٥. من جانبه يدعو جوزيف ستيجليتز، لمزيد من الشفافية فى صندوق النقد الدولى، ومزيد من الاهتمام بالنسبة للمدنيين مقارنة بالدائنين، ومزيد من الوعى بالخسارة الاجتماعية والسياسية التى أسفرت عنها السياسات القائمة. كما يلاحظ: " أن هؤلاء كالموجودين فى شرق آسيا، الذين تجنبوا انتقادات صندوق النقد الدولى، قد ازدادوا انتشارًا، بمزيد من المساواة وقليل من الفقر عن أولئك الذين أطـــاعوا أوامـــرهم" (ستيجليتز ٢٠٠٢، ٢٤٨). ويـــرى جورج سوروس أنه مع الخطوط المتشابهة ووجود الأطروحات السياسية، فإن خطة تعزيز المجتمع المنفتح العالمى، لاسيما عن طريق المجتمع المدنى المشجع فى جنوب شرق أوروبا (سوروس ٢٠٠٠، ١-٣٠-٦٠).

٦. وأقل عمقًا من أرنديت، تؤكد مارتين ألبرو على أهمية المواطنة العملية"، (ألبرو ١٩٩٦، ١٧٥)، أو بمعنى آخر، الاستعداد لتنفيذ المهارات المتعلمة من الدول القومية حتى العمل خارج هذا النطاق السياسى.

٧. سينجر ٢٠٠٤، ٤٣. ويبحث سينجر أيضًا بعض القضايا مثل تنظيم منظمة التجارة العالمية، والمراقبة الدولية على الانتخابات ودور السيادة القومية. وفيما يتعلق بمسألة الأمن العالمى، يتجه زيبجنيو بريزينسكى نحو "نظام الأمن بين أوروبا وآسيا" مع حلف الناتو الممتد، بما فيه روسيا، والصين واليابان. وربما يريح تيس أمريكا من بعض أعبائها، حتى عندما يؤكد دوره الحاسم كحاكم ومستقر فى أوراسيوى (بريزينسكى ١٩٩٧، ٢٠٩).

٨. لمزيد من التفاصيل، انظر سنجر ٢٠٠٤، ١٢٦.

٩. وبشأن السلطة المنطقية، انظر مور ١٩٧٢، ٥٢-٦.

١٠. تومبسون ١٩٦٣، تومبسون ١٩٩١. لمعرفة المزيد عن تومبسون، انظر سميث ١٩٩١.

١١. ويرى آدم فيليبس، أن العلاقات بين الآباء والأبناء لا يمكن أن تخلو من الإذلال. وفى كتابه حيوان فى المرعى(١٩٩٨) يقول إن كل طفل عليه تعلم الدرس الصعب أن النفس البشرية هى نفس هالكة (فيليبس ١٩٩٨، ٤٨)، وأن النفس أقل من الصورة التى يرغب أن يكون عليها المرء. وفى رأى فيليبس، أنه بمجرد معرفة من يقوم بإذلالك أو ما الذى يسبب لك الإذلال، تدرك أنها نفسك التى تقدرها، التى تعبدها. (٩٦). ويظهر غضب الطفل من الإذلال النابع من إدراكه الغاضب الذى يعتمد على الآخرين الذين بإمكانهم الاختيار ولا يرضوه: "ثمة عنصر جوهرى فى الإذلال يكمن فى بساطة الطفل" (١٠١). وللمضى قدمًا فى المجتمع، فعلى الطفل أن يتعلم، من خلال اللغة من جانب، أن يريد ما لا يريد فعله فى الحقيقة. يضيف فيليبس للنقاش الذى لا يتجه نحو فرويد وفوكولت فحسب بل أيضًا نحو ريتشارد رورتى وملاحظته عن السخرية والنظرية: " إن تكرار الوصف كثيرا ما يسفر عن الإذلال" (رورتى ١٩٨٩، ٩٠). انظر أيضًا شكلار ١٩٨٤، سكارى ١٩٨٧.

١٢. وكتاب آخرون، مثل جاسك لاكان، الذى تأثر بدوره بأليكسندر كوجيفى، وقد استنتج دراسات هاجل عن إثبات الذات. انظر، على سبيل المثال، روث ١٩٨٨، كوجيف ١٩٦٨، لاكان ١٩٧٧.

١٣. وقد يكون الاعتراف بالذات غير مريح فى التعامل مع بعض الحالات التى قد لا تكون مدعمة بل تكون محرجة أو مدمرة. وقد بحث هارولد جارفينكل شروط ما أطلق عليه "طقوس حالة الإهانة" (جارفنيكل ١٩٥٦، ٤٢٠) مثل المحاكمات العلنية التى من خلالها يصنف الناس ويهانون ويستنكرون. وفى كتابه ستيجما (١٩٦٨)، يكشف إيرفين جوفمان كيفية التفاعل بين الأشخاص العاديين والأشخاص أصحاب الهويات الفاسدة الذين يتم التعامل معهم لتجنب مواقف الإذلال.

١٤. انظر أيضًا مارجليت ٢٠٠٢ والقضية الخاصة للبحث الاجتماعى (٦٤، ١، سبتمبر عام ١٩٩٧)، المخصص لبحث المجتمع الراشد كما وصفته مارجليت (١٩٩٦). وعند الانتقال إلى إثبات الوجود فى السياق العالمى، يرى روبى روبرسون ومارتين ألبرو أن تغير الاتجاه العقلى يلعب دورًا حاسمًا. وقد وصف روبرسون هذا التطور التدريجى للوعى العالمى (روبرسون ٢٠٠٣، ٣) على مدار ثلاثة أطوار من العولمة تمتد لقرون عديدة. ومن جانبه يؤكد ألبرو على ضرورة الانفتاح على المفاهيم القديمة والحديثة حتى يتسنى لنا الدخول فى العصور المفتوحة. ويطالب جونسون ساكس بعمل محادثة عقلية محترمة وتعليم السوق كمصدر للتباين (ساكس ٢٠٠٢).

١٥. وبشأن باومان، انظر سميث ١٩٩٩.

١٦. ويعنى الإذلال: الحط من شأن شخص، ومنعه من تقدير ذاته، ومطالبته أن ينظر إلى نفسه(قبل أن يعرض لهم نفسه على حقيقتها)، والتقليل من شأنه، ووضعه فى مكانه، وطرده وإبعاده، وسحقه، وعدم الاكتراث به. وضحايا الإذلال يشعرون بالدونية والذل والصغر والإبعاد ويطلب منهم الرحيل.

١٧. وتوخى الحذر مطلوب حيث إن خبرة وفهم بعض الظروف مثل الخوف والغضب يبدو تأثرها بالطرق المعقدة بالنتاج التاريخى والتحويل الدقيق المستمر فى تشكيل الروابط الاجتماعية التى تحدث من خلالها. انظر، على سبيل المثال، روسنواين ١٩٩٨، شيف ١٩٩٠، شيف ١٩٩٧، جرينلات ١٩٨٠.

١٨. أو عندما ينجح حاكم فى تهدئة المقاتلين الإقطاعيين وتحويلهم إلى مناطق هادئة. وفى دراسة متعمقة، انظر نوربيرت إلياس فى كتابه مجتمع المحاكم (١٩٨٣)، وشكل أشمل، كتابه العملية الحضارية (١٩٩٤).

١٩. وثيق بالصلة أيضًا الدليل التجريبى للحالة السيئة المرتبطة بعدم المساواة فى المجتمعات الطبقية. انظر ويلكنسون ٢٠٠٥. وتأثير العولمة على الجور وكان موضوع الحوار. انظر، على سبيل المثال، فايربوغ وجوزلين ٢٠٠٤، ميلانوفيك ٢٠٠٢، رافاليون ٢٠٠٣، رافليون ٢٠٠٤، ساتسليف ٢٠٠٤، ويد ٢٠٠٤.

٢٠. والهويات أو الأفراد الليمين ليسوا فى العير ولا فى النفير؛ إنهم مشتتون وبين المواضع المحددة لهم التى يحددها القانون والعرف والتقاليد والطقوس (ترنر ١٩٦٩، ٩٥). وبشأن الأقلية، انظر ***www.liminality.org/about/whatisliminality/***

٢١. انظر، على سبيل المثال، ترنر ١٩٦٩، ٨٢-٩٨، ١٥٨-٦٠.

٢٢. كتب ماكس شيلر، قبل الحرب العالمية الأولى بفترة وجيزة، وقدم تحليلا منطقيا للاستياء كوحدة من الخبرة والعمل (شيلر ١٩٦١، ٣٦). وقد وجد شيلر هذا الرد خاصة بين الفئات الاجتماعية التى استبعدت اجتماعيًا، وسيقت إلى نظام طبقى. وليس الاستياء كالغضب. فإن الغضب هو الشعور بالغضب من الداخل يقع داخل علاقة خاصة كرد على أحداث بعينها. وعلى النقيض، فإن الاستياء هو حالة نفسية مستمرة، ومناخ عاطفى وربما حالة نفسية تشمل كيان الشخص أو الجماعة. إنه يؤثر على المشاعر والاتجاهات والسلوك فى سلسلة عريضة من العلاقات. والاستياء ربما شعر به الذين عانوا من الاستبدال، أو الذين ضاعوا بطريق تقوض هويتهم. ويصف شيلر الاستياء بأنه مركب، من ناحية، من الكره والحقد وحب الانتقام، ومن ناحية أخرى، فهو شعور بالعجز، وعدم القدرة على الهروب من الإذلال ولا مقاومته من جذوره. وتنمو حالة الاستياء عند الاضطرار لقبول حالة الإذلال كحالة وجود دائمة: "إن الضرر يواجه كمصير لا مفر منه". وعندما تشعر بالإذلال فأنت تصبح جزءا من الكيان الفردى أو الجماعى. وهذا الكيان يتم التعبير عنه وتعزيزه عن طريق التيار المستمر للشكاوى من الجائرين الحقيقيين أو المتصورين. وهذا الخطاب عن "انتقاد الاستياء" يبنى نظرة عالمية محددة، نظرة تصف تلك الأحداث التاريخية

والهياكل الاجتماعية والقيم الثقافية التي أدت إلى إذلال الضحايا. والغرض الأساسى من هذا الهجوم هو النظام الاجتماعى الأرستقراطى. والحديث عن طبقية إقطاعية مستذلة، وتسعى لرفاهية مضيعة، وزمالة جيدة. وفى مكانهم، لقد أشادت بالقيم الحديثة للعدالة والزهد والمنفعة وعدم الثقة العامة. انظر شيلر ١٩٦١، ٧١، ١٤٣، ١٥٢-٤.

٢٣. وأفضل الآن كلمة "النفي" عن "الإقصاء"، كما استخدمها سميث ٢٠٠١ وسميث ٢٠٠٢.

٢٤. ولتحليل " النساء الكبيرات" فى جنوب الهادى، انظر ليبووسكى ١٩٩٣.

٢٥. ولحساب آخر للعيش داخل الشبكة، لاسيما الشبكة المدنية، انظر سينت ١٩٩٤.

٢٦. والإذلال يكمن فى قلب المذهب البروتستانتي لماكس ويبر (١٩٠٥؛ ويبر ٢٠٠٢). وبناءً على مذهب القضاء المسبق، فإن البشر جميعًا مذنبون فقدوا جميعًا القدرة على إرادة الخلاص الروحى والأخلاقي. لقد استسلموا للتحكم فى أقدارهم. وليس أمامهم خيار إلا قبول القدرة الإلهية " لتعريضهم للمهانة والغضب"، وبالرغم من ذلك، فإنهم يستحقون حياتهم كآدميين (ويبر ٢٠٠٢، ٧١-٢، واقتباس من اعتراف ويستمينستر عام ١٦٤٧). ويستطرد ويبر القول بأن " الإدراك البشرى " الأب فى السماء" المذكور فى العهد القديم، الذى ا ستراح فى العودة كمذنب....، قد أصبح مخلوقا خارقا بعيدا عن أى مفهوم بشرى، مخلوق وزع على كل مخلوق قدره بناء على القرارات غير القابلة للاستئناف، والتى تتحكم فى التفاصيل الدقيقة للكون" (ويبر ٢٠٠٢، ٧٣). بمعنى آخر، فإن البشر فقدوا الحرية فى تقرير مصيرهم نحو الجنة أو النار. لقد تولى الاله هذه المهمة. وفى الوقت نفسه، فقد اتخذ الإله قرارا خفيًا، خلف وراءه المؤمن. وكان على البيوريتان أن يتوافقوا مع هذا الشعور بأنهم مبعدون عن الإله، ومحرومون من حضرته. علاوة على ذلك، فقد كان هذا إذلالا من نوع الإقصاء، ظهر فى الوحدة الداخلية الرهيبة (٧٣) فى هذه الحياة التى دعمها تهديد اللعنة الأبدية فى الآخرة.

٢٧. انظر هيرشمان ١٩٧٠ لطريق آخر للهروب أو المخرج. ومن جانبه فإن مامون له طريق آخر فى التعامل مع هذه الأشياء. إنه يريد من زملائه تحسين موقفهم عن طريق تحويل النار إلى مكان أفضل وانتظار الفرصة لجعل علاقاتهم مع الإله أقل إذلالاً. إنه يضع ثقته فى مجموعة من الأعمال الإبداعية وشكل من العلاج الإدراكى. أنه يرى، دعنا نلقى نظرة، ننظر إلى

أنفسنا، وندرك أننا قد نجعل الأمور تسير على نحو أفضل. وتحت سطح النار، يقدر، وجود الذهب والنفائس. قد يصير المكان رائعًا، مكان يرفع من قدر ساكنيه لا يقلل منهم. إننى أتحول إلى إمكانية التحول كرد فعل على الإذلال فى الفصل الأخير.

٢٨. واستخدام لفظ " السيادة" دل على الشخصية الذكورية لدستور الشرف.

٢٩. انظر كابلان ٢٠٠٢.

٣٠. ولمزيد من الشرح والتوضيح، العير موضح رسوميا، انظر سوسيديدس، فى كتابه تاريخ الحرب البيلوبونيسية، الذى كتبه فى القرن الخامس قبل الميلاد (سوسيديدس ١٩٧٢).

٣١. وللتعرف على هذا الصراع، والطبقية والمساواة، انظر جولد ٢٠٠٣.

الفصل الرابع

أطر العولمة

١. للحصول على آراء مهمة عن العولمة، تشمل بعدها السياسى، انظر، من بين الآخرين، هيلد وغيره. ١٩٩٩، وجيدين ٢٠٠٠، وشولت ٢٠٠٠، وهابرماس ٢٠٠١، هوليدى ٢٠٠١، وهوليدى ٢٠٠٢، وهيدرسون ١٩٩٩، وهوسباوم ٢٠٠٠، ومونبيوت ٢٠٠٣، أورى ١٩٩٩، أورى ٢٠٠٢، وشالندر ومازليش ٢٠٠٥، ومازليش أريبا ٢٠٠٥، ساسين ١٩٩٦، ساسين ١٩٩٨.

٢. انظر، على سبيل المثال، باون وغيره. ٢٠٠٤.

٣. وليس من قبيل الخطأ بالنسبة لمايكل مور، مؤلف دودى، أين بلدي؟ (٢٠٠٤).

٤. كان مايكل مور يتحدث إلى الغرفة التجارية الأمريكية فى فلوريدا فى ٢٥ فبراير عام ٢٠٠٢. انظر موقع *www.wto.org/english/news_elspmm_elspmm77_e.htm* (أبريل عام ٢٠٠٥).

٥. مصادر القلق الحضرية بشأن القيم الشخصية والهوية الثقافية تثار ليس بين المواطنين المتحررين من الاستعمار فحسب بل أيضًا فى صفوف القوة الاستعمارية عندما يوشك الانهيار. ويكون الأمر كذلك إذا كان خدام الإمبراطورية انتابتهم شكوك بشأن قيمة مهمتهم، وإذا كانت ممارسات الحكم المطلق للقمع الاستعمارى فى تصادم مع معتقداتهم الشخصية إما فى حقوق الإنسان والمواطنة، أو على نحو أكثر غموضًا، فى المساواة الجوهرية والكرامة والجنس البشرى قاطبة. فإن مهمة وكتابات تى. إى. لورانس (١٨٨٨- ١٩٣٥)، "لورانس العرب"، كانت من الممكن أن تحدث حالة دراسية مهمة للغاية. انظر براون ٢٠٠٥.

٦. وبشأن الانتفاضة انظر، على سبيل المثال، جمال ٢٠٠٥.

الفصل الخامس

النـــزعة الإمبريالية

١. ألقى الخطاب فى ١٧ مارس عام ٢٠٠٣. وبدأت الغارة فى اليوم التالى.

٢. لبعض التوثيق للعلاقة الوثيقة لروبرت موردوخ مع حزب المحافظين الجدد، انظر هالبر وكلارك ٢٠٠٤، ٩٠- ١٨٤.

٣. والمثل التقليدى هو "جماعة المغول" بقيادة جينكيز خان (١٢٢٧- ١١٦٧). انظر مان ٢٠٠٥.

٤. انظر، على سبيل المثال، بانتير بريك وغيره. ٢٠٠١.

٥. يتمضن الخزى التعرض لخرق القواعد لدلائل عدم الموافقة الصارمة للجماعة التى تنتمى إليها. والسبب هوا لإخفاق فى المحافظة على المعايير، التى من المفترض أن يلتزم بها أعضاء الجماعة. وأحد الأمور الخاصة بالخزى هى جعل خارقى القواعد يصلحون طريقهم. وعلى النقيض، فإن موضوع الإذلال المقصود هو استبدال المرتكبين من موضعهم القديم داخل الجمـــاعة. حيث ليس ثمة طبقية، والأشكـــال الـــوحيدة الممكنة فى الاستبدال هى الموت أو الانفصال عن الجماعة، والتى تؤدى فى حالة جماعة الصائدين إلى الموت بسبب فقد العلاقات التى يعتمد عليها الفرد المهجور للإبقاء على حياته.

٦. بالرغم من أن بعض جماعات الصائدين كانت "ثرية". انظر ساهلينس ١٩٧٢.

٧. كان ابن خلدون (١٤٠٦- ١٣٣٢) سياسيا قضائيا نشطا فى شمال أفريقيا وإسبانيا المسلمة. وعلى غرار هوبيز وميلتون رأى أن السياسة والحرب فى يد واحدة. انظر ابن خلدون ١٩٦٩، فيشيل ١٩٦٧، لاكوستا ١٩٨٤، ألتاس ١٩٩٣، ألتاس ٢٠٠٦.

٨. ولتعبير حى عن الآراء السياسية لميلتون عام ١٦٦٠، انظر خطابه للجنـــرال مونك الذى يطالب بانتخاب مجلس عام دائم للموهوبين لممارسة الحكم فى انجلترا (ميلتون ١٦٦٠). وقد كان ميلتون رجلا حضريا، ولد فى لندن واتخذ مهنته بها. وعلى النقيض، فقد كان هوبيس، ابن قس ريفى، انحدر من مالمسبورى فى كوتسولدى، وهى أقدم مدينة فى انجلترا،

وقضى جزءا كبيرا من حياته يعمل فى المنازل الريفية الكبيرة، ويتعلم الأرستقراطية. وبحلول عام ١٦٥١، كسب الجانب البرلماني الحرب الأهلية. وقدم هوبيز حجة كانت مناسبة لكلٍ من زملائه الملكيين المهزومين، الذين واجهوا ضغطا للقسم بالإذعان للحكومة، وللنظام الجديد. وفى العام نفسه، أصبح ميلتون سكرتير اللغات الأجنبية فى حكومة كروموبل. وبهذه الصفة، كتب عددا من الأعمال لتقديم الدفاع عن الهيئة البرلمانية. وبعد مرور ستة عشر عامًا، عاد الملك وأصبح ميلتون يكتب متقاعدًا. يعطى كتاب الجنة المفقودة (١٦٦٧، إندن ١٦٧٤) تقريرا عن المنطق العقلى المتضمن فى الطريقة التى تعامل بها الإله مع البشر. وبشأن هوبيز وملتون، انظر كاو ٢٠٠٤؛ ليواليسكى ٢٠٠٢، مالكولم ٢٠٠٢. وهوبيز هو الشخصية المحورية بالنسبة لحزب المحافظين الجدد، انظر ستروس عام ١٩٥٢. وبالنسبة لرأى مختلف، انظر سكينر ١٩٧٨، سكينر ١٩٩٧؛ انظر أيضًا هوبيز ١٩٩٨.

٩. انظر ويلزر ١٩٦٥.

١٠. انظر هوبيز ١٩٩٦، ٦٢-٧٥.

١١. نيتشه ١٩٥٦، ١٦٠-٥.

١٢. قارن شيلر ١٩٦١.

١٣. وكان من بين أبرز تعبيراته المسيحية، بالرغم من أن نيتشه كان يهاجم اليهودية كراع للمسيحية والحداثة. ومدفوعًا بالدفاع عن أخلاق العبيد والدهماء ، " الضعفاء والمضطهدين" بيد أنه كان مليئًا بالعدوان الشديد" (نيتشه ١٩٥٦، ١٧٢)، وقد أخذ بثأر رمزى من الأثرياء والأقوياء. لقد أدانوا سبلهم الشريرة التى يعاقبون عليها فى النار. ومن جانبهم، فإن الفقراء والضعفاء عاشوا حياة الإذعان الأخلاقى التام " (١٧٩)، وأصبحوا خبراء فى الانتقاص من الذات وإذلال الذات (١٧٢).

١٤. وتستمر الفقرة على النحو التالي: "أيا ما يكون الخير والصلاح، فلابد أن يقابله الشر والطلاح". ويحتاج المرء بشدة إلى الترتيب وإعادة التنظيم فى فئات جميع البشر الذين يعرفهم أو بإمكانه تصورهم. إن رعاة الخير تبدو عليهم سماتهم الظاهرة والرهبة من أى شر يمكن أن يجتاحهم. وليس لهم شغل بين الخير وما يجب أن يفنى (كانيت ١٩٧٣، ٣٤٦-٧).

١٥. وبشأن فيبلين، انظر على سبيل المثال، سميث ١٩٨٨، لاسيما ٤٧-٧٤، سميث ١٩٩٠، ٧٧-٩٧.

١٦. وقد فضل أغسطس عنوان المبادئ. انظر ريس جيساتى ديفين أغوسطو (المكتوبة، ١٤ قبل الميلاد)، والتى نقلها دافيس ١٩١٢-١٣؛ ١٦٦-٧٢؛ ويلز ١٩٩٢.

١٧. من جانبهم كان هتلر ورفاقه يحاولون بناء النسق الأوروبى الجديد (ربما كان هذا النظام العالمي) الذى يمجد السمو المفترض لجنس الإيريان. وكما بينه أرندت فى كتابه أصول الشمولية (١٩٥١، ١٩٧٦)، لم يضع هذا الاتجاه حدا للدعم البيروقراطى لسيادة البيض داخل الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية.

١٨. و لم يلق المبشرون المسيحيون ترحيبًا من التجار العمليين بل لقد قوبلوا بالمواجهة والصراع. انظر، على سبيل المثال، فيرجسون ٢٠٠٤، الفصل الثالث.

١٩. وفى سياق الغزاة، فإن هيدالجو وهو " ابن شخص ما"، ورجل من سلالة عريقة، عادة ما تترجم " الرجل الكريم. وتصلح الكلمة أيضًا للمرأة الكريمة.

٢٠. انظر، على سبيل المثال، ستاسيلويس ويوفال دافيس ١٩٩٥.

٢١. وعن غاندى، انظر باريخ ٢٠٠١، وعن كولينس، انظر كوجان ١٩٩١.

٢٢. انظر مايو ١٩٧٥، وثورن ١٩٧٩، ثورن ١٩٨٦.

٢٣. ومن أجل الحصول على تقرير مقروء عن هذه الصراعات، انظر فيرجسون ٢٠٠٤. وعن جاليبولى، انظر كاريلون ٢٠٠٣.

٢٤. نتيجة لاستقرار السلام فى الفيرسيال بعد الحرب العالمية الأولى، اكتسبت الإمبراطورية البريطانية ١,٨ مليون ميل مربع إضافى من المنطقة وحوالى ١٣ مليون مواطن جديد. فيرجسون ٢٠٠٤ ب، ٣١٥.

٢٥. لمزيد من التفاصيل، انظر تايلور ١٩٦٥، ٢٥٣-٤.

٢٦. وربما كان من قبيل المبالغة القول بأن الدور العالمى كان ضئيلاً، مثل ذلك الدور الذى لعبته الإمبراطورية الرومانية العريقة فى أوروبا فى غضون القرن السابع عشر، بين المقارنة مع الفارق.

٢٧. وفى الحقيقة، فإن كلاً من المستسلمين الثلاثة كانت لهم نظرية ارتكزت على الأفكار المرتبطة بواحد من المصالح الثلاث الأساسية داخل التسوية الاستعمارية القديمة. وكان

للنازيين رؤية عن الإيريانز كنمط من الأرستقراطية العالمية. وقد تنبأ بولشيفكس بهذه الديكتاتورية الوشيكة للطبقة الأرستقراطية. وقد وضعت الولايات المتحدة ثقتها فى المهمة العالمية للأعمال الكبيرة مصحوبة بالعلم الضخم، التى تعمل كطليعة الديموس.

٢٨. ف. آى. لينين، "فى خطاب له فى الاجتماع الأول للمجالس الاقتصادية، ٢٦ مايو، ١٩١٨، فى لينين ١٩٧٢، ٤٠٨ - ١٥. وكذلك فى موقع ***http://www.marxists.org/archivel/lenin/works/1918/may/26b.htm*** (٦ يونيو ٢٠٠٥).

٢٩. وفى نقد العواقب الاجتماعية السيئة للسوق كان عملا يحمل مخاطرة، ويستلزم مهارة ولباقة. وقد قام علماء الاجتماع فى شيكاغو بمحاولة ناجحة لعمل هذا، انظر سميث ١٩٨٨.

٣٠. وكان تمثال الحرية منحة من فرنسا عام ١٨٨٦. والعبارات المذكورة آنفًا تم اقتباسها من قصيدة " الكولوسين الجدد" (١٨٨٣) عن طريق إيما لا زورس، ونقشت سطور منها على التمثال. ويناقض لازوروس كولوسين روديس، وهو رمز الاحتلال والظلم من العالم القديم، بتمثال الحرية، "المرأة القوية صاحبة الكشاف التى نالت ترحيبًا عالميًا بالمشردين والمضطهدين". انظر ***http.libertystatpark.com/emma.htm*** (٢٤ أكتوبر ٢٠٠٥).

٣١. ثمة مبدأ غال موجود ضمنًا، بالطبع، والحالة كانت مثالاً رائعًا، بيد أن ثمة مزية أخرى فى تحريض العبيد وإحداث التمزق فى مخيم العدو.

٣٢. للاطلاع، انظر، على سبيل المثال، كوكس ١٩٩٤، رانسم ١٩٨٩، شواب ١٩٨٥، ماكميلان ٢٠٠٢، روسيفيلت ١٩٤٦، تومبسون ٢٠٠٤، ثورن ١٩٧٩، ثورن ١٩٨٦.

٣٣. انظر، على سبيل المثال، ويليامز ١٩٨٠

٣٤. انظر، على سبيل المثال، بورتر ٢٠٠٥، الفصل الأول.

٣٥. انظر كوول ٢٠٠٥.

٣٦. فى النهاية غير متوقعة للحرب العالمية الأولى، انظر جونسون ١٩٩٨.

٣٧. أغرق الجيش الألمانى ٥ غواصات و٣١ سفينة. انظر ***http://www.firstworldwar.com/features/scapaflow_scuttling.htm*** (١٥ أكتوبر ٢٠٠٥)

٣٨. انظر باون ١٩٩٥؛ ميدلماس ١٩٩٥.

٣٩. وبالتعبير الحديث عن الاهتمامات الأمريكية فيما يتعلق بال إيه. إس.إى.إيه. إن، انظر ديلون وتاكسيك ٢٠٠٥.

٤٠. ٤٩ بالمائة من هذه الأصول استولى عليها الاتحاد الأوروبى بالإضافة إلى ٤ بالمائة أخرى فى سويسرا. أما اليابان فقد استولت على ١١ بالمائة. انظر سميث وبراين ٢٠٠٣، ٢٠-١.

٤١. وقد استخدم القوتان العظمان قوتيهما العسكرية فى المقام الأول لإرهاب الحكومات المتمردة من جانبهم وشن حروب شعواء على عملاء الجانب الآخر، كما حدث فى فيتنام وأفغانستان. ودائمًا ما انطوت هذه المغامرات العسكرية على تكلفة فادحة للسمعة العالمية للقوى العظمى.

٤٢. ومنذ سقوط حاجز برلين أصبحت روسيا أقل استقرارًا من الحالة التى كانت عليها الصين بعد سقوط الإمبراطورية عام ١٩١١. وبالنسبة لروسيا، لم تكن هناك حرب أهلية ولا غارات أجنبية.

٤٣. أعقاب نيويورك عام ٢٠٠١، كان هناك تشابه وثيق بما بعد جاليبولى عام ١٩١٥: كان جاليبولى حالة من الإذلال تمخضت عن فشل الدولة البريطانية فى القيام بتدخل حاسم فى منطقة العدو المسلم الذى يعتبر ضعيفا ويتحول إلى غريب بعيد وأكثر تنظيمًا من الاتهامات التى تلقى عليه، كانت ٩/١١ حالة من الإذلال تسبب فيها إخفاق الدولة الأمريكية فى منع التدخل الحاسم فى المنطقة الداخلية عن طريق العدو المسلم المعتبر ضعيفا والذى تحول إلى غريب بعيد وأكثر تنظيمًا مما كان متوقعًا. وفى كلتا الحالتين، فإن القوى الاستعمارية المهددة قد سعت لإنقاذ موضعها مع الانتصارات المرتقبة فى العراق. وفى كلتا الحالتين، فإن الانتصارات السهلة تحولت إلى دائرة مطولة من الإذلال كان فيها العدو المحتل هو الضحية وأحيانًا هو الجانى.

٤٤. انظر، على سبيل المثال، ساردر ودافيس ٢٠٠٢.

٤٥. كان هذا أكبر تجمع لقادة العالم فى التاريخ، بناءًا على ما قاله روسيلا لورنيزى فى كتابه اكتشاف الأخبار فى ٤ أبريل عام ٢٠٠٥، فقد ذكر كلمات عمدة روما، ورالتر فيترونى . "إن جنازة البوب جمعت قادة العالم، ***http://dsc.discovery.com/news/briefs/20050404/pope funeral.html***

الفصل السادس

منطق السوق

١. كتب كريس مونى، على سبيل المثال، فى كتابه تطلعات أمريكية، حيث تنبأ بحدوث كارثة قبل هذا الحادث بثلاثة أشهر. انظر " التفكير بشدة عن الهريكان": لقد حان الوقت للتفكير بجدية بشأن إنقاذ الأورالييين الجدد، ٢٣ مايو ٢٠٠٥، فى ***htt://www.prospect.org/web/printfriendly-view.ww?id=9754*** (٥سبتمبر عام ٢٠٠٥).

٢. بدأت القوات فى مقاومة العمليات فى الأورليين الجدد، أوقات الجيش، ٢ سبتمبر ٢٠٠٥ انظر ***http://www.armytimes.com/story.php?f=1-292925-1077495.php*** (٥ سبتمبر عام ٢٠٠٥).

٣. فى سياسة الرهبة، انظر أولمان وويد ١٩٩٦ و ***http://www.shockandawe.com/index1.htm***

٤. وبناء على ما ذكره مكتب الإحصاء الأمريكى، عام ٢٠٠٠ فإن تعداد الأوراليين الجدد وقف عند ٤٨٥,٠٠٠، كان من بينهم ٣٢٦,٠٠٠ أمريكان أفارقة. انظر ***http://factfinder.census.gov/*** (٥ سبتمبر عام ٢٠٠٥).

٥. انظر نيسبيت وكوهين ١٩٩٦.

٦. وعندما ظهرت باربرا بوش على شاشة التلفاز كجزء من جهد زيادة الدعم لمساعدة النازحيين من الأوراليين الجدد إلى هوستون، قالت بعض التصريحات غير المتحفظة عن "ذعر" احتمالية بقاء الوافدين فى تكساس. وقد علقت أيضاً قائلة: إن الكارثة كانت تعمل بشكل فعال بالنسبة لبعض ضحاياها من خلال إتاحة الفرصة لهم. انظر ***http://www.editorandpublisher.com/eandp/news/article_display.jsp?vnu_content_id= 1001054719*** (٥ سبتمبر عام ٢٠٠٥).

٧. وقد ذكر بروسارد هذا التعليق بشأن إن.بى. سى فى ٤ سبتمبر عام ٢٠٠٢. انظر ***http://www.msnbc.msn.com/id/9179790/*** (٥ فبراير عام ٢٠٠٦).

٨. بالنسبة لنص الخطاب وعدد الردود، انظر ***http://www.jacksonfreepress.com/comments.php?id=7074070c*** (٥فبراير عام ٢٠٠٦).

٩. انظر ***www.nola.com/weblongs/print.ssf?/mtlogs/nola_tporleans/archivrs/print076766.html*** (٦ فبراير عام ٢٠٠٦).

١٠. مكتب الإحصاء الأمريكى، انظر رقم ٤ سالفًا.

١١. انظر على سبيل المثال دافيدسون وريس موج عام ١٩٩٧.

١٢. وكما هو معلوم، فإن الحق فى حمل السلاح موجود فى الدستور الأمريكى.

١٣. انظر فيلبين ١٩٧٠، المذكور فى سميث ١٩٨٨، ٤٧-٥٦، ٦٥-٧٠، سميث ١٩٩٠، ٧٧-٩٧.

١٤. وربما وجدت المادة الشيقة، على سبيل المثال، بلوستاين ٢٠٠٥، جالبيرث ١٩٦٣، جوان ١٩٩٩، ميكلبتوايت وولندريج ٢٠٠٤، بالاست ٢٠٠٢، بيت وغيره. ٢٠٠٤، شوارتس، ليندين وهيات ٢٠٠٠، سلاتر وتايلور ١٩٩٩. ولسياق تاريخى أطول، انظر أريجى ١٩٩٤، بيرد ١٩١٣.

١٥. على سبيل المثال، كارلس ليدبيتر يخصص أكثر كلماته فى المصعد لأعلى ولأسفل لنقد الحالة العقلية للتشاؤم المزمن(ليد بيتر ٢٠٠٣، ١٠). ثم يقدم البديل الخاص به. ومقوماته الثلاثة الرئيسية هى تعين الذات والعمل المعتمد على الذات؛ والخدمات العامة التى ينظمها الاختيار، والتواصل المفتوح، واللامركزية، والإبداع والمرونة، والأمل الراسخ فى المبدأ. ويخبرنا ليدبيتر أن نترفع على الموجة الجارية من التشاؤم(١٧)، ونرمى وراء ظهورنا الحلم الخادع بالهروب الكبير، والدخول إلى عصر تحرر حكم الذات (١٩٩). ويأخذ ألان شيبمان، مؤلف كتاب أسطورة العولمة سبيلاً مختلفًا نوعًا ما. واتجاهه يتمثل في: دع الجنسيات المتعددة تسير فى طريقها حيث إننا جميعا سنفيد من مهاراتها وتقديرها. ودورها هو مساعدتنا فى تقديم إطار لحياتنا. والاعتقاد أن المتشائمين الذين ينقدون السوق هم لعبة

فى أيدى المؤسسات العالمية، ويستطرد قائلاً: "فإن الشركات العالمية....لابد أن تمنع مناخ عدم الاستقرار الاقتصادى وعدم الدعم البيئى من خلال النشاط غير المراقب.... وإخفاق الحكومات فى حل هذه المشاكل..... فقد اضطر كثير من رجال الأعمال لإيجاد حلول خاصة للإنتاج المتزايد والاستهلاك الأقل. ...... وقد فعلت المؤسسات هذا عن طريق إعداد نظم تخطيط مركزية التى تزيد وتدير وتتخطى السوق- أبعد بكثير من أى شكل من التخطيط الذى يتأمل فيه الرأسماليون أو المضادون لهم (شيبمان ٢٠٠٢، ٢٢٧).

١٦. ويصف أفلاطون فى كتابه الجمهورية الأجزاء الثلاثة من الروح: وهى جانب الرغبة، وجانب العقل، والمشاعر، الرغبة فى الاعتراف بالذات من قبل الآخرين حيث يكون المرء جديرا بالتقدير (أفلاطون ١٩٥٥، ١٨٣-٢٠٠).

١٧. ويلاحظ فوكوياما أن " الكرامة ونقيضها، والذل، هما كلمتان شائعتان استخدمهما فاكلاف هافيل فى وصف الحياة فى تشيكوسلوفاكيا الشيوعية. لقد أذلت الشيوعية الأفراد العاديين عن طريق إرغامهم على تقديم تنازلات أخلاقية مع طبيعتهم المثلى (فوكوياما ١٩٩٢، ١٦٨). وقد ذكر هافيل فى أول خطاب له للشعب الأوقات السالفة عندما رأى الناس الدولة، التى تدعو نفسها دولة الأشخاص العاملين، تذل العمال....وفى العالم كله، يفاجأ الناس أن الشعب السلوفاكى المستذل والخاضع والمتشكك لم يعد يؤمن بأى شىء ووجد القوة العارمة فى مدة أسابيع قليلة لزعزعة النظام المستبد بطريقة آمنة ورشيدة تمامًا(مأخوذ من خدمة إذاعة المعلومات الأجنبية إف. بى. آى. إس- الاتحاد الأوروبى، ٢ يناير ١٩٩٠، ٩-١٠، ونقله فوكوياما ١٩٩٢، ٣٦٨، رقم . ١٢). وكان هافيل أول رئيس سلوفاكى فى أعقاب انهيار الاتحاد السوفييتى عام ١٩٨٩.

١٨. وفى رأى فوكوياما، فإن المشكلة الباقية تكمن فيما يلي: الرغبة فى إشباع الاعتراف بالذات التى تجعل بعضنا يسخط على المزايا التى تمنحها لنا حقوقنا تحت شعار الرأسمالية. وينشأ هذا بسبب الجور الاقتصادى المستمر الذى يعنى أن البعض يحظى بتقدير للذات أقل من الآخرين (تشخيص اليسار) ونظرًا لأن المساواة السياسية قد حدت من فرص البعض فى التغلب على الجبن (تشخيص اليمين).

١٩. وقد عاد المؤرخون للوراء بشأن القضايا العالمية بطريقة كبيرة فى الأعوام الأخيرة. على سبيل المثال، يتساءل بروس مازليش ورفاقه فى مشروع التاريخ العالمى الجديد " ما هى قوى العولمة التى تشكل العالم(للأحسن أو للأسوء)؟ بالنسبة لمازيلش، على الأقل، إذا سنحت الفرصة لإقامة حوار بناء بين الحضارات، فإن التوقعات بالنسبة للبشر تبدو جيدة. ونقل هذا فى عنوان صارخ الدلالة باسم الحضارة ومحتوياتها (مازليش ٢٠٠٤). انظر جيبورن ١٩٩٣، هيرودوت ١٩٩٨، بروديل ١٩٧٢، بروديل ١٩٨١-٤، مازليش وإيريا ٢٠٠٥، تشــانــدلر ومازليش ٢٠٠٥. انظر أيضًا موقع ***www.newglobalhistory.com/*** (٢٠ مايو ٢٠٠٥)، ***http://www.newglobalhistory.com/mission.html***

٢٠. ومن جانبه يرى مارتن ألبرو على سبيل المثال أن المشروع الحديث للدول الغربية القومية المتوسعة قد واجه صعوبات غاية فى الشدة (ألبرو ١٩٩٦). لقد حاولوا السيطرة على استغلال العالم الطبيعى والاجتماعى، بيد أنهم فشلوا. وقد تحررت القوى الثقافية والطاقات الاجتماعية من نطاق تحكمهم غير أننا لا نملك اللغة الحالية لوصف ما يحدث. وكذلك لن يكون من السهل علينا التكيف مع أو ملاحظة أنفسنا فى العصر العالمى الحالى.

٢١. انظر أيضًا على سبيل المثال، بيك عام ١٩٩٢، بيك ١٩٩٧، بيك ١٩٩٩، بيك ١٩٩٩ب.

٢٢. جوفى هو قائد وكاتب سوديتشى تسايتونج المنتشرة فى ميونيخ.

٢٣. ويذكر هارفى تسع قوى نووية (أمريكا، وروسيا وبريطانيا وفرنسا والصين والهند وباكستان وإسرائيل وكوريا الشمالية)، وسبع دول أشبه بالترسانة النووية فى وقت قصير (اليابان وألمانيا والبرازيل والأرجنتين وجنوب أفريقيا وتايوان وكوريا الجنوبية). وقد قامت ليبيا والعراق وإيران بمحاولات جادة فى الاتجاه النووى فى الماضى القريب. انظر هارفى ٢٠٠٣، ١٧٧.

٢٤. انظر هارفى ٢٠٠٣، ١٧٧-٢١٣.

٢٥. انظر كابلان ١٩٩٦، ٣٥٤-٦٨.

٢٦. ومن الممكن بالنسبة لشخص أن يقبل بشكل تطوعى المساعدة من شخص آخر يشعر بالخزى بسبب فقده بعض استقلاليته. قد يصيروا غاضبين من الشعور بالخزى، وبالتالى،

ينمو الشعور بأنهم أرغموا بشكل جائر على قبول المساعدة التى أخذوها. وفى هذه الظروف، يتحول شعورهم بالخزى إلى شعور بالإذلال، الذى يجد مبررًا للرفض من خلال الأخذ بالثأر العنيف من المرتكبين المتوقعين.

٢٧. وحول كلمة " الجوهرية فى السوق"، انظر سوروس ٢٠٠٠.

٢٨. انظر بومان ١٩٨٨؛ سميث ١٩٩٩؛ ١٠٥-٩

٢٩. وفى زيارته لمومباى عام ٢٠٠١، مع العديد من القادة الهنود، حضر بارنيت احتفالا بالذكرى الخمسين للبحرية الهندية. وقد لاحظ أن أكثر هؤلاء الرجال قد درسوا فى الولايات المتحدة الأمريكية، بينما تخرج نصفهم تقريبًا فى الكلية البحرية الحربية. وقد كنت أتحدث إلى مجموعة من الأجانب، إنها كانت أقرب إلى مجموعة اتحاد (بارنيت ٢٠٠٤، ٢٣٣).

الفصل السابع
التحول إلى العالمية

١. يعرِّف قاموس أكسفورد الانجليزى كلمة القاطن بأنه: الشخص الذى يعيش عادة فى دولة ليست مسقط رأسه حيث ولود بها. ومن ثم تدل الكلمة على الساكنين الذين ليست لهم جذور عميقة قوية، وبهم مسحة من الغربة، وحقوقهم ليست مؤمنة بالكامل.

٢. الجمعية القومية حول الهجمات الإرهابية فى الولايات المتحدة، عام ٢٠٠٤، ١٦٢.

٣. انظر، على سبيل المثال، آرثر ١٩٩٩، باوسما ١٩٨٨، ماككولوتش ٢٠٠٤.

٤. وفى مؤامرة البارود، انظر على سبيل المثال، هوج ٢٠٠٦، هاينيز ١٩٩٤، فراسير ٢٠٠٢. ومن المحتمل أن الحكومة كانت على علم بالمؤامرة وسمحت بحدوثها بحيث عند اكتشافها يكون هناك دعم عام على نطاق واسع لمحاكمة الكاثوليك فى انجلترا. وقد نفذ حكم الإعدام فى جميع المتآمرين، باستثناء واحد، وهو فرانسيس تريشام. فقد مات وهو فى السجن فى برج لندن. وقد يكون هذا مخططا له لإخفاء دوره الكامن فى كشف المؤامرة. وهناك شك كبير فى أنه اشترك فى السر مع أخو زوجته، لورد مونتيجل، وأنهم حاولوا إخبار السلطات بطريقة تمنع حدوث الانفجار بيد أنه سمح للمتآمرين بالهروب. انظر موقع ***http://www.gunpowder-plot.org/people/g_fawkes.htm*** (٢٢ مايو عام ٢٠٠٥).

٥. قام أبوا كاتسباى بإعداد الخطط، بموافقة إليزابيث الأولى، لإقامة مستعمرة كاثوليكية فى أمريكا الشمالية. وقد اعترض الإسبان ولم يتم عمل هذا. انظر ***www.gunpowder-plot.org/people/rcatesby.htm*** (٢٢ مايو عام ٢٠٠٥).

٦. ومقدار النمو الحضرى فى أنحاء أوروبا ككل لا ينبغى المبالغة فيه. وبالرغم من ذلك، فإن نسبة السكان فى شمال وغرب أوروبا فى المدن يزيد على ١٠،٠٠٠ شخص يتزايد بنسبة ٦ بالمائة فى ١٥٠٠ لحوالى ١٣ بالمائة فى ١٧٠٠. انظر هوهينبرج وليس ١٩٨٥، ١١٠، دو فريس ١٩٨١، ٨٨.

٧. انظر والزير ١٩٦٥.

٨. بشأن دخول هذا العالم من المعذبين ورواد التجسس، انظر، على سبيل المثال، بوسى ١٩٩١؛ جرين ٢٠٠٣؛ نيكول ١٩٩٤؛ بلودين ١٩٩١؛ ريد ١٩٢٥.

٩. كانت هذه الحالة أيضًا فى العديد من المدن الأمريكية الكبيرة فى غضون القرنيين التاسع عشر والعشرين. انظر، على سبيل المثال، مناقشة عمل روبرت بارك ولويس ويرث فى سميث عام ١٩٨٨.

١٠. وفى بعض نواحى المناخ المتدنى والعولمة المعقدة والمتداخلة، انظر، على سبيل المثال، بايروك ١٩٨٨؛ كاستيل ١٩٨٩ت، تشيز دون ١٩٨٩، ساسين ١٩٩٨، تايلور ١٩٩٩.

١١. والحالة المدنية قد أصبحت محل نقاش فى العلوم الاجتماعية. وتشمل الإضافات الحديثة (بين كثير من الدراسات) أرشيبوجى وهيلد ١٩٩٥، بيكنريدج وغيره. ٢٠٠٢، كوهين وفيرتوفيك ٢٠٠٢، ديلانتى ٢٠٠٠، فاين ٢٠٠٣، هاردت ونيجرى ٢٠٠٥، هيلد ١٩٩٥، تولمين ١٩٩٠. وبالنسبة للحوار والتعليق فى علم الاجتماع الحالى عن العولمة والحالة المدنية والعالمية يشمل بروس مارليش، وفيكتور رودوموتيف ودينيس سميث، انظر مازليش ٢٠٠٥ أ، مازليش ٢٠٠٥ ب، رودوميتيف ٢٠٠٥ أ، رودوميتيف ٢٠٠٥ ب، سميث ٢٠٠٥.

١٢. صحيح أن المقاتلين والأسلحة هى جميعًا أصول غير ثابته، حيث إنها مصادر مهمة للطاقة. فإن الحكام الإقليميين يحاولون الاحتفاظ بالاحتكار على التحكم فى المقاتلين والأسلحة الأكثر براعة وفعالية، لاسيما أسلحة الدمار الشامل.

١٣. وإذا قمنا بمقارنة متبصرة بهذه العمليات، انظر مور ١٩٦٩، مور ١٩٧٨، انظر أيضًا سميث ١٩٨٣.

١٤. ومن المفارقات المثيرة للاهتمام أن عام ١٥١٧، وهو العام الذى بدأ فيه الانقسام فى المسيحية، وكان أيضاً العام الذى تقلد فيه السلطان العثمانى لقب الخليفة، ومن ثم أصبح الزعيم الروحى للإسلام والحاكم الزمنى.

١٥. كان من السهولة بمكان أن نبرح بكرامة فى الفترة الإليزابيثية السابقة. انظر هولميز ١٩٨٢.

١٦. انظر موقع ***http://www.abc.net.au/4corners/atta/interviews/bauth.htm*** (٧ أكتوبر عام ٢٠٠٤).

١٧. وقد كشف زيجمونت باومان هذه المآزق فى العقود الأخيرة. انظر، على سبيل المثال، باومان ١٩٩٢، باومان١٩٩٧، باومان ٢٠٠٠، باومان ٢٠٠٥. انظر أيضًا بيلهارز ٢٠٠٠، سميث ١٩٩٩ أ وتولمين ١٩٩٠.

١٨. بالنسبة للاتجاهات المعادية للإسلام فى الأيام الأخيرة، انظر لويس ٢٠٠٤، أحمد ٢٠٠٣، راشيد ٢٠٠٣.

١٩. يشير المعهد الدولى للديمقراطية والمساعدة الانتخابية إلى أنه بالرغم من أن "المشاركة الإجمالية فى الانتخابات التنافسية حول العالم زادت بمعدل ثابت بين ١٩٤٥ و ١٩٩٠.... مع تدفق استضافة الانتخابات فى دول ديمقراطية جديدة، فقد تراجع معدل الانتخابات المنعقدة هناك منذ عام ١٩٩٠. والتراجع ضئيل نسبيًا، لكنه محدد. وقد أضافوا أنه بالرغم من أن نسبة المشاركة لجميع المصوتين المؤهلين للإدلاء بأصواتهم قد انخفضت هامشيًا، فإن الانخفاض فى نسبة المشاركة لهؤلاء المسجلين فعلاً للتصويت كان أكثر إعلانًا. ويحتوى الاتجاه العالمى على تناقضات واسعة النطاق. ففى الهند، على سبيل المثال، تدفقت معدلات المشاركات فى الانتخابات البرلمانية بمعدل ٥٤-٦٧ بالمائة منذ أواخر الأربعينات. وبالرغم من ذلك، فإن التراجع كان ملاحظًا فى حالات الانتخابات البرلمانية، على سبيل المثال، فى المملكة المتحدة (٨١,٤ بالمائة فى عام ١٩٥١، ٥٧,٦ عام ١٩٩٧) واليابان (٧٧,٤ بالمائة عام ١٩ت٥٢، ٤٤,٩ بالمائة عام ١٩٩٥، وتراجعت النسبة ل ٥٩ بالمائة عام ٢٠٠٠). وفى الولايات المتحدة، تراجعت نسبة المواطنين المؤهلين للتصويت فى الانتخابات الرئاسية من ٦٣,١ بالمائة فى عام ١٩٦٠ إلى ٤٩,٣ بالمائة عام ٢٠٠٠. وقد حصلنا على هـذه الـمـعـلـومـات والاقـتباسـات مـن مـوقع إى.دى. إى. إيـه. انظر ***http://www.idea.int/vt/survey/voter_turnout1.cfm*** (١٩ مايو عام ٢٠٠٥).

٢٠. وكما هو معروف، فإنه فى غضون العقود الثلاثة الماضية، فإن القوى المتزايدة وتعقد المعلومات وتقنيات الاتصال قد زادت بشكل كبير قدرة الدولة على مراقبة الموطنين القوميين. والصرف والتسليف البنكى، وتسجيلات الهاتف الجوال، وتكنولوجيا تقدير

الصورة واستخدام كاميرات التليفزيون مع الطرق القومية وفى شوارع المدن ومراكز التسويق؛ كل هذا يسر بشكل كبير على الحكومة الانخراط فى المراقبة التنظيمية، أو على الأقل مراقبة شرائط الفيديو وغيرها من التسجيلات للحصول على الأدلة عقب الحوادث. انظر جيب ٢٠٠٥.

٢١. وبالنسبة للاتجاهات الدينية الحالية، انظر على سبيل المثال، أرمسترونج ٢٠٠٤، كورتين ومارشال فراتنى ٢٠٠١، فريستون ٢٠٠٤، ميلتون إدوارد ٢٠٠٥، بارات ٢٠٠٤، راشيد ٢٠٠٣، روثفين ٢٠٠٥، ساركر ٢٠٠٣، فاسكويز وماركويرديت ٢٠٠٣.

٢٢. انظر أيضًا هيرشمان ١٩٨٢.

٢٣. لقد أصبح المرجع التقليدى هوشتشايلد ١٩٨٣.

٢٤. انظر كلار ٢٠٠٢.

الفصل الثامن

الهروب

١. يمكنك الاطلاع على إجنا تيف ٢٠٠٠، وبشكل خاص ١٧٩-٢١١.

٢. أخذ كيسنجر هذا المفهوم من كورال بل. وبالنسبة لبل حول كيسنجر، يمكنك الاطلاع على بل ١٩٧٧.

٣. يمكنك الاطلاع كذلك على إيكن برى ٢٠٠٢، أودوم ودو جارك ٢٠٠٤.

٤. في محاولة للتعرف على ذلك، يمكنك الاطلاع على كا جان ٢٠٠٤.

٥. كما هو معروف جيدا، خُير جاليلو بين نظرياته العلمية واستمراره أحد أعضاء الكنيسة؛ يمكنك الاطلاع على دراك ٢٠٠١. سُجن جيو دان برونو لفترة ثماني سنوات ثم أُحرق على الوتد في عام ١٦٠٠، بسبب رفضه التخلي عن تفكيره الحر حول رفض معتقدات الكنيسة، يمكنك الاطلاع على وايت ٢٠٠٢.

٦. تمت الاستعانة بهذه الكلمات من نونك لينتو سونيتو دى سونت وموريرز، التأمل السابع عشر لتأملات دونى الخاصة والمسمى عبادات في مناسبات طارئة والذى كُتب في الوقت الذى كان يتماثل فيه للشفاء من مرض خطير ألم به ونشر الكتاب في عام ١٦٢٤، يمكنك الاطلاع على دونى ١٩٧٥، ١٢٢. وجدير بالذكر أن النص الكامل لهذا التأمل متوفر كذلك على موقع الويب ***http://www.global-language.com/devotion.html*** (٢٢ مايو ٢٠٠٥).

٧. ولد السيد دونى في عائلة كاثوليكية إلا أنه بعد ذلك تغير وأصبح إنجيليا في عام ١٦١٥ وكان يخدم لفترة ككاهن لسانت باول، يمكنك الاطلاع على إدوارد ٢٠٠٠. نشأ ديسكارت كاثوليكيا في مقاطعة بوى تو، بروتستانتى فرنسى قوى النزعة. ثم بعد ذلك

خدم لفترة فى جيش ماوريس، أمير البرتقال، الحاكم البروتستانتي، يمكنك الاطلاع على جو كروجر ١٩٩٥.

٨. دوني بيات انا توس كتب فى عام ١٦٠٧-٨ ونشر بعد ذلك بفترة فى عام ١٦٤٤. التواريخ الخاصة بقصة هاملت لكاتبها الرائع شكسبير من ١٦٠٠-٠١.

٩. بالطبع، إذا قبل شخص هذه الطريقة ببعض الشك، فسيعرف أنه توجد دائما طريقة أخرى وهى أن تهدأ وتستمتع بالتنوع العالمى الذى يمثله العالم وأن عليه التعلم المستمر من ذلك والحفاظ على انفتاح العقل والفكر. يمكنك الاطلاع على تول مين ١٩٩٠، ٦٥-٦. وهذه الطريقة أثرت فى كتاب كبار مثل مونتاجن وباسكال.

١٠. إلى جانب المستعمرات الأمريكية والأيرلندية والجنوب أفريقية، توجد كذلك إسرائيل.

١١. العديد من الاسكتلنديين الأيرلنديين هاجروا إلى المستعمرات الأمريكية خلال القرن الثامن عشر. وعلى الأقل فإن هناك ثلاثة أمريكيين من بين الرؤساء - أندرو جاكسون وجايمس بولك وأندرو جونسون — قد أتوا من تلك المنطقة. وكذلك فعل دافى كروكت. يمكنك الاطلاع على موقع الويب ***http ://www.scotch-irishsociety.org/about.html*** (١٣ مارس ٢٠٠٥).

١٢. يمكنك الاطلاع على بريندر جاست ١٩٩٧.

١٣. دى كويت ١٩٤١، ١٩، قيلت فى أريندت ١٩٧٦، ١٩٣.

١٤. فيما يتعلق بالتسلية والسحر التى أحاطت بالهولنديين الأفارقة، يمكنك الاطلاع على أريندت ١٩٧٦، ١٩١-٢٠٧.

١٥. يمكنك الاطلاع على ثومب سون ٢٠٠١.

١٦. يمكنك الاطلاع بشكل خاص على سلوت كين ١٩٧٣، ١٤٦-٧، ١٧٩، ٥٥٥-٦٥. كما يمكنك الاطلاع كذلك على ويل كنسون ١٩٨٤.

١٧. أضاف سلوت كين أن الكتاب يبدأ من محاضرة قيلت فى بوسطن فى "٢ كرون الثانى عشر.٧. أنهم أخضعوا أنفسهم ولن أعمل على تدميرهم ولكنى سوف أمنحهم بعض الحرية." وفى المحاضرة وضع مارثر مخططا للخطوات تجاه الإخضاع الضرورى أمام الإله بدءا من الاعتراف بالكشف عن الخطايا. ويتبع ذلك قائمة من العيوب الاجتماعية لإنجلترا

الجديدة بما يتضمن ذلك الشرب والقسم والموضات الغربية وممارسة الاضطهاد المفرط على المنشقين" سلوت كين ١٩٧٣، ١١٣).

١٨. يعتبر ذلك الأمر مثالا على الاستخدام القديم لكلمة الإخضاع لتعني بدورها العملية التي من خلالها نقضى على كبريائنا ونخضع أنفسنا أمام الله ونتبع شعورنا تجاهه. ومن خلال شعور الإخضاع هذا يصبح الفرد أو المجتمع مستحقا للحفظ والنجاة.

١٩. يمكنك الاطلاع على الموقع ***http://www.ulsternation.org.uk/ulster'so%20contribution%20to%20america.htm*** (٢٠ مارس ٢٠٠٥).

٢٠. مقتبس فى سلوت كين ١٩٧٣، ٥٥٥.

٢١. للتعرف على الحجة المقابلة حول الغرب عن المذابح المنظمة يمكن أن نرجع إلى اليونانيين القدماء، يمكنك الاطلاع على هانسون ٢٠٠١.

٢٢. قام السيد جيل تروى، الروائى التاريخى الكندى المتخصص فى السياسات الخاصة بالرئاسة، بمناقشة الشأن الخاص بالرئيس كلينتون والسيدة ليونسكى السكرتيرة الخاصة به فى مقابلة مع جانيس كاسترو المحرر فى جريدة التايم. وعلق تروى على الأمر قائلا: فى الوقت الذى قد يسخر فيه المواطنون فى أى مكان آخر من الأمر، ترى الأمريكيين مهتمين للغاية بحياة الرئيس الشخصية، وإننى كروائى تاريخى أرى أن هذا الفصل يضاف إلى فصول البحث عن الفضيلة لدى الأمريكان وأراهم وهم يعودون إلى مبادئ تأسيس الجمهورية. يعتقد الأمريكيون دائما أن الأمة المستقيمة والمواطنين المستقيمين يفضلون القيادات الفاضلة المستقيمة. وأضاف جانيس كاسترو إلى ذلك كله: "وهذا الأمر لا يجعلنا ضعفاء بل إنه يجعلنا الأقوى". ولخص تروى الأمر بقوله: "وحتى إن كانت الأخبار الواردة محزنة أكثر فأكثر فإننا نأمل أن نظل على تماسكنا ببعض القيم وأن نستمر فى بحثنا عن تحقيق الفضيلة والاستقامة." أُخذ هذا الكلام من مخطوطة من مقابلة جرت فى ٢٨ يناير ١٩٩٨. يمكنك الاطلاع على موقع الويب ***http://www.time.com/time/ community/transcripts/chattr012298.htm*** (٢١ مارس ٢٠٠٥).

٢٣. فيما يتعلق بكارنيجى، يمكنك الاطلاع على سميث ١٩٩١، ٣٧-٥٧.

٢٤. تعمل العديد من الأفكار السياسية بطريقة مشابهة فى العالم الفعلى. وهم يستخدمون دليل الفعل للادعاء بأن السبب المفترض واقع فعلا.

٢٥. جدير بالذكر أن الإخضاع المبكر ومحاولة الغزو المشئومة لكوبا فى خليج الخنازير ١٩٦١، تم التعامل معها سريعا فى ظل أزمة الصواريخ الكوبية فى عهد الرئيس كينيدى ١٩٦٣ والتى اجتذبت التعاطف والتأييد حول العالم. المشاغبات المدنية فى واتس ١٩٦٥ ونى وارك وديترويت ١٩٦٧ التى تسببت فى استمرار القلق المتزايد على الرغم من أنها أمور قد تعرف بأنها أمور داخلية لا تتقابل بشكل مباشر مع العلاقات بين الولايات المتحدة الأمريكية والدول والمجتمعات الأخرى.

٢٦. بالنسبة للسياسات التى تؤدى إلى الحالة غير المريحة تلك، يمكنك الاطلاع على هالبر ستام ١٩٩٢.

٢٧. للتعرف على المناقشة التى دارت حول الأهمية العسكرية الخاصة بالإحساس بالكراهية للتيت، يمكنك الاطلاع على هانسون ٢٠٠١.

٢٨. جدير بالذكر أن التعزيز والتقوية كانا الموضوع الرئيسى للانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٤. وأحد شعارات جون كيرى كان "معا يمكننا أن نبنى أمريكا قوية".

٢٩. أصبحت الصراعات بين الأحزاب مرة أخرى موجعة ومريرة كما كانت فى أيام الرئيس نيكسون، حيث كانت هناك محاولة لاتهام بيل كلينتون بالتقصير فى محاولة للانتقام من الجمهوريين على فضيحة ووتر جيت. فى حين كان الدبلوماسيون بالولايات المتحدة الأمريكية خاصة فى عهد الرئيس بيل كلينتون ١٩٩٢-٢٠٠٠، قد عززوا من المؤسسات متعددة الجوانب مثل منظمة التجارة العالمية لتنظيم التجارة العالمية والسياسات، وكان قواد التجارة الأمريكيون والسياسيون معارضين لتسليم أنفسهم للقضاء بأى دولة أخرى. وكانت الغطرسة جزءا من الإجابة للإخضاع الذى تحملوه فيما بين عامى ١٩٦٨ و١٩٧٩.

٣٠. أعادت إليزابيث بوميلر، الكاتبة فى جريدة نيو يورك تايمز فى عدد ١٢ يناير ٢٠٠٤ إلى الأذهان بقولها: كانت لحظة من الإثارة، والغضب خلال الحملة عام ١٩٨٨، التى أعلن فيها المرشح الجمهورى للرئاسة نائب الرئيس جورج بوش أول من سخر من "الرؤيا" كما صرح بذلك قائلا بأن توظيف الأخرق بوش ليتحدث عن إمكانيات القائد على تحديد

الأهداف القومية. السيد بوش والذى يعد أحد الرؤساء المطموسين فى التاريخ الأمريكى الحديث أراد أن يكون أحد الزائدين عن فترة واحدة مع بعض الكهنة للأنظمة الكبرى.

٣١. يمكنك الاطلاع على سبيل المثال على فرام ٢٠٠٣، ليند ٢٠٠٣، هاتفيلد ٢٠٠٢.

٣٢. استخدم الرئيس بوش فى خطابه عن الوحدة عام ٢٠٠٢-٤ــ كلمة الحرية ثلاث مرات كما فعل الرئيس كلينتون فى خطاباته من عام ١٩٨٩ إلى ٢٠٠٠. ذكر كلينتون كلمة الحرية مرة كل ١٧٢٢ كلمة، فى حين أن بوش ذكر هذه الكلمة مرة كل ٥٦٦ كلمة (بحث للمؤلف).

٣٣. حدد الرئيس بوش إطارات الاختيار الواضح بالمواجهة الأمريكية فى عام ٢٠٠٤، تاريخ ٢٣ فبراير ٢٠٠٤. يمكنك الاطلاع على موقع الويب الخاص بحملة الرئيس جورج بوش على موقع الويب ***wbush.com/Netus/Read,asxID=2261 /www.georgehttp:/*** (١٩ يونيو ٢٠٠٤).

٣٤. ستيفان هالبر وجوناثان كلارك فى الدراسة التى قاما بها والتى تسمى أمريكا الوحيدة ٢٠٠٤ والتى تتضمن القائمة التالية من المحافظين الجدد المعروفين، التى تشير بالمناسبة إلى بعض منهم بالوظائف التى توجد فى أو حول الإدارة الأولى للرئيس جورج دبليو بوش: أى لويس ليبى (نائب الرئيس ومدير الطاقم) وإليوت أبراماز (المستشار الخاص للرئيس وباول دى ولف وتس، مندوب الدفاع وجون أر بولتون وديفيد ورم سر (وزراء خارجية) وريتشارد بيرل وإليوت إيه كوهين (مجلس السياسة الدفاعية) ودونالد كاجان (فى يالى) وبيرنارد لويس وأرون فريد بيرج فى برنستون وجايمس كيو ويلسون (بيبر دين) وويليام كريستول بمجلة ويلكلى ستاندرد، وشارلز كروث مار (من واشنطن بوست). وهم أيضا يضيفون الكتاب الأكثر معرفة بالسياسة الخارجية بصفحات وول ستريت جورنال وقناة فوكس نيوز، وفى التجارة المدير السابق لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية جايمس وولسى من بين الآخرين، والمعاهد البحثية ماكس بوت فى مجلس العلاقات الخارجية ونورمان بود هورتز ومى راف ور مسر فى معهد هودسون وأى عضو بمشروع القرن الجديد بأمريكا ومعظم معلمى دراسات الدفاع والخارجية بمعهد إنتربرايز الأمريكي" (١٤). وأصبحت الحركة واضحة وظاهرة بالتزامن مع وجهات نظر الأمن القومى التى

تحدث بها مؤخرا السيناتور هينرى إم. (سكوب) جاكسون وأعيد التحدث بها بالعلاقة القريبة بين الإنجيليين البروتستانتيين والمحافظين على النواحى الاجتماعية. وكمثال على تحليل المحافظين على النواحى الاجتماعية، يمكنك الاطلاع على سبيل المثال على فروم وبيرل ٢٠٠٣.

٣٥. أخذت هذه العبارة من أول خطبة افتتاحية للرئيس بوش. وكان السياق كالتالي: "بعد توقيع إعلان الاستقلال كتب السياسى فيرجينيا فى صفحة جون إلى توماس جيفرسون:"نحن نعلم أن الجنس البشرى لا يؤول إلى القوة بسرعة ولا من خلال معركة. ألا تظن أن ملكا يركب على الزوبعة ويوجع العاصفة؟" وقد مر وقت طويل منذ وصول جيفرسون لخطاب الافتتاحية. ومرت سنوات وجرت العديد من التغييرات. ولكن موضوعات هذا اليوم التى عرفها فى قوله: "تتمتع أمتنا بقدر كبير من الشجاعة وحلم بسيط من النبل والكرامة. ولسنا من ألف هذه القصة ممن وضعوا أحداثا للوقت وإلى الأبد لخدمة هدفه. ولم يتحقق غرضه هذا خلال تأديتنا لخدمتنا حيث أنجزت خدمتنا لخدمة أحدهما الآخر. لا تعب ولا لين ولا انتهاء، فنحن نعيد هذا الغرض اليوم لجعل أمتنا أكثر عدالة وقوة للتأكيد على نبل حياتنا ونبل كل حياة. ويستمر هذا العمل. وتستمر الحكاية. ويستمر الملك فى ركوب الزوبعة وفى توجيه العاصفة. وليبارككم الله جميعا وليبارك الإله أمريكا". يمكنك الاطلاع على موقع الويب ***http://www.whitehouse.gov/news/inaugural-address.html***.

٣٦. من اعترافات روديز، ١٨٧٧. اقتبست من موقع الويب ***http://huskyl.stmarys.cal~wmills/rhodes-confession.html*** (٢٢ مارس ٢٠٠٥). بالنسبة لملاحظات أريندت حول روديز، يمكنك الاطلاع على أريندت ١٩٧٦، ٢٠٧-٢١.

٣٧. هالبر وكلارك ٢٠٠٤، ١٨٤-٩٠.

٣٨. عبيد، الفصل ٢ و١٦٤-٧.

٣٩. عبيد، ٩٠-٨.

٤٠. يمكنك الاطلاع على أقوال كيسنجر ٢٠٠٢، ٢٤٢-٥١.

٤١. يمكنك الاطلاع على سبيل المثال هالبر وكلارك ٢٠٠٤، ١٢١-٣١.

٤٢. يمكنك الاطلاع على ميد ٢٠٠١ وميد ٢٠٠٤. يمكنك الاطلاع كذلك على موقع الويب
http://globetrotter.berheley.edu/peopIe3/Mead/mead-con3.html (٢١ مارس ٢٠٠٥).

٤٣. الأمريكيون من المريخ والأوربيون من الزهرة، كاجان ٢٠٠٣، ٣؛ جراى ١٩٩٢.

٤٤. روبرت كوبر أحد المتخصصين فى السياسة الخارجية، الذى عمل مستشارا لرئيس الوزراء البريطانى تونى بلير والذى كان وقت كتابة هذه السطور المدير العام للشئون العسكرية والشئون الخارجية لمجلس الاتحاد الأوروبى.

٤٥. يمكنك الاطلاع بشكل خاص على كوبر ٢٠٠٣، ١٦٣-٧٠.

٤٦. يمكنك الاطلاع على باربرا ٢٠٠٣، ٤١-٦.

٤٧. بالنسبة لعملية الهروب، يمكنك الاطلاع على كون وتايلور ١٩٩٢؛ فيلبس ٢٠٠١.

٤٨. قد يكون من الممكن تحقيق هروبٍ يتميز أكثر بالنجاح، هروب يستمر فى الاعتماد على الآخرين. وفى تلك الحالة فإن ضحايا الإخضاع المجروحين والمتجددين يقومون بعملية الهروب إلى مكان من عندهم يتمتع بالحماية بشكل خاص ويعملون على بناء الثقة فى العلاقات التى يعتمدون عليها بعد ذلك فى العيش الآمن والسلمى غير الخاضع للإذلال ولا يكونون هم من المخضعين.

٤٩. تتضمن الأمثلة إطلاق القذائف والغاز على القرى فى فلسطين والسودان والعراق من جانب البريطانيين خلال الأعوام من ١٩٢٠ إلى الثلاثينيات من القرن العشرين، ومنذ الحرب العالمية الثانية لا يزال القمع الوحشى لمو مو واحتجاز آلاف الفلاحين الكينيين فى معسكرات شديدة موجودا فى الذاكرة إلى نحو بعيد كما فى عمليات قتل أدين خلال الستينات من القرن العشرين. ولكن بقيت مذبحة المتمردين الشيوعيين من جانب الحرس الاسكتلندى فى مالايا خلال الخمسينات من القرن العشرين وذبح وقطع رأس اللصوص من خلال الحرس الخاص الملكى المارين فى بيرك والقصف السرى لقرى مالايا خلال فترات الطوارئ بلا تحقيق حتى الآن. ماريا مسرا "قلب الطهارة" الجارديان، عدد ٢٣ يوليو ٢٠٠٢. يمكنك الاطلاع على موقع الويب

١٥) ***http://www.guardian.co.uk/comment/story/0,3604,761626,00.htm|***
أغسطس ٢٠٠٥).

٥٠. يمكنك الاطلاع على أريندت ١٩٧٦، ٢٩٠-١٠.

٥١. يمكنك الاطلاع على بيراس ٢٠٠٤.

٥٢. أشي سون، سكرتير الولايات المتحدة السابق، كان يتحدث إلى أحد المؤتمرات الطلابية بالأكاديمية العسكرية بالمنطقة الغربية فى تاريخ ٥ ديسمبر ١٩٦٢، يمكنك الاطلاع على الخطب المهمة بتاريخ ١ يناير ١٩٦٣، ١٦٣.

٥٣. قارن كلمات روبرت هارفي: "مع اختفاء الاتحاد السوفييتي، لم تعد الولايات المتحدة مبعوثة للخير، بل إنها ببساطة أصبحت تسعى خلف مصالحها الخاصة، ولكن على نطاق أوسع من أى دولة أخرى. حيث يبدو أنها فقدت غرضها الأخلاقى فى سعيها للنقود. فقدت دورا وأسست إمبراطورية. وقد تكون الحرب ضد الإرهاب محاولة لإعادة اكتشاف مثل هذا الدور مرة أخرى. ولكن رأى بعض الخارجين القلائل المشكلة مثيرة للمخاوف، ربما يرجع ذلك لأن لديهم خبرة طويلة فى مجال التعامل مع الإرهاب والحروب فى مناطقهم الخاصة، يبدو أنه من غير المحتمل بدء العمل" (هارفى ٢٠٠٣، ٣٣).

٥٤. جدير بالذكر أن معظم هذه البلدان أبدوا رغبة التحدث خلال فترة الخمسينات من القرن التاسع عشر فى محاولة لتجنب الحرب المدنية الدموية التى مرت بها الولايات المتحدة الأمريكية أوائل الستينات من القرن العشرين قبل أن تصبح دولة رأسمالية ديمقراطية. وقد واجهت بعض الدول الحرب المدنية دون أهداف واضحة فى أن تصبح دولا ديمقراطية بهيجة.

٥٥. يمكنك على سبيل المثال الاطلاع على جونسون ٢٠٠٠، جونسون ٢٠٠٤.

٥٦. يمكنك الاطلاع على إيوينج ٢٠٠٢.

الفصل التاسع
القبول

١. فيما يتعلق بالعبودية، يمكنك الاطلاع على إلكنز ١٩٥٦، دافيس ١٩٨٦، باتيرسون ١٩٨٢، ميردال ١٩٩٦، وباليس ٢٠٠٤، بلاك بيرن ١٩٨٨، جينوفز ١٩٧٦، تورلى ٢٠٠٠، مايلز ١٩٨٧.

٢. حول معاملة الأمريكيين من الأصول الأفريقية،يمكنك الاطلاع على سبيل المثال على دايلرى إت أل ٢٠٠٠، كلارمان ٢٠٠٤.

٣. إبادة الأمريكيين الأصليين تتضمن أولا، الحل الوسط المتعلق بنقل الأشخاص غير المناسبين وغير المرغوب منهم إلى غرف الحجز فى الأقاليم التى احتلها الجنس البشرى السائد، ثم بعد ذلك كلما تطورت حدود الإمبراطورية المتوسعة ودخلت هذه الأرض إلى حدودها يكون الحل النهائى بالتخلص من أى مضايقة أو إزعاج، انظر أيضًا أريندت ١٩٦٣، ليفى ١٩٨٧، ليفى ١٩٨٨.

٤. بالنسبة للمذبحة التى تمت خلال رحلة لاكوتا فى الركبة المجروحة عام ١٩٨٠، يمكنك الاطلاع على الموقع ***http : / /www. dickshovel.com/WKmasscre.html***

٥. فيما يتعلق بهذه النقاط، يمكنك الاطلاع على سينيت وكوب ١٩٧٢، ٢٢، ٢٩-٣١، ٧٥-٩، ٩٤-٨، ١٠٢-١٣، ١١٧-١٨، ١٢٤-٤٠، ١٥٠-٧، ١٧١-٨٣، ١٩٢-٨، ٢١٠-١٩، ٢٥٦-٦٢. عاد سينيت إلى تناول بعض هذه الموضوعات بل زاد عليها (سينيت ١٩٩٩، سينيت ٢٠٠٤). يمكنك الاطلاع على ستيفد الخاصة بسوزان فولدز (١٩٩٩) وهارد تايمز الخاصة بستود تيركيل (١٩٧٠)، خاصة ذلك الفصل المعنون "الشرف والإخضاع" (٤٨١-٥٠٣). أما إذا أردت التعرف على الخلفية فيمكنك الاطلاع على تيركل ١٩٧٢، تيركيل ١٩٧٣، تيركل ١٩٨٢، تيركل ١٩٨٦.

٦. سينيت وكوب ١٩٧٢، ٢٥٦-٦٢. يمكنك المقارنة بين وجهات نظر إدوارد لوت واك حول التسويق وتفسيره على أنه علاج، لوت واك ١٩٩٩، ٢٠٤-١٤.

٧. فيما يتعلق بحياة فانون، يمكنك الاطلاع على مانسى ٢٠٠٠.

٨. على القدر الذى أعرفه من معلومات، لم يتأثر كل من سينيت وكوب بشكل خاص من أعمال فانون؛ حيث لم يكن هناك أى مراجع تشير إلى أعمال فانون بكتابات كل من سينيت وكوب ١٩٧٢.

٩. فانون ١٩٦٧أ، فانون ١٩٦٧ب. يمكنك الاطلاع كذلك على ماكوللوش ١٩٨٣، بيرنيبام ١٩٨٢، جوردون، البياض الحاد والبياض (١٩٩٦).

١٠. سينيت وكوب ١٩٧٢، ٢٦١-٢.

١١. جينادو ١٩٨٦، ٦٥-٩٦.

١٢. يمكنك الاطلاع كذلك على مورو - جيلبرت ١٩٩٧.

١٣. فاز ستيجليتز بجائزة نوبل فى العلوم الاقتصادية عام ٢٠٠١.

١٤. فى مجال الممارسة العملية كما حددها السيد جيورج سوروز: "ابتعد وانحرف كل من صندوق النقد الدولى وخزينة الولايات المتحدة الأمريكية، التى لها ثقلها لدى صندوق النقد الدولى عن مسارهما؛ وذلك لتهدئة الميول المنحرفة والحادة لسوق الكونجرس الأمريكى" (سوروز ٢٠٠٠، ٢٨٠). وهى وجهة نظر الشخص الذى يعرف بالطبع. والعاقبة الوحيدة لمثل هذا الانحراف السياسى هى أن يطالب صندوق النقد الدولى الدول الضعيفة التى عليها ديون مضى وقت سدادها أن تقلل من عجز الميزانية وأن تزيد من معدلات الفائدة. ويعمل ذلك بشكل نظامى على فرض حد للتسوية على الدول التى يمكنها الاقتراض فى ظل وجود تظلمات واضحة وظاهرة تشوب عملية توزيع التكاليف الإنسانية. ومن ناحية سوروز، فإن حد التسوية والتعديل يمكن أن يتوزع وتتم المشاركة فيه بصورة أكثر عدالة وتساويا بين كل من الدائنين والمدينين فى حالة التسبب فى حدوث مشكلات تهدف إلى تنفيذ إصلاحات مؤسسية ضرورية.

١٥. فيما يتعلق بالتكاليف والفوائد الخاصة بتقسيم النفس بهذه الطريقة وباستخدام طرق أخرى، يمكنك الاطلاع على سينيت وكوب ١٩٧٢، ١٩٤-٨، سينيت ١٩٩٨، ٦٠-٣.

١٦. جميع هذه الخطط ماعدا المتعلقة بالإدارة الماهرة تبدو نفيسة إذا ما تم توظيفها فى مساندة الجهود الهادفة إلى نقل علاقة الإخضاع.

١٧. على سبيل المثال: "تعتبر الدراسات الشاذة مجالا للتخصصات المجمعة التي هدفها هو تحليل الهويات الجنسية غير المعيارية ومعاملات الأداء والمحادثات والمزاعم المتعلقة بالنظام وذلك لزعزعة انطباع الجنس والنوع المعيارى. وتنشأ الدراسات الشاذة من نقد سياسات الهوية. وترفض المفاهيم الأساسية للجنس والنوع والهوية الجنسية الفطرية أو المُحفزة. كما أنها تعرض تفكيك وتبديد مفاهيم السيطرة على أساس تصنيفات الجنس والنوع ضمن خطة لجمع مجتمعات الشواذ والسحاقيات. وفى الدراسات الشاذة يرتبط جانب التفسير والجانب القانونى وحل الهويات الجنسية مع فئات التصنيف على حسب الجنس. ويجعل التركيز الرئيسى على المرأة فى الدراسات الشاذة صريحا فيما يتعلق بالروابط بين النظريات قيد التفسير على أساس النوع والجنس. يمكنك الاطلاع على موقع الويب الخاص بسميث كولدج، نورثامبتون، إم إيه على موقع الويب على الإنترنت على العنوان التالي: ***http : //www. smith. edulust/queerstudies.html.***

١٨. يمكنك الاطلاع على هاسك ٢٠٠٥، بولى ١٩٤٥.

١٩. كما وضح السيد روديارد كيبلنج: "بمجرد أن تعطى له ضريبة دان جيلد فلن تكون أعلى من الدان". وانتهت قصيدته بالأبيات: "وحتى نهاية اللعبة يبدو ظاهرا الخجل والظلم والأمة التى تلعب تضل!". والقصيدة التى ليس لها تسمية (غير المعنونة) كانت أولى القصائد المنشورة. مدرسة فليتشر وتاريخ انجلترا (١٩١١)، فى الفصل الخاص بالأنجلو ساكسونيين. يمكنك الاطلاع كذلك على موقع الويب

http://www.theotherpages.org/poems/kipli05.html (٢٥ مايو ٢٠٠٥) و ***uww.hipling.org.uk***(١٨ فبراير ٢٠٠٦). وعبارة "دفع ضريبة دان جيلد "تعنى تحقيق امتيازات للقوة المهددة لكى يتم بها الصفقة مؤقتا. وهى تنطوى على إذلال قوى وميل كبير نحو الاستسلام.

٢٠. يمكنك الاطلاع على إلكتر ١٩٦٨.

٢١. طبقا لهوبلز: "فإن ذلك لا يعنى تحقيق النصر الذى يعطى الحق فى السيطرة على المغلوبين على أمرهم ولكن هذا اتفاق خاص به. ولا يهم إن كان مجبرا لأنه أصبح منتصرا، أو كما تقول هزم وأسر أو تمت تهيئته للهروب ولكن ذلك بسبب أنه قد قبل ورضى بالخضوع

للمنتصر، ولا لأن البطل المنتصر تم إجباره من خلال استسلام أحد أعدائه له دون طلب وعد بالعيش وذلك مقابل أن يعفو عنه ويصفح عنه لخضوعه لحرية التصرف؛ الأمر الذى أجبر المنتصر لا يفكر طويلا بطريقته فيما يتعلق بالإخضاع لحرية التصرف بل إنه سيفكر فى الوضع المناسب".(هوبيز ١٩٩٦، ١٤١).

٢٢. جدير بالذكر أن كلمة العبودية اشتقت من الكلمة الإنجليزية القديمة ***Thrael*** والتى تعنى العبد أو ذلك الشخص الذى يخضع للعبودية.

٢٣. والأهداف من وراء الجمعية العالمية فيما يتعلق بالدراسات حول الضحايا هي: "تعزيز البحث حول الضحايا ومساعدة الضحية، الدفاع عن مصالحهم حول العالم، التشجيع على إجراء دراسات حول الفوائد وعقد دراسات مقارنة حول مفهوم الضحية، الحث على تطوير تعاون الأفراد والجماعات والوكالات المحلية والإقليمية والدولية التى تهتم بمشكلات الضحايا. يمكنك الاطلاع على موقع الويب الخاص بها من خلال العنوان التالي: ***www.worldsocietyofvectimology.org***

٢٤. يمكنك الاطلاع على كتابات ويمر ١٩٩٨.

٢٥. طبقا لما حدده كالميرز جوناثون: فإن حالة أوكيناوا وتجريد أفضل جزيرة من حيث القيمة من ملكيتها وتأهيلها للقواعد وجعلها فى حالة خارجة عن التشريع الوطنى لصالح الجيوش الأمريكية التى ارتكبت الجرائم ضد المدنيين المحليين والمواخير والجماهير حول المداخل الرئيسية للقواعد وارتكبت حوادث لا متناهية وعملت الكثير من الضوضاء وارتكبت العديد من حالات العنف الجنسى وتسببت فى الحوادث الناجمة عن القيادة تحت تأثير الشراب وتناول المخدرات والعمل على تلوث البيئة -- وقد تكررت هذه الحوادث فى كل مكان توجد فيه مواقع عسكرية أمريكية (جوناثون ٢٠٠٤، ٨). يمكنك الاطلاع أيضًا على جوناثون ٢٠٠٠، ٣٤-٦٤.

٢٦. الجنرال ماك أرثر الذى قاد القوة الغازية التى احتلت اليابان فى عام ١٩٤٥، الذى اشتهر عنه أنه صرح بوجهة النظر التى تفيد بأن عقلية اليابانيين هى عقلية طفل فى الثانية عشرة من عمره (كاواساكى ١٩٦٩، ٩). وفى أكتوبر من عام ١٩٤٥ تم إخبار الرئيس ترومان من خلال المندوب الخاص به بأن من وجهة نظر ماك آرثر فإن الأشخاص الشرقيين يعانون من

عقدة النقص التى أدت بهم إلى ممارسة الأعمال الوحشية الطفولية عندما انتصروا فى الحرب والتبعية الخانعة الخاضعة عندما انهزموا (دوير ١٩٩٩، ٢٢٣).

٢٧. يمكنك الاطلاع على سبيل المثال على دوير ١٩٩٩، ٣٠٢، ٣٠٢-٨، ويتزيلر ١٩٩٨؛ لاموت ١٩٤٤، ماريو ياما ١٩٦٣.

٢٨. تعود المراجع إلى رواية ثورستان ٢٠٠٤، حول الغزو عن طريق الإنترنت على العنوان التالى ***https://goliath.ecnext. com/free-scripts/document-view-v3.pI?item-id=O 1 9 9 -1 8 4 1 9 dv f*** (١٢ أبريل ٢٠٠٥، مع العلم بأن الترقيم يختلف عن المقالة نفسها وهى مطبوعة بالبدائل المطبوعة).

٢٩. على سبيل المثال التأثير الأمريكى على التقنيات الصناعية اليابانية ، يمكنك الاطلاع على ديمنج ١٩٨٦، جوران ٢٠٠٤، لاندسبيرج ١٩٩٩.

٣٠. يسلم عزرا فوجل بأن ما دعوته بخطة الانفصال للتعامل مع عمليات الإذعان عواقب الإجبارية فى مواجهة الإخضاع كانت قائمة هى الأخرى: "حتى وقت قريب كان يمكن لليابان أن تفترض أن ما قالوه لبعضهم البعض وكتبوه فى الصحافة الخاصة بهم لن تتم ملاحظته من جانب الأمريكيي،ن وفى جلساتهم البينية كانوا يتحدثون عن قلة عقل الأمريكيين ومظاهرهم وجهلهم ونقصهم ودونيتهم وهم يظنون أن ذلك لن تتم ملاحظته" (فوجل ١٩٩١، ٨).

٣١. انتقد إيشى هارا بشدة كتابا كتبه إكيرو كاواساكى، الدبلوماسى اليابانى، الذى كان بعنوان "اليابان بدون أقنعة" والذى عبر فيه عن الخجل حيال عدد من المظاهر والسمات فى المجتمع اليابانى والثقافة اليابانية. يمكنك الاطلاع على كاواساكى ١٩٦٩، إيشيهارا ١٩٩١، ٣١.

٣٢. إيشيهارا ١٩٩١، ٧٢-٨، ٨٠، ١٤٣-٥.

٣٣. يمكنك الاطلاع على سبيل المثال على إيشيهارا ١٩٩١، ٢٧-٩، ٤٣، ٤٧، ٥٩، ٦٠-١، ٧٦، ٨٠، ١٤٢-٤، ١٤٦. كما يمكنك الاطلاع كذلك على محمد وإيشيهارا ١٩٩٥.

٣٤. سكوت وايتنى بمجموعة كتب سالون، ١٩ أبريل ١٩٩٩. وتوجد بعض من الاقتباسات الخاصة به على الموقع ***www.salon.com/books.review/1999/04/L9/friedman*** (١٦ أبريل ٢٠٠٥).

٣٥. مصطلح "الماشية قصيرة القرون" هو مصطلح يشير إلى تجار التجارة قصيرة الأمد، مثل السندات والعملات. فى حين يشير مصطلح "الماشية طويلة القرون" إلى التجار الدوليين المشتركين فى مشروعات استثمارية خارجية (فريد مان ٢٠٠٠، ١١٤-١٥).

٣٦. تمت كتابة كتاب فريد مان قبل فضيحة إنرون والتحقيق الإجرامى الذى تبع الفضيحة.

٣٧. يمكنك الاطلاع بشكل خاص على فريد مان ٢٠٠٠، ٧-١٦، ٤٦-٦٧، ١٠٤-١١، ١١٢-١٧، ١٥١-٥، ١٦٩-٧٤، ١٨٧-٩٠، ٢٠٥-٦، ٢١٢-١٣، ٢٥٠، ٢٧١، ٢٨١-٣، ٣٠١-٥، ٣٤٢-٣، ٣٥٥-٨، ٣٦٧-٧٨، ٤٣٧-٤٠، ٤٤٤-٥، ٤٥١-٧، ٤٦٣-٨.

٣٨. للتعرف على مزيد من المعلومات حول الأسود والغزلان، يمكنك الاطلاع على فريد مان ٢٠٠٠، ٣٣١. كما يمكنك الاطلاع على فريد مان ٢٠٠٣.

٣٩. تمت كتابة كتاب مجرد قصص للأطفال (وهو معنون بعنوان حبيبى الأفضل). وهو يتضمن على سبيل المثال كيف حصل الحوت على حلقه، وكيف حصل الجمل على سنامه وكيف حصل وحيد القرن على جلده وكيف حصل النمر على النقط الموجودة على جلده. (كيبلنج ١٩٩٤ب)

٤٠. يمكنك الاطلاع على بومان ١٩٩٨، على سبيل المثال ٦٤-٥، ٩٢-٧، ١٠٦-١٨.

٤١. يعتبر إدوارد لوت واك، أحد الأشخاص المتميزين بمركز الخطط والدراسات الدولية بواشنطن. حيث يصف نفسه بأنه ابن أحد الرأسماليين الصناعيين المبدعين وأحد المقاولين (باعتقاده الخاص) ممن يعتقدون بشكل كبير فى فضيلة الرأسمالية وفى الحاجة إلى فرض بعض إجراءات التحكم على أعمالها، (لوت واك ١٩٩،١١).

٤٢. لوت واك ١٩٩٩، ٢

٤٣. المرجع نفسه ، ٣، ٢١٨.

٤٤. طبقا لمجلة الإيكونومست عدد ١٦ ديسمبر لعام ٢٠٠٠، وفيه أم الأمريكيين لديهم عدد من المحامين يبلغ ٢٨١ عن كل ١٠,٠٠٠ أمريكى بالمقارنة مع بريطانيا بنسبة ٩٤ و٣٣ فى فرنسا و٧ باليابان.

٤٥. لوت واك ١٩٩٩، ١٢-٢٥.

٤٦. والتحدى الآن كما يقول هاردت ونيجرى هو تحويل ذلك إلى قوة سياسية بالعالم الذى تحكمه العولمة. وأحد أهم نقاط الصراع التى يتطور عندها الوعى السياسى العالمى هى الهجرة: "والحق العام فى التحكم فى الحركة الأساسية يتمثل فى طلب الجماهير العامة للمواطنة العالمية" (هاردت ونيجرى ٢٠٠٠، ٤٠٠؛ إيطاليا القديمة فى الأصل). كما يجب أيضًا تدارك جانب الإبداعية الثابتة للجماهير واعتماد الإمبراطوريات عليها من خلال الأجر الاجتماعى والدخل المضمون للجميع" (٤٠٣: إيطاليا فى الأصل). وسوف تنتشر عملية "تعبئة العامة" حسب (هاردت ونيجرى ٢٠٠٥، ٢١١) بل سوف تصبح أكثر انتشارا كلما اشترك العديد والعديد من الأشخاص بالصراع فى مواقع عالمية مختلفة والتى تتعلم أن تتفهم وتستغل "نموذج الشبكة الجديدة للجماهير" (٢١٧). أما بالنسبة للطلبات الأخرى والآمال والتوقعات، يمكنك الاطلاع على هاردت ونيجرى ٢٠٠٠، ٤٠٣-١٣، هاردت ونيجرى ٢٠٠٥. وبالنسبة لعمليات النقد والتطوير، يمكنك الاطلاع على بال أكريس مان ٢٠٠٣، نيجرى ٢٠٠٣، باسافانت ودين ٢٠٠٤، فيرنو ٢٠٠٤.

٤٧. اكتشف الصعوبات التى تواجه تطبيق الرأسمالية والديمقراطية معا من خلال تجربة الديمقراطية والرأسمالية (سميث ١٩٩٠).

الفصل العاشر
الرفض

١. تعتبر الخطوتان مهددتين من جهة المنظور ("هل سوف تحدث") وإذا ما تم ذلك أو حدث ("هل يمكننا أن نقاومه").

٢. يمكن العثور على خطاب نيلسون مانديلا، الذى ألقاه فى التجمع الذى خطب فيه فى سويتو فى تاريخ ١٣ فبراير ١٩٩٠ على الموقع الإلكترونى
http://www.anc.org. zalancdocs/history/mandela/1990/sp900213.html
(٢٦ أبريل ٢٠٠٥).

٣. سعيد أبو الريش وهو يروى أنه كان مديرا لأحد المؤسسات الدولية للنمو وهى مؤسسة استشارية ورئيس مقرالها، أبو الريش وجيمس وشركاؤهما. من خلال هذه الصفة قدم مساعدة لقائد العراق مقدما له حلقة وصل مع المزودين الأجانب الذين أرادوا تطوير العراق وجعله مجتمعا صناعيا مدنيا وتزويده ببرنامج تسليح قوى (أبو الريش ٢٠٠٠، ١٠٧).

٤. استخدم أبو الريش عبارة "سياسات الانتقام" كعنوان لكتابه الذى كتبه عن صدام (٢٠٠٠).

٥. أبو الريش ٢٠٠٠، ١٢٢، وهو يروى الحكاية ١٩٨٩، ٣١٦.

٦. استمر تعليق لير: "لكن كيف يمكننا أن نفهم شخصا يتم حثه على إخضاع مشاعره؟ والواضح، أن الإرهابى يعتقد ويؤمن بإخلاص أنه يكره طريقة إخضاعه وأن عليه أن يفعل أى شيء ويقوم بأى شيء للتغلب على ذلك الإخضاع. وقد يبدو غاضبا جدا ومهتاجا كذلك إلى جانب أنه يقع تحت طائلة الإخضاع وسوف يساير ويتماشى مع أى اقتراح يتصل فعليا بشعور الإخضاع الطويل الذى استمر لفترة طويلة مختفيا. حيث إن الإخضاع هذا من الأشياء الشعورية التى لا يريدها ويفر منها ومن ثم فإنه يقوم بأى شيء لتعزيز الشعور المقابل ضد شعوره الشخصى فى سبيل تحقيق أفضل المصالح له ولحالته. لذا فإنه من غير المعقول أن يواجه هذا الشعور. وهذا تحديدا ما رآه فرويد وتحدث عنه: بأن الجنس

البشرى عموما يميل إلى أشكال محددة من البواعث غير العقلانية التى لا يعرفها يقينا أو لا يعرفها مطلقا" (لير ٢٠٠٥، ٤؛ الإيطالية فى الأصل).

٧. من الواضح أن السيدة أغسطس اتش مونسيه كانت تسكن فى لوفورد هول، واحد من منازل إيسكس الرئيسية بالبلاد، فى عام ١٨٩٨. انظر الموقع **http//www.essexpub.net/directories/seats.htm** (٢٥ أبريل ٢٠٠٥)

٨. وصل سائيجو إلى طوكيو الشهر السابق. ومع ذلك فإن البيان لن يأتى من خلاله أبدا وأنه اعتقد بشكل عام أن يضمن البيان وجهة نظره (مونسيه ١٨٧٩، ٤١).

٩. مونسيه ١٨٧٩، ١٠١-٣).

١٠. المرجع نفسه، ٨٨.

١١. ما يتعلق بأعضاء عشيرة ساتسوما بالبحرية اليابانية، انظر مونسيه ١٨٧٩، ١١٩.

١٢. عند موت سائيجو، انظر مونسيه، انظر مونسيه ١٨٧٩، ٢١٤-١٥. كان الأمر بطوليا كما فى الفيلم تماما. لاحظ مونسيه أن الحكومة اليابانية تغاضت عن موت تسعة وثلاثين من الثوار وسجن حوالى ثلاثة آلاف تقريبا وإعدام عشرين فقط (٢٢٦-٧).

١٣. فى موضوع متعلق بالدالتس فى الهند، انظر جورينج ٢٠٠٥؛ ميندلسون وفيكزيانى ١٩٩٨.

١٤. انظر سجل ماهاتاما غاندى الرسمى على الموقع **http//www.mahatama.org.in/books/showbook.jsp?id=48Q-link=bg0029Qlang=enQcat=books** (٢٦ أبريل ٢٠٠٥).

١٥. على نحو ساخر، وفى هذا الشأن كان غاندى يتبع خطوات عندما تصل إلى أقصاها سوف تؤدى إلى انتحار القاتل والذى من الصعب عليه أن يقاوم ويرجع ذلك إلى أنه لا يخاف الموت.

١٦. ما لم يتم تحديد خلاف ذلك، فإن الأقواس والاقتباسات الموجودة هنا مأخوذة من طبعة أعيدت طباعتها حول موضوع كُتب من جانب غاندى فى جريدة هاريجان، بعدد ٢٢ أكتوبر ١٩٣٨.

١٧. للتعرف على مزيد من التفاصيل، يمكنك الرجوع إلى موقع الويب الخاص بشيف وهو **http//www.soc.ucsb.edu/faculty/scheffi** (٤ أبريل ٢٠٠٥).

١٨. شيف ١٩٩٤، ٦١، يمكنك الرجوع كذلك إلى ٦١-٣.

١٩. للتعرف على موضوعات ذات صلة بالفروند، يمكنك الرجوع إلى رانوم ١٩٩٤.

٢٠. جاسيرت ١٩٩٧، ٩٢، ٩٥، ١٠٠، ٢٦٤، ***296ff***، كما جاء فى شيفل بوش ٢٠٠٣، ٢٨٤. يمكنك الرجوع كذلك إلى برنز وزايتل مان ١٩٩١.

٢١. للتعرف على القضية ربما عليك أن تتعرف على النظرة المقابلة والرسالة العكسية، أحد الآمال والتسويات، يمكنك الرجوع إلى بلو من فيلد ٢٠٠٣.

٢٢. يمكنك الرجوع إلى شو ٢٠٠٣، ١٤٧-٥١، ١٥٧-٨.

٢٣. طبقا لما أضافه السيد هونتجتون "أفريقيا من المحتمل" (هونتجتون ١٩٩٧، ٤٧).

٢٤. يمكنك الرجوع على سبيل المثال إلى هونتجتون ١٩٩٧، ٤٠-٤١، ٣٢١.

٢٥. المرجع نفسه ، ١٧٦-٩.

٢٦. فى الغزو الصينى عام ،١٩٧٩ لفيتنام والانسحاب بعد حوالى ثلاثة أسابيع.

٢٧. على سبيل المثال، المنظمات الدولية متعددة الحضارات مثل ***ASEAN*** يمكن أن تواجه صعوبة متزايدة فى التمتع بتماسكها (هونتجتون ١٩٩٧، ١٢٨).

٢٨. يمكنك الرجوع كذلك إلى هونتجتون ٢٠٠٤(خاصة ٢٢١-٥٦).

٢٩. للاطلاع على وجهة نظر أكبر وتتسم بالاتساع لتشمل السياق الاجتماعى والسياسى، يمكنك الرجوع من بين المراجع الأخرى إلى هارف ١٩٧٦، كولينى ١٩٩١.

الفصل الحادى عشر
الديمقراطية الراشدة أم الدولة المستبدة

١. يمكنك الرجوع على سبيل المثال إلى بيرمان ١٩٨٢، ٤٧؛ إليس ١٩٩٤، الفصل الأول.
٢. تعددت الضحايا لتشمل العديد من الجمهور الأرميني التركى.
٣. يمكنك الرجوع إلى ستومبكا ٢٠٠٠.
٤. للاطلاع على نصوص قريبة من ذات المعنى فيما يتعلق بالتعامل مع الصراعات، يمكنك الرجوع إلى جولتنج ٢٠٠٤، أورى ١٩٩٩.
٥. فيما يتعلق بالقولبة، يمكنك الرجوع إلى بيركينج ٢٠٠١.
٦. يمكنك الرجوع كذلك إلى هوتون ٢٠٠٣، ٦١-١٠٦.
٧. يمكنك الرجوع كذلك إلى كوب شان ٢٠٠٢، ١١٩-٥٩.
٨. حول ما يتعلق باشتراك الأمريكيين فى هذا الأمر فى مراحل مبكرة من دمج الأوروبيين، يمكنك الرجوع إلى لوندستادت ١٩٩٨، سميث ١٩٩٩ب.
٩. طبقا لهوتون، "فإن هذه التقديرات ومع انهيار الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٩١، كحدث بالغ الأهمية فى التاريخ الحربي (هوتون ٢٠٠٣، ٢٣٥).
١٠. يمكنك الاطلاع على سميث ورايت ١٩٩٩***a***، سميث ورايت ***1999b***، سميث ***1999b***.
١١. من الخطبة التى قيلت فى قصر إليسى، ٤ نوفمبر ١٩٩٩. يمكنك الاطلاع على موقع الويب ***www.delegfrance-cd-geneve.org/chapter1/chirac041L99.htm*** (٣٠ مايو ٢٠٠٥).
١٢. "خطبة رئيس الوزراء إلى السوق البولندية لتبادل الأوراق" ٦ أكتوبر ٢٠٠٠. يمكنك الاطلاع على موقع الويب
www.number-10.gov.uk/news.asp?Newsld=13416Section1d=32. مقتبس كوبشان ٢٠٠٢، ١٥١.

١٣. للاطلاع على معلومات أخرى خلفية ذات قيمة، يمكنك الاطلاع على أكست مان ١٩٩٨.

١٤. فيما يتعلق بإسبانيا، يمكنك الاطلاع على جواريجو ١٩٩٩. فيما يتعلق ببولندا، يمكنك الاطلاع على المحاضرة التى ألقاها وزير الخارجية البولندى فولد تسيمرز كيموس زيفج والتى قيلت بالسفارة البولندية بلندن فى تاريخ ٢٤ يوليو ٢٠٠٢، من خلال موقع الويب ***http:/www.poland-embassy.sileng/Politics/londynang.htm*** (٢٢ أكتوبر ٢٠٠٥).

١٥. هذه الإحصائيات وردت من خدمة البحث الاقتصادية الاجتماعية التابعة للولايات المتحدة الأمريكية. يمكنك الاطلاع على

ttp://www.ers.usda.gov/Briefing/EuropeanUnion/basicinfo.htm

١٦. يمكنك الاطلاع على سبيل المثال على كونولى ١٩٩٥، سيدينتوب ٢٠٠١، وسميث ورايت ١٩٩٩***a***.

١٧. الرفض الفرنسى للدستور الأوروبى الجديد فى مايو ٢٠٠٥، يتفق مع وجهة نظر إيربك هوبس باومو التى عبر عنها قبل خمس سنوات: "اليوم من وجهة نظرى فإن تحركات فرنسا لوحدة الاتحاد الأوروبى أمر قد مضى. حيث أن لها مصلحة أقل فى هذه العملية والآن فقد قل وضعف وضعها كقوة مركزية بشكل واضح: (هوبس باوم ٢٠٠٠، ٩٣).

١٨. وبالطبع توجد معارضة رئيسية ضد الحرب داخل الولايات المتحدة الأمريكية. حيث قد ظهر هذا واضحا من جانب بعض الأمريكيين غير الأصليين. وعلى النقيض فإن المعارضين الأوروبيين يبدون غير أمريكيين.

١٩. هذا يعنى عتاب فرنسا وألمانيا على أنهما أوروبا القديمة من جانب دونالد رامسفيلد خلال مؤتمر صحفى بتاريخ ٢٢ يناير ٢٠٠٣. يمكنك الاطلاع كذلك على موقع الويب ***http://news.bbc.co.uk/2/hi/europe/2687403.stm*** (٢٦ مايو ٢٠٠٥).

٢٠. يمكنك الاطلاع على سميث ***2003a***؛ سميث ***2003b***.

٢١. يمكنك الاطلاع على الاستقصاء الخاص بمنظمة التعاون الاقتصادى والتنمية المعروفة اختصارا بـــ (***OECD***) عن الصين خلال عام ٢٠٠٥ وتلخيص له من خلال موقع الويب

http://www.oecd.org/document/7/0,2340,en_2649-201185_35343687_1_1_1_1,00.htm|

٢٢. للتعرف على الأمر برمته الخاص بتحليل والر ستين، يمكنك الاطلاع على والر ستين ١٩٧٤، والر ستين ١٩٨٠، والر ستين ١٩٨٩، والر ستين ١٩٩٧.

٢٣. طبقا لتقسيم السكان بالولايات المتحدة الأمريكية، فإن المنطقة المدنية هى مستوطنة يقطن بها بعض السكان لا يقل عددهم بحال من الأحوال عن ألفى شخص. يمكنك الاطلاع على موقع الويب ***http//:www.unhabitat.orglbd/hdu7n2/*** (٢٢ أكتوبر ٢٠٠٥).

٢٤. الموطن حسب الأمم المتحدة ٢٠٠٣، ***xxxi-xxxii***.

٢٥. المرجع نفسه ٣٩.

٢٦. يمكنك الاطلاع على سبيل المثال على فلورا وهيدن هيمر ١٩٩٠، مان ١٩٨٧.

٢٧. يمكنك الاطلاع على ريس ومورى ٢٠٠٥.

٢٨. للتعرف على وجهات نظر أخرى، يمكنك الاطلاع على عزيز ١٩٩٧، دى سوتو ٢٠٠٠.

٢٩. يمكنك الاطلاع على سبيل المثال على ماكا لير ١٩٩٤، إليس ١٩٩٦.

٣٠. جدير بالذكر أن المقاطع المذكورة هنا هى من خطب تحدث بها هتلر فى تاريخ ١٣ أبريل ١٩٢٣ و٢٧ يناير ١٩٣٢ و١ أبريل ١٩٣٩. يمكنك الاطلاع على موقع الويب ***http://www.hitler.org/speechesl***.

٣١. يمكنك الاطلاع على موقع الويب

http://www.whitehouse.gov/news/releases/2005/10/20051006-2.htm (٦ أكتوبر ٢٠٠٥).

٣٢. يمكنك الاطلاع للتعرف على بعض الأدلة على مستند مجلس الجمعية البرلمانية الأوروبى رقم ٨٦٠٧، "التهديد الحاصل للديمقراطية من الأطراف المتطرفة والحركات فى أوروبا"، يناير ٢٠٠٠ على موقع الويب

http://assembly.coe.int/Documents/WorkingDocs/doc00/Edoc8607.htm

(٣٠ مايو ٢٠٠٥). ولن أتقدم لأعطى قائمة طويلة من الدعوات الاستشهادية بالمناطق الأخرى من العالم. حيث يمكن العثور عليها بسهولة إلاّ أن مصطلح "الفاشية" مثل مصطلح "الإخضاع"

يجب التعامل معه ببعض من الحيطة خاصة عند استخدامه فيما يتعلق بأحوال الآخرين للتعرف على مزيد من القراءات الجيدة عن هذا الوضع، يمكنك الاطلاع على رايت ٢٠٠١.

٣٣. سينجر ٢٠٠٤، ١٩٩.

٣٤. للتعرف على الحركات في هذا الاتجاه، يمكنك الاطلاع على هانسون ٢٠٠١، بوبيت ٢٠٠٢، كابلان ٢٠٠٣.

٣٥. كاجان ٢٠٠٣.

٣٦. كيرني ١٩٨٧.

المؤلف فى سطور:

دينيس سميث:

أستاذ علم الاجتماع بجامعة لوبوروز. ولد فى ٣ فبراير ١٩٥٩، بمدينة سانتا مونيكا، كاليفورنيا، وهو لا عب كرة قدم شهير. له ما يقرب من ١٤ كتابًا، وآخر ما صدر له كتاب "سان فرانسيسكو تحترق – زلزال وحريق ١٩٠٦"

من أشهر مؤلفاته :

- "تقرير من جراوند زيرو" فبراير ٢٠٠٣
- "رجال الإطفاء : أرواحهم على أيديهم" – مارس ٢٠٠٢
- "الكريستال" – يوليو ٢٠٠١
- "تصميم البرامج" يونيو ١٩٩٩
- "نداء من قاطرة ٨٢" – أبريل ١٩٩٩
- "الحريق الأخير"
- "البريق واضمحلاله"
- "اسكتلندا" – أبريل ١٩٩٨
- "القوى الداخلية" – يناير ١٩٩٦
- "لماذا تتبنى الافتراض" – مارس ١٩٩٠
- "لماذا تفكر" كتاب لحل المشكلات – ١٩٩٠

المترجم فى سطور

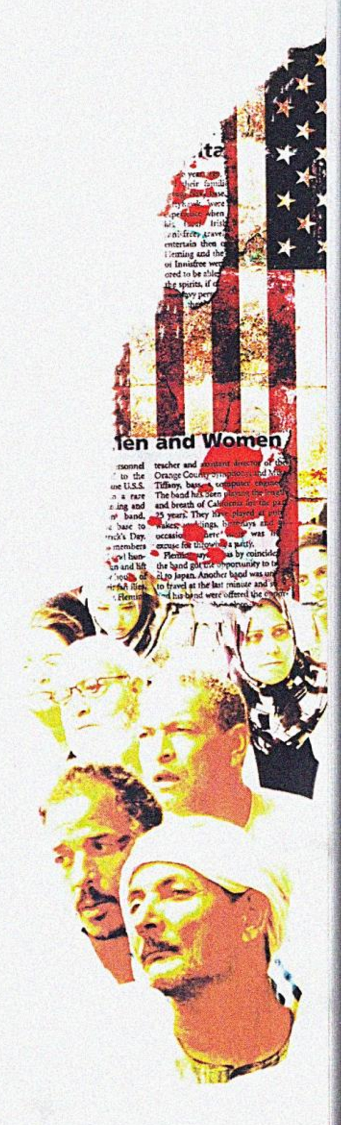
على أمين على

- مترجم مصرى حر.
- تخرج فى قسم اللغة الإنجليزية ، كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.
- أسهم فى ترجمة العديد من الكتب من الإنجليزية وإليها (الإتيكيت فى الإسلام، للدكتورة ماجدة عامر، وكتاب فتاوى من أجل فلسطين للدكتور يوسف القرضاوى، وكتاب الزكاة الصادر عن مؤسسة الفلاح للترجمة والنشر)

التصحيح اللغوى : **سماح حامد**

الإشراف الفنى : **حسن كامل**





على مدار العقود القليلة المقبلة، سيُماط اللثام عن (الأجندة الخفية للعولمة) لتتكشّف عما هي عليه الآن، وعندما تصبح أسئلتها المحورية ظاهرة لكل شخص، فإننا قد نجدها عندئذ مجابة برياح لا تشتهيها السفن. وعلى ذلك، إذا أردنا اقتناص الفرصة لنضمن لمصالحنا الاحترام لا التجاهل، لا بد من التعاطي مع تلك المصالح بميزان العقل البنّاء وبروح ناقدة. ولا بد كذلك من الاعتراف بوجود الأجندة الخفية للعولمة، علاوة على اكتساب فهم أرحب لمفهوم العولمة وطبيعة عملياتها.

يعرض هذا الكتاب "منحنى ثلاثيًا" للعمليات التاريخية التي تشكل الأجندة الخفية للعولمة التي إن استمرت على دربها الحالي لحُقّ لنا أن نتوقع عواقب وخيمة مدمرة إبان انتصاف هذا القرن.

تصميم الغلاف: حسين جميل